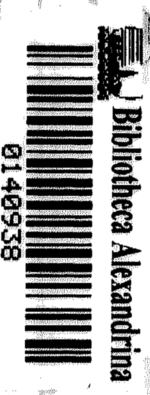
المجتمع الأندلسي في العصر الأموي

«١٣٨ـ٤٢٢ هـ / ٧٥٥ـ١٠٣٠م»

تأليف
الدكتور
حسين يوسف دويدار
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المساعد
جامعة الأزهر



المجتمع الأندلسي في العصر الأموي

(١٣٨ - ٤٢٢هـ / ٧٥٥-١٠٣٠م)

تأليف
الدكتور
حسين يوسف دويدار
استاذ مساعد بقسم التاريخ والحضارة
كلية اللغة العربية — جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م

مطبعة الحسين الإسلامية
٢٥ حارة المدرسة — خلف الجامع الأزهر
تليفون ٥١٠٦٧٢٤

المقـــدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصــلاة والسلام على المبعوث رحمــة للعالمين ، سيدنا ومولانا محمــد صلوات الله وسلامه عليــه ، وعلى آله وصــحبه اجمعين . وبعــد ...

فلا زالت الأندلس (الفردوس المفقود) ــ رغم كثرة ما كتب عنهــا في نواحي شتى ــ تحتاج إلى المزيد من البحوث والدراسات التى تعالج مختلف مظاهر الحيــاة فيها .

وربما كان من أشــد ما تفتقر إليه المكتبة العربية عن الأندلس تلك الدراسـات الشمولية التى تنظر إلى هــذه البــلاد وحضارتها فى العصر الإســلامى ككل متماسك ، ولا تكتفى بمجرد السرد الوصفى على نحـــو ما تفعــــل معظم كتب التــاريخ ، وبخاصـــة فى النــواحى السياسية والحربية وإنمــا تحاول تحليل تلك الحضارة على ضــوء نظريات فلسفة التاريخ أو نظريات الثقافــة أو البناء الاجتماعى .

وإذا كانت الحضارة الإسلامية فى المشرق والمغرب لا تزال فى حاجة إلى مثل هــذه الدراســات ، فإن الحاجــة أشــد بالنسبة للأندلس باعتبارها حــالة فريدة فى تاريخ الإســلام تمثل قيــام حضـــارة متميزة هى مزيج من ثقــافة الإســلام والثقــافة الأســبانية الأوربية ازدهرت ازدهارا هــائلا بحيث تركت بصماتها على كل التاريخ الإســـلامى بل والعالمى ايضــا ، ثم اخــذت فى الضــعف والتدهــور والتراجع نتيجة لمــا حل بالمسلمين فى الأندلس . وإن تركت ورائها الكثير من الآثار التى لا يزال بعضها باقيا فى المجتمع الأسبانى حتى الوقت الحاضر .

ولم تكن حضارة الأندلس حضارة بسيطة التركيب ، وإنمــا كانت

تتألف من عناصر متعددة ومتباينة أشد التباين فى أصولها البشرية والثقافية ، وكان ذلك مظهرا من مظاهر قوة تلك الحضارة وثرائها ، وعاملا من أهم عوامل تلك القوة وذلك الثراء . غير أنه فى نفس الوقت كان يحمل بذور الضعف وأسباب التدهور والانقسام . وربما كان تعدد العناصر البشرية فى المجتمع الأندلسى هو العامل الأكثر أهمية فى ذلك التنوع الحضارى والثقافى ، والركيزة الأساسية التى قام عليها فى الوقت ذاته .

ويتمثل هذا التنوع العرقى فى وجود الكثير من العناصر كالعنصر العربى والبربرى والإسبانى والصقلبى واليهودى إلى غير ذلك من أجناس .

والتاريخ الأندلسى له طبيعة خاصة ، فمعظمه حروب ونزاعات قامت بين العناصر البشرية التى سكنت الأندلس سواء بين المسلمين وبعضهم ، أو بين المسلمين والمسيحيين الأسبان الأمر الذى جعل الأسبان يلخصون تاريخهم الوسيط فى أنه تاريخ (حركة الاسترداد) La Recon Quista . وهو ما يعبر عنه فى بعض الأحيان (بمعركة القرون الثمانية) La Batalla de Ocho هذه الطبيعة السياسية والحربية لتاريخ الأندلس جعلت المصادر — حتى فى حال توافرها — تغفل الجوانب الاجتماعية أو تشير إليها إشارات مقتضبة من بعيد .

ولا شك أن دراسة التاريخ اليوم أصبحت تعنى بالحضارة والتطور الاجتماعى والاقتصادى والفكرى فى المقام الأول . ولا شك أن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية تعتبر مؤشرا لحضارة اى مجتمع من المجتمعات ، ومن هنا كانت دراستها أمرا مهما لأنها فى النهاية تعبر عن حضارة هذا المجتمع ومدى تقدمه وازدهاره . ومن هنا فقد وقع اختيارى على دراسة المجتمع الأندلسى فى العصر الأموى من الناحية الاجتماعية بصفة خاصة حيث اهتم الكثيرون بدراسة هذا العصر من النواحى

السياسية والحربية بينما كان الاهتمام قليلا بدراسة هذا العصر من الناحية الاجتماعية بصفة خاصة والتى هى نتـاج ما يسمى بالحضارة . لأن هـذا العصر قد شهد تأسيس الحضارة الإسلامية فى الأندلس وازدهارها ومن هنا كانت أهمية الموضوع .

ودراسة التاريخ ليست مجرد سرد للأحـداث السياسية ، أو تصوير للمعارك الحربية أو ذكر لسير الملوك والخلفاء والسلاطين فقط . وإنمـا اصبحت ذات نظرة فلسفية شمولية عـامة يمكن الحكم بهـا على الدول والعصور ومدى تحضرها وتقـدمها .

وهـذا الموضوع الذى نحن بصـدده — وهـو المجتمع الأندلسى فى العصر الأموى — موضوع متشعب الجوانب متصل الحلقات يأخـذ بعضه ببعض لأن دراسـة الحياة الاجتماعية فيه هى النتاج النهائى لجميع انواع الحيـاة فيه أو بعبارة أخرى نتاج ما يسمى بالحضارة .

ولذا فإن هـذه الدراسة لا تتعرض لكل التفصيلات الجزئية الدقيقة ولكنها توضح لنـا ملامح عامة لصورة هـذا المجتمع من هـذه النواحى التى اغفلها كثير من المؤرخين ولم يهتموا بهـا كثيرا ولم يوردوا عنها إلا نتفا وشذرات كان لابد من البحث والتنقيب عنها كثيرا حتى يظفر الإنسان منها بشىء . وهـذا خلافا لدارسى الحياة السياسية والحربية وسير المـلوك والسلاطين حيث يجـدون مادة خصـبة ثرية .

ولست ادعى أننى قد جمعت فأوعيت ، وأننى قد ألمت بكل دقيقـة من دقائق الموضوع ، لأنه كما قلت متشعب الجوانب . ولكننى حاولت قدر جهـدى وطاقتى أن أبلوره فى صورة يمكن أن تحظى بالقبول .

وقـد قسمته إلى فصـول ستة : تحـدثت فى الفصـل الأول عن عناصر السكان فى المجتمع الأندلسى وأهم مميزاتهم ، وتحـدثت فى الفصل

الثانى عن العلاقات بين هـذه العناصر بصفة عامة ، وخاصة بين العرب والبربر والإسبان ، وفى الفصل الثالث تحدثت عن حالة المجتمع الأندلسى من الناحية الدينية لما لها من تاثير كبير على الحياة الاجتماعية.

وأما الفصل الرابع فقد تحدثت فيه عن مظاهر الحياة الاجتماعية من ميدان وعمائر ، وطعام وشراب ، وملابس وأزياء ، وزينة وحفلات ، والعاب وغير ذلك .

وأما الفصل الخامس فقد تحدثت فيه عن الحالة الاقتصادية واثرها على الحياة الاجتماعية .

وفى الفصل السادس والأخير تحدثت عن حالة المجتمع من الناحية العلمية والثقافية .

وقد حاولت قدر جهدى وطاقتى فى هذا الموضوع المتشعب الطويل ، والله وحده يعلم كم عانيت فيه من جهد ومشقة ، وإذا كان فى عملى شىء من النقص أو القصور ، فإننى التمس سعة الصدر والتوجيه فيما عسى أن يكون مثارا للنقد أو الاعتراض . والله اسأل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير والسداد والهدى والرشاد ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

مدينة نصر/ينساير سنة ١٩٩٤ م .

د. حسين يوسف دويدار

الفصل الأول

عناصر السكان فى الأندلس



عناصر السكان فى الأندلس(١)

كان المجتمع الأندلسى يتكون من عناصر شتى تنوعت أصولها البشرية وعقائدها وثقافاتها ، فقد كان فيه أهل البلاد الأصليون ، وفيه الوافدون من عرب وبربر وموالى ، وفيه الموالى المنسوبون إلى أقطار شرقية مختلفة ، وفيه المماليك المجلوبون من بلدان عديدة .

أما أهل البلاد فهم الذين أطلق عليهم (عجم الأندلس) وكانوا فى أكثريتهم من الأسبان الذين دخلوا فى الإسلام فسموا بالمسالمة ، ومن الذين بقوا على ديانتهم من الأسبان والرومان والقوط ، واليهود وغيرهم وأصبحوا أهل ذمة .

وأما الوافدون فكان منهم العرب الآتون من المشرق ، كما كان منهم البربر الذين قدموا من شمال أفريقية . وكان أوائلهم يمثلون الجيش الفاتح للبلاد بقيادة طارق بن زياد . ولم يلبث هؤلاء الفاتحون الجدد أن اختلطوا بأهل البلاد وتزوجوا منهم ، وكان من ثمار هذا الاختلاط ظهور عنصر جديد هو عنصر المولدين .

---

(١) الأندلس : لم تعرف هذه البلاد بهذا الاسم إلا بعد فتح المسلمين لها ، وهذا اللفظ الذى أطلق على الأقاليم التى خضعت لسلطان المسلمين فى شبه جزيرة أيبيريا لا يقتصر مدلوله على المعنى الجغرافى ، بل يشمل مختلف العناصر التى استظلت بظل المسلمين سواء أسلمت أم لم تسلم . ويعبر ياقوت الحموى عن هذه التسمية فيقول « هى كلمة أعجمية لم تستعملها العرب فى القديم وإنما عرفتها فى الإسلام » .

=

. . . .

(معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٦٣ دار صادر بيروت)، وباستثناء الإشارات العارضة والقليلة التى وردت فى كتب الرحالة والمؤرخين والجغرافيين الأندلسيين ، فإن المصادر العربية القديمة لا تعرف كذلك كلمة (إسبانيا) . والمصادر العربية عدا القليل منها تقول بلاد الأندلس .

وقد كان المستشرق الهولندى (دوزى ت سنة ١٨٨٣ م) أول من بحث هذه المسالة ، ثم جاء المستشرق (سيبولد) فتوسع فيها ، وسار على رأى دوزى فى أن كلمة اندلس اخذت من لفظ (فاندليسيا Wandalacia) أو فنداليشيا . الذى كان يطلق على إقليم باطقة الذى احتلته قبائل الوندال الجرمانية (أو الفاندال) ما يقرب من عشرين عاما منذ سنة ٤٠٩ م . وكان نصارى الأسبان يطلقون على هذا الاقليم اسم إشبانية أو شبانيه باسم رجل يقال له إشبان بن طيطس أو اشبانس (د. الطاهر مكى : دراسات اندلسية ص ١٣) أو نسبة إلى مدينة إشبيلية التى كانت تعرف فى العصر الرومانى باسم (إشباليس : Hispalis) .

وكان العرب يطلقون اول الأمر هذا الاسم على هذا الاقليم الجنوبى بالذات ، ثم عمموه على شبه الجزيرة كلها . وعندما بدأ سلطان المسلمين فى التقلص أصبح هذا الاسم يطلق على الأراضى الباقية فى أيديهم حتى اقتصر على آخر مملكة لهم بالاندلس وهى غرناطة (انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة أندلس ج ٣ ص ٣٥ ، دائرة معارف الشعب : كتاب الشعب رقم ٦١ ص ٣) .

. . . .

وهــذا التدرج فى التسمية تؤيده رواية الحميرى عن البكرى التى يقــول فيها « إن اسم شــبه الجزيرة فى القــديم كان إباريه (أيبيريا) ، ثم سميت بعــد ذلك باطقــة ثم سميت إشبانيا باسم رجــل ملكها فى القــديم ، أو الإشــبان الذين ملكوها فى الأول من الزمان ، ثم أطلق عليها الأندلس أخــذا من اسم الأندليش الذين سكنوها » يقصــد بهم قبائل الوندال .

(الروض المعطار ص ٣٢ ، البكرى : المسالك والممالك ص ٥٨) .

وعلى هــذا فإن لفظ الأندلس معرب من الونــدال Vandalus (الفاندال أو الفاندالوس) وهى القبائل الجرمانية التى غزت شــبه الجزيرة فى القرن الخامس الميلادى . فلمــا جاء المسلمون بعــد الفتح عربوا هــذا الاسم من (وندلس) بعــد همز الصوت الأول إلى أندلس : (انظر : د. أحمد هيــكل : الأدب الأندلسى ص ٤ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٢٩) .

وقــد ذكر بعض المؤرخين المسلمين عــدة تعليــلات لهــذه التسمية تبعد عن التحقيق التاريخى ، وتقرب من الروايات السماعية شبه الأسطورية . فقــد ذكر المقرى عن ابن سعيد المغربى : أن هــذه البلاد سميت باسم الأندلس بن طــوبال بن يافث بن نوح عليه السلام لأنه أول من نزلها .

وذكر ابن الأثير : أنها سميت باسم أندلس بن يافث بن نوح لأنه أول من سكنها وعمرها .

كما ذكر ابن عــذارى وابن الأثير أيضا : أن أول من ســكن

. . . .

=

هـذه البـلاد قوم يعرفون باسم الأندلش بالشين المعجمة فسمى البلد بهم ثم عرب بعـد ذلك بسين مهملة . والمعروف أن هـؤلاء لم يكونوا أول من سـكن هـذه البـلاد ، بل سبقتهم أجناس أخرى كالفنيقيين واليونان والرومان . وشـبيه بهـذه التعليلات ما ذكره البعض فى إطلاق لفظ إسبانيا على هـذه البلاد :

هل هو نسبة إلى إشبان بن طيطش الذى كان اسمه اصبهان ثم تحـول فى لسان العجم إلى إشبان ، وانه تقابل مـع الخضر عليه السـلام ، وبشره الخضر بالملك العظيم والاستيلاء على بيت المقـدس فى عبـارات مسجوعة كسجع الكهان اوردها المقـرى فى (نفح الطيب جـ ١ ص ١٣٤) ومنها « يا إشبان إنك لذو شأن ، وسـوف يحظيك زمان ، ويعليك سلطان ... الخ » .

او نسبة إلى رجـل صلب فى هـذه البلاد يسمى إشبانس إلى غير ذلك (انظر : نفح الطيب جـ ١ ص ١٣٠ وبعـدها ، الكامل جـ ٤ ص ٥٥٦ وبعـدها ، البيان المغرب جـ ٢ ص ١ — ٢) .

والراى الراجح أن هذه التسمية قد أطلقها الفينقيون — عندما عزوا هذه البلاد في القرن العاشر قبل الميلاد — على الشاطئ الذى نزلـوا عليه Ischepan- im اى شاطىء الأرانب حيث وجدوا أسرابا كثيرة منهـا عليـه . ثم حـرف هـذا الاسم بعـد ذلك إلى Hespania او اسـبانيا . (انظـر : د. أحمـد هيـكل : الأدب الأندلسى ص ٥ ، د. عبد العزيز عتيق : الأدب العربى فى الأندلس

=

وأما المماليك فكان يؤتى بهم من أماكن شتى فى أوربا وخاصة من المناطق السلافية . وكان تجار الرقيق من الجرمان واليهود وغيرهم يسبونهم صغارا ، ثم يبيعونهم فى أسواق إسبانيا ، وقد عرف هؤلاء باسم الصقالبة . ثم غلب هذا الاسم على كل الرقيق الأبيض حتى ولو لم يكن سلافيا .

وكان من الطبيعى أن تتصل هذه العناصر بعضها ببعض وتتلاقى — سواء بالمصاهرة أو العشرة أو الجوار أو التعامل — وأن يأخذ بعضها من بعض مما كان له أثره فى إثراء الحضارة الأندلسية وازدهارها .

والحق أنه رغم تعدد العناصر السكانية فى الأندلس ، ورغم الاختلاف فيما بينها فى نواحى شتى ، إلا أن الروابط القوية وبخاصة روابط الإسلام والعروبة كانت تشد أغلبها فى كثير من الأحيان ، وتطبعها بالطابع الأندلسى المميز حتى من لم يدخل منهم فيه . فقد كانت هناك

=

ص ٩) . هذا وقد ظل اسم الأندلس الذى أطلقه المسلمون على شبه جزيرة إيبيريا (إبارية) مدة طويلة ولم ينته بخروجهم منها ، وإن أخذ مدلوله يتناقص تبعا للوضع السياسى للمسلمين حتى صار فى آخر الأمر يطلق على مملكة غرناطة ، وأصبح فى اللغة الإسبانية أندلثيا أو أندلوسيا Andalucia) ويطلق الآن على ثمانية أقاليم فى جنوب إسبانيا : وهى المرية ، وغرناطة ، وجيان ، وقرطبة ، ومالقة ، وقادش ، وولبة ، وإشبيلية . انظر : د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٢٩ ، د. أحمد هيكل الأدب الأندلسى ص ٤ ، الخزرجى : بين الإسلام والمسيحية ص ٧ — ٨ تحقيق د. محمد شامة) .

دائمـــا البيئة المشتركة ، والثقافة المشتركة ، وكانت هناك غالبا الحكومة الواحـــدة ، والسياسة الموحدة ، ثم كانت هنـــاك الحضارة التى صبغت هـــذه العناصر على اختلافها بصبغتها الواضحة .

وكان لكل من هـــذه العناصر اثره فى تلك الحضارة التى لم ينطفىء شعاعها بزوال ســـلطان المسلمين ، بل ظلت متقـــدة فى نفوس صانعيها والمتأثرين بها قرونا عـــديدة ، وما زالت بعض شواهدها وآثارها باقيـــة فى إســـبانيا حتى اليـــوم .

فالحضارة الإسلامية فى الأندلس هى نتاج ذلك التفاعل والتبادل بين كل هـــذه العناصر البشرية التى عاشـــت على أرضها وانصهرت غـالبـــا فى بوتقتها حتى أصبح لهـــا شخصية مميزة شملت مختلف العنـــاصر هى الشـــخصية الأندلسية(٢) .

***

---

(٢) انظر د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٢٢ .
د. لطفى عبد البديع : الإســـلام فى أسبانيا ص ١٧ .
د. مصـــــطفى الشـــكعة : الأدب الأندلســـى ص ٢٢ ـــ ٢٣ ،
د. العبادى : الإسلام فى أرض الأندلس ، مجلة المختـــار من عـــالم الفكر ص ٩٤ سنة ١٩٨٤ م .

اولا : العنصر العربي

مثل العنصر العربي اهم سكان الأندلس ، وابرز عناصر المجتمع ، حيث كان العنصر القائد والمسيطر على هذه البلاد منذ البداية ، وكانت طليعة هذا العنصر قد جاءت مع موسى بن نصير سنة ٩٣هـ واستقرت بعد الفتح ، وسموا بالبلديين ، وبلغ عددهم ثمانية عشر الفا جلهم من العرب والموالي وعرفاء البربر كما تقول بعض الروايات(١) .

وقد سبقت هذه الطليعة أعداد قليلة كانت في الجيش الفاتح بقيادة طارق بن زياد(٢) . يقول صاحب أخبار مجموعة « فدعا موسى مولى له كان على مقدمته يقال له طارق بن زياد فبعثه في سبعة آلاف من المسلمين جلهم

---

(١) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٠ . وليس كما ذكر د. السيد عبد العزيز سالم بأن الثمانية عشر الفا كانوا من العرب . (انظر مجلة عالم الفكر ص ١٢٩ عدد ٣ سنة ١٩٨٤) .

(٢) وقيل طارق ابن عمرو (انظر جذوة المقتبس ص ٢٤٨ ، بغية الملتمس ص ٣٢٨) . وقد اختلف في أصله : فذهب البعض إلى انه بربري من قبيلة نفزة (نفزاوة) ، وقيل من زناتة (المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٢) ، وذهب البعض الآخر إلى أنه كان مولى لموسى بن نصير من أصل فارسي من همذان . وقيل انه ليس لموسى وإنما هو لرجل من صدف ، وقيل مولى لهم .

وذكر ابن عذاري نسبه هكذا : « طارق بن زياد بن عبد الله ابن رفهو بن ورفجوم بن نيرغاس بن ولهاص بن يطوفت بن نفزاو » (البيان المغرب جـ ٢ ص ٦) ، وقيل إنه من سبي البربر . والراجح انه بربري من نفزة . (انظر أخبار مجموعة ص ٦ ، نزهة المشتاق ص ١٧٩) .

من البربر والموالى ليس فيهم عرب إلا قليل »(٣) ، ثم طالعـة الحـر ابن عبد الرحمن الثقفى (فى ذى الحجة ٩٧هـ) حيث قدم واليـا على الأندلس ومعه « أربعمائة رجـل من إفريقيـة فمنهم أول طوالع الأندلس المعدودين » .

ثم تعاقبت أفـواج العرب بعـد ذلك ، ومن أشهرها الفـوج الذى قدم إلى الأندلس مـع بلج بن بشـير القشيرى سـنة ١٢٤هـ ، والذى اطلق عليه (طالعـة بلج) ، وأصبح هؤلاء يلقبـون بالشاميين تمييزا لهم عن الطلائع الأولى التى كانت فى الفتـح وبعـده مباشرة واستقرت وسميت (بالبلديين) . وكانت هـذه الطالعة تبلغ نحو عشرة آلاف منهـا ثمانية آلاف من العرب والفان من الموالى(٤) .

كما وفد عدد من العرب الشاميين مع أبى الخطار اليمنى سنة ١٢٥هـ الذى ولى الأندلس لفض النزاع الذى دار بين البلدين والشاميين ، وإقرار الأمن والنظام بالأندلس ، وسمى هؤلاء (بالطالعة الثانية)(٥) .

كما قـدمت موجة جـديدة من القبائل العربية من الأمويين وانصارهم خلال فترة تأسيس الإمارة الأموية بالأندلس بقيادة عبد الرحمن الداخـل

=

(انظر عنـان : دولة الإسلام فى الأندلس هامش ٢ ص ٣٩) .
د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسـلام جـ ١ ص ٣١٢ ، د. أحمـد الشعراوى : دراسات فى تاريخ أسبانيا ص ٤٩ — ٥٠) .

(٣) مؤلف مجهول : أخبـار مجموعة فى فتح الأندلس ص ٦ ، وانظر كذلك الروض المعطـار ص ٩ ، نفـح الطيب ص ٢٣١ ، البيـان المغرب جـ ٢ ص ٦ .

(٤) أخبار مجموعة ص ٢٣ ، ٤٤ — ٤٦ ، ابن القوطية : تاريخ افتتـاح الأندلس ص ١٥ .

(٥) يذكر ابن القوطيـة انهم كانوا ثلاثين رجـلا ولكننا نعتقد ان تبعهم كثيرون حيث سموا بالطالعة الثـانية (تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٩) .

(صقر قريش) نظرا لاضطهاد العباسيين للأمويين وأنصارهم بالمشرق ، وترحيب عبد الرحمن بهم ، فضلا عما سمعوه من خصب هـذه البـلاد وغناها . وتتابع اندفاع القبائل العربية من قيس وكلب واليمن إلى الأندلس للاستقرار بها والإقامة فيها ، وقـد كان هناك عـدد كبير من التابعـين فى هؤلاء الداخلين إلى الأندلس فضلا عن أحـد الصحابة أشارت إليـه بعض المصـادر وهو المنـذر الأسـلمى الذى دخـل الأندلس مع موسى ابن نصير وكان قبل ذلك قـد نزل إفريقية ، وذكر أنه حـدث عن رسول الله ﷺ بحديث ذكره ابن الأثير والمقرى وهـو « من قال إذا أصبح رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا فأنا الزعيم لآخـذن بيده حتى أدخـله الجنـة »(٦) .

وقـد ذكر القيروانى : ان عمـر بن عبـد العـزيز أرسل عشرة من التابعين يفقهون أهـل إفريقية(٧) وان ثلاثة منهم دخلوا الأندلس مـع موسى بن نصير وهم : ابو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافرى الأنصارى، وحبان بن أبى جبلة القرشى ، وأبو ثمامة بكر بن سوادة الجذامى .

كما ذكر المقرى وغيره(٨) اسماء آخرين من التابعـين الذين دخلوا الاندلس مـع موسى بن نصـير او بعـده ومنهم : ابو راشـد حنش ابن عبد الله الصنعانى ، وحيـوة بن رجاء التميمى وزيد بن قاصـد السكسكى ، وعبد الجبار بن ابى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقى — قائد المسلمين فى بلاط الشهداء — ،

---

(٦) ابن الأثير : أسد الغابة جـ ٢ ص ٤١٧ ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٩ .
(٧) طبقات علمـاء إفريقية وتونس ص ٨٤ .
(٨) انظر : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٨ ، ص ٢٨٨ ، جـ ٣ ، ص ٦ ، ٧ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ . وقـد وضـع ابن بشكوال كتابا لا يعرف لـه وجود حتى الآن عن التابعين الذين دخلوا الأندلس اشار إليه المقرى وهـو بعنوان (التنبيه والتعيين لمن دخـل الأندلس من التابعـين (نفـح الطيب جـ ٣ ص ١٠ ، ٦٠) .

والمغيرة بن أبى بردة الكنانى ، وعلى بن رباح بن نصير اللخمى ، وعياض ابن عقبة بن نافع الفهرى ، ومحمد بن أوس أبن ثابت الأنصارى ، ومنصور بن حزامة ، وعبد الله بن المغيرة بن أبى بردة الكنانى .

وقد اورد المقرى انساب العرب ومنازلهم بالأندلس نقلا عن ابن غالب وابن حزم فذكر انه « لما استقرت قدم الإسلام بالأندلس ، وتتام فتحها صرف أهل الشام وغيرهم من العرب هممهم إلى الحلول بها، فنزل بها من جرائيم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم .

فأما العدنانيون فمنهم خندف ومنهم قريش ، وأما بنو هاشم من قريش فمنهم جماعة كلهم من ولد إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين ابن على بن أبى طالب ، ومن هؤلاء بنو حمود ملوك الأندلس بعد انتثار ملك بنى امية ، وأما بنو امية فمنهم خلفاء الأندلس ، وكانوا يعرفون ايضا بالقرشيين ، وأما بنو زهرة فمنهم بإشبيلية أعيان متميزون .

وفى الأندلس من ينسب إلى جمح وبنى بنى عبد الدار ، وكثير من قريش المعروفون بالفهريين من بنى محارب بن فهر وهم من قريش الظواهر، ومنهم عبد الملك بن قطن سلطان الأندلس ، ومن ولده بنو القاسم الأمراء الفضلاء ، وبنو الجد الأعيان العلماء ، ومن بنى محارب بن فهر يوسف بن عبد الرحمن الفهرى سلطان الأندلس الذى غلبه عليها عبد الرحمن الأموى الداخل وجد يوسف عقبة بن نافع الفهرى صاحب الفتوح بإفريقية ، ولهم فى الأندلس عدد وثروة .

وأما المنتسبون إلى عموم كنانة فكثير وجلهم فى طليطلة وأعمالها ، وإليهم ينسب الوقشيون الكنانيون الأعيان الفضلاء الذين منهم القاضى ابو الوليد والوزير ابو جعفر ، ومنهم ابو الحسين بن جبير العالم صاحب الرحلة . وأما هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر فمنزلهم بجهة اريولة من كورة تدمير ، وأما تميم بن مرة بن أدبن طابخة بن إلياس بن مضر فخلق

كثير ، وهؤلاء خندف من العدنانية . وأما قيس عيلان بن إلياس بن مضر من العدنانية ففى الأندلس كثير منهم ينتسبون إلى العموم ، ومن قيس من ينتسب إلى هوازن بن منصور بن عكرمة وهم باشبيلية كثير ، ومنهم من ينتسب إلى بكر بن هوازن ، ولهم منزل بجوفى بلنسية على ثلاثة اميال منها ، وبإشبيلية وغيرها منهم كثير ، ومنهم من ينتسب إلى سعد ابن بكر بن هوازن ومنهم كثير بغرناطة .

ومن ثقيف بالأندلس جماعة وإليهم ينتسب الحر بن عبد الرحمن الثقفى والى الأندلس .

وأما ربيعة بن نزار فمنهم من ينتسب إلى أسد بن ربيعة بن نزار ، وإقليم هؤلاء مشهور باسمهم بجوفى مدينة وادى آش ، ومنهم من ينتسب إلى محارب بن عمرو ومنهم بنو عطية أعيان غرناطة ، ومنهم من ينتسب إلى النمر بن قاسط كبنى عبد البر الذين منهم الحافظ أبو عمر ابن عبد البر ، ومنهم من ينتسب إلى تغلب بن وائل كبنى حمديس أعيان قرطبة ، ومنهم من ينتسب إلى بكر بن وائل كالبكريين .

وأما أياد بن نزار فينتسب إليهم بنو زهرة المشهورون بإشبيلية وغيرهم .

وكان القحطانية وهم المعروفون باليمانية الأكثر بالأندلس ، والملك فيهم ارسخ إلا ما كان من خلفاء بنى أمية فإن القرشية قدمتهم على الفرقتين . وكثيرا ما كان يقع بينهم وبين المضرية وسائر العدنانية الحروب بالأندلس كما كان يقع بالمشرق »(٩) .

---

(٩) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٣٦ وبعدها . المطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٢هـ .

ومن القبائل الشهيرة التى نزلت بعض بيوتها بالاندلس قبيلة الخزرج التى يتصـل بها نسب بني نصر (بنى الاحمر) ملوك غرناطة آخر ممالك المسلمين فى الأندلس .

ويذكر المقرى نقلا عن الرازى : انه دخـل الأندلس من ذرية سـعد ابن عباده الخزرجى الصحابى الجليل سيد الخزرج رجلان احـدهما نزل أرض تاكرونا (تاكرنا) ، والآخر نزل قرية من قرى سقرسطونة عرفت بقرية الخزرج(١٠) .

وقد ذكـر ابن حزم : أنه كان لسعد بن عبادة رضى الله عنه ولدان قيس وسعيد وقال : « ولسعيد هذا عقب بالأندلس بقريته ويقال لهـا قريلان من عمل سرقسطة من قبل الحسن بن سعيد بن سعد بن عبادة ، وبشـذونة بنو عرمرم بن جميل بن عصـام بن قتـادة بن وتاد بن قيس ابن سعد بن عبادة »(١١) .

وقد ظل العرب بالأندلس يحفظون انسابهم ويفتخرون بهـا وبالصلة التى تربطهم بالقبائل العربية حتى بعد اختلاطهم بغيـرهم من العنـاصر الأخرى فى الأندلس وشـكلوا نـواة الإرستقراطيـة والبرجـوازية فى المـدن(١٢) .

---

(١٠) ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة جـ ٢ ص ٦٠ ط ١ الحلبى سنة ١٣١٩ هـ .

(١١) جمهرة انساب العرب ص ٣٤٦ طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٨م

(١٢) ليمى بروفنسـال : الحضـارة العربية فى اسـبانيا ص ١٨ ترجمـة د. الطاهر مكى ط ١ دار المعارف سنة ١٩٧٩ م .

وكانوا يتميزون بالعشائر والأفخاذ والقبائل إلى أن قطع ذلك المنصور ابن أبى عامر ، وقصد بذلك تشتيتهم ، وقطع التحامهم ، وتعصبهم فى الاعتزاء ، وقدم القواد على الأجناد ، وجعل فى جند القائد الواحد عدة فرق من كل قبيلة وذلك للقضاء على العصبية العربية ليسهل عليه السيطرة على مقاليد الأمور فى الأندلس . وكان لذلك اثره الواضح فى انحسار مادة الفتن والثورات الداخلية كثيرا عن ذى قبل ، وفى إضعاف نفوذ العنصر العربى(١٣) .

* * *

---

(١٣) د. لطفى عبد السميع : الإسلام فى اسبانيا ص ٢٠ .

ثانيــا : العنصر البربرى

البربر هم ســكان شمال إفريقية أو ما يعرف ببــلاد المغرب التى تمتــد من حــدود مصر الغربية حتى ساحل المحيط الأطلسى . وقد قسم الجغرافيون العرب هذه البلاد إلى ثلاثة أقسام بعد الفتح الإسلامى لهــا بحسب القرب أو البعــد عن مقر الخلافة فى المشرق وهى :

المغرب الأدنى (إفريقية) وقاعدته القيروان ، والمغرب الأوسط وقاعدته تلمسان . والمغرب الأقصى وقاعــدته فاس(١) . وكان العرب يستعملون لفظ إفريقية ليشمل المغرب الأدنى والأوسط(٢) .

---

(١) أنظر ابن خلدون المقــدمة ص ٥٩ ـــ ٦٠ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ١ ص ٢٩١ .

(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ١ ص ٢٩٤ هامش ٢ .

وقد اختلف المؤرخون والكتاب فى تسمية البربر بهــذا الاسم . فقد ذكر ابن خلدون أن أحــد ملوك التبابعة فى اليمن ويدعى إفريقش بن قيس ابن صيفى غزا بلاد المغرب فبنى بهــا المدن والأمصار فسميت باسمه ، وأنه سمع السكان يتكلمون بلغــة غير مفهومة فقال : ما بربرتكم فســموا بالبربر (العبر حـ٦ ص ١٠٦) . وذكر الفيروز بادى : أن البربــرة هى كثرة الكلام والجلبة والصياح والفعل بربر (ترتيب القاموس المحيـــط ص ٤٤٠) . وذكر البعض انهم ينسبون إلى مهاجر عربى من حمير يسمى (بر بن قيس) وانه عندما هاجر إلى بلاد المغرب لم يفهم لغة أهلها فسماها بربرة وسماهم البربر (انظر د. حسين مؤنس : معــالم تاريخ المغــرب والأندلس ص ٢٣) . وسار بعض الكتاب المعاصرين على ذلك فقال : إن

. . . .

=

كلمة بربر أطلقها العرب فى عهدهم على الأمة التى تسكن الساحل الإفريقى لأنهم يتكلمون بلغة غير مفهومة ، والعرب يطلقون هذه الكلمة على الأصوات المتجمعة غير المفهومة لهم .

(انظر تاريخ الفتح العربى لليبيا ص ٦) . وعلى هذا فإن تسمية البربر بهذا الإسم لا علاقة له بلون البشرة أو الجنس وإنما باللغة فلما كانت لغة هؤلاء السكان غير عربية غدت فى نظر العرب غير مفهومة ، فأطلقوا عليها بربرة ، كما أطلقوا كلمة عجمة أو أعجمية على لغة الأعاجم . بينما ذهب آخرون إلى أن هذا اللفظ إفريقى كان اليونان يطلقونه على كل من لايتكلم الإغريقية فكانوا يسمونهم (بارباروى)

ثم جاء الرومان فأطلقوا هذا الإسم على سكان شمال إفريقية (المغرب) Barbari ، بربارى) بمعنى غير متحضر لأنهم كانوا يعتبرونهم غرباء على حضارتهم ، وعربه المسلمون إلى بربر أو برابر ، كما أطلق الرومان على سكان إقليم موريطانية إسم مور Maures وما لبث هذا الإسم أن عمم على سائر البربر ، أو أن هذا الإسم مشتق من سكان بربرة على ساحل البحر الأحمر الذين كانوا أصل سكان إفريقية . (أنظر : د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٨ د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية جـ ٢ ص ٤٩ هامش ٢٧ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس العصر الأول ص ١٣ هامش ٢) .

وقد استعمل الفرنجة هذه الكلمة وقصدوا بها معنى آخر أشار

ويحاول بعض المؤرخين والكتاب العرب إرجاع نسب البربر إلى اصول عربية، فيذكر الفيروزبادى : ان البربر عرب اصلا وهم من ولد قيس عيلان ، أو بطنان من حمير وهما صنهاجة وكتامة ساروا إلى المغرب أيام فتح إفريقش بن قيس بن صيفى لها(٣) .

ويؤكد ابن خلدون ذلك فيروى عن البكرى : انه كان لمضر ولدان هما قيس ودهمان ، وأن البربر ينتسبون إلى قيس بن عيلان بن مضر ولذلك يفتخر احد شعراء البربر بقوله :

أيها السائل عنا أصلنا ... قيس عيلان بنو العز الأول
إن قيسا قيس عيلان هم ... معدن الحق على الخير دال

ولذا يرى بعض علماء النسب من العرب : ان لواته من حمير ، وهوارة من كندة ، وزناته من التبابعة أو العمالقة ، وان زواوة ومكلاته من حمير أيضا(٥) .

كما يرى بعض المستشرقين هذا الرأى فيقول : إن عددا من سكان

إليه الأب لويس معلوف بقوله « وفى المجاز البربرى هو المتوحش والهمجى » (المنجد فى اللغة والأعلام ص ٣١) .

والحقيقة أن البربر لا يسمون أنفسهم بهذه التسمية ويرونها تعبيرا مستهجنا وإنما يسمون أنفسهم بأسماء قبائلهم وشعوبهم كالمصامدة والزواوة وصنهاجة وكتامة . (انظر د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى حـ٤ ص ١٢٦) .

(٣) ترتيب القاموس المحيط جـ ١ ص ٢٣٨ ، ص ٢٧٩ .

(٤) العبر جـ ٦ ص ٦٥ .

(٥) الطاهر الزاوى : تاريخ الفتح العربى لليبيا ص ٧ .

شبه الجزيرة العربية قد هاجروا إلى شمال إفريقية عن طريق الساحل الغربى من الجزيرة ، وانه سلك هذا الطريق نحو إفريقية مهاجرون ساميون حوالى سنة ٣٥٠٠ ق.م واستقروا هناك(٦) .

والحقيقة أن مسألة أصل البربر العربى هذه لا يمكن الجزم فيها برأى قاطع بهذه السهولة نظرا لتطاول القرون وتعاقب الأجيال وهجرات القبائل والشعوب من مكان إلى آخر تبعا لظروف البيئة والمناخ والحاجة والغزو والحروب وغير ذلك ، ونظرا لتشعب الآراء وتعددها فى هذه المسألة(٧) .

حيث يذكر البعض أن البرانس هم أصل البربر وانهم سكنوا هذه البلاد منذ القديم ، وانهم ينتمون إلى سكان حوض البحر المتوسط حيث يشبهون سكان جزر البحر المتوسط وسكان الأندلس من حيث بياض اللون وشقرة الشعور وزرقة العيون ، وأن البتر هم جدد نسبيا على بلاد المغرب قدموا فى الغالب من جنوب غرب القارة الإفريقية ، ونزلوا ببرقة أولا ، ثم انتشروا غربا ، وانهم جنس إفريقى أسمر البشرة اختلط بالسكان الأصليين من البرانس ، ومن اختلاط هذين العنصرين نشأ العنصر البربرى الذى استعرب بعد ذلك باختلاطه بالعرب بعد فتح بلاد المغرب(٨) .

---

(٦) فيليب حتى : تاريخ العرب جـ ١ ص ١٠ ، ١٤ .

(٧) يقول ابن حزم : قال قوم : إنهم من بقايا ولد حام بن نوح عليه السلام ، وادعت طوائف منهم إلى اليمن وإلى حمير ، وبعضهم إلى قيس عيلان . وهذا باطل لا شك فيه وما علم النسابون لقيس عيلان ابنا إسمه بر أصلا ، ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا فى تكاذيب مؤرخى اليمن) جمهرة انساب العرب ص ٤٩٥ .

(٨) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٣ ، ٢٤ .

كما يذهب البعض الآخر إلى انهم ينتمــون فى اصــلهم إلى الجنس الحامى وإن كانوا من نفس العنصر الليبى القديم الذى عرفه الفراعنة(٩).

ومهما يكن من اصل البربر فيبدو ان العرب قــد عرفوا الطــــريق إلى شمال إفريقية منذ زمن طويل حيث ذكر ابن خلدون : ان ملوك اليمن من التبابعة قــد غزوا شـــمال إفريقية عـــدة مرات فاســتكان لغلبهــم السكان ، ودانوا بدينهم وإن كان فى هذا شيىء من التجوز والتعميم .

ومن المتعارف عليـــه ان البربر ينقســـمون إلى قســـمين كبيرين او جنمين عظيمين هما البتر والبرانس ، وربما كانوا من اصل واحــد كمــا ذهب ابن خلـــدون(١٠) .

او انهما جدين يهذين الإسمين ، او نسبة لنوع الحياة واســـلوب المعيشـــة والطابع الحضارى لكل منهما . فالبرانس : هم الذين يعيشون فى السواحل والريف ولهم الحواضر ، والبتر : هم الذين يعيشون فى طور البداوة ويتخـــذون بيوتهم من الشعر ، وينتجعون المراعى بين الجبـــــال والوديان والصحارى(١١) .

---

(٩) د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ج ٢ ص ٤٩ هامش ٧

(١٠) العبر : ج ٦ ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ . حيث ذكر ان العرب لمــا دخلــوا بلاد المغرب ، بعد الفتح تأثروا بانقسامهم إلى قحطانيين وعدنانيين فقسموا قبائل البربر إلى قسمين كذلك قسم نسبوه إلى ماذغيس بن بـــر الملقب بالأبتر فسموا البتر ، وقسم نسبوه إلى برنس بن بـــر فسموا بالبرانس .

(١١) د. حسين مؤنس : المرجع السابق ص ٢٣ ، د. العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ص ٣٢ .

وقد فسر البعض هذين الإسمين بأنهما نسبة إلى الزى الذي يلبسونه فالبرانس هم الذين يلبسون البرنس — وهو الزى الذي لا يزال المغاربة يلبسونه إلى الآن — والبتر هم الذين لا يلبسونه .

والحقيقة أن هذا التفسير اللغوى لا يقوم على أساس متين فليس من الضرورى على كل برانسى أن يكون مرتديا للبرنس كما أنه ليس بلازم أن يكون البترى عاريا منه .

اما تقسيم البربر بحسب البداوة والحضارة فهو تقسيم لا يمكن الأخذ به ايضا على إطلاقه فقبيلة زناتة البترية الأصل كانت على حد قول ابن خلدون أكثر قبائل البربر حضارة وعمرانا ولذلك جعلها فرعا مستقلا عن سائر البربر ، كما أن البرانس المتحضرون كانوا قلة بالنسبة للبتر البدو الذين يشكلون السواد الأعظم من السكان(١٣) .

وعلى اى الأحوال فقد كان البربر فى معظمهم فى طور البداوة عند الفتح العربى لبلادهم يعيشون فى شعوب وقبائل اكثر من أن تحصى كما يقول ابن خلدون ، واغلبهم على الوثنية يؤمنون بالسحر والكهانة ، وقليل منهم دان باليهودية او المسيحية أو المجوسية(١٤) .

وذلك فإن العرب عندما دخلوا بلاد المغرب وجدوا صورا مشابهة لحياة فى شبه جزيرتهم من الناحية الاجتماعية والقبلية ، فاندمجوا مع البربر واختلطوا بهم — بالرغم من شدة المقاومة التى لقوها منهم بالتزاوج وتبادل منهم موقف الحاكم المنعزل عن المحكومين بل امتزجوا معهم بالتزاوج وتبادل العادات والتقاليد ، وكان للإسلام ولغة القرآن اثر كبير فى ذلك .

---

(١٢) د. العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ص ٣٢ .
(١٣) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين فى الأندلس ص ١٩ .
(١٤) العبر : ج ٦ ص ١٠٦ — ١٠٧ .

مما ساعد على انتشار العروبة بينهم . ولذا فإن ما يذكره بعض الكتاب الليبيين من أن القبائل العربية التى نزلت بشمال إفريقية قد تبربرت بطول الزمن فى زيها ولغتها وعاداتها لا يمكن قبوله(١٥) .

والمقبول أن البربر هم الذين تعربوا أو تعرب الكثيرون منهم بكثرة الهجرات العربية إلى بلادهم منذ القديم ، وطول اختلاطهم بالعرب وبخاصة بعد الفتح الإسلامى لبلادهم حيث أصبح الإسلام والعروبة هما الطابع العام السائد فيها ولا زال إلى الآن بالرغم من محاولات الاستعمار الفرنسى التى قام بها زمن الاحتلال لإثارة العصبية بين العرب والبربر والتفريق بينهم وإحياء اللغة البربرية .

وكما كان للعرب صفات وأخلاق اشتهروا بها فقد كان للبربر صفات وأخلاق اشتهروا بها كذلك — وتقترب من صفات العرب — وقد ذكر ابن خلدون هذه الصفات فى وصف لا يدع زيادة لمستزيد فقد وصفهم « بعز الجوار وحماية النزيل ، ورعى الأزمة والوسائل ، والوفاء بالقول والعهد ، والصبر على المكاره ، والثبات فى الشدائد ، وحسن الكلمة والإغضاء عن العيوب ، والتجافى عن الانتقام ، والرحمة بالمسكين ، وبر الكبير ، وتوقير أهل العلم ، وحمل الكل ، وتهيئة الكسب للمعدوم ، وقرى الضيف ، والإعانة على النوائب ، وعلو الهمة ، وإباء الضيم ، ومقارعة الخطوب ، وغلاب الملك وبيع النفوس من الله فى نصر دينه ، فلهم فى ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف ، لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعيه من الأمم ، وحسبك ما اكتسبوه من حميدها واتصفوا به من شريفها أن قادتهم إلى مراقى العز ، وأوفت بهم على ثنايا الملك ،

---

(١٥) الطاهر الزاوى : تاريخ الفتح العربى لليبيا ص ٧ .

حتى غلبت على الأيدى أيديهم ، ومضت فى الخلق بالقبض والبسط أحكامهم »(١٦) .

وقد اشتهر البربر إلى جانب هذه الصفات التى عددها ابن خلدون بأنهم أهل خيال واعتقاد بالسحر والكهانة والتنجيم . ولا ننسى مقاومتهم الشديدة للعرب الفاتحين تحت قيادة امراة تدعى الكاهنة ، ولا يزالون إلى الآن فى الأعم الأغلب يعتقدون فى قراءة الكف وفتح الكتاب وادعاء معرفة الغيب(١٧) .

كما ظهر منهم نسابة نظموا أنساب قبائلهم فى شجرات شبيهة بشجرات الأنساب العربية وإن كان لا يوثق فى هذه الشجرات كثيرا(١٨) .

هذا وقد كان البربر من أسبق العناصر البشرية التى دخلت إلى الأندلس فقد كان الجيش الفاتح لها بقيادة واحد منهم وهو طارق بن زياد(١٩) ، كما أن معظم هذا الجيش كان منهم حيث كانوا سبعة

---

(١٦) العبر : ص ج ٦ ص ١٠٤ . وذكر ابن عذارى أن سليمان ابن عبد الملك قال لموسى بن نصير فأخبرنى عن البربر قال « هم اشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة وصبرا وفروسية ، غير أنهم أغدر الناس لا وفاء لهم ولا عهد » وهذا يناقض ما ذكره ابن خلدون عنهم من الوفاء بالقول والعهد (البيان المغرب ج ٢ ص ٢١) وهذا دليل على اختلاف وجهات نظر المؤرخين والكتاب فى وصف الأقوام أو الأشخاص لأسباب عديدة .

(١٧) أحمد امين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦٨ — ٦٩ .

(١٨) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٥ .

(١٩) انظر عن نسبه : البيان المغرب ج ٢ ص ٦ ، نفح الطيب ج ١ ص ١٢٣ .

آلاف فى البداية ثم ما لبثوا أن زيدوا بعـد ذلك إلى اثنى عشر الفا(٢٠) . وقـد كان قرب بلادهم من الأندلس ممـا سهل من توالى هجراتهم إليها ، واستقرارهم فيها بعـد الفتح ، وكانوا ينزلون بصفة خاصة فى المناطـق الجنوبية والغربية من الأندلس نظرا لشبهها ببيئتهم فى المغرب .

وكانت منطقة روندة وإقليم تاكرنا بالذات منزلا لجماعات البربر التى استوطنته بعـد استقرار عملية الفتوح الأولى(٢٢) .

وقـد عـدد ابن حـزم فى الجمهرة بيـوتات البربر فى الأندلس تفصيلا ... وذكر منهم بنـو دليم الفقهاء من وزداجة ، وعوسجة بشنت برية من ملزوزة ، ومنهم بنو إلياس من مغيلة ، وبنو زوال من مغيلة أيضا ، وبنو وانسوس رهط الوزير سليمان بن وانسوس من مكناسـة ، وبنو الخروبى من زناتة وكذلك بنو عزون الأمراء بشنت برية من زناتة أيضا ، ومنهم الأمراء بالثغر وبنو هـذيل من مديونة ، وبنو عبدوس من سرته ، وبنو رزين بالسهلة وبنو ذو النون بوبدة ، وكان لهم ضلع فى الفتن التى افضت إلى سقوط الخـلافة الأموية ، واسـتأثر جمـاعة منهم بالأقـاليم الجنوبية من الأندلس على عهد ملوك الطوائف(٢١) .

---

(٢٠) اخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ٧ . وليس كما ذهب د. السيد سالم إلى أن الجيش كله كان من البربر (تاريخ المسلمين ص ١٢٢).

(٢١) د. أحمد الشعراوى : دراسـات فى تاريخ أسبانيا جـ ١ ص ١١٣ هامش ٢ دار النهضة العربية سـنة ١٩٧٣ م ، الأمويون أمراء الأندلس الاول ص ٣٠٦ .

(٢٢) انظر جمهرة أنساب العرب ص ٤٩٨ — ٥٠٣ سلسلة ذخائر العرب ٢ دار المعـارف بمصر ط ٤ تحقيق هارون .

ثالثا : المــوالى

جاء عدد كبير من الموالى إلى الأندلس مع جيش موسى بن نصير سنة ٩٧هـ وفى طالعة بلج بن بشر القشيرى سنة ١٢٤هـ وكانت هذه الطالعة أو هــذا الجيش يتألف من ثمانية آلاف من العرب وألفين من الموالى(١) .

وكان اغلب هؤلاء الموالى من أهل المغرب من البربر الذين دخلوا فى طاعة بنى أمية ومنهم بنو الخليع وبنو وانسوس ، أما الباقون فكانوا من أهل الشام والعراق وبلاد الفرس . وقد ازداد عدد الموالى فى الأندلس بهؤلاء الذين دخلوا فى هذه الطالعة حيث انضموا إلى من كان بالأندلس قبل ذلك من موالى بنى أمية وأصبحوا يؤلفون حزبا هاما وطائفة قوية تعرف بالأمويين(٢) نظرا لموالاتهم لبنى أمية .

وقد استطاع عبد الرحمن الداخل بفضل مناصرة هؤلاء الموالى تأسيس دولة لبنى أمية فى الأندلس بعد أن سقطت فى المشرق على يد العباسيين وأنصارهم .

ومنهم بنو بسيل وهم بيت من أكبر بيوتات الموالى الأمويين من أهل الشام . وكان أول من دخل الأندلس منهم عبد السلام بن بسيل الرومى وكان ابوه بسيل مولى لبنى أمية ويتضح من نسبه انه من أصل رومى .

وقد دخل عبد السلام الأندلس أيام عبد الرحمن الداخل مع ابنيه عبد الواحد ويحيى فاستعمله عبد الرحمن على إشبيلية وشذونة ومورور والجزيرة الخضراء وغيرها ، وولاه الوزارة ، كما تولى ابنه يحيى بعض الولايات كجيان فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، كما تولى اخوه

---

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٥ .

(٢) ورد هــذا الاسم عند خروج بلج من قرطبة لمقابلة جيوش عبد الرحمن.

الكتابة والخيل وغيرها ، كما كان يوسف بن بسيل واليا على طليطلة سنة ٢٣٤ هـ وأصبح من كبار رجال الدولة فى عهد الأمير محمد ابن عبد الرحمن ، وكان له دور فى تأييده للاستيلاء على مقاليد الحكم بعد والده ، وقد ولى شذونة فى عهده . وقد اشتهر من هذا البيت كثيرون تولوا مناصب كبرى فى الدولة . كما دخل فى عداد الموالى بالأندلس عدد كبير من الأسبان الذين دخلوا فى ولاء بنى أمية بعد الفتح أمثال : بنو قسى ، وبنو بارون ، وبنو غومس بن قارلة ، وبنو مرتين وأصبحوا موالى اصطناع لهم يلتمسون حمايتهم(٣) . ويذكر ابن حزم قطعة من نسب بنى قسى المولدين بالثغر فيقول : « كان قسى قومس(٤) الثغر فى أيام القوط ، فلما افتتح المسلمون الأندلس لحق بالشام ، وأسلم على يدى الوليد بن عبد الملك ، فكان ينتمى إلى ولائه ، ولذلك كان بنو قسى فى أول أمرهم إذا وقعت العصبية بين المضرية واليمانية يكونون فى جملة

=

ابن علقمة ، ومن معه من أعداء الشاميين ، وكان معه (عشرة آلاف من الأمويين والشاميين (تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٦) .

(٣) د. حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٤٠٣ ، ص ٤٠٤ ، ٤٠٧ . مولى الاصطناع : هو مولى الموالاة أو الحليف وهو من يمنحه الخليفة شرف الانتساب إليه ، ويستخدمه فى شئونه ويجرى عليه الأرزاق فيصير مولى له (انظر مقدمة ابن خلدون ص ٩٦) .

(٤) كلمة Comes كلمة لاتينية ، وهى فى الأصل تعنى مرافق الملك ونديمه ، ثم أصبحت تطلق فى أسبانيا زمن القوط على ولاة الكور ، ومنها اشتق اللفظ الإسبانى Corde والفرنسى Conte وتذكرها بعض المصادر العربية قمط بدلا من قومس . وتقابلها كوند Conde بالإسبانية الحديثة وكونت Cont بالانجليزية .

المضرية ، فولد قسى فرتون وابو ثور وابو سلامة ويونس ويحيى » ثم أخذ يعـدد بعـد ذلك ذرية كل واحـد منهم(٥) .

وقـد لعب الموالى دورا هاما فى تاريخ الأندلس حيث اعتمد عليهم بنـو أمية كثيرا وقلدوهم أهم المناصب فى دولتهم لتفانيهم فى الإخلاص لهـا ، فكان منهم الوزراء والكتاب والقـواد والقضاة . وقـد نجـح الموالى فى كورة البيرة فى تأسيس دويلة لهم بزعامة عبد الوهاب بن جريج زمن الفتنة الأولى أو عصر الاضمحلال الأول ، أو دويلات الطوائف الأولى التى تمزقت فيها وحـدة الأندلس وقام الثوار فى سـائر الأنحاء بشـق عصـا الطاعة على بنى أمية(٦) .

وقـد كان هؤلاء الموالى يحسبون أنفسهم عربا ، ويدعون أرومات عربية ينسبون أنفسهم إليها ، ويقتبسونها من أصـول سـاداتهم وحتى اولئك الذين كانوا من أصـول اسبانية منهم ادعـوا أصولا عربية بمرور الزمـن(٧) .

وسـواء صحت هـذه الأنساب أم لم تصـح فإنهـا كانت عـاملا اساسيا وفعالا فى حياتهم ، فهم جميعا يتصرفون كمـا لـو كانوا عـربا يتميزون عن غيرهم ولهم حـق الحكم والسيادة(٨) .

وقـد ذكر ابن حيان أن جمـاعة من موالى الخلفاء الأمويين تسموا

---

(٥) ابن حزم الأندلسى : جمهرة أنساب العرب ص ٥٠٢ — ٥٠٣ .

(٦) ابن حيـان : المقتبس ص ٣٢ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٤٣ وبعـدها .

(٧) أنظـر : المقتبس ص ٢٤٢ — ٢٤٣ ، نفـح الطيب ج ٤ ص ٤٥ ؛ تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٠) .

(٨) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧٦ .

باسماء العرب فانكر عبد الرحمن الأوسط عليهم ذلك بفضل أنفته ، ونهى عنـه ، وكان لـه مولى من عتاقـة أبيه يسمى محمد وولـد لـه ولـد سماه مسرور سمى به على جـد الأمير فحسنت نشأته وتفقـه وتعبـد واشتهر فضله ، حتى ولاه عبد الرحمن القضـاء بقرطبة . فتوفى بعـد عام فى سـنة ٢٠٨ هـ(٨) .

ولا يعرف على وجـه التحـديد ماذا يقصد راوى الخبر الذى ذكره ابن حيـان بهـذا فلسنا نعرف للعرب اسماء اختصوا بها دون الموالى .

ولـو استعرضنا اسماء بيوت موالى بنى أميـة وغيرهم بالأندلس واسماء ذراريهم فإننـا لا نجـد فروقا جوهرية بينها وبين أسماء العرب الخلص التى اورد لنـا ابن حزم مئات النماذج منها فى الجمهرة .

كما اننا لا نجـد فى المصادر الأندلسية ما يدل على ان امراء وخلفاء بنى امية قـد ضاقوا ذرعا بذلك فيما عـدا هـذا الخبر الذى سـاقه ابن حيـان وما اكثر ما نجـد حتى فى الأسر الأسبانية الأصـل التى اسلمت من يتسمون باسماء إسلامية كمحمد وأبى بكر وغيرها دون أن يكون ذلك غريبا أو مستغربا . إلا إذا كان المقصود ان هؤلاء الموالى الذين تسموا باسماء عربية قـد ادعـوا نسبا عربيـا كما حـدث من بعض الموالى وخاصة الفرس فى المشرق فى العصر العباسى الاول ووجـد ذلك مقاومة عنيفـة من العـرب . مثل ابى مسـلم الخراسـانى الذى ادعى انـه من ولـد سليط بن عبد الله بن عبـاس(١٠) .

---

(٩) ابن حيـان : المقتبس ص ١٨٧ .

(١٠) تاريخ الطـبرى ج ٩ ص ١٩٧ .

رابعـــا : العنصر الإســـبانى

يذهب الكثيرون إلى ان الأصـــول القـــديمة لسكان إسبانيا تعـــود إلى مزيج من عنصرى السلت (الكلت) ، والإيبيريين(١) . فقـــد توالى على هـــذه البلاد الكثير من الغزاة . حيث غزاها الفينيقيون فى القـــرن العاشر ق.م ، واطلقـــوا على الشاطىء الـــذى نزلوا عليـــه اسم Ischepan- im (إسبانيا) أو شاطىء الأرانب . واسسوا عـــدة مستعمرات ومدن ، من اشـــهرها مدينة قادس التى لا تزال إلى اليـــوم هنـــاك كما غزاها اليـــونان فى القرن الخامس قبـــل الميلاد ، وأطلقـــوا على ســـواحلها اسم إيبيريا .

ثم ما لبث أن اطلق هـــذا الاســـم على شـــبه الجزيرة كلها . كما خضعت هـــذه البلاد فى هـــذا القرن ايضا للقرطاجنيين الذين اسسوا فيها مدينة (كرتا جونوفا) أى قرطاجنة الجـــديدة التى اتخـــذوها عاصمة لهم . وهكذا شهدت هـــذه البلاد منذ سنة ٥٣٥ ق.م وحتى سنة ٢٠٥ ق. م تأثيرين : احـــدهما أوربى عن طـــريق العنصر السلتى واليـــونانى والآخر آسيوى إفريقى أو سامى عن طريق العنصر القرطاجنى .

ثم تحـــول هـــذا التأثير إلى تأثير لاتينى أوربى عنـــد مجىء الرومان سنة ٢٠٥ ق.م ، حيث استولوا على البلاد من القرطاجنيين واسسوا مدينة Italica (طالقـــة) والتى تسمى باطقة . وهـــو اسم مشتق

---

(١) يذكر د. العبادى : ان العناصر السلتية Celtos جاءت من أوربا وان العناصر الايبرية Iberos جاءت من المغرب .
(انظر مجـــلة عالم الفكر ص ٣٤٣ العـــدد الثانى المجلـــد العاشر سنة ١٩٧٩ م ، المختار من عالم الفكر ص ٩٣) .

من كلمة إيطاليا . ولما ضعفت الدولة الرومانية الغربية عانت إسبانيا — كغيرها من ولايات الدولة الرومانية — من آثار الغزوات الجرمانية المدمرة التى تدفقت عليها منذ سنة ٤٠٩ م حيث اجتاحتها قبائل الآلان ، والسويف (السوابيون) والوندال الذين كانوا أكثر العناصر الجرمانية تخريبا ، فاستقر السويف وقسم من الوندال فى جليقية واشتوريش ، ونزل الآلان فى لشدانية (البرتغال حاليا) ، وأقام معظم الوندال فى باطقة وجزء من شرق الأندلس . ثم جاء القوط الغربيون بزعامة آطاوولف فانتزعوا برشلونة من الوندال سنة ٤١٤ م واتخذوها مقرا لهم ، واضطروا الوندال إلى العبور للمغرب سنة ٤٢٩ م ، وظلوا يحكمون هذه البلاد إلى أن كان آخر ملوكهم غيطشة Witiza (٧٠٠ م) الذى اغتصب رودريك (لذريق) حاكم باطقة الملك منه ، مما أدى بأبنائه إلى الاستعانة بالعرب عن طريق جوليان (يليان) حاكم سبتة وحثهم على فتح الأندلس(٢) .

وقد أسلم عدد كبير من الإسبان بعد الفتح ، وكان لسياسة التسامح التى سار عليها الفاتحون أثر كبير فى ذلك ، بالإضافة إلى

---

(٢) انظر بنيامين فارنجتون : مدينة الإغريق والرومان ص ٩٣ ترجمة أمين تكلا القاهرة سنة ١٩٤٨ م ، دائرة معارف الشعب كتاب الشعب ٦١ ص ٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين فى الأندلس ص ٥١ — ٥٦ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٢٥ وبعدها .

د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ج ٢ ص ١٩٨ — ١٩٩ ، على إسلام : اسبانيا والأندلس ص ١٨ .

د. إبراهيم طرخان : دولة القوط الغربيين ص ٢١ القاهرة سنة ١٩٥٨ . د. حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٥٦ .

ما وجـده هـؤلاء من مبادىء وقيم نبيلة فى الإسلام دفعتهم إلى اعتناقه من إيمـان ، كما دخل بعضهم فيه لمصالح شخصية . وقـد أطلق العرب على هؤلاء اسم المسالمة أو الأسـالمة . أما الذين بقوا منهم على دينهـم فقـد عرفوا باسم العجم(٣) .

وقـد اعتبروا أهـل ذمة عليهم دفع الجزية للمسلمين فى مقـابل حمايتهم والدفاع عنهم داخـل دولة المسلمين بالأندلس فقـد أمنهم موسى ابن نصـير على اموالهم ودينهم بأداء الجزية(٤) وكان لهـم رئيس يلقب بالقومس . وكان أول من تولى هـذا المنصب فى عهد عبد الرحمن الداخل رجـل يسمى أرطباس . وكان كما ذكر ابن القوطية « من عقـلاء الرجال وله جملة صالحة من الأخبار » ، كما كان هناك قمامسة محليون ينتخبهم النصارى لكل مدينة ، كما كان لهم قاضى يعرف بقاضى العجم أو النصارى يفصل فى منازعتهم ، وكان أول قاضى لهم حفص ابن عبد البر وكان يتبع القـوانين القوطية فى الحكم بينهم(٥) .

وقد أطلق على النصارى الإسبان الذين عاشروا المسلمين ، واختلطوا بهم ، وتعلموا العربية دون أن يدخلوا فى الإسـلام اسم (المستعربين) وكانوا يشكلون غالبية سكان البلاد فى السنوات الأولى من الفتـح

=

وقـد انكر د. مؤنس إتصال ابناء غيطشة بالعرب وحثهم على غزو الأندلس فى ص ٥٦ ثم عاد بعـد ذلك فى ص ٦٤ ورجـح اتصالهم . (انظر : فجر الأندلس ص ٥٦ ، ٦٤) .

(٣) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٢٢ ، د. العبادى : مجلة المختار من عالم الفكر ص ٩٦ .

(٤) الرسالة الشريفية ص ١٩٩ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ١٣٠ .

(٥) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٦ ، ٣٨ ، ص ٥ .

غير أن اعـداداهم اخـذت فى التناقص بدخول الكثيرين منهم فى الإسلام حتى اصبحوا اقليـة بالنسبة للمسالمة . وقـد تمتـع اهـل الذمـة بحريتهم الدينية ، وعاشوا إلى جوار المسلمين فى حـرية وامان وسـلام فى أحياء خاصـة(٦) .

والكتاب الذى كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير لصاحب أريولة بعـد فتحها سنة ٩٤هـ خير شاهد على ذلك ونصه :

« بسم الله الرحمـن الرحيم ، كتـاب من عبد العزيز بن موسى ابن نصير لتـدمير بن عبدوش انه نزل على الصلح ، وان لـه عهد الله وذمته وذمة نبيه ﷺ الا يقدم له ولا أحد من أصحابه ولا يؤخر ، ولا ينزع عن ملكه ، وأنهم لا يقتـلون ، ولا يسبون ولا يفـرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ، ولا يكرهون عن دينهم ولا تحرق كنائسهم ولا ينزع عن ملكه ما تعبـد ونصح وأدى الذى اشترطنا عليه ... الخ »(٧) .

وقـد طبق المسلمون سياسة التسامح معهم فتركوا لهم ارضـهم يزرعونها ويدفعـون خراجها وتركوا لهم كنائسهم ، ولم يستولوا عليهـا ما عـدا الكنائس التى قسموها بينهم وبين النصارى ليقيموا فيها مساجد جامعة . مثل مسجد رفينة الذى اقيم فى جـزء من كنيسة سانتا رفينة . وذكر ان عبد العزيز بن موسى بن نصير أقام فيهـا وذلك غير صـحيح والحقيقة انه أقام داره بجوارها وابتنى على بابها المسجد الذى قتل فيه .

---

(٦) تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس : ص ١٣٠ .

(٧) الحميرى : صـفة جزيرة الاندلس ص ٦٢ — ٦٣ ، بغيـة الملتمس ص ٢٧٤ ، فجـر الأندلس ، جـ ١ ص ٥٥ — ٥٦ ، د. لطـفى عبد البديع : الإسلام فى اسبانيا ص ٢٢ — ٢٣ . وهنـاك اختلاف طفيف فى بعض الفـاظ هذه المعاهدة لدى بعض المصادر .

ومثل جامع قرطبة الذى اقيم فى شبطر من كنيسة شنت بنجنت ، وكان للنصارى اديرتهم مثل دير ارملاط فى الطريق بين قرطبة وإشبيلية ، ودير سان خـوان دى لابنيا الذى اقامه الراهبان فوتو وفيلكس فى عهـد عقبـة بن الحجاج السلولى شمال إسبانيا ، وكانت إشبيلية فى العصر الأموى مركزا اسقفيا هاما . وكان أول من تولى رئاسة اسقفية إشبيلية المطران المند بن غيطشة(٨) ، وكانت اصوات اجراس الكنائس تقرع جنبا إلى جنب مـع اصوات المؤذنين فى المساجد . ممـا يدل على مدى تسامح المسلمين ، وتركهم النصارى يمارسون شعائرهم بحرية تامة .

وقد وصف الشاعر ابو عامر بن شهيد إحدى الكنائس بقرطبة وقـد بات فيها ليلة مع بعض اصحابه فقال : « وقد فرشت بأضغاث آس وعرشت بسرور واستيناس .... وقر النواقيس يبهج سمعه ، وبرق الحميا يسرج لمعـه ، والقس قـد برز فى عبـدة المسـيح متوشـحا بالزنانير ابدع توشيح . » (٩). كما نظم ابن حزم أبياتا جـاء فيها :

اتيتنى وهـلال الجـو مطلع قبيل قرع النصارى للنواقيس(١٠)

وقد ظل النصارى الإسبان يتمتعون بحريتهم الدينيـة حتى جـاء المرابطون إلى الأندلس وأخذوا يحدون منها : فمنعوا قـرع النواقيس ،

---

(٨) ابن عـذارى : البيان المغرب جـ ٣ ص ٧١ وبعدها ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤ ، ٣٧ نفح الطيب جـ ١ ص ٢٨١ . فجر الأندلس ص ١٣٠ . د. السيد سالم : تاريخ المسلمين فى الأندلس ص ١٣١ .

(٩) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٦ .

(١٠) طـوق الحمـامة ص ٣٤٧ .

والزموهم بارتداء ثياب معينة ليتميزوا عن المسلمين ، والا يركب أحد منهم فرسا ، والا يشترى مسلم منهم رداء إرتدوه . (١١) .

ويبدو ان ذلك قد كان بسبب اشتداد حركة الغزو المسيحى (الاسترداد أو الاستعادة) كما يسميها الإسبان ، واتهام المسلمين لهؤلاء المستعربين بالتجسس عليهم ومعاونة الدول المسيحية فى شمال إسبانيا ضد المسلمين . فهو رد فعل للدفاع عن النفس وتأمين البلاد . ولذلك فقد نفى الموحدون كثيرا منهم إلى المغرب ليكونوا بعيدين عن مناصرة الممالك المسيحية ضد المسلمين ، وكان الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور هو أشد خلفاء الموحدين وطأة عليهم . .

ورغم ذلك فان أحوال اهل الذمة بصفة عامة تحت حكم المسلمين لا تقارن بما أصاب المسلمين بعد ذلك على يد الأسبان المسيحيين بعد ان اخذت دولة الإسلام فى الأندلس فى الاضمحلال والسقوط ويكفى ذكر محاكم التفتيش وويلاتها كدليل على ذلك .

وبشهادة الكثير من المستشرقين فان المسلمين كانوا أكثر تسامحا مع غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى يقول المستشرق الروسى بارتولد « ومهما يكن من شيىء فإن النصارى الذين عاشوا فى ظل حكم المسلمين لم يصبهم قط ما أصاب المسلمين فى إسبانيا من الظلم والعدوان »(١٢) .

هذا وقد برز من هؤلاء المستعربين الإسبان الذين شغفوا باللغة العربية وتسموا بأسماء عربية شخصيات كان لها دور هام بالأندلس ،

---

(١١) ابن عبدون : آداب الحسبة ص ١١٢ — ١١٣ .
المراكشى : المعجب ص ٢٠٣ طبعة السعادة سنة ١٣٢٤ هـ .

(١٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٢٧ — ترجمة حمزة طاهر — ط ٥ دار المعارف بمصر د.ت.

مثل الأسقف ربيع بن زيد المعروف فى المدونات الإسبانية باسم (ريسموندو) ، ومطران طليطلة عبيد الله بن قاسم ، وأسقف قرطبة اصبغ بن عبد الله بن نبيل(١٣) ، كما نبغ منهم عدد من المترجمين قاموا بترجمة كثير من الكتب القشتالية (الإسبانية) إلى العربية والعكس بفضل إجادتهم للغة العربية واللاتينية ، وكانوا بذلك حلقة اتصال بين الثقافة العربية والأوربية ومن هؤلاء القاضى جيزون قاضى النصارى بقرطبة فى خلافة الحكم المستنصر ، وكان يقوم فى بعض الأحيان بدور المترجم بين الخليفة وكبار الإسبان . (١٤)

وكما لعب المستعربون دورا ثقافيا فقد لعبوا دورا سياسيا هاما بمحالفتهم للمولدين ضد العرب فى عصر الأمير عبد الله . كما تجلى فى ثورة عمر بن حفصون (١٥) .

* * *

(١٣) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٣٢

(١٤) د. أحمد هيكل : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٣٠

(١٥) انظر د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٥٩ ، ٢٦٥

خامسـا : عنصر المولـدين

ويقصد بهـذا العنصر الجيل الذى ولـد من آباء مسلمين سـواء كانوا عربا أو بربر ، وأمهـات أعجميـات سـواء كن أسبانيات أو غير ذلك ، ونشأ على الإسـلام . فقد أقبل الفاتحون من العرب والبربر على مصاهرة أهل البلاد ، فتزوج الكثيرون منهم من الإسبانيـات ، وعاشروا أهل البلاد واختلطوا بهم ، وعن طريق ذلك انتشر الإسـلام ولغته فى الأندلس ، وامتزجت دمـاء الفاتحين من عرب وبربر بدماء أهل البـلاد الأصليين ونشـأ من ذلك جيل المولدين . (١)

---

(١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٢٨ ،
د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٢٤ .

اتصـل بالعناصر العربية والبربرية فى الأندلس عنصران آخـران هامان وهما المولدون ، والصقالبة . ومن المولدين من اندمج فى المجتمع الأندلسى المسلم اندماجا جعل بعضهم يبتدعون أنسابا عربية ومن هؤلاء أسرة بنى مغيث الرومى الأصل ، وكان منهم من خدم الثقافة العربية ومنهم بقى بن مخلد وابن حزم وابن سراج القرطبى . وكما كان للمولدين فضل فى خدمة الثقافة العربية فقد كان للصقالبة فضـل أيضـا واشـتهر منهم كثيرون مثل جوزر مولى الحكم المستنصر ، وفاتن مولى المنصـور بن أبى عـامر الذى ناظر صاعدا اللغوى وانتصر عليه . ويذكر جولدزيهر أن العرب كانوا يتعالون عليهم مما دعا بعضهم إلى تأليف كتاب فى ذكر مفـاخرهم وهـو كتاب (الإستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة) .

ولعل هـذا الكتاب يعد أول محاولة للتأليف فى دائرة الشعوبية وإن لم يكن فى صميمها حيث دافع فيـه مؤلفـه عن بنى جنسه دون التهجم

على غيرهم .. (نوادر المخطوطات ج ٣ ص ٢٤١) .

أما الميل الحقيقى للشعوبية فقد أخذ طابعه الكامل فى محيط المولدين، ولكن يتميز هذا الميل بحرصه على الإنسجام مع الإسلام ، على العكس من شعوبية المشرق حيث نرى الشعوبيين فيه من الملاحدة والزنادقة فى أغلب الأمـر .

ويعد محمد بن سليمان المعافرى من أقطاب الشعوبيين فى الأنـدلس .. ومنهم أبو محمد عبد الله بن الحسن المتوفى سنة ٣٣٥ هـ وكان معروفـاً بشدة تعصبه للعجم والغض من شـأن العرب . ويلاحظ أن كلمة العجم عند شعوبيى المشرق تعنى الفرس فى المقـام الأول أما عنـد شعوبيى الأندلس فتعنى الإسـبان والروم ..

ويبـدو أنه لم يكن هناك نتاج أدبى للشعوبيين فى الأندلس إلا بعد زوال الخلافة الأموية حيث انقسمت إلى دويلات صغيرة استطاع فيهـا المولدون والصقالبة أن يستأثروا بعـدة ولايات ، ومن ثم أصبحنا نسمع صوت الشعوبية قويا .

ومن أقوى هذه الأصوات صوت أبى عامر بن غرسية الذى عاش فى بلاط مجاهد الصقلبى ملك دانية ، وألف رسالة فى تفضـيل العجـم على العرب وصوت ابن سيدة العالم اللغوى صاحب المخصص الـذى يقول عنه الذهبى « وكان شعوبيا يفضل العجم على العرب » ... وكان منقطعا إلى الأمير مجاهد العامرى .

(انظـر الرسـالة والرد عليهـا فى نوادر المخطـوطات القسم الثالث ص ٢٤٦ — ٣٣٠) .

وقد كان هـــذا الجيل يشكل على عهد امراء بنى امية الكثرة الغالبة من السكان ، ومنهم تكونت جماهير الأندلس واهل البيوتات منهم ، وكان فيهم من يدعى نسبا فى المشرق يرى فيه تعظيما لشأنه مثل إبن حزم ، فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الأندلس « انـــه كان من غرائبه إنتمـــاؤه فى فارس ، وإتباع أهل بيته له فى ذلك بعد حقبة من الدهر » (٢)

كما احتفظ كثير منهم بأسمائهم الإسبانية القديمة مثل : بنو انجلين ، وبنو القبطرنة وبنو ردلف ، وبنو مردنيش ، وبنو غرسية ، وبنو فرتون أصحاب تطيلة والثغر الأعلى . (٣)

وفى كتب التراجم الأندلسية كثير من هذه الأسماء والكنى . ومن مشاهير المؤرخين المولدين ابو بكر بن القـــوطية صاحب كتـــاب (تاريخ افتتاح الأندلس) .

وقد كان جل أمراء الأندلس وخلفائها من اصـــل مولد تجـــرى فى عروقهم دمـــاء غير عربية وبخاصة الـــدم الإسبانى من جهـــة الأمهـــات او الجـــدات ، فقد كان عبد الرحمن الداخل من أم ولـــد بربرية تسمى راح او رداح ، وكان ابنه هشام من أم ولد تسمى حـــلل أو حــــوراء ، وكان الحكم بن هشام من أم ولـــد تسمى زخـــرف ، وكان عبد الرحمن الناصر من أم ولد تسمى مزنة ، وكان هشام المؤيد بن الحكم المستنصر من ام ولـــد بشكنسية تدعى صبح ، وغير هؤلاء كثيرون(٤) .

---

(٢) ياقوت : معجم الأدباء جـ١٢ ص ٢٥٠ نشر أحمد فريد رفاعى .

(٣) انظر فى ذلك ابن حيان : المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس ص ١٦ وبعـــدها نشر ملثور أنطونيه ، باريس سنة ١٩٣٧ ، وجمهرة أنساب العرب ص ٤٦٧ .

(٤) انظر المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٦ ـــ ١٦٠ ، المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١١ ـــ ٣٨ الضبى : بغيـــة الملتمس ص ١٢ ـــ ٣٣

ومع أن هؤلاء المولدين كانوا يعتنقون الإسلام ، ويعيشون حياة المسلمين الوافدين على الأندلس ، إلا أن الكثيرين منهم كانوا يتعصبون لأصولهم الإسبانية الأولى ويتحالفون مع بنى جلدتهم من العجم أو النصارى ضد العرب والبربر معا(٥) .

ولقد تألفت منهم جماعات كبيرة عاشت فى المدن الهامة مثل طيطلة التى كانت تضم أكبر طائفة منهم ، وكانت مركزا من أهم مراكز عصبيتهم ، وقد ظهر ذلك فى الحركات الثورية المتعددة التى قاموا بها ضد الأمويين وميلهم للانفصال عن سلطان قرطبة .

وكذلك كانت إشبيلية معقلا هاما من معاقلهم . حيث كانوا يمثلون أكبر طائفة من سكانها ، وكانوا يعملون بالإدارة والتجارة وظهر منهم الكثير من الأغنياء(٦) .

وقد انتهز هؤلاء المولدون فرصة ضعف دولة بنى أمية فى عهد الأمير عبد الله فثاروا فى عدة نواحى من الأندلس ضد السلطة المركزية وكان من أخطر ثوراتهم ثورة عمر بن حفصون الذى تغلب على ببشتر ، وثورة عبد الرحمن بن مروان الذى عرف بابن الجليقى — نسبة إلى جليقية — « وكانت دعوته عصبية للمولدين على العرب »(٧) كما ثار يحيى بن بكر بن ردلف فى شنت مرية بأشكونية(٨) .

---

(٥) عنان : دولة الإسلام — العصر الأول القسم الثانى ص ٢٧ هامش ١

(٦) السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٢٩ — ١٣٠ .

(٧) ابن حيان : المقتبس ص ١٥ — ١٦ .

(٨) انظر المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ٤١٧ ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤١٥

وقد كان من شأن كثرة ابناء هذا الجيل المولد إنتشار اللغة العجمية أو اللطينية — كما يسميها المؤرخون العرب — بين الاندلسيين من عرب وبربر ، وهى ما يطلق عليها اسم اللغة الرومانثية (الاسبانية الحديثة أو العامية) واختلاطها باللغة العربية(٩) .

وعن طريقهم تداخلت العربية والرومانثية تداخلا كان من مظاهره نشأة فن الموشحات والأزجال(١٠) .

* * *

(٩) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٢٥ ، د. حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٣٧٧ ، البير حبيب : الحركة اللغوية فى الأندلس ص ٣١ — ٣٢ .

(١٠) عن الموشحات والأزجال راجع : د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٤٥ وبعدها ، د. عبد العزيز الأهوانى ، الزجل فى الأندلس القاهرة سنة ١٩٥٧م د. محمد عنانى : الموشحات الأندلسية عالم المعرفة عدد ٢١ ، صمويل ستيرن : الموشح الأندلسى ترجمة د. عبد الحميد شيحة . دار الآداب بالقاهرة سنة ١٩٩٠م .

سادسا : اليهود

شكل اليهود عنصرا من عناصر السكان فى المجتمع الإسبانى قبل الفتح الإسلامى ، وقد عانوا كثيرا من إضطهاد الرومان لهم بدخول المسيحية إسبانيا ، وخاصة بعد القرارات التى إتخذها المجلس الكنسى فى مدينة البيره سنة ٣٠٣ – ٣٠٤ م ، ثم ازداد اضطهادهم بعد المجلس الكنسى الذى عقد فى طليطلة سنة ٥٨٩م وقدم فيه الملك (ريكاردو) الذى كان يكره اليهود عدة اقتراحات للمجلس تتلخص فى : منع استخدام اليهود للمسيحيين فى اى عمل ، وعتق اى عبد مسيحى مملوك ليهودى ، ومنع زواج المسيحيات من اليهود ، ومنع الختان الذى كان يفرضه اليهود على عبيدهم ومعاقبة من يصنع ذلك بمصادرة املاكه ، وطرد اليهود من مناصبهم فى الحكومة ، وعدم تعيينهم مستقبلا ، وإلزامهم بتعليق شارة مميزة لهم فى مكان ظاهر حتى يعرفهم الجميع .

وقد وافق المجلس على هذه المقترحات وبدأ تنفيذها ، ثم جاء الملك (سيسبت ت ٦٢١ م) فضيق الخناق عليهم أكثر واكثر وخاصة فى إقامة شعائرهم الدينية وأعطاهم مهلة سنة لاعتناق المسيحية او الرحيل عن إسبانيا ، فهاجر الكثير منهم وبقى البعض متظاهرا باعتناقه المسيحية حرصا على نفسه واملاكه .

ولكنهم كانوا يمارسون شعائرهم المسيحية سرا . وكان هؤلاء يسمون باليهود المستترين Judaizantes . ثم جاء عهد الملك (سوينتالا) فتنفس اليهود الصعداء حيث لم يكن متعصبا للمسيحية كسلفه، فانتهز اليهود الفرصة وعاد الكثير منهم إلى اليهودية علنا . ولكن بعد موته جاء الملك (سيسناند) الذى طلب من المجلس الكنسى تجديد

القرارات السابقة الخاصة باليهود . وفى سنة ٦٣٣ م جدد المجلس قراراته السابقة وأضاف إليها قرارات أخرى منها :

١ - إلزام اليهود بتسليم أبنائهم الذين بلغوا سن السابعة للكنيسة لتعميدهم وتربيتهم تربية مسيحية .

٢ - تسليم اليهودى ، إذا ارتد عن المسيحية إلى أحد المسيحيين ليصير عبدا له .

وفى عهد الملك (كانتيلا) قرر المجلس الكنسى بطليطلة طرد اليهود من البلاد فسارعوا إلى التعهد بأنهم سيخلصون للمسيحية ولن يعودوا لدينهم مرة أخرى ، وظلوا محافظين على ذلك طوال عهد هذا الملك فلما مات واعتلى الملك (سوانيد) عاد كثير منهم إلى اليهودية مرة أخرى وكانوا يقيمون شعائرها علنا . ثم أرغم اليهود فى عهد الملك (إرفيج) على التنصر وأصدر أمرا - عن طريق المجلس الكنسى بطليطلة - بتحريم كتب اليهود المعادية للمسيحية وتحريم الختان ، ثم أصدر الملك (إخيكا) صهر إرفيج أمرا بتسليم كل اليهود للمسيحيين ليكونوا عبيدا عندهم ، ومصادرة جميع أملاكهم وتوزيعها على المسيحيين ومعاقبة من يعتق يهوديا من المسيحيين وفصل أولادهم عنهم بالقوة وتنصيرهم . (١)

وقد كان هذا التعسف وذلك الاضطهاد الذى لقيه اليهود طوال عهد الرومان والقوط راجعا بالإضافة إلى العداء التقليدى بين اليهودية والمسيحية إلى المؤامرات والدسائس والاستغلال الذى قام به اليهود ومارسوه فى المجتمع الإسبانى وغيره من مجتمعات أوربا . ولذلك ذكر أنهم اتصلوا بيهود المغرب وطلبوا منهم إغراء العرب على فتح الأندلس ، وبالرغم من أنه لا توجد دلائل على ذلك إلا أنه من غير المستبعد

---

(١) انظر د. محمد بحر عبد المجيد : اليهود فى الأندلس ص ١٣ - ١٧

ان يكون ذلك قد حدث فقد عامل العرب اليهود معاملة طيبة عند دخولهم الأندلس ، وعهدوا إليهم بحراسة بعض المدن التى فتحوها تحت إمرة المسلمين. ولا يستبعد ايضا ان يكون اليهود قد آزروا المسلمين عند الفتح لتخليصهم من ظلم القوط واضطهادهم وخاصة بعد ما سمعوا عن تسامحهم(٢) .

ولما استقر المسلمون فى الأندلس تخلص اليهود من ظلم واضطهاد الحكام الذين سبقوهم فقد منحهم المسلمون حريات لم يكونوا يحلمون بها منها حرية العمل والتنقل والتملك بالإضافة إلى الحرية الدينية . وكان لذلك أثره فى هجرة الكثير من يهود اوربا إلى الأندلس بعد فتح المسلمين لها .

وكان اليهود يتجمعون فى عدة مدن بالأندلس وعلى راسها غرناطة التى كانت تزخر باكبر جالية يهودية ولذلك سميت (اغرناطة اليهود) ، ومنها مدينة اليسانة التى تقع جنوب قرطبة ويقول عنها الإدريسى : إن سكانها كانوا من اليهود فقط ، واهلها اغنياء مياسير اكثر غنى من اليهود الذين بسائر بلاد المسلمين فقط ولا يداخلهم فيها مسلم البتة(٤)، ومنها ايضا قرطبة وطليطلة وإشبيلية وسرقسطة والبيرة ومالقة. وقد كانوا يحتكرون بعض المهن والحرف التى تدر عليهم أموالا طائلة كتجارة الرقيق والخصيان والحرير والتوابل . وكانوا لثرائهم يرسلون بعض أموالهم إلى إخوانهم من يهود المغرب والمشرق وأوربا (٥) .

---

(٢) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٣٣ ، د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى اسبانيا ص ٣٣

(٣) السيد سالم : المرجع السابق ص ١٣٣ ، د. الطاهر مكى : دراسات اندلسية ص ٥٥

(٤) وصف المغرب وارض السودان ومصر والأندلس من كتاب نزهة المشتاق ص ٢٠٥ . ط. ليدن سنة ١٨٦٦م .

(٥) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٧١ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤٢ د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٤٨٢ .

ولذلك لعب اليهود دورا هاما في الأندلس فى الحيـاة الاقتصادية وكذلك فى الحركة العلمية حيث كان منهم المترجمون ومنهم الأطباء والفلاسفة والشعراء مثل حسداى بن شـفروط (شبروط) طبيب الخليفـة الناصر الذى كان رسوله فى استقبال الكثير من سفراء الدول والممالك الأجنبية ، وقام بدور هام فى السفارة التى أوفدها قسطنطين السابع إلى الأندلس سنة ٣٣٨هـ ، كما اسند إليه الناصر مهمة دبلوماسية لدى ملكة نافار .

هذا وقد لعب اليهود دورا مهما فى الحياة السياسية فى زمن ملوك الطوائف وخاصة فى مملكة غرناطة حيث وصل واحـد منهم وهـو ابن النغريلة إلى مرتبة الوزارة فى دولة بنى زيرى الصنهاجيين ، وغدا له من النفـوذ والسلطان ما جعل الكثير من اليهود يسيطـرون على الكثير من مناصب الدولة نظرا لتقريبه لهم مثل إسحاق بن إسحاق بن إبراهيم الذى اصبح صاحب الشرطة فى ايامه ، كما وصل أبو الفضـل بن حسـداى ابن شبروط إلى مرتبة الوزارة فى مملكة سرقسطة(٦) .

وقـد كان لليهود — مثل النصارى — نظام إدارى خاص بهم فى الأندلس حيث كان لهم رئيس يتولى شئونهم يسمى (الناجد) أو الحاخام

---

(٦) د. محمد عبد المجيد : اليهود فى الأندلس ص ٢٢ — ٢٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وأثارهم ص ١٢٢ د. الطاهر مكى : دراسات اندلسية ص ٥٤ وبعـدها ، على محمد راضى : الأندلس والناصر ص ٧٦ . وابن النغريلة : يدعى صمويل هاليفى ويسمى فى المصادر الأندلسية إسماعيل او اشموال وهـو من اهـل ماردة ، ولـد فى قرطبة ، وتتلمذ فى الدراسات اليهـودية على يد ابى حنـوك ابن موسى رئيس الطائفـة اليهودية بالأندلس ، ودرس الفلسـفة على يحيى بن داود وتعلم العبرية واللاتينية والعربية ، واسـتطاع

الاكبر . وكان من أشهرهم فى عهـد الخليفة عبد الرحمن الناصر حسداى ابن شـبروط(٧) .

ولم يكن لليهود حضارة أو ثقـافة تذكر بالأندلس قبـل الإسلام ، ومن نبغ منهم فإنما كان ذلك فى ظـل الإسلام وتسامحه وتحت رايتـه . بدليـل أنهم فى أسـبانيا القوطيـة لم يكن لهـم مثلما كان فى الأندلس الإسلامية ، فتراثهم بالأندلس يعـد ثمرة من ثمرات الاختلاط بالثقافـة العربية التى نهلوا منها ، ولذلك عنـدما أخـذ حكم المسلمين فى الزوال من الأندلس نضبت العقليـات اليهودية ، ولم يظهر لهـم تراث مماثل إلا خـلال عصر النهضة فى أوربا(٨) .

لقـد تمتع اليهود فى هـذا العصر الأموى بكثير من الوان التسامح لم يظفروا به خـلال حـكم القوط ، ولا غـرو فقـد غدوا عنصرا هاما فى الإدارة والتجارة والصيرفة كما أسندت إلى الكثير منهم مناصب هامة فى الدولة ، وأصبحت بعض الحرف تكاد تكون مقصورة عليهم(٩) .

= ان يسيطر هـو وابنه يوسـف من بعـده فى دولة بنى زيرى فى غرناطة فتولى بيت المـال والوزارة ، كما تولى ابنـه مرتبـة الوزارة أيضا ولابن النغريلة كتاب طعن فيه فى الإسـلام والقرآن الكريم وقـد رد عليـه ابن حزم الأندلس فى رسالة نشرها فى القاهرة د. احسان عباس سنة ١٩٦٠ م بعنوان (رسالة فى الرد على ابن النغريلة اليهـودى) .

(٧) اليهـود فى الأندلس ص ٢٤ .

(٨) اليهـود فى الأندلس ص ٤٤ ، ٥٢ .

(٩) الإسـلام فى أسـبانيا ص ٣٤ .

سـابعا : الصـقالبة(١)

كان لفظ صقلبى يطلق فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) بالأندلس على الرقيـق المجلوب من أوربا ، وكذلك من المناطق الشمالية فى إسبانيا . فقـد ذكر ابن حـوقل الذى زار الأندلس فى هـذا القرن أن الصقالبة كانوا يجلبون من سـواحل البحر الأسود ، ومن إيطاليا ،

---

(١) يرجع الصقالبة فى أصلهم إلى الجنس الآرى (أو الهندو أوربى) . والمعروف أنهم نزحـوا من آسيا ، واستمروا يتوسعون فى أوربا حتى القرن العاشر الميلادى حيث ظهرت قـوتهم ، وظل مستواهم الحضارى ضعيفا بالنسبة للشعوب التى اصـطدموا بهـا . وقـد انقسموا إلى شـعوب عـديدة سكنت بلدانا مختلفة مثـل بولنـدا وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا وروسيا ويمكن تقسيمهم إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ السلاف الجنوبيون : (اليوجسلاف) فى الجنوب والوسط ويشملون البلغـار والصرب والـكروات والسلوفينيين (سـكان سـلوفينيا) .

٢ ـ السلاف الغربيون : فى بولندا وبعض أجزاء من المـانيا وبوهيمية ومورافيا وسـلوفاكيا .

٣ ـ السلاف الشرقيون : أو الروس وينقسمون إلى الروس الكبار فى الوسـط والشمال ، والروس الصـغار فى الجنـوب ، والروس البيض فى الغرب (انظر : محمد دياب : تاريخ العرب فى أسبانيا جـ ١ ص ٢٧٨ ، د. سهام أبو زيد : تاريخ الصقالبة فى مصر الإسلامية ص ١٤٤ مجلة كلية الدراسات الانسانية العدد التاسع سنة

ومن قطلونيه وجليقية فى شمال إسبانيا(٢) .

وقـد اطلق الجغرافيون العرب هـذا الاسم فى العصور الوسطى على سكان البلاد المتاخمة لبحر الخزر بين القسطنطينية وبلاد البلغـار أو بعبارة أخرى سكان البلاد الممتدة من بحر قزوين شرقا إلى البحـر الإدرياتى غربا(٣) . فيشير المسعودى إلى أن الصقالبة أجناس متعـددة من الروس والبلغار والصرب والسلاف من أصـول آسيوية كانت تسكن القـوقاز حـول البحر الأسود(٤) .

ولقـد دابت القبـائل الجرمانية المتبربرة والقراصنة على سـبى الكثير من افراد تلك الشعوب ، وبيعها إلى المسلمين فى الأندلس ، ولهـذا سموا بالسلاف بمعنى الرقيـق أو العبيد ، ثم حور اللفظ فى العربية إلى

١٩٩١ م) ، د. احمد العبادى : الإسلام فى أرض الأندلس ص ١٢٥ مجـلة المختار من عالم الفكر الكويت سنة ١٩٨٤ م) .

وقـد غلب على هـذه الشعوب اسم السلاف وتنطق سكلافه Sclaves فعربهـا العـرب إلى صـقلبى التى ترادف عبـد Slave وقد أصبح هـذا اللفظ يطلق على الرقيق من هـذه الشعوب حتى أن الإفرنج قد استخدموه بنفس هذا المعنى فى لغاتهم Sklave بالانجليزية ، Esclave بالفرنسية Slavary بالالمـانية (جرجى زيدان : التمـدن الإسلامى ج ٥ ص ٣٣ — ٣٤) .

(٢) ابن حوقل صورة الأرض ص ٣٣٣ ، المختار من عالم الفكر ص ١٢٥ .

(٣) د. لطفى عبد البديع : الإسـلام فى إسبانيا ص ٣٥ .

(٤) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٣٠٥ وبعدها ، التنبيه والإشراف ص ٥٦ .

صقالبة وتوسع فى استعماله فأصبح يطلق على كل الرقيق الأبيض المجلوب من اية امة مسيحية(٥) .

وكان اغلبهم يؤتى بهم اطفالا من حوض نهر الدانوب وبلاد الفرنجة ويربون تربية عسكرية ، ويدربون على الخدمة فى القصور ، والانخراط فى سلك الجندية ليكونوا جنوداً فى الحرس أو الجيش . وكان المستخدمون منهم فى القصور يتم خصاؤهم للقيام بخدمة الحريم ، وكان معظم تجار الرقيق من اليهود ، ولهم معامل خاصة للخصاء فى اوربا — وخاصة فى فرنسا — ومن اشهر معاملهم فيها معمل فردان بمنطقة اللورين ، وكذلك فى الأندلس — وخاصة فى مدينة خلف بجانة وهى شينا القديمة عاصمة إقليم البيرة — وكان معظم أهلها من اليهود(٦) . وعليهم تقع تبعه هذه العملية الشنيعة التى يحرمها الإسلام . ولذلك فقد كان الخصيان يباعون بأثمان مرتفعة عن غيرهم من الرقيق . يقول ابن حوقل « وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان من جلب الأندلس لأنهم عند قربهم منها يخصون ويفعل ذلك بهم

---

(٥) د. سعيد عاشور : أوربا فى العصور الوسطى ج ١ ص ٦٣١ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١١٠ عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ج ١ ص ٤٦٦ .

(٦) آدم متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ١٥٣ ، د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٣٦ . ومن المتعارف عليه ان الروم البيزنطيين كانوا اول من قام بعملية الخصاء . (الحيوان ج ١ ص ١٢٥) ، المقدسى : احسن التقاسيم ص ٢٤٢ .

تجـار اليهـود »(٧) .

وقـد تميز الخصيان من الصقالبة بعـدة صفات منها ما ذكره الجاحظ حيث قال : « والخصى أجـود خـدمة ، وافطن لأبواب العطاء والمناولة ، وهـو بها أنفق ، ولهـا اليق ، ونجـده أيضا أذكى عقلا عند المخاطبة . والصقلبى سلس القياد لبراعته من وعـورة العصبية » ويبدو أن الجاحظ قـد حكم فى ذلك على من شاهده فى بغـداد منهم حيث كانوا قلة غير متعصبة بخـلافهم فى الأندلس حيث كثروا وظهرت عصبيتهم وشعوبيتهم واضحة ضـد العرب وخاصة فى الجزائر الشرقية التى استقل بها الأمير مجـاهد العامرى بعـد سقوط الخـلافة الأموية وكان معظم سبكانها منهم . كما أنهم مشهورون بالصبر مـع طول الركوب ، حتى فاقوا الترك فى ذلك ، كما أنهم يجيدون الرمى بالنشاب إجادة تامة .

كما وصفهم الجاحظ بأنهم لا يتقنـون من الصناعات إلا صغارها ، ويجيدون الضرب على الأوتار . ولكن هذا الرأى لا يمكن تعميمه على كل الصقالبة ولا يمكن الأخـذ به كقاعدة عامة بدون استثناء . وشبههم أيضا بالحمام الأبيض وشبه الزنج بالحمام الأسود(٨) .

وقـد اشتهروا بحسن الخـدمة كمـا يستدل على ذلك من قـول الخوارزمى « ويستخدم التركى عند غيبة الصقلبى »(٩) .

كما اشـتهروا بالشـدة والمراس فى الحروب يقـول ابن عبدون

---

(٧) صورة الأرض ص ١٠٥ — ١٠٦ ، أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ٣ ص ٨٥ ، ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦ .
(٨) الحيوان ج ١ ص ١١٦ — ١١٧ ، المحاسن والمساوىء ج ١ ص ٣٩٦ .
(٩) يتيمـة الدهـر ج ٤ ص ١١٦ .

« ومن اراد العبيد لحفظ النفوس والأموال فالهند والنوبة ، ومن ارادهم للكند والخدمة فالزنج والأرمن ، ومن ارادهم للحرب والشجاعة فالترك والصقالبة »(١٠) .

وقد كان الأمير الحكم بن هشام أول من استكثر منهم واتخذ منهم حرسا خاصا له فجلب منهم خمسة آلاف واطلق عليهم اسم الخرس لعجمتهم(١١) . ثم اخذت اعدادهم فى الازدياد وخاصة فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر حيث ذكر أن عددهم وصل فى قرطبة وحدها فى عهده نحو ثلاثة عشر الفا وسبعمائة وخمسين(١٢) .

وقد نبغ عدد كبير منهم ، ووصل الكثيرون إلى مناصب هامة فى الإدارة والجيش وخاصة فى عهد الناصر مثل نجدة الصقلبى قائد الجيش ، والدرى صاحب الشرطة ، وافلح صاحب الخيل ، وخلف مدير الطراز سنة ٣١٣ هـ ، وقند حاكم طليطلة سنة ٣٣٦ هـ(١٣) .

---

(١٠) رسالة نافعة فى شرى الرقيق (نوادر المخطوطات(٤) ص ٣٥٢) .

(١١) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٢٧ . اطلقت عليهم عدة أسماء اخرى مثل الأبناء ، والفنيان ، والخلفاء ، والعلوج ، والمجابيب ، والمماليك إلى جانب الخرس ، والصقالبة .

(١٢) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٣٦ . وهذا الرقم مختلف فى تقديره فبعضهم يصل به إلى خمسة عشر الفا أو يزيد ، وعلى كل فليس هناك تقدير دقيق لأعدادهم إلا أن ذلك يدل على ظهور عنصر جديد فى المجتمع الاندلسى كان له دور واثر مماثل أو مشابه للعنصر التركى فى المشرق .

(١٣) د. العبادى : الإسلام فى أرض الأندلس . مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٢٦ ، تاريخ العرب فى اسبانيا ص ٣١٢ .

كما استكثر الحكم المستنصر منهم فاشتدت شوكتهم ، وكثروا في البلاط ووصل الكثير منهم إلى النفوذ والسلطان وعلى راسهم فائق وجوذر اللذين كان لهما دور كبير في عهد المستنصر وابنه هشام .

وقد نبغت طائفة منهم في العلم والأدب إلى جانب الحرب والسياسة ومن هؤلاء خازن مكتبة المستنصر ويسمي تليد .

وقد خصهم واحد منهم وهو ابن حبيب الصقلبي بكتاب ذكر فيه مآثرهم وسماه (الاستظهار والمغالبة على من انكر فضل الصقالبة) (١٤) .

وقد ذهب الكثيرون إلى ان الهدف من اعتماد الأمويين على هذا العنصر كان هو الحد من نفوذ العنصر العربي والبربري ، وإضعاف سيطرتهما على الجيش حتى لا يكون لهما نفوذ وسلطان وقوة يستخدمونها في الثورات ضد الأمويين .

ويبدو ان الأمويين كانوا قد ملوا من كثرة الفتن والثورات والصراعات التي قام بها العرب والبربر ضدهم ، وكذلك الصراعات بين العنصرين العربي والبربري فأرادوا الأعتماد على عنصر آخر جديد يتميز بالقوة والفتوة ليكون سندا لهم كما اعتمد العباسيون منذ عصر المعتصم بخاصة على العنصر التركي بعد ان ملوا من كثرة التناحر والصراع بين العنصرين العربي والفارسي .

إلا أن ذلك قد ادى إلى ازدياد المنافسة والعصبيات بين عناصر المجتمع فبدلا من ان يكون الصراع بين عنصرين اساسيين هما العرب والبربر اصبح بين عناصر ثلاثة مما كان له اثره في المجتمع الاندلسي من نواحي شتى .

---

(١٤) د. لطفي عبد البديع : الإسلام في إسبانيا ص ٣٧ .

ومثال ذلك أنه عندما ولى الناصر مملوكه نجدة الصقلبى قيادة الجيش المتوجه لقتال ملك ليون (راميرو الثانى) سنة ٣٢٧هـ فى موقعة الخندق عند مدينة سيمانقه هزم الجيش هزيمة شديدة وقتل نجدة ، وفر الناصر بنحو خمسين فارسا فقط بعد ان نجا بأعجوبة ، حيث قيل إن سبب الهزيمة هو تغير نفوس العرب الذين كانوا فى الجيش لتولى قيادته صقلبى ، وتقديمه الصقالبة عليهم مما جعلهم يتركونه وحده فادى ذلك إلى هزيمته . ويقول صاحب اخبار مجموعة عن هذه الموقعة « إن عبد الرحمن لم يكن له بعدها غزوة بنفسه »(١٥) .

وقد لعب الصقالبة دورا هاما فى الحياة السياسية بالأندلس فى هذا العصر حيث تدخلوا فى تولية الأمراء وعزلهم ، وشاركوا مثل البربر فى غمار الفتن والمؤامرات التى اندلعت فى قرطبة وغيرها . وكان من أشهر زعمائهم فيها خيران الصقلبى .

كما كان لهم دور ايضا فى الحياة العلمية حيث برز من بينهم بعض العلماء والأدباء والشعراء مثل فاتن الصقلبى الذى برع فى الأدب وناظر صاعدا العالم اللغوى عند المنصور بن أبى عامر فأفحمه وأعجب به المنصور ، ويذكر أنه وجد فى تركته بعد وفاته دفاتر أدبية حسنة الضبط . كما الف الأمير مجاهد الصقلبى صاحب دانية كتابا فى العربية يدل على قوته فيها(١٦) ويذكر ابن الأبار أن حبيبا الصقلبى الف زمن هشام

---

(١٥) اخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ١٤٥ — ١٤٦ ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣١٩ ، تاريخ العرب فى اسبانيا ص ٣٨٠ .

(١٦) الضبى : بغية الملتمس ص ٤ .

المؤيد كتابه (الاستظهار والمغالبة على من انكر فضل الصقالبة) يتعصب فيه لقومه . وذكر ابن بسام انه اطلع على هذا الكتاب الذى احتوى على جملة من اخبارهم ونوادرهم واشعارهم ولكنه اعتذر عن عدم ذكر شيء منها فى كتابه الذخيرة حيث قال « وشعرهم خارج عن شرطنا وليس من جمعنا »(١٧) .

كما كان لهؤلاء الصقالبة اثر ايضا فى الحياة الاجتماعية حيث جلبوا معهم من بلادهم الكثير من عاداتهم وتقاليدهم وفنونهم ، وقد اشار الطرطوشى إلى اختصاصهم بأنواع من الالحان والرقصات الشعبية نسبت إليهم مثل اللحن الصقلبى والرقص الصقلبى الذى يذكرنا بشيء منه الرقص الإسبانى الحديث (الفلامنجو)(١٨) .

ولذلك يرى المستشرق الإسبانى خوليان ريبرا : أن الصقالبة كانوا يمثلون العنصر الأوربى فى المجتمع الأندلسى ، وعن طريقهم انتقلت بعض الصور الشعرية التى شاعت فى الأندلس إلى البيئات الأوربية واثرت فيها(١٩) .

ويبدو ان الصقالبة كانوا يعتبرون انفسهم عنصرا متميزا ولذلك فإنهم لم يختلطوا كثيرا بالعناصر الأخرى ، وحاولوا المحافظة على كيانهم الخاص مما بعث فيهم النزعة العنصرية اكثر من غيرهم ، ولذلك فإنهم كانوا اساس الحركة الشعوبية فى الأندلس تلك الحركة التى انبعثت من الإمارات الصقلبية فى عصر ملوك الطوائف ، حيث استطاع الصقالبة

---

(١٧) الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة جـ ١ ق ١ ص ٢١٠ .

(١٨) الحواد ث والبدع ص ٧٨ تحقيق محمد الطالبى تونس سنة ١٩٥٩ م .

(١٩) الإسلام فى إسبانيا ص ٣٨ .

أن يستأثروا بنصيب من تركة الخلافة الأموية فكونوا لهم ممالك فى شرق الأندلس وخاصة فى بلنسية ، وطرطوشة ، ودانية ، والمرية ، ومرسية .

وكانت هذه الممالك الصقلبية تجمعها رابطة تحالف وولاء عنصرى وتسمى بالدولة العامرية الصقلبية تمييزا لها عن الدولة العامرية التى أسسها المنصور بن أبى عامر . لأن أصحابها كانوا من مماليك العامريين(٢٠) .

ومما يدلنا على نزعة الصقالبة الشعوبية ضد العرب كتاب ابن حبيب السابق ذكره والذى اعتبره البعض البداية الأولى للشعوبية فى الأندلس ، وكذلك تلك الوثيقة المحفوظة حتى اليوم وهى رسالة أبى عامر بن غرسية (٢١) إلى الشاعر أبى عبد الله الحداد أو أبى جعفر الخراز والتى يفضل فيها العجم على العرب(٢٢) .

ويبدو أن السبب فى هذه النزعة الشعوبية بين الصقالبة بخاصة أن معظم أهالى الإمارات الصقلبية التى انتشرت فيها هذه النزعة

---

(٢٠) المختار من عالم الفكر ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(٢١) غرسية تعريب جارسيا Garcia ومعناه فى الإسبانية صاحب الحيلة أو الثعلب أو الماكر كما ورد فى معجم المجمع العلمى الإسبانى ، وهو اسم شائع فى أسبانيا تسمى به كثير من الملوك والأمراء ومنهم غرسية ملك البشكنش ، كما تسمى به بعض المحدثين ومنهم المستشرق الإسبانى إميليو جارسيا جوميز (نوادر المخطوطات ص ٢٣١) .

(٢٢) اختلف فيمن أرسل إليه ابن غرسية هذه الرسالة فذهب الكثيرون إلى أنه أبو جعفر بن الخراز ، وذكر البعض أنه أبو عبد الله ابن الحداد أو أبو بكر بن الحداد .

=

كانوا من الموالى من الصقالبة والإفرنجـــة والبشكنس الذين رحب بهم الصقالبة فى ولاياتهم كما ذكر ابن حيان « بينمـــا زهـــدوا فى الأمـــراء من العرب وابنائهم ممن طرا عليهم فلم يوانسوهم »(٢٣) .

* * *

والأرجح انه (ابو جعفر احمد بن محمد بن احمد بن ســـــهل الأنصارى المعروف بابن الخراز) . كما نص على ذلك ابن ســـعيد فى ترجمتـــه لابن غرسية (المغرب ج ٧ ص ٣٣٥ — ٣٣٦) ، لانه ترجم لابن الحـــداد فى موضـــع آخر إذن فهما شخصان مختلفان ، ويبدو أن الاختلاف جـــاء من تصحيف بعض النساخ لقرب كلمتى الحـــداد والخراز من بعضهما (انظر نوادر المخطوطات ص ٢٣٥ — ٢٣٦) ه وقد نشر الأستاذ عبد السلام هارون هـــذه الرسالة فى نوادر المخطـــوطات (ج ٢ ص ٢٤٦ — ٢٥٤) والـــردود عليهـــا من المعاصرين لابن غرسية من العرب ، وغير المعاصرين .

وابن غرسية من أصل مسيحى بشكنسى اسلم واتقن العربية وآدابها حتى لقب بالشاعر والكاتب عاش فى مملكة دانية الصقلبية وخـــدم فى بلاط مجاهـــد العامرى الصقلبى وابنه على ولذلك تعصب ضـــد العرب فكتب رسالته هـــذه . (انظر : نوادر المخطوطات ج ٣ ص ٢٣٢) .

(٢٣) ابن بسام : الذخيرة القسم الثالث ورقة ٣ أ نقلا عن المختار من عالم الفـــكر ص ١٢٩ .

ثامنا : النورمان (الفايكنج)

وهناك عنصر آخر فرض نفسه على الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الاوسط بغاراته البحرية على شواطئها فى فترات عديدة من العصر الأموى . ويسمى هذا العنصر فى المصادر العربية باسم (النورمانيين ، والأردمانيين ، والمجوس) وهو تحريف للكلمة الانجليزية Norsemen او الإسبانية Normandes وتطلق على اهل الشمال من الدول الاسكندنافية أو سكان اسكندناوه(١) .

ولا تزال توجد فى فرنسا حتى اليوم ولاية أو مقاطعة تحتفظ باسمهم وهى نورماندى أو نورمانديا حيث استقروا بها فى اوائل القرن العاشر الميلادى بموجب معاهدة بين ملكهم رواو وملك فرنسا شارل الثالث الملقب بالابله نتيجة لكثرة غزواتهم المدمرة على سواحل فرنسا كما اقامت جماعة منهم فى جنوب إيطاليا ، واستخدمتهم الكنيسة فى محاربة المسلمين فى الأندلس وصقلية ، فقد هاجموا الأندلس سنة ٤٥٦هـ واستباحوا مدينة بربشتر شمال شرق سرقسطة،وهاجموا صقلية بعد ذلك

---

(١) المختار من عالم الفكر ص ١٣٠ . وتسمية معظم المصادر العربية لهم بالمجوس لا تعنى أنهم من جنسهم الفارسى ، وإنما إعتقادا منهم بأنهم كانوا يعبدون النار وهو اعتقاد خاطىء ، حيث كانوا إذا ما نزلوا فى مكان خربوه ونهبوه واشعلوا النار فيه مثل القراصنة ، كما كانوا يحرقون جثث موتاهم فظن هؤلاء المؤرخون انهم يعبدون النار مثل المجوس ، ولعلهم قصدوا من هذه التسمية انهم وثنيون حيث كانوا يعبدون النجوم ومظاهر الطبيعة وقد ذكر أ. احمد امين انهم سموا بذلك لأنهم كانوا مجوسا قبل أن يتنصروا (ظهر الإسلام جـ ٣ ص ١٠٨) . ولكن ليست هناك ادلة على ذلك .

ســـنة ٤٦٤ هـ (٢) .

وكان موطنهم الأصلى فى المناطق المحيطة بالبحـر البلطى (بحـــر البلطيق) ، وقـــد انقسموا إلى ثلاث مجموعات : السويديون والنرويجيون والدنماركيون (سكان دنماركة أو دانمارشة) وهؤلاء هم الذين هاجمـوا سواحل الأندلس وسواحل المغرب ايضا .

وكانت بداية غاراتهم البحرية على الأندلس فى سنة ٢٢٩هـ/٨٤٤م فى عهد الأمير عبد الرحمن الثانى (الأوسط) . وكانوا يتميزون بتحركاتهم السريعة الخاطفة ، والأسهم النارية التى يطلقونها ، والأشرعة السوداء التى تميز سفنهم وشبهها بعض المؤرخين بالطير الجون (٣) .

وقد استطاعوا فى أولى غاراتهم هذه التى استمرت أكثر من ثلاثـــة شهور أن يحتلوا مدينة إشبيلية عـــدة أيام ، بعـــد أن هاجموا أشـــبونة لشبونة بالبرتغال حاليا) ، واستطاع أهلها ردهم بعد معارك عنيفة حتى

وأما تسميتهم بالفايكنج فانها مشتقة من كلمة Vik النرويجيـــــة . وتعنى ساكن الخلجان .

ولهذا اطلق هذا الإسم على سكان شبه جزيرة إسكنديناوة لكثرة خلجانها ، وورد فى المعاجم الإسبانية أن كلمة Vikings تعنى المحاربين ولا تعارض فهم سكان شبه الجزيرة المحاربين (الأمويون أمراء الأندلس ص ٣١٨) .

(٢) د. سعيد عاشور : أوربا فى العصور الوسطى حـ١ص٣٢٧ — ٣٢٩، المدنى : المسلمون فى صقلية وإيطاليا ص ٣٠ — ٣١ د. الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٣٠٨ .

(٣) إبن عذارى : البيان المغرب حـ٢ ص ١٣٠ ، د. عاشور : أوربا فى العصور الوسطى جـ ١ ص ٢١٠ وبعدها ، د. الحجى : المرجع السابق ص ٣٢٧ .

استطاع الأسطول الأندلسى الناشىء الوصول إليهم ومحاربتهم عند طليطلة وإشبيلية وردهم على أعقابهم . وقد قاموا بعد ذلك بعدة غارات على الأندلس فى سنة ٢٤٥ هـ ، سنة ٢٤٧ ، سنة ٣٥٥ هـ ، سنة ٣٦٠هـ، سنة ٣٦١ هـ (٤) .

غير أن عددا كبيرا منهم لم يتمكنوا من اللحاق بإخوانهم اثناء الإنسحاب ، فوقعوا اسرى فى يد المسلمين ، فخيروهم بين الإسلام أو القتل فقبلوا الإسلام ، وسكنوا ضواحى إشبيلية ، وأختلطوا بأهلها ، واشتغلوا بالزراعة وتربية الحيوانات ، وصناعة الأجبان — التى يشتهر بها الدانمركيون إلى اليوم . (٤)

فيحدثنا المقرى نقلا عن المؤرخ الحجارى — نسبة إلى وادى الحجارة — « أن مدينة شريس — وهى بنت إشبيلية وواديها وابن واديها — اختصت بإحسان الصنعة فى المجبنات وطيب جبنها معين على ذلك ، ويقول أهل الأندلس من دخل شريش ولم يأكل بها المجبنات فهو محروم » . (٥)

هذا وقد كان لغارات النورمان آثار هامة من النواحى السياسية والحربية ، فضلا عن النواحى الاقتصادية والاجتماعية لمن اقام منهم بالأندلس .

فقد لفتت هذه الغارات نظر الأمويين فى الأندلس إلى اهمية

---

(٤) د. الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٢٢٧ ، المختار من عالم الفكر ص ١٣١ ، د. الشعراوى : الامويون أمراء الأندلس الأول ص ٢٢٠

(٥) نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٤ والمجبنات : نوع من القطائف المحشوة بالجبن تقلى بالزيت . (د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٢٣٣ هامش ١) .

إقامة علاقات سلمية بينهم وبين هؤلاء النورمان ، فارسل الأمير عبدالرحمن الأوسط سفارة إلى ملك الدانمارك (هوريك) سنة ٢٣٠هـ برئاسة الشاعر يحيى الغزال . (٦)

كما أن هذه الغارات قد لفتت الأنظار ونبهت الأذهان إلى ضرورة تحصين سواحل الأندلس ، وبناء اسطول قوى يستطيع حمايتها من المعتدين ، ولذلك فقد بدأ الأمير عبد الرحمن الأوسط عقب الهجوم الأول مباشرة فى تحصين مدينة إشبيلية بأسوار عالية ، واقام نقاطا للحراسة على طول الساحل الغربى للأندلس عرفت بالرباطات كان يقيم فيها المرابطون من المجاهدين ، واهتم بانشاء دور لصناعة السفن تم فيها بناء الكثير من المراكب والسفن وتزويدها بالآلات والأسلحة والمنجنيقات والحراقات . وكان هذا ميلادا للبحرية الأندلسية التى استطاعت فيما بعد ان تسيطر على غرب البحر المتوسط (٧) .

كما تأثر الأندلسيون بفن صناعة السفن عند النورمان فقد ذكر ابن عذارى أن الخليفة المستنصر أمر بصنع مراكب على هيئة مراكبهم ووضعها

---

(٦) تحدثت عن هذه السفارة بالتفصيل فى بحثى عن السفارات بين الأندلس والدول الأجنبية ص ١٩ — ٢٠

(٧) إبن القوطية : تاريخ إفتتاح الأندلس ص ٦٧ . يرجح ان يكون البيزنطيون هم الذين توصلوا إلى إستخدام الحراقات او النار الإغريقية أو كرات النفط المشتعلة التى ترمى سنة ٥١٦م ، ثم أدخلوا عليها تحسينات على يد رجل يدعى (كالينكوس) وكان من أصل سورى ثم أقام فى القسطنطينية واستخدم هذا التركيب المحسن لأول مرة أثناء حصار المسلمين لها سنة ٦٠ هـ فى عهد يزيد بن معاوية ، ونتج عنه إنسحاب الأسطول العربى عن المدينة (راجع

—

ى نهــر الوادى الكبير إستعدادا لقتالهم بها على نفس طريقتهم وكـــان يطلق عليها اسم القراقير (٨) .

ولا يبعد أن يكون الذين أقاموا منهم فى إشبيلية واســتقروا قــد ساهموا بخبراتهم فى صناعة هذه السفن أو المراكب الجديدة .

وقــد جاء فى كتاب الجغرافية — المنســوب إلى أبى عبد الله محمد ابن أبى بكر الزهرى حوالى منتصف القرن السادس الهجرى — « أنه كانت تخرج من البحر مراكب عظام كان أهــل الأندلس يسمونها القراقير وهى مراكب كبــار بقلوع مربعة ، تجرى إلى أمامها وإلى خلفهــا ، وكان يخرج فيها اقــوام يعرفون بالمجوس كانت لهم شــدة وبأس وقــوة وجلد على ركوب البحــر ، وكانوا متى ما خرجوا خلت سواحل البحر مخافة منهم ، وكانوا أقل ما يخرجون فى أربعين مركبا ، وربما بلغــوا المــائة مركب ويغلبون كل من لقوه فى البحر ويسبونهم ويأسرونهم » . (٩)

كما أن احداث هذه الغارات قد تركت آثارا فى النواحى الأدبيــة والتاريخية فقد تحدث عنها الكثير من الأدباء والمؤرخين ، وظــل صداها مسموعا فى الأدب والتاريخ الأندلسى زمنا طويلا .

=

لويس ارشيبالد : القوى العربية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ص ٢١٤) . وكان هـــذا السلاح مكونا من مركب كيميائى من النفط والكبريت والقــار تقــذف به المراكب فتشتعل ولا ينطفىء بالمــاء بل يزداد اشــتعالا . (د. إبراهيم العــدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ١٧٦ ، العالم الإسلامى فى العصر الأموى ص ٢٥٢) .

(٨) البيان المغرب جـ٢ ص ٣٥٦ والقراقير جمع قرقــور وهو السفينــة الطويلة العظيمة (المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٧٣٦) .

(٩) كتاب الجغرافية ص ٢١٥ رقم ٢٤٠ نقلا عن د. الحجى : التــاريخ الأندلسى ص ٢٢٨ .

الفصل الثانى

العلاقات بين عناصر السكان

اولا : الاختلاط بين الأجناس

كان فتح العرب للأندلس ــ كغيرها من البلــدان الأجنبية ــ سببا مهما فى حدوث عملية اختلاط وامتزاج كبيرة بينهم وبين سكانها من الإسبان وغيرهم ، إختلاط فى الأنساب والدماء ، واقتباس فى النظم والعــادات والتقاليد ، وامتزاج فى العقيدة الدينية ، وامتزاج فى اللغة ، حيث دخل كثير من هؤلاء السكان فى الإسلام وتعلموا اللغة العربية ، كما تعلمها كثير ممن لم يدخل فى الإسلام لأنها غدت لغة العلم والثقافة ، وسمى هــؤلاء بالمستعربين . Losmozarebes

وقد ساعدت عدة عوامل على حدوث هــذه العمليــة من اهمها : التعاليم السمحة والقيم النبيلة التى جــاء بها الإسلام ، وادت إلى دخول الكثيرين فيه ، ثم الاختلاط بين العرب وبين أهل هذه البلاد فى الســكنى والجوار ، والتعامل فيما بينهم فى كثير من نواحى الحياة . (١)

وقد ادت الفتوحات التى قام بها المسلمون فى الأندلس إلى دخــول الكثير من العبيد والإماء فى ملكهم بعد أن أصــبحوا اسرى لهم ، وبذلك اصبح لكل جندى منهم عــددا من الرقيق يستخدمهم فى قضاء حوائجه ، ويستولد الإماء منهم فيصرن امهات أولاد ، ونتج عن ذلك جيل مولد لــه صفات مختلفة تجمع بين الجنسين ، وحدثت بعــد ذلك عمليــة اختلاط بشرية واسعة النطاق ، نظرا لأن المسلمين عندما دخلــوا الانــدلس لم

---

(١) احمد امين : فجر الإسلام ص ٨٥ ط١٢ مكتبة النهضــة المصريــة ســنة ١٩٧٨ م .

يصطحبوا معهم زوجاتهم أو عائلاتهم(٢) ، وكان منهم الكثير من غير المتزوجين ، ولهذا فانهم اضطروا إلى الإرتباط بعلاقات المصاهرة مع اهل هذه البلاد وخاصة الإسبان ، هذا بالإضافة إلى حسن معاملة الإسلام لأهل الذمة مما ادى إلى ازدياد الصلات بينهم وبين المسلمين الفاتحين .

ولعل ما يروى من قصص حول زواج بعض القادة المسلمين بالإسبانيات — وإن كان يبدو فى بعضها مسحة من المبالغة أو الخيال — يعطينا فكرة واضحة عن هذه الظاهرة الإجتماعية الهامة التى كان لها اثرها الكبير فى نواحى شتى .

ويذكر أن عبد العزيز بن موسى بن نصير كان أول من تزوج من الإسبانيات ، فقد تزوج من (إيخلونا) أرملة لذريق آخر ملوك القوط والتى تسميها المصادر العربية ايله وتكنيها بأم عاصم(٣) .

وحذا حذوه الكثير من العرب مثل زياد بن النابغة التميمى الذى تزوج من إحدى أميرات إسبانيا(٤) ، وعيسى بن مزاحم الذى تزوج من سارة القوطية بنت المند بن غيطشة فى دمشق عندما ذهبت تشكو للخليفة هشام بن عبد الملك عمها أرطباش ، ثم قدمت معه إلى الأندلس

---

(٢) هناك حالات فردية شذت عن هذه القاعدة ، مثل طارق بن زياد الذى ذكر أنه اصطحب معه زوجته أم حكيم وتركها فى الجزيرة الخضراء فسميت بعد ذلك باسمها ، وموسى بن نصير الذى اصطحب معه زوجاته وبناته كما يفهم من كلام صاحب الإمامة والسياسة (حـ١ ص٨١).

(٣) تذكر بعض المصادر اخرى انها كانت إبنة لذريق (انظر البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٤ ، فتوح مصر والمغرب ص ٢٨٥) .

(٤) البيان المغرب جـ٢ ص ٢٣ ، اخبار مجموعة ص ٢٠

بعد زواجهما وسكنا إشبيلية وأنجبت منه إبراهيم وإسحاق (٥) . ويعتبر عيسى هذا جد المؤرخ الأندلسى المشهور بابن القوطية وهو (أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن ابراهيم بن عيسى بن مزاحم ت٣٦٧هـ) وقد روى ذلك فى كتابه (تاريخ إفتتاح الأندلس) .

وبعد وفاة عيسى بن مزاحم سنة ١٣٨ هـ تزوجت سارة من عمير ابن سعيد فولدت له ولدا يدعى حبيب وهو جد بنى سعيد وبنى حجاج وبنى مسلمة وبنى حجر الجرز وهم أشراف ولد عمير باشبيلية(٦) .

كما تزوج القائد البربرى (مونوسه) — الذى كان حاكما على شرطانية شمال إسبانيا واشترك مع القائد العربى عبد الرحمن الغافقى فى الفتح جنوب فرنسا — من ابنة الدوق (أودو) حاكم إقليم أكيتانيا وتدعى (لامبجييه أو مينيين)(٧) .

كما تزوج الأمير الأموى عبد الله بن محمد والى قرطبة من الأميرة البشكنسية ونقه أو (انيجا) المعروفة باسم در — إبنة ملك نافار (فرتون ابن غرسيه) المعروف بالأنقر — والذى وقع فى أسر المسلمين ، وظل فى قرطبة نحو اثنين وعشرين عاما — وانجب منها إبنه محمد والد عبدالرحمن الناصر ، كما تزوج الشاعر تمام بن عامر بن علقمة (ت ٢٨٣ هـ) — الذى تولى الوزارة للأمير محمد ولولديه المنذر وعبد الله — من ابنة رومانوس قومس جنوب اسبانيا زمن القوط وتكنيها المصادر العربية بأم إلوليد

---

(٥) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٧ .

(٦) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٠ — ٣٢ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

(٧) انظر : تاريخ غزوات العرب ص ٨٨ ، فجر الأندلس ص ٢٥٢ .

بنت خلف بن رومان النصرانية فكان من نسله الكثير من الكتاب والعلماء، والقضاة ومنهم الوزير الكاتب عيسى بن فطيس وابنه عبد الرحمن ابن عيسى المحدث وقاضى الجماعة بقرطبة ٣٩٤ — ٣٩٥ هـ(٨) .

ولذا كان الناصر — كاكثر بنى أمية من المولدين بالأندلس — يتصف ببياض اللون وشقرة الشعر وزرقة العينين ، ولذلك لقبوا فى الملاحم الفرنسية بالملوك الشقر(٩) .

كما تزوج الخليفة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر من بشكنسية تدعى (أورورا) وتعرف بصبح فى المصادر العربية ، وهى التى ولدت له ابنه هشام المؤيد الذى تغلب عليه المنصور بن أبى عامر ، واستطاع أن يصل عن طريقها إلى السلطان والنفوذ(١٠) .

كما تزوج المنصور بن أبى عامر من ابنه ملك نافار (سانشو غرسية) المعروف بشانجة ، وقد اعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم (عبده) ، وانجب منها المنصور ولده عبد الرحمن الذى عرف باسم شنجول فى المصادر العربية . حيث أطلقت عليه والدته اسم (سانشويلو) اى سانشو الصغير تكريما لذكرى والدها(١١) .

وتزوج مطرف بن موسى القسوى حاكم الثغر الأعلى (سرقسطة

---

(٨) ابن حيان المقتبس جـ ٢ ص ٧٦ ، ١٨٢ ، بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٦٠٣ ترجمة د. حسين مؤنس ، الصلة ص ٣٠٩ ، ترتيب المدارك ص ٢ — ٤ ، ص ٦٧١ .

(٩) البيان المغرب جـ ٢ ص ١٥١ ، د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ٢٤ — ٢٥ ، مجلة عالم الفكر ص ٩٧ .

(١٠) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٥٣ ، مجلة عالم الفكر ص ٦٧ .

(١١) البيان المغرب جـ ٣ ص ٣٨ ، اعمال الأعلام جـ ٢ ص ٦٦ .

وما حولها) من الأميرة (فلشكيطة) بنت سانشو ملك نافار ، كما تزوج اخوه موسى من اوربه بنت غرسية ابن ونقه ملك نافار أيضا(١٢) .

وإذا كانت المصادر قد حفظت لنا هذه الأمثلة للأمراء والخلفاء والقادة ، فلا شك ان الكثيرين من العامة والجند قد فعلوا ذلك ، فالناس على دين ملوكهم كما يقولون .

ومما يدل على مدى انتشار هذا الزواج المختلط وكثرته ، ما ذكره المراكشى حين قال : « وملأ المنصور بن أبى عامر الأندلس غنائم وسبيا من بنات الروم ، وأولادهم ونسائهم . وفى أيامه تغالى الناس بالأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلى وذلك لرخص اثمان بنات الروم ، فكان الناس يرغبون فى بناتهم بما يجهزونهن به ، ولولا ذلك لم يتزوج احد . بلغنى أنه نودى على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة ، وكانت ذات جمال رائع فلم تساو أكثر من عشرين دينار عامرية »(١٣) .

وفى هذا المعنى أيضا يذكر ابن عذارى : أنه عقب وفاة المنصور خرج الناس صائحين (مات الجلاب ، مات الجلاب)(١٤) وهى كلمة كانت تطلق على بائع الدواب أو النخاس (بائع الرقيق) ، واستعملت

---

(١٢) انظر عن نسب اسرة بنى قسى جمهرة انساب العرب ص ٥٠٢ تحقيق عبد السلام هارون ط ٤ دار المعارف بمصر ، المختار من عالم الفكر ص ٩٧ .

(١٣) المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ص ٢٤ مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٤ هـ .

(١٤) البيان المغرب جـ ٣ ص ١٣ .

هنا بمعنى المدح للمنصور والترحم على أيامه لكثرة السبايا فى غزواته .

وقد حبب العرب والبربر فى هذا الزواج ما عرف عن الإسبانيات من جمال وبياض بشرة ، وصفرة شعر وزرقة عيون وهى صفات احبوها كثيرا لأنها كانت جديدة عليهم »(٩) .

وقد نتج عن طريق هذا الزواج المختلط جيل من المولدين نشا على الإسلام ، وتعلم العربية ، واصبح يؤلف على عهد بنى امية الكثرة الغالبة من السكان ، ومنه تكونت جماهير الأندلسيين(١٠) .

وقد اشتهر هذا الجيل المولد بصفات عدة : منها : الجمال والذكاء والشجاعة ، وكان له اثره الكبير فى تاريخ الأندلس وحضارتها .

---

(٩) احمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢ ط ٤ مكتبة النهضة سنة ١٩٦٦ م .

(١٠) فى بعض الأحيان القليلة او النادرة كانت تحدث زيجات عكسية ، حيث يتزوج بعض الملوك أو الأمراء الأسبان بزوجات لبعض المسلمين ، مثل زواج ونقة بن ونقة ملك نافارا من أرملة موسى ابن فرتون بن قسى أمير الثغر الأعلى بعد وفاته ، وزواج احد حكام جليقية من جميلة اخت محمود بن عبد الجبار المصمودى البربرى الذى أعلن الثورة فى ماردة سنة ٢١٣ هـ على الأمير عبد الرحمن الأوسط ، واضطر بعد هزيمته إلى اللجوء إلى جيليقية وبقيت أسرته هناك ، وقد أنجب منها ولدا صار اسقفا على مدينة شانت ياقب (سانت يعقوب) (أنظر : المختار من عالم الفكر ص ٩٧) .

ونظرا لأنه لا يجوز لمسلمة ان تكون زوجة لغير مسلم فلابد وأن امثال هؤلاء الزوجات كن على ديانتهن النصرانية بعد زواجهن بالمسلمين ، او انهن اجبرن على التنصر ، أو تحولن إلى المسيحية .

وقد احتفظ كثير من أبناء هذا الجيل من المولدين بأسمائهم الإسبانية القديمة وعرفوا بها بعد تعريبها مثل بنو أنجلين ومنهم محمد بن عمر بن خطاب بن انجلين احد زعماء المولدين بإشبلية في عهد الأمير عبد الله(١١) وبنو شبرقة ومنهم على بن حسن المعروف بابن شبرقة (ت حوالى ٣٠٠ هـ) وكان من أهل بطليوس وبنى بها مسجدا على نفقته(١٢) . وبنو يليان (جوليان) حاكم سبته أيام الفتح ، ومنهم أبو عمر احمد بن سليمان بن أيوب بن سليمان بن حكم بن عبد الله بن البلكايش ابن اليان القوطى (ت ٣٨٨ هـ) وكان من مشاهير علماء قرطبة(١٣) ، وكذلك بنو الجريج (جورج) وبنو لنتق ، وبنو القبطرنه (كابتورنو) أى الراس المستدير ، وبنو مردنيش (مارتنيز) ، وبنو غرسية ملوك البشكنس الذين ينسب إليهم ابن غرسية الشعوبى الاندلسى المشهور ، وبنو ردلف (رودلف) ، وبنو موسى بن فرتون القسوى أصحاب تطيلة والثغر الأعلى (سرقسطة) فى عهد بنى أمية ، وكان جدهم فرتون قومس الثغر فى عهد القوط(١٤) .

وهناك الكثير من المولدين ممن ينتسبون إلى اسر شهيرة ذات

---

(١١) ابن حيان : المقتبس ص ٧٤ نشر ملشور انطونية باريس سنة ١٩٣٧ م .

(١٢) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس جـ ١ ص ٢١٢ ترجمة رقم ٩١٨ .

(١٣) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس جـ ١ ص ١٨٨ — ١٨٩ ترجمة رقم ٥٦٦ ، اعمال الأعلام جـ ٢ ص ٤٩ .

(١٤) انظر ابن حيان : المقتبس ص ١٦ ، ٧٤ .

أصـــول اسبانية نذكر منهم : ابا الفتح نصر بن ابى الشمول (ت ٢٣٧ هـ) الذى تنسب إليه منية نصر وكان أبوه من نصارى قرمونة(١٥)

وايوب بن عبد ربه السرقسطى الأصـــل وكان من المسالمة المولدين تولى قضـــاء اشبيلية(١٦) ، وعبد السلام بن بسيل الرومى وكان احـــد مشاورى ووزراء عبد الرحمن الداخـــل . والعلامة الحافظ بقى بن مخـــلد (ت ٢٧٦ هـ) الذى يرجـــع إلي اصل اســـبانى كذلك(١٧) . والأقشتين محمد بن عـاصم (ت ٣٠٧هـ) وهو أول من ألـــف فى طبقـــات الكتـــاب بالأندلس ، والفقيـــه ابو محمـــد الأصيلى (ت ٣٩٢هـ) ، وكان جـــده من مسالمة اهـــل الذمة وعمل أبوه وراقا للحكم المستنصر ، واصـــله من شـــذونة أو من الجـــزيرة الخضراء(١٨) . وكذلك أحـــمد بن عبـــد الله القرطبى ، وهـــو ابن أخى قـــومس كاتب الأمير محمـــد وقـــومس هـــو ابن انتنيـــان بن يليـــانة النصرانية ، اســـلم بعـــد ســـنة ٢٤٦ هـ واشـــتهر بكثرة العبـــادة حتى نســـمى بالســـجاد العبـــاد حمـــامة المسجد (مسجد قرطبـــة الجـــامع)(١٩) . وكان لـــه ابن يسمى عمر ابن قومس الكاتب ت ٢٩٨هـ(٢٠) .

وكذلك محمد بن يحيى بن عمر بن لبـــابة (ت ٣٣٠ هـ) المعروف بالبرجون وهو من أسرة قرطبية شهيرة ظهر منها العديد من العلماء الأعلام

---

(١٥) جمهـــرة أنساب العرب ص ٩٦ .

(١٦) التكمـــلة جـ ١ ص ١٩٨ ترجمـــة ٥٢٣ .

(١٧) نفح الطيب جـ ٢ ص ٤٧ ، ٥١٨ ، جـ ٣ ص ١٦٨ ، بغية الملتمس ص ٢٤٥ — ٢٤٦ ترجمـــة ٥٨٤ .

(١٨) ترتيب المدارك ص ٣ — ٤ ، ص ٦٤٤ ، ٦٤٣ .

(١٩) أنظر : تاريخ علمـــاء الأندلس ص ٩ ترجمـــة ١١١٣ ، الخشنى : قضاة قرطبة ص ٧٦ .

كمحمد هــذا واخيه احمد وعمر(٢١) ، وابو المطرف بن فورتش (٣٨٦) الذى تولى قضاء سرقسطة وكان منهــا ، وابو وهــب منتيل بن عفيــف (ت ٣١٧ هـ) ، وكان من أهــل وشقة ، وابو عمر بن قزلمــان القرطبى (٣٧٧ هـ) . وغير هؤلاء كثيرون ممن حفلت بهم كتب التراجم الأندلسية . وحسبنا أن نتصفح هــذه الكتب لنجــد العــديد من أسماء الأمراء والقادة والفقهاء والكتاب التى تدل على اصــل أسبانى .

وقد كان من شأن كثرة أبنــاء هــذا الجيل المولد انتشــار اللغــة الرومانثية (اللاتينيــة الحــديثة) بين الأندلسيين ويسميها المؤرخــون العرب العجمية أو اللطينية . وعن طريقهم تداخلت العربيــة والرومانثية تداخلا كان من مظاهره نشأة فن الموشحات(٢٢) .

ومع أن هؤلاء المولدين كانوا يدينون بالاسلام ، ويتحدثون العربية ، ويتخــذون غالبــا نمط الحياة التى يتخــذها المســلمون الوافــدون على الأندلس ، فإنهم لم يفقدوا شخصيتهم تماما باعتبارهم منحدرين من أصول اسبانية فى الأصل ولم يتناسوا ثقافتهم الوطنية ، ولذلك فقد تعصب كثير منهم لأصلهم الأسبانى رغم إسلامهم ، وتحالفوا مع إخوانهم من النصارى ضد العرب ، واستغلوا فترات ضعف الدولة الأموية وبخاصة أيام الأمير عبد الله ، وثار بعضهم فى عدة أماكن من الأندلس مثل ثورة عمر بن حفصون فى ببشتر ، وثورة عبد الرحمن بن مروان المعروف بابن الجليقى فى ماردة وبطليوس الذى « كانت دعوته عصبية للمولدين على العرب » وثورة يحيى

---

(٢١) انظر تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٣٧ ، ج ٢ ص ٥١ ج ٢ ص ٣٥ تراجم رقم ١١٥ ، ١٣٣١ ، ١١٨٩ ، وجــذوة المقتبس ص ٩٨،٤٧ .

(٢٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٤٣ ، لطفى عبد البــديع :

(٢٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٤٣ ، الإسلام فى إســبانيا ص ٢٥ ، د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٥٠ .

ابن بكر بن ردلف (رودلف) فى شنت مرية باشكونية(٢٣) .

وقد تألفت منهم جماعات كبيرة فى مدن الأندلس الهامة مثل طليطلة التى كانت من أهم مراكز تجمعهم — لأنها كانت عاصمة إسبانيا القديمة — إلى جانب النصارى ولذلك شهدت هذه المدينة الكثير من الثورات ومحاولات الانفصال عن سلطان الدولة الأموية فى قرطبة . ومن أخطر هذه الثورات تلك الثورة التى قامت فيها فى عهد الحكم الربضى سنة ١٨٩ هـ(٢٤) وكان يتولى أمرها امراء مولدين مثل عمروس الوشقى ولب بن طريبشة . وكذلك كانت إشبيلية معقلا هاما من معاقلهم ، وكان المولدون فيها يعملون غالبا بالتجارة فجنوا ارباحا طائلة ، وكان كثير منهم من الأثرياء الذين انفوا من العصبية العربية فتعصبوا ضد العرب لبنى جنسهم(٢٥) .

* * *

(٢٣) ابن حيان المقتبس ص ١٥ — ١٦ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ١٢٩ .

(٢٤) عنها راجع د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٢٢ ، د. محمد زيتون : المسلمين فى المغرب والأندلس ج ١ ص ٢٩٣ وبعدها .

(٢٥) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٢٩ .

ثانيا : الامتزاج بين الثقــافات

انتشار اللغــة العربية بين الأســبان :

وإذا كان هنــاك امتزاج جسمى عــن طريق الزواج المختلط فقــد وجــد هناك تلاقح بين اللغات والثقــافات فى الأندلس وتأثير متبــادل بينها ، واحتكاك ثقافى أدى إلى ظهــور الحضــارة الأندلسية بخصائصها المتميزة .

فقــد انتشر الإســلام بين الكثيريين من ســكان شــبه الجزيرة الإيبيرية الذين سموا (بالمسالمة) ، وكانوا أغلبية بالنسبة لغير المسلمين من الإســـبان الذين عاشــوا بجـــوار المسلمين ، وأخــذوا بالكثير من العادات والأســاليب الإسلامية ، وتعلمــوا اللغــة العربية وسموا (بالمستعربين) ، فقــد لبسوا الملابس العربية واستعملوا الختــان ، وامتنعوا عن أكل لحم الخنزير ، واتخــذ الكثير منهم أسماء عربية إلى جانب أسمائهم الإسبانية . كما أتقن الكثيرون منهم اللغة العربية .

وليس أدل على ذلك من تلك الصيحة التى أطلقها القسيس الفارو القرطبى سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م حيث كتب رسالة سماها (الدليــل المنير) ينتقد فيها بمرارة ذلك الاتجاه من الأسبان فى الإقبال على دراسة اللغــة العربية وآدابها والمذاهب الدينية للمسلمين وفيها يقول : « إن إخوانى فى المدن يجدون لذة كبرى فى قراءة شــعر العــرب وقصصهم ، ويقبــلون على دراسة مذاهب أهــل الدين والفلسفة المسلمين لا ليردوا عليهــا وينقضوها ، وإنمــا لكى يكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا صحيحا .

وأين تجــد الآن واحــدا من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التى كتبت على الأناجيل المقــدسة ؟ ومن سوى رجال الدين يعكف على دراســة كتابات الحــواريين وآثار الأنبيــاء والرســل ؟ يا للحسرة

إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا اللغة العربية وآدابها ... الخ »(١) .

ويقول (دوزى) : هجر أهل أسبانيا اللاتينية ، واشتغلوا باللغة العربية وآدابها وكانوا لا يكتبون بغيرها ، حتى أن أحد العلماء المشهورين منهم شكا من ذلك (يتصد الفارو القرطبى) .

ويقول نيكلسون : فى أوائل القرن التاسع كانت اللغة العربية هى لغة الوثائق الرسمية ، وفى هذا الوقت ترجم قسيس من أهل إشبيلية التوراة إلى اللغة العربية لتلاميذه فغضب منه زميل له واتهمه بالعمل على نشر اللغة العربية ، ودافع القسيس عن نفسه بأن هذه هى الوسيلة الوحيدة لتعليم التلاميذ ، وقد دامت هذه الحال زمنا طويلا فى قرطبة وطليطلة حتى بعد أن استولى ألفونسو السادس عليها سنة ١٠٦٥م .

ويقول توماس أرنولد : إن اللغة اللاتينية بلغت فى بعض أجزاء أسبانيا درجة كبيرة من الإنحطاط حتى لقد أصبح من الضرورى أن تترجم قوانين الكنيسة الأسبانية القديمة والإنجيل إلى اللغة العربية ليسهل استعمالها على المسيحيين ، واقبل الناس على دراسة الآداب العربية التى ازدهرت فى ذلك العصر فى حماسة وشغف(٢) .

---

(١) أنظر : د. الحجى : التاريخ الأندلسى ص ١٧٠ — ١٧١ ، أندلسيات جـ ٢ ص ٥٩ . د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٣٢ — ٣٣ ، بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٤٨٥ — ٤٨٦ .

وقد كان هذا القسيس من النصارى المتعصبين الذين أسهموا فى إثارة الفتنة المسيحية ضد الإسلام فى خلافة عبد الرحمن الأوسط والتى سميت بحركة الاستشهاد أو الانتحار .

(٢) أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى جـ ٤ ص ٨٩ — ٩٠ ، توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٦٢ .

وهكذا زحزحت اللغــة العربية اللاتينية عن عرشها الأول كما زحزح الإســـلام المسيحية وصارت اللغــة العربية هى اللغــة الرسمية ولغــة العلم والثقافة كما صـــار الإسلام هو الدين الرسمى كذلك .

وإذا كان للإســـلام اثر كبير فى انتشار اللغــة العربية لأنها لغــة القرآن الكريم ، فقــد كان لظاهرة التزاوج بين المسلمين والأســبان دور فى ذلك أيضا . وإلى جانب اللغة العربية الفصحى كانت هنـــاك لغــة عامية تستخدم فى الحياة اليومية بعيــدا عن العلم والأدب : فقــد ذكر ابن بسام فى حــديثه عن الموشحات أن مقدم بن معافى القبرى (أواخر القرن الثالث) الذى يقال إنه اخترعها « كان يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة »(٣) .

كما ذكر ابن ســـعيد المغربى (القرن السابع الهجرى) أن كـــلام اهــل الأندلس الشائع فى الخــواص والعــوام كثير الانحراف عمـــا تقتضيه أوضاع العربية . حتى لــو أن شخصا من العرب سمع كـــلام الشلوبين المشــار إليـــه بعلم النحو وهـــو يقرىء تلاميذه لضحك بمـــلء فيـــه من شدة التحريف الذى فى لسانه »(٤) .

وهـــذا دليل على أن الأندلسيين حتى العلمـــاء منهم كانوا يتحدثون بالعامية المنحرفة عن العربية الفصحى .

وكمـــا كانت الفصحى الأندلسية بمرور الزمن وبحكم البيئة وباحتكاك العنـــــاصر المختلفـــــة ذات خصـــائص محليـــة ميزتهـــا عن فصـــحى بلاد المشرق العربى ، فكذلك كانت العـــامة الأندلســـية ذات ســـــمات محلية حتى غدت عسيرة الفهم على الكثيرين(٥) .

---

(٣) ابن بسام : الذخيرة ق ١ م ٢ ص ١ ، ابن خلدون : المقدمة ص ٥٨٤ .
(٤) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣ ، ظهر الإسلام جـ ٣ ص ١٦ .
(٥) من هذه السمات انظر : د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٣٣ — ٣٨ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٦٥ — ٧١ .

انتشار الإسبانية بين مسلمى الأندلس :

وقد كان من الطبيعى نتيجة هذا الاختلاط الكبير بين العرب والإسبان أن يتأثر جيل المولدين بأماتهم الإسبانيات فى لغتهم وعاداتهم وطرائق معيشتهم ، وإذا كانت اللغة العربية قد انتشرت بين الأسبان مسلمين وغير مسلمين فإن اللغة الأسبانية العامية بصفة خاصة قد أخذت تنتشر بين المسلمين أيضا وهى التى يسميها العلماء « الرومانثية (Romance) وهى لهجة لاتينية كان يستخدمها الرومان فنسبت إليهم ، ويسميها العرب الأعجمية أو اللطينية(٦) .

ومما يدل على انتشار هذه اللغة على نطاق واسع ما ذكره ابن حزم عند حديثه بنى بلى بالأندلس . حيث قال وكأنه يتعجب « وهم لا يحسنون الكلام باللطينية لكن بالعربية فقط رجالهم ونساؤهم »(٧). وهذا دليل على محافظتهم على لغتهم العربية وعاداتهم العربية .

كما يذكر الخشنى : أن أحد القضاة شكاه بعض العامة إلى الأمير عبد الرحمن الثانى (الأوسط) فطلب الشهود عليه وكان هناك شيخ أعجمى اللسان يسمى (ينير) مقدما مقبول الشهادة فسئل عن القاضى فقال بالأعجمية : ما أعرفه إلا أن سمعت الناس يقولون : إنه إنسان سوء (باللفظ العجمى) فلما سمع قوله الأمير عجب من لفظه وقال : ما أخرج مثل هذه الكلمة من هذا الرجل إلا الصدق وعزل القاضى عن القضاء(٨) .

---

(٦) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٣٩ — ٤٠ ، مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٠٠ .

(٧) جمهرة أنساب العرب ص ٤٤٣ .

(٨) قضاة قرطبة ص ٩٦ .

(٨) قضاة قرطبة ص ٩٦ . ومن مظاهر تأثير اللغة الأسبانية على الأسماء العربية فى الأندلس إضافة المقطع الأخير المكون من الواو والنون بالأسبانية On للأسماء للدلالة على التضخيم والتعظيم مثل حفص وحفصون ، وخالد وخلدون ... الخ .

ويذكر المقدسى : انه التقى فى موسم الحج ببعض الأندلسيين فوجدهم يتكلمون لغة عربية عسيرة الفهم ولغة اخرى اعجمية(٩) .

ويروى ابن هشام اللخمى : انه نبت سن لأحد ابنـاء الأمير عبد الرحمن بن الحكم فوصفوا لـه طعاما يتناوله الأطفال عند ذلك فقال لوزرائه : هـذا الذى يسميه النـاس بالأعجمية (الذنتينية) هل روى عن العرب فيهما شيىء ؟(١٠) .

ويذكر ابن عـذارى ان الوزير الشاعر ابا القاسم لب هجـا الوزير عبد الملك بن جهـور بأبيات أمام الخليفة عبد الرحمن الناصر قال فيها :

قـال امـين الله فـى خلقـه
لى لحيـة ازرى بهـا الطـول
لـولا حيـائى من إمام الهـدى
نخسـت بالمنخـس شـوقـول

وكان أبو القاسم عندما وصـل إلى قـوله شـو سكت فقـال لـه الناصر قـول فأتمها على نحـو ما اضمر وقال لـه : انت هجوته يا مولاى — كأنه كان يقصـد ذلك — فضحك الناصر وأمر لـه بصلة(١١) .

وهـذا يدل على انتشار هـذه اللغـة العـامية الإسـبانية (الرومانسية) بين الكثيرين سـواء من علية القوم او العـامة .

وفى الشعر الأندلسى كثيرا ما نجـد الفـاظا اسبانية وما يقابلهـا

---

(٩) د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٤٠ .

(١٠) د. الأهـوانى : الفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمى فى لحن العـامة مجلة معهد المخطوطات المجلد الثالث سنة ١٩٥٧ .

(١١) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٢٧ وكلمـة شـوقـول هى ترجمة للكلمة الأسـبانية Su - Culo ومعناها الإلية او اسفل الظهر . (المختار من عالم الفكر ص ١٠١) .

بالعربية إما بطريق مباشر أو بطريق الاستعارة والكناية بصورة تدل على تمكن الشاعر من اللغة الأسبانية مثال ذلك قول ابن دراج القسطلى فى مدح عبد الملك بن المظفر بن المنصور بن أبى عامر حينما افتتح حصن لونة فى شمال أسبانيا ومعناه البدر :

وأنت الذى أوردت لونة قاهرا
خيولا سماء الأرض فيها نحورها
ويا ليت قوطا حين شاد بناءه
رآه وقد خرت إليك جوانبه
ويا ليت إذ سماه بدرا معظما
رآه فى كف العجاج مغاربه

وحين يتحدث عن احد قادة الأسبان واسمه لوبث (لوبيز) ومعناه الذئب يقول :

كم من سمى له فيها وذى نسب
لم يذخر نابه عنه ولا ظفره(١٢)

وتعتبر الموشحات والأزجال من اهم مظاهر انتشار اللغتين العربية والأسبانية بين الأندلسيين ، وهى ما يسمى بالشعر الشعبى . وقد استخدمت فيه الفاظ عامية عربية وأخرى رومانسية ، ويعتبر هذا الفن من الشعر ثورة فى عالم الشعر العربى ، وحركة من حركات التجديد فيه حررته من كثير من قواعد العروض . حيث لم يلتزم فيه القافية الواحدة كالقصيدة ، وإنما اشتمل على قواف متعددة وليس وحدته البيت الشعرى ، وإنما المقطوعة الشعرية

---

(١٢) ديوان ابن دراج القسطلى ص ١٩ ، ٢١ ، ٤١٨ المكتب الإسلامى بيروت ١٣٨٩هـ .

التى تتـــكون من غصن وقفــلٍ . اى ان الموشـــحة عبـــارة عن أغصان واقفـــال ويسمى القفـــلٌ الأخير منها بالخرجـــة .

ومن شروط هـــذه الخرجـــة أن تكون بالعامية الدارجة او بالأعجمية اى الإســـبانية وأن تكون حـــارة محرقة ، حادة منفجة كما قال ابن سناء الملك المصرى .

كما جرت العادة على أن تكون هـــذه الخرجـــة على لسان فتـــاة تتغزل فى الفتى على عكس القصيدة العربية التى نجـد الرجل فيها هـــو المحب وهـــو الذى يتغزل .

كما ان الموشحة تبـدأ من آخـرها حيث تؤخـذ العبـارة العـامية او الإســـبانية لتكون المركز او الخرجـــة ثم تبنى عليها البقيـــة . على عكس القصيدة الشـــعرية التى تهتم بمطلعها ومثال ذلك الغصن الأخير من الموشحة بمـــا فيـــه الخرجـــة :

ليـــل طـــويل
ولا معـــــين
يا قلب بعض النـــاس
لا تلـــــين
انا قـــول قـــوقـــو
ليس بالله تذوقـــو

والخرجة هنا اسبانية (قـــوقـــو CuCo ومعنـــاها المـــاكر) فالوشاح سمع من محبوبته هـــذه العبارة : انا اقـــول انت مـــكار ولن تذوق طعم قبلتى ، فاهتز لها وجعلها مركزا أو خرجة لموشحته(١٣) .

---

(١٣) د. عبد العزيز الاهوانى : الأغنية الشعبية أصل التوشيح . مجلة المجلة العدد الثانى فبراير سنة ١٩٥٧م ، د. العبادى : الإسلام فى أرض الأندلس مجـــلة المختار من عالم الفكر ص ١٠٣ — ١٠٤ .

ثالثا : النزاع بين عناصر السكان

لم يكن المجتمع الأندلسى بعد الفتح مجتمعا بسيط التركيب ، وإنما كان يتالف من عدة عناصر متباينة فى أصولها الجنسية والثقافية كما ذكرنا . وكان هذا التباين وهذا التعدد فى وقت من الأوقات مظهرا من مظاهر القوة والثراء ، ولكنه كان يحمل فى نفس الوقت بذور الضعف وأسباب التفكك والاضمحلال .

وربما كان تعدد الجماعات العرقية وتنوع العناصر البشرية فى المجتمع الأندلسى هو العامل الأول والأكثر أهمية فى ثراء ذلك المجتمع وازدهار حضارته ، والركيزة التى قام عليه فى الوقت نفسه .

ويتمثل هذا التنوع العرقى فى وجود الجماعات العربية والبربرية التى فتحت الأندلس ، وعاشت إلى جانب العناصر الوطنية أو الجماعات التى كانت تستوطن البلاد قبل الفتح . ورغم وحدة الدين والعقيدة لدى العرب والبربر فقد كان لكل من الفئتين ثقافته الخاصة المتميزة فى أصولها وعناصرها .

وقد اختلط هؤلاء الفاتحون من عرب وبربر بالسكان الأصليين الذين كانوا يعيشون فى الأندلس قبل الفتح من قوط وإسبان ورومان ويهود وغيرهم .

=

عن نشأة الموشحات والأزجال وتطورها فى الأندلس راجع :
د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٤٥ وبعدها .
د. الأهوانى : الزجل فى الأندلس القاهرة سنة ١٩٥٧ م
د. محمد عنانى : الموشحات الأندلسية عالم المعرفة رقم ٢١ .
الفرق بين الموشحة والزجل : أن الموشحة عربية ما عدا الجزء الأخير المسمى بالخرجة فهو عامى أو أسبانى ، أما الزجل فلغته عامية دارجة كلها تتخللها كلمات وعبارات أعجمية .

وبالرغم من ذلك فلم يكن هناك اندماج تام وامتزاج كامل بين العناصر التى وفدت إلى الأندلس . فالعصبية العربية التى كانت ظاهرة فى المشرق ما لبثت أن انتقلت إلى الأندلس وعملت عملها فى تفتيت وحدة العرب ، وتفريقهم إلى شيع وأحزاب . ما بين مضريين ويمنيين يتنازعون على الملك والرئاسة ، وما بين بلديين وشاميين يتنازعون على خيرات البلاد ومن هو أحق بها(١) .

وكذلك لم يكن البربر وحدة واحدة فيما بينهم ، ووقع نزاع شديد بينهم وبين العرب وكذلك كان الأمر بالنسبة للعناصر الأخرى فلكل منها طابع وأهداف واتجاهات .

ويمكن القول : إن الفتن والاضطرابات والحروب بين هذه العناصر بعضها والبعض بدأ مبكرا واستمر استمرارا يكاد يكون متصلا ، ولم تكن تهدأ إلا تحت ضغط القوة ، وما تكاد تهدأ حتى تبدأ من جديد عندما تضعف هذه القوة . بحيث يمكن القول : إن هذه الفتن والاضطرابات والحروب قد صحبت تاريخ المسلمين فى الأندلس من بدايته إلى نهايته إلا فى عهود بسيطة شهدت فترات من الاستقرار طالت أو قصرت فأدى ذلك إلى ازدهار الحضارة والثقافة والعمران .

ولقد تميزت الأندلس من بين الأقطار التى فتحها المسلمون بعوامل خاصة كانت مثار الاضطرابات والفتن والقلاقل من حين لآخر . وقد ظلت هذه العوامل تثور حينا فتسبب التفكك والانحلال ، وتكبح حينا فتعود الأندلس إلى وحدتها وقوتها ، ولكنها اشتدت وتجمعت فى النهاية لتؤدى إلى غروب شمس الإسلام من الأندلس(٢) .

---

(١) انظر د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٢ وبعدها ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ١ .
(٢) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٣٧ .

ويمكن ان نلخص هـذه العـوامل فيما يلى :

١ ــ عامل جغرافى : يتمثل فى بعـد الأندلس عن بلاد المسلمين فى المشرق ممـا جعلها تحمل وحـدها عبء الدفاع عن كيانها إلا ما كان من دول شمال إفريقية عند الاستنجاد بها فى مرحلة الخطر .ولذلك كان من رأى عمر بن عبد العزيز أن يعـود المسلمون منهـا لانقطاعهم من وراء البحر عن اخوانهم(٣) . فالعامل الجغرافى كان بعيد الأثر فى غربة الإسلام بشبه الجـزيرة الأندلسية .

٢ ــ عامل قـومى : فالمسلمون فى الأندلس كانوا بإزاء امة مقاتلة تعتبر من اكثر شعوب أوربا تعصبا للمسيحية وهـم الأسبان الذين سيطر عليها هدف واحـد هو إخراج المسلمين من الأندلس بأى وسيلة والثـار لهزائمهم منهم(٤) .

٣ ــ عامل دينى : وهـو خشية الأوربيين من الزحف الإسـلامى حتى لا يسيطر على بقية أوربا فوقفوا يؤيدون الأسبان بكل قـوة للدفاع عن المسـيحية من ناحية وحراسـة أوربا من المسلمين الغزاة من ناحية اخرى ، كما فعلوا بعـد ذلك مع الأتراك العثمانيين(٥) .

٤ ــ الخـلاف والصراع والتنافس بين عناصر المسلمين فى الأندلس وبخاصة بين العرب وبعضهم وبين العرب والبربر .

٥ ــ كثرة الفتن والثورات منذ بداية الفتح والتى اشاعت الفـوضى فى البـلاد وراح ضحيتها الكثيرون ، وقادها زعماء كثيرون من مختلف العناصر . ومثال ذلك أن اسرة بربرية واحـدة هى اسرة فرتون بن موسى ثار منها ثمانية فى مدينة واحدة هى سرقسطة(٦) .

---

(٣) تاريخ افتتـاح الأندلس ص ٢٦٠ ، معـالم تاريخ المغـرب والأندلس ص ٢٤٣ .

(٤) د. لطفى عبد البديع : الإسـلام فى اسبانيا ص ١٣ .

(٥) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى ج ٤ ص ٢٩ .

(٦) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى ج ٤ ص ٣٨ .

٦ — الخلاف على ولاية العهد بين ابناء الأمراء والخلفاء والذى بدأ مبكرا منذ وفاة عبد الرحمن الداخل واستمر ينخر فى جسم الدولة الإسلامية حتى عهدها الأخير .

٧ — استعانة المسلمين المتحاربين فى الأندلس بأعدائهم من المسيحيين الأسبان والأوربيين لقتال إخوانهم ، مما جعلهم يفنون بعضهم بعضا وعدوهم ينتهز الفرص للإجهاز عليهم . وقد أصاب ابن الشباط حين قال : إن المسلمين بالأندلس لم يقصدهم عدو إلا هزم وانصرف مغلوبا وإنما خدلهم التحاسد وفرط الخلاف والتباغض وقلة الإنصاف)(٧) .

وكذلك الحجارى حين ذكر أن شارل مارتل لما شكا إليه قومه وقوف العرب على أبواب بلادهم قال : « لا تواجهوهم فى إقبال أمرهم فإن لهم إرادة قوية ونية صادقة وحصانة ضد الهزائم فلتصبروا حتى تهدأ أمورهم ، ويأخذوا فى التنافس على الرياسة والملك والمال ، وعند ذلك تتفرق كلمتهم ويضعف أمرهم فتتمكنون منهم بأيسر مجهود ، ويعقب المقرى على ذلك فيقول : فكان والله ذلك(٨) .

٨ — يضاف إلى ذلك أن هذه العناصر السكانية فى الأندلس كانت تميل غالبا إلى العيش والتكتل فى مناطق خاصة بها ، فمثلا كان العنصر العربى الغالب على قرطبة ، والعنصر البربرى الغالب على غرناطة ومالقة وقرمونة ، وعنصر المولدين الغالب على طليطلة وإشبيلية وكان لهذا أثره البالغ فى الميل إلى الاستقلال والخروج مما كان

---

(٧) تاريخ الأندلس ص ٧٤ ، موسوعة التاريخ الاسلامى جـ ٤ ص ٣٧ .
(٨) نفح الطيب جـ ١ ص ١٣٠ ، المجمل فى تاريخ الأندلس ص ٦٤ .

يستلزم استعمال القوة العسكرية كوسيلة للحفاظ على الوحدة السياسية للبـــــلاد(٩) .

ويرى د. حســـــين مؤنس : أن الأندلسيين كانت تعــوزهم روح الترابط والوحـــدة بسبب تفرقهم فى شبه الجزيرة ، وأن هــذا قـــد أدى إلى تمزق البـــلاد بسهولة(١٠) .

والحقيقة أن تفـــرق السكان لا دخـــل لـــه بالوحـــدة السياسية لأنها تتوقف على قـــوة الحـــكومة المركزية أو ضـــعفها وكل ما فى الأمر أن طبيعة البلاد الجغرافية (الجبلية) قـــد جعلت هناك حواجز طبيعية من الصـــعب اجتيازها مما قسم الأندلس إلى أقـــاليم شـــبه منفصـــلة ، وساعد على الميـــل إلى النزعة الانفصـــالية فى كثير من الأقاليم التى كانت تسكنها عناصر غير عربية تغـــذيها عـــوامل قومية فى كثير من الأحيان .

وأمام هـــذا الخليط العجيب من الأجناس تكتلت العناصر العـــربية وألفت نوعا من العصبية وظهرت آثار ذلك فى صراع العرب مـــع البربر من جهـــة ومـــع المولدين من جهـــة أخرى .

* * *

---

(٩) د. السيد ســــالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣٦٤ .
(١٠) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٢ .

النزاع بين العـــرب وبعضهم

لم يمض وقت طــويل على استقرار المسلمين فى الأندلس بعـــــد فتحها ، حتى ظهرت آثار العصبية القبلية التى أدت إلى النزاع بين القبائل العربية من قيسية ويمنية .

وقــد لعبت سياسة بعض الولاة فى الأندلس دورا كبيرا فى إذكاء نيران هــذه العصبية عن طريق ميلهم إلى فريق دون آخر وتقديمه عليه .

فكان إذا ما تولى شــخص من القيسية قــدم قــومه وآثرهم على اليمنية ممـــا يؤدى إلى إثارة النزاع والقلاقل والفتن وعلى ســبيل المثال : فقــد تعصـــب كل من عنبسة بن ســحيم الكلبى ، وعــذرة بن عبد الله الفهرى ، ويحيى بن ســـلامة العاملى خلال مدة ولايتهم التى استمرت سبع سنوات (شــوال ١٠٣ هـ ـ ربيع الأول ١١٠ هـ) لليمنية ممـــا أوغــر صــدر القيسية(١) ، وامتلأت نفــوسهم ألمــا واصبحوا ينتظرون الفرصة المواتية ، ولمــا تولى أمر الأندلس ولاة منهم مثل : حــذيفة بن الأحــوص القيسى وعثمان بن أبى نسعة الخثعمى ، والهيثم بن عبيد الله الكنـــانى ،

---

(١) كانت موقعـــة مرج راهط سنة ٦٤ هـ بين جيــوش الأمويين بقيـــادة مروان بن الحكم وجيوش عبد الله بن الزبير بقيـــادة الضحاك بن قيس الفهرى من أهم أسباب اشتداد العصبية بين اليمنية أنصار الأمويين وبين القسية أنصار ابن الزبير ، حيث دارت الدائرة على جيش ابن الزبير وقتل قائده ومعه نحو سبعين الفا من قيس وقبائلها ، مما أوغر صــدور القيسية ، فكانوا ينتظرون الفرصـــة لتسوية حسابهم القديم مــع اليمنيـــة .

(المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٥٠ هامش ٢ ، المسلمون فى الأندلس وعلاقتهم بالفرنجـــة ص ٣٤٠ هامش ٢) .

ومحمـــد بن عبد الله الأشجعى لقى اليمنيون خلال عهودهم بلاء شديدا .

وقـــد اشتد الهيثم مـــع اليمنية شـــدة اثارتهم ودفعتهم إلى العصيان علانية ، وبلغ من شـــدته أن أنكر عليه الخليفة هشام بن عبد الملك ذلك — رغم أنه قيسى — وعزله وعاقبه عقابا صارما . وبدأت منـــذ عهـــد الهيثم خصومة القيسية واليمنية صريحة ، وإن لم تظهـــر آثارها الخطرة نظرا لانشـــــغال المسلمين حينئذ بالفتـــــوح فيما وراء جبـــال البيرنيه (البرانس) .

وقـــد تجلت حروب العصبيات والصراع المرير بين الفريقين فى ولاية عقبة بن الحجاج السلولى وظلت تخفت حينـــا عندما ينشغل المســـلمون فى الفتح تلبية لداعى الجهاد فيتناس العرب ما بينهم من عصبيات ، وتشتد أحيـــانا أخرى عندما يبـــدأون فى الاستقرار(٢) .

وقـــد أدى ذلك بالضرورة إلى عـــدم استقرار الأوضـــاع بصـــفة عـــامة ، ودليـــل ذلك انه تولى الأندلس خـــلال ما يســـمى بعصر الولاة (٩٥ — ١٣٨هـ) عشرون واليا فى فترة تقل عن نصف قرن ، منهم من مكث نحو عدة أشهر ومنهم من استمر بضع سنوات ، وبعبارة أخرى فإن متوســـط حكم الوالى منهم كان نحـــو سنتين ، وهـــذا وحـــده يعطينا

---

(٢) انظر : د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارها ، د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس جـ ١ ص ١٩١ وبعـــدها . د. منى حسن محمـــود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٥ وبعـــدها .

(٣) اصطلح معظم المؤرخين المحـــدثين على تحـــديد بداية هـــذا العصر بولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير فى ذى القعـــدة سنة ٩٥هـ . بينما ذهب البعض إلى اعتبارها تبدأ بولاية طارق بن زياد منذ الفتـــح (د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٠) . غير اننا نعتبر ان طارق وموسى هم فاتحـــو الأندلس وان اول الولاة هـــو عبد العزيز الذى اسند إليـــــه ابوه ولاية الأندلس قبـــل عـــــودته إلى المشرق .

عكرة عن الاضطراب وعدم الاستقرار الذين سادا الأندلس فى هذه الفترة إذا ما استثنينا فترات قليلة حاول فيها بعض الولاة إشاعة الأمن والاستقرار(٤) .

ولكن ليس معنى ذلك أن المسلمين لم يبذلوا جهودا فى مواصلة الفتوحات كما يعتقد البعض ، وأن كل ما بينهم كان نزاعا على السلطة والنفوذ أو صراعا على المصالح فهناك جهود بذلت ، وهناك محاولات لنشر الأمن والاستقرار والعمران . إلا أن هذه النزاعات قد استغرقت كثيرا من الجهد والوقت ولو أنها وجهت ضد أعداء المسلمين ، وفى الفتح ونشر الإسلام لكان ذلك اجدى وانفع ، ولكنها جذبت الكثيرين فى تيارها مما كان لها آثارها السيئة والخطيرة بالنسبة لمستقبل المسلمين فى الأندلس . ولا نستغرق فى تفصيلات هذا النزاع الذى حدث فى عصر الولاة وإنما نوجز الحديث عنه فى خلال حكم بنى امية .

لقد استغل عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) هذا الأوضاع السائدة من العصبية والاضطرابات حتى يصل إلى هدفه فى إعادة دولة آبائه وأجداده مرة أخرى فى الأندلس بعد أن سقطت فى المشرق(٥) فأخذ فى مراسلة موالى الأمويين بالأندلس الذين نشطوا لذلك وحاولوا استمالة الصميل بن حاتم زعيم القيسية لنصرة عبد الرحمن،

---

(٤) أنظر نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٥ — ١٥٦ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٠ وبعدها ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٢٢٩ ، احمد امين : ضحى الإسلام جـ ٣ ص ٥ .

(٥) يرى ابن عذارى رأيا فريدا حين يذكر أن دولة بنى امية لم تنقطع وأن دولتهم فى المشرق اتصلت بدولتهم فى المغرب حتى سنة

—

ولكنه أبدى ترددا فلما يئسوا من مناصرة ربيعـــة ومضر ، عملوا عـــلى جـــذب اليمنية لمناصرته .

وقد وجـدها اليمنيون فرصـــة سانحة للأخـــذ بثأرهم من المضرية الذين انتصروا عليهم فى موقعة شقندة جنـــوبى قرطبة سنة ١٣٠ هـ(٦) ولاسترداد مكانتهم التى فقـــدوها .

= ٤٥٤ هـ ويبنى رأيه على أن عبد الرحمن بن حبيب والى إفريقية من قبل بنى أمية قـــد وصل عهد منـــه إلى يوســـف بن عبد الرحمن الفهرى والى الاندلس الذى دخـــل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس فى عهـــده، ويعلق على ذلك بأنه نكتة غريبة وفائدة عجيبة (البيان المغرب جـ ٢ ص ٣٩) ، وكان من الممكن أن يعتد بهـــذا الراى لـــو أن يوســـف تنازل لعبد الرحمن وسلم إليه إمارة الأندلس ، ولكن الحرب التى قامت بينهما تدل على أن الدولة الأموية قـــد انتهت بالمشرق وأن عبد الرحمن هـــو الذى استطاع بجهوده إعادتها بعـــد ست سنوات من السقوط (١٣٢ — ١٣٨ هـ) . (المسلمون فى المغـــرب والأندلس جـ ١ ص ٢٤٠) .

(٦) يروى المؤرخون فى سبب هـــذه المعركة أن رجلين اختصما عنـــد ابى الخطار اليمنى والى الأندلس أحدهما يمنى والآخر مضرى ، فقضى ابو الخطار لليمنى ، فاعتبر المضرى أن ذلك الحكم غير عادل فشـــكا إلى زعيم المضرية الصميل بن حاتم فذهب ليكلم أبا الخطار فى شـــأن الرجل واشتد الجـــدال بينهما حتى أغلـــظ أبو الخطار للصميل فى القـــول وأمر جنده باخراجه وضربه فخرج من مجلسه وقـــد مالت عمامته فلمـــا سأله البعض : أبا حوشب ما بـــال عمـــامتك مائلة ؟ قال : إن كان لى قوم فيسيقيمونها .

وكان ذلك سببا فى قيام المضرية بالثأر لزعيمهم فى تلك المعركة التى كان من نتائجهـــا عزل أبى الخطار وتوليه يوسف بن عبد الرحمن الفهرى مكانه . (الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٢٨٦ ، الإمامة والسياسة جـ ١ ص ١٨١ ، المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٢٢) .

يقول ابن عذارى (وكانوا قوما قد وغرت صدورهم يتمنون شيئا يجدون به سبيلا إلى طلب ثارهم)(٧) .

فأبدوا استعدادهم لمناصرته بزعامة أبى الصباح اليحصبى شيخ اليمنية فى غرب الأندلس وعلقمة الجذامى ، وأبى علاقة الجذامى ، وزياد بن عمر الجذامى ، وغيرهم من زعماء اليمنية ولم ينضم إلى عبد الرحمن من المضرية سوى الحصين بن الدجن العقيلى لما كان بينه وبين الصميل بن حاتم المضرى من خصومة وتباعد(٨) .

وقدم عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس واستطاع بمساعدة اليمنية وموالى الأمويين أن ينتصر على يوسف الفهرى فى موقعة المصارة سنة ١٣٨هـ ويتولى مقاليد الأمور فى الأندلس واعتبر اليمنية هذه الموقعة هزيمة للقيسية .

وإذا كان يوم المصارة فاتحة الانتصار لعبد الرحمن ، فقد كان بداية لمسيرته الطويلة فى الكفاح والنضال فى سبيل بناء دولته وتوطيد

=

وكان زعيم اليمنية فى هذه المعركة يحيى بن حريث ، وكان زعيما المضرية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والصميل بن حاتم . ويصف صاحب اخبار مجموعة هذه المعركة بأنها « اول حرب كانت فى الإسلام بهذه الدعوة — ربما يقصد فى الأندلس — لم تكن حرب قبل هذه الوقيعة وهى الفتنة العظمى التى بها يخاف بوار بالأندلس إلا أن يحفظه الله » . (اخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ٥٩) ، كما يصفها ابن عذارى بأنها « لم يعهد حرب مثلها فى المسلمين بعد حرب الجمل وصفين » (البيان المغرب جـ ٢ ص ٥٣) .

(٧) البيان المغرب جـ ٢ ص ٦٥ .

(٨) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٥ ، د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

أركانها حيث كانت الأندلس تموج بالفتن والعصبيات التى لم تكن قاصرة على مضر واليمن فقط بل شملت كل قبيلة وكل بطن التفت حول زعاماتها ، وكانت لها مصالحها الخاصة ، وتمسكت باستقلالها ، وأبت الخضوع لأية سلطة عامة ، وشملت كذلك البلديين والشاميين(٩) . كما شملت البربر الذين حرصوا على الاحتفاظ بما حصلوا عليه خلال الفتن من أراض وضياع .

وكان هناك ما هو أشد من ذلك خطرا وهو الممالك النصرانية فى الشمال التى تخطت سريعا مرحلة الهزيمة وبدأت تستعد لحرب المسلمين ، وكذلك مملكة الفرنجة التى تمكنت من انتزاع ما فتحه المسلمون خلف جبال البيرنيه (البرانس)(١٠) .

قامت دولة عبد الرحمن الداخل على عون كبير من العرب اليمنيين ، الذين تصوروا أن الكلمة أصبحت لهم(١١) — معتقدين أنهم

---

(٩) يقصد بالبلديين العرب والبربر الذين قدموا إلى الأندلس مع الفتح أو فى أثنائه وكانوا يعتبرون أنفسهم أصحاب الفتح ، ولهم قصب السبق ولذلك ينبغى ألا ينازعهم أحد فيه .

ويقصد بالشاميين العرب الذين قدموا فى طائعة بلج بن بشر سنة ١٢٤ هـ ورفضوا الخروج من الأندلس لما راوه من خيراتها وثرواتها وتم توزيعهم على كور الأندلس المختلفة . (أنظر الحلة السيراء جـ ١ ص ٦١ — ٦٣ ، ، المقتبس ص ٣٠٨ تحقيق د. محمود مكى ، د. حسين مؤنس فجر الأندلس ص ٣٦ ، د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس هامش ١٣ ص ٢٥٦ .

(١٠) د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٥٤ ، د. منى محمود : المسلمون الأندلس ص ٥٧ .

(١١) يذكر ابن القوطية : أن أبا الصباح اليحصبى زعيم اليمنية قال لثعلبة الجذامى وكان من وجوه جند فلسطين بعد موقعة المصارة « يا ثعلبة هل لك رأى فى فتحين فى فتح ؟ قال له وكيف ذلك ؟

=

لا يزالون فى عصر الولاة ، ولكنهم فوجئوا بأن العهد الجديد يحاول ان يزيل آثار ما سبق ويجعل الجميع وحدة واحدة تخضع لسلطان واحد فى مواجهة الأخطار الخارجية . فاعتبروا ذلك إنكارا لجهودهم ولذلك قاموا بثورات عديدة ضد من ساعدوه بالأمس فى الجزيرة الخضراء ، وفى إشبيلية وطليطلة وباجة وغيرها . وانضم الكثير منهم إلى ثورة العلاء بن مغيث التى قامت فى باجة سنة ١٤٦ هـ وكان يدعو إلى طاعة أبى جعفر المنصور وخلع عبد الرحمن بن معاوية(١٢) ولكن عبد الرحمن استطاع بعد جهود كبيرة القضاء على هذه الثورات(١٣) .

وللأسف الشديد فقد تعاون بعض الزعماء العرب مع شارلمان للاستيلاء على الثغر الأعلى (سرقطة وما حولها) مثل سليمان بن يقظان الكلبى (ابن الأعرابى) والى برسلونة والحسين بن يحيى الأنصارى والى سرقسطة انتقاما من عبد الرحمن الداخل ، وهان عليهم تعريض الإسلام والعروبة فى الأندلس للخطر فى سبيل اهواء وأحقاد ومطامع

=

قال : قد استرحنا من يوسف ، فاسترح بنا من هذا — يقصد عبد الرحمن الداخل — وتكون الأندلس قحطانية . ولكن ثعلبة اخبر عبد الرحمن بذلك ، فاحتاط وضم مواليه إليه ، وجعلهم حراسه ، ولما رأى اليمنية ذلك عدلوا عن خطتهم . وهذا يدل على تطلعهم للملك والسلطان (أخبار مجموعة ص ٣١) .

(١٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٣ ، اخبار مجموعة ص ١٠٢ ، البيان المغرب جـ ٢ ص ٧٧ .

(١٣) عنها انظر د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٩٩ وبعدها ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٢ وبعدها ، د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٥٩ وبعدها .

شخصية . لولا ان اخفقت هذه المحاولات بفضل تماسك جمهور المسلمين تحت راية عبد الرحمن .. وكانت مؤامرة المغيرة بن الوليد ابن معاوية سنة ١٦٨ هـ من سلسلة المؤامرات التى دبرت ضد عبد الرحمن — وكان ابن اخته — وساعده فيها هذيل بن الصميل بن حاتم زعيم المضرية ولكن تم اكتشافها ، وكذلك مؤامرة محمد بن يوسف الفهرى الذى أعلن الثورة فى قسطلونة شرق الأندلس وكان مصيره الهزيمة فى ربيع الأول سنة ١٦٩ هـ(١٤) .

وفى عهد ابنه هشام ثار سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصارى ومعه عدد كبير من اليمنيين وتمكن من الاستيلاء على طرطشونة فهزمه موسى بن فرتون القومس والى الثغر الأعلى واستطاع أن يستردها ، كما ثار مطروح بن سليمان الاعرابى بعد مقتل أبيه واستطاع أن يستولى على سرقسطة ووشقة والثغر الأعلى كله(١٥) .

ثم جاء الحكم بن هشام بالربضى الذى تعتبر إمارته بداية النهاية لعصر القلاقل والاضطرابات التى قام بها العرب للقضاء على الإمارة الأموية ، وكان كثير من زعمائهم حتى ذلك الوقت لا يسلمون بالطاعة والانقياد لها ، ولا تزال نفوسهم تطمح إلى العودة لعصر العصبيات والفوضى . وكان لقوة الحكم وشدته وشجاعته اثر كبير فى القضاء على الكثير من الثورات التى قامت فى عهده .

ثم جاء عهد ابنه عبد الرحمن الأوسط الذى كان على العكس

---

(١٤) د. سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٠٤ — ٢٠٥ ، د. زيتون : المرجع السابق ص ٢٦٣ .

(١٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٩٣ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس القسم الأول ص ٢٢١ د. السيد سالم : مرجع سابق ص ٢١٤ : د. زيتون : المرجع السابق ص ٢٧٣ .

من أبيه لين الجانب هادىء الطباع فعادت العصبية العربية من جديد بين المضرية واليمنية فى كورة تدمير لسبب تافه(١٦) أدى إلى قيام حرب بين الفريقين استمرت نحو سبع سنوات (٢٠٧ — ٢١٣هـ) وقد اضطر عبد الرحمن إلى إرسال جيش بقيادة يحيى بن عبد الله بن خلف فأوقع بهم فى موقعة المصارة بلورقة وهزمهم وقتل منهم نحو ثلاثة آلاف . وفى سنة ٢٠٩ هـ أرسل قائده أمية بن معاوية بن هشام إلى تدمير فاشتبك مع اليمنية بقيادة أبى الشماخ محمد بن إبراهيم الذى ظل عدة سنوات يتحدى سلطان الإمارة ولم تهدأ حركته إلا بعد طلبه الأمان وعودته للطاعة سنة ٢١٣ هـ . وكان ذلك سببا فى أمر عبد الرحمن بهدم حاضرة تدمير (مدينة الة) سنة ٢١٠هـ وبناء مدينة مرسية مكانها سنة ٢١٦ هـ(١٧) .

* * *

---

(١٦) يذكر ابن عذاران أن السبب كان قيام أحد المضريين بنزع ورقة دالية من جنان يمانى فقتله (البيان المغرب جـ ٢ ص ١٢٤) ، بينما ذكر الحميرى العكس وهو أن رجلا من اليمنية أخذ ورقة من كرم رجل مضرى ليغطى بها قلة فانكر ذلك المضرى ، واعتقد انه فعل ذلك استخفافا به (الروض المعطار ص ١٨١) . بينما يذكر د. حسين مؤنس : أن معظم جند تدمير (مرسية بعد ذلك) كانوا من اليمنية ، ولكن المضرية كانوا يحاولون السيطرة عليها رغم قلتهم ، ومن هنا كانت الفتنة . وهذا ما نميل إليه لانه السبب الاقوى من وجهة نظرنا . (انظر معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٨٠) .

(١٧) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٢١٤ .

النزاع بين العـرب والبربر

كثرت انتفاضات البربر وثوراتهم ضـد العـرب فى بلاد المغرب ، وكان من اخطـر هـذه الثـورات التى لهـا اثـر فى ثورات البـربر بالأندلس ثورة ميسرة المدغرى(١) الذى اعتنق مذهب الخوارج ، ونصب نفسه إماما وتسمى بالخلافة والتف حـوله الكثير من البربر الذين تشبهوا بالخـوارج الأزارقة واهل النهروان من اصـحاب الله بن وهب الراسبى فحلقـوا رءوسهم(٢) .

وقـد انتهـز ميسرة فرصـة خروج حبيب بن أبى عبـدة بجيش من العرب فى حمـلة إلى صقلية ، فجمع انصاره ونقض طاعة عبيد الله ابن الحبحاب والى إفريقية فى طنجة واقاليمها ، وتداعى البربر فى المغرب باسره وثاروا فى المغرب الاقصى سنة ١٢٢ هـ .

ووثب ميسرة على عمر بن عبد الله المرادى والى طنجـة فقتـله ، وولى مكانه عبد الأعلى بن حـديج ، وزحف إلى إسماعيل بن عبيـد الله ابن الحبحاب فى منطقة السوس فقتله أيضا .

وهكذا أصبح موقف عبيد الله حرجا وسـاء موقف العرب ، فغضب لقتل ابنـه وعامله على طنجة ، وكتب إلى قائده حبيب يأمره بالعـودة حتى يتمكن من مواجهة هـذه الثورة الخطيرة ، والتقى الفريقان بالقرب من طنجـة ، وتحقق النصر للعرب فى البداية ، وتراجـع ميسرة ، ممـا ادى إلى ثورة البربر عليـه وقتله وتولية ابن حميد الزناتى مكانه الـذى استطاع أن يحول الهزيمة إلى انتصـار كبير فى موقعـة عرفت بغزوة

---

(١) يسمى ايضـا المطفرى ويلقب بالحقير بائع المـاء بسوق القيروان (ابن القـوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٤) .
(٢) أخبـار مجموعة فى فتـح الأندلس ص ٣٢ .

الاشراف حيث قتـل فيها « حمـاة العرب وفرسانها وكماتها وأبطالها » كما يقـول ابن عـذارى(٣) .

وكان لهـذه الهزيمة القاسية وقعها الأليم فى نفوس العرب بالمغرب فانتشر الذعر الشـديد بينهم ، وانتقضت البـلاد عليهم وعمـت فيها الفوضى ، وبلغ خبر هـذه الثـورة بلاد الأندلس فوثب أهلها على أميرهم عقبة بن الحجاج السلولى ، وولوا عبد الملك بن قطن الفهرى . ولمـا بلغ ذلك الخليفة هشام عزل عبيد الله عن إفريقية سنة ١٢٣ هـ وقال « والله لأغضبن لهم غضبة عربيـة ، ولأبعثن لهم جيشا أوله عنـدهم وآخـره عنـدى »(٤) .

وبعث بجيش تعـداده سـبعة وعشرون ألفـا من أهـل الشـام وانضم إليـه ثلاثة آلاف من مصر وجعـل على قيادته كلثوم بن عيـاض القشيرى الذى ولى المغرب بدلا من عبيد الله وجعـل الأمر من بعـده لابن أخيه بلج بن بشر القشيرى إن أصيب ومن بعـده لثعلبة بن سـلامة العاملى وكان من غـلاة القيسية وانضم عرب إفريقية الذين استوطنوا بعـد الفتح إلى هـذا الجيش فأصبح عـدده نحـو سبعين ألفا(٥) ، ولكن هـذا الجيش لقى هزيمـة أخرى قاسية عند بلدة بقـدورة على وادى سـبو سنة ١٢٤ هـ قتـل فيها عـدد كبير على رأسهم كلثوم وحبيب ولم ينج منه إلا نحـو عشرة آلاف على رأسهم بلج بن بشر لاذوا بمدينة سبتة وتحصنوا بهـا ، وحاصرهم البربر حصـارا شـديدا حتى أشرفوا على الهـلاك . واضطر بلج إلى الاستعانة بعبـد المـلك بن قطن الفهرى

---

(٣) البيـان المغرب جـ ١ ص ٥٢ .
(٤) ابن القوطيـة تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٤ .
(٥) أخبـار مجمـوعة ص ٣١ .

والى الأندلس (١٢١ — ١٢٥ هـ) وطلب منه السماح باللجوء إلى الأندلس. له ولمن معه خشية الاستئصال والهلاك ولكن عبد الملك تقاعس عن نصرتهم خشية على سلطانه خاصة وأنه كان فهريا من عرب الحجاز الذين شهدوا موقعة الحرة سنة ٦٣ هـ وما حدث فيها من جند الشام بالمدينة . ولما رأى عرب الأندلس إشراف إخوانهم على الهلاك أمدوهم بقاربين من شعير وأدم ولكن لم يكن ذلك كافيا(٦) .

وتغير الموقف فجأة عندما ثار البربر فى الأندلس بعد أن علموا بانتصار إخوانهم فى المغرب « حيث انقضوا على عرب جليقية وقتلوهم ، وأخرجوا عرب استرقة والمدنبين التى خلف الدروب » وكان البربر اكثرية بهذه المناطق .

وأحس عبد الملك بالخطر الداهم عندما وجد أن البربر يتقدمون نحو قرطبة بقيادة ابن هدين الذى يقال له « ابن زقطرتق »(٧) .

---

(٦) اخبار مجموعة ص ٣٧ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٤٢ .

(٧) اخبار مجموعة ص ٣٩ لا تذكر لنا المصادر شيئا واضحا عن أسباب ثورة البربر على العرب فى الأندلس — رغم أنهم قد اشتركوا سويا فى الفتح — وكل ما نفهمه أنها يمكن أن تكون امتدادا طبيعيا وصدى لثورتهم فى إفريقية التى كانت بسبب استبداد بعض الولاة وسوء معاملتهم للبربر . وقد ذهب الكثيرون إلى أن هذه الثورة كانت بسبب سوء معاملة العرب للبربر ، واختصاصهم أنفسهم بأجود الأراضى والمناطق الخصبة تاركين البربر المناطق الجبلية القاحلة . وذلك غير صحيح لأن جماعات كثيرة من البربر استقرت فى مناطق خصبة من الأندلس فى الجنوب والشرق والغرب ، بل كانت هناك أماكن تكاد تكون مقصورة عليهم مثل الجزيرة الخضراء ، ومن هذه

فخشى على مصيره ومصير بنى جنسه خاصة بعد هزيمة جيوشه التى أخرجها لقتال البربر مما جعله مضطرا إلى مد يد العون لبلج وجنده المحاصرين فى سبته للتعاون فى القضاء على هذا الخطر الداهم . فأرسل إليهم السفن للعبور إلى الأندلس ، واشترط عليهم العودة إلى سبتة مرة أخرى بعد القضاء على ثورة البربر ، وأخذ بعض الرهائن تنفيذا لذلك وأنزلهم بالجزيرة الخضراء(٨) .

والتقى الفريقان العرب البلديون وجند الشام من ناحية والبربر من ناحية أخرى على وادى سليط فى حوز طليطلة فهزم البربر هزيمة نكراء .

=

الأماكن الخصبة التى نزل بها البربر مع غيرهم من العرب كورة فحص البلوط شمال قرطبة ، وكورة السهلة وكانت من أخصب المناطق فى الأندلس ونزلها بنو رزين من البرانس فنسبت إليهم واستقلوا بها فى عصر ملوك الطوائف . والعرب لم يكونوا من الكثرة بحيث ينفردون بكل المناطق الخصبة فى بلد واسع كالأندلس . وكان البربر يتفوقون عليهم فى العدد نظرا لقرب بلادهم وكثرة هجراتهم .

ويبدو ان سكنى الكثير من البربر فى المناطق الجبلية كان بناء على رغبتهم بحسب ما اعتادوا عليه فى بلادهم ، وكان العرب والبربر بعد الفتح ينزلون فى المناطق المناسبة لهم وبحسب اختيارهم دون ضغط أو اكراه او تحديد لأماكن معينة ينزل بها هؤلاء او هؤلاء فسكنوا سويا فى مناطق ومنفردين فى أخرى . انظر : د. حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ١٢٨ ، ٣٨٨ ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٤ — ٢٤٥ ، د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ١٣٧ — ١٣٨) .

(٨) يذكر البعض انه اشترط عليهم ان يعودوا بعد سنة واحدة (د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٥٨) .

ولما انتهت الثورة طلب عبد الملك من بلج وأصحابه مغادرة الأندلس، فسألوه أن يهيىء لهم السفن التى تقلهم إلى تونس من ساحل إلبيرة وتدمير ، فاعتذر عن ذلك بوجود السفن فى الجزيرة الخضراء لنقلهم إلى سبتة ، فقالوا له : اتريد أن تعرضنا لبربر طنجة ، ولما رأوا ما يراد بهم وثبوا عليه واخرجوه من قصره وبايعوا بلجا مكانه فى أول ذى القعدة سنة ١٢٥ هـ(٩) .

ويبدو أن الشاميين كانوا يبيتون النية للبقاء فى الأندلس والإقامة فيها بعد ما حدث لهم فى إفريقية خاصة وأنهم سمعوا عن خيراتها ومحاسنها ، ولم يجدوا وهم فى موقفهم الحرج أثناء حصارهم فى سبتة إلا أن يوافقوا على شروط عبد الملك . ثم أخذوا يبحثون عن ذريعة تمكنهم من البقاء حتى وجدوا ذلك فى اتهامه بقتل رجل غسانى من أشرافهم كان ضمن الرهائن فى الجزيرة الخضراء ، وأدى ذلك إلى قتلهم له ، بالرغم من محاولة بلج أن يردهم عنه ولكنه لم يستطع خشية من تفرق كلمتهم وانفضاضهم من حوله(١٠) .

وقد أدى مقتل عبد الملك بن قطن إلى تحول النزاع بين البلديين والشاميين إلى صراع بين القيسية واليمنية . حيث أثار موجة من الغضب واتحد العرب البلديون — بقيادة ولدى عبد الملك قطن وأمية — مع البربر الذين كانوا يتلهفون للأخذ بثأرهم من أهل الشام ، والتقى هؤلاء مع جيش الشام بقيادة بلج فى موضع يقال له (أقوة برطورة) وانتهت الموقعة بهزيمة البلديين وكان معظمهم من اليمنية وقتل بلج فتولى مكانه ثعلبة بن سلامة العاملى ، ولما علم الخليفة

---

(٩) أخبار مجموعة ص ٤٠ — ٤١ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٤٣ — ٤٤ .
(١٠) أخبار مجموعة ص ٤٢ .

هشام بن عبد الملك بذلك نصحه العباس بن الوليد بن عبد الملك بتولية احد اليمنيين على الأندلس فولى ابا الخطار بن ضرار الكلبى بعد ان كتب إليه بأبيات يقول فيها :

افاتم بنى مروان قيسا دماءنا
وفى الله إن لم تنصفوا حكم عدل
كانكم لم تشهدوا مرج راهط
ولم تعلموا من كان ثم له الفضل
وقيناكم حر الوغى بصدورنا
وليست لكم خيل تعد ولا رجل
فلما رايتم واقد الحرب قد خبا
وطاب لكم منها المشارب والأكل
تغافلتم عنا كان لم يكن لنا
بلاء وانتم ما قد علمنا لها فعل
فلا تجزعوا إن عضت الحرب مرة
وزلت عن المرقاة بالقدم النعل
تصرم حبل الوصل وانقطع الهوى
الا ربما يلوى فينقطع الحبل(١١)

وفد ابو الخطار إلى الأندلس فى رجب سنة ١٢٥ هـ ومعه سجل الولاية من والى إفريقية (حنظلة بن صفوان) وبرفقته ثلاثون رجلا هم الطائفة الثانية من العرب الشاميين . وكانت الحرب ما تزال ناشبة بين الشاميين والبلديين ، فبعد مقتل بلج تولى ثعلبة العاملى وقام بمحاربة العرب البلديين والبربر فى ماردة وهزمهم وسبى كثيرا منهم (نحو

(١١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٨ — ١٩ .
ابن الأبار : الحلة السيراء جـ ١ ص ٦٤ مع بعض الاختلاف فى الألفاظ .

عشرة آلاف) ، واخذ فى بيع شيوخ البلديين من العرب لمن ينقص من أثمانهم حتى قيل إنه باع أحد رجال عرب المدينة بكلب(١٢) وإن كنا نشك فى ذلك لما فيه من مبالغة شديدة . فلما أقبل أبو الخطار أمر بإطلاق سراح الأسرى والسبى فسمى عسكره لذلك عسكر العافية(١٣) .

ونظر فى توزيع جند الشام على كور الأندلس بدلا من تجمعهم فى قرطبة حتى يقضى على عوامل الاضطراب فأنزل جند دمشق بالبيرة وسماها دمشق ، وأنزل جند الاردن بكورة رية ، وجند فلسطين بشذونه ، وجند حمص بإشبيلية ، وجند قنسرين بجيان وجند مصر بباجة وتدمير (مرسية) ، وكان إنزالهم على أموال أهل الذمة من العجم من أرض ونعم ، ولم يمس غنائم البلديين من العرب والبربر بنقص(١٤) .

وفى عهد عبد الرحمن الداخل قامت ثورة خطيرة للبربر فى شمال شرق الأندلس سنة ١٥٠ هـ وكان زعيمها فقيها بربريا يعلم الصبيان ويدعى شقنا بن عبد الواحد من بربر مكناسة ، وقد ادعى أنه من ولد الحسن ابن على ، وكانت أمه تسمى فاطمة فادعى أنه فاطمى تسمى بعبد الله ابن محمد ، وذاعت دعوته بين البربر فى هذه الناحية نظرا لكونهم أكثرية فيها ، واستطاع بهم أن يستولى على شنت بريه جنوب غرب طليطلة وجعلها مقرا له ، ثم استولى على ماردة وقورية ومدلين ، وعظم خطره وتمكن من هزيمة الجند الذين أرسلهم إليه حاكم

---

(١٢) أخبار مجموعة ص ٤٥ .

(١٣) أخبار مجموعة ص ٤٦ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٤٩ .

(١٤) ابن الأبار : الحلة السيراء ج ١ ص ٦١ — ٦٣ . نفح الطيب ج ١ ص ٢٢١ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٦١ — ١٦٢) د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

طليطلة بقيادة سليمان بن عثمان مما أدى إلى اتساع دعوته واستفحال حركته ، فسار إليه عبد الرحمن بنفسه سنة ١٥٢هـ فالتجأ الثائر بمن معه إلى الجبال المحيطة بالمنطقة مما اضطر عبد الرحمن إلى العودة إلى قرطبة ، ثم أرسل مولاه بدرا لمقاتلته سنة ١٥٤هـ فامتنع بالجبال حتى لا يلتقى بالجيش الأموى ، ثم عاد عبد الرحمن لمقاتلته سنة ١٥٥هـ بجيش جعل عليه هلال المديونى كبير البربر فى شرق الأندلس — بعد أن استماله وأقره على ما فى يده وعهد إليه بولاية الأنحاء التى تغلب عليها شقنا بعد استخلاصها منه — وكان لذلك أثره فى بث الخلاف فى صفوف البربر ، فانفض عن شقنا كثير من أنصاره — واضطر إلى الانسحاب للاعتصام بالجبال مرة أخرى . وكانت المشاكل التى واجهت عبد الرحمن تدفعه إلى ترك هذا الثائر مما جعل ثورته مستمرة قرابة عشر سنوات ، كما كان لاعتصامه بالجبال وتجنب اللقاء المباشر اثر فى هذا الاستمرار .

ولذلك لم يتمكن عبد الرحمن من القضاء عليه إلا بمؤامرة دبرها له اثنان من أصحابه بمساعدة هلال المديونى حيث قتلاه وحملا راسه إلى قرطبة وبذلك انفضت جموع البربر من حوله ، وخبت ثورته بعد أن ظلت نحو عشر سنوات تهدد سلطان عبد الرحمن ، وبذلك حققت المؤامرة فى لحظات ما لم تحققه الحملات والجيوش المتعاقبة فى سنوات(١٥) .

وفى عهد هشام بن عبد الرحمن قامت ثورة للبربر سنة ١٧٨ هـ فى تاكرنا من إقليم رندة ، وكانوا كثرة فى هذا الإقليم ، فخرجوا على

---

(١٥) انظر أخبار مجموعة ص ١٠٧ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٥٤ — ٥٥ ، ابن خلدون : العبر ج ٢ ص ١٢٣ ، ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٧ .

الطاعــة ، وقتــلوا كثيرا من السكان العرب فارسل إليهم هشام جيشا استطاع هزيمتهم ، وفروا من تاكرنا التى ظلت خاليــة طوال سبع سنوات إلى طلبيرة وترجيلة(١٦) .

كمــا قــامت ثــورة أخـــــرى للبــربر فى مـــــاردة ســـــنة ١٩٠ هـ بقيادة أصبغ بن عبد الله بن وانسوس بسبب وقيعـــة قام بهـــا بعض خصومه فخشى أصبغ من الحكم وشـــدته فدخـــل ماردة وثار بهـــا والتف حــوله البربر ، فخرج إليـــه الحكم بنفسه وحاصره ، ولكنه اضطر إلى رفــع الحصار والعــودة إلى قرطبة بسبب فتنة قامت فيها ، ثم تابع حمـــلاته بعـــد ذلك سبع سنوات ولكنه لم يستطيع القضـــاء على هـــذه الثورة ، وأخيرا استطاع استمالة جمـــاعة من أهـــل ماردة من ثقـــاة أصبغ ففارقـــوه ممـــا دعاه إلى طلب الأمان فأمنه الحكم وخرج من ماردة وأقـــام بقرطبة(١٧) .

وفى سنة ٢١١ هـ ثار طــوريل البربرى بتاكرنا فى عهد عبد الرحمن ابن الحكم (الأوسط) فأرســـل إليه قائده عبد الرحمن بن معـــاوية بن غانم فظفر به وقطع عاديتـــه(١٨) .

وفى سنة ٢١٣هـ قامت ثورة للبربر فى ماردة أيضـــا وتزعمها رجل بربرى يدعى محمود بن عبد الجبار ، وانضم إليـــه أحـــد المولدين ويدعى

---

(١٦) ابن عـــذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٩٦ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ١٤٤ .

(١٧) ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٢٠١ ، ابن عـــذارى : البيـــان المغرب جـ ٢ ص ٧٠ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٢٣٤ ، د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس جـ ١ ص ٢٧٩ .

(١٨) ابن عـــذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٢٤ .

سليمان بن مرتين ويلقب (بقعنب) ، وشـقا عصا الطـاعة على الأمير عبد الرحمن وقتلا حاكم المدينة مروان الجليقى ، فأرسـل فرقـة حاصرت المدينة سـنة ٢١٤ هـ إلا أنها لم تحقق نصرا يذكر ، فسار عبد الرحمـن فى السنة التالية وحاصرها حصارا شـديدا ولكنـه لم يتمكن من فتحها إلا فى سنة ٢١٩ هـ . بعـد أن فر منها الثائران حيث قتـل سـليمان سنة ٢٢٠ هـ ، وقتـل محمود سنة ٢٢٥ هـ . وقـد سجل عبد الرحمن إخضاعه لهـذه الثورة ببناء قصبتها التى تعرف لدى العامة إلى اليوم باسم الدر وبهـا نقش عربى محفوظ إلى اليوم بمتحف القصبة فى ماردة يحمل تاريخ ٢٢٠هـ(١٩) .

وفى سنة ٢٣٦هـ ثار أحـد البربر ويدعى حبيب البرنسى بجبـال الجزيرة الخضراء والتف حـوله جماعة من المفسدين فأخرج لـه الأمير عبد الرحمن الأجنـاد ففرقوا جموعه وقتلوا عـددا كبيرا من رجاله(٢٠).

وفى عهـد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسـط كثرت الفتن والثورات كثرة بالغـة من العرب والبربر والمولدين . ومن أشـهر الثـوار البربر فى هـذا العهد الذين حاولوا الاستقلال بنو موسى بن ذى النـون وكان أول من ثار منهم الفتح ومطرف اللذين ثارا فى شـنت بريه واتخـذاها حـاضرة لهما ، وأقاما فيها الكثير من المنـازل والقرى والمعـاقل والحصون فعمرت وكثرت فيها المرافق ، وقـد استقل مطرف

---

(١٩) انظر : ابن القوطية : تاريخ إفتتاح الأندلس ص ٨٣ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٤١٠ ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٨ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٣١ — ٢٣٢ ، د. محمـد زيتـون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

(٢٠) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٣١ .

بحصن وبدة ، ويحيى بحصن ولمــة وكان اكبر الحصون ، وبنى الفتــح حصن إقليش ومصره وعمره . وقــد قتــل الفتح سنة ٣٠٣هـ ، ودخــل اخــوه يحيى فى خــدمة الخليفة الناصر وتوفى اثناء غزوة سرقسطة سنة ٣٢٥ هـ ، إما مطرف فقــد خــدم الناصر أيضا واشترك معــه فى بعض غزواته فــولاه مدينة الفرج من الثغر الأوسط(٢١) .

وكذلك ثار عمر بن مضم الهترولى المعروف بالملاحى ، وكان من بربر قرية الملاحة من كورة جيان ، وكان مجرد جندى من جنود عاملها فوثب عليه وقتــله واستطاع الاستيلاء على قصبتها ، واستفحل امره واخــذ يعيث فسادا فيما جاورها من بلدان ، فأرســل إليه الأمير عبد الله جيشا بقيادة أحمد بن محمد بن أبى عبدة فتمكن من هزيمته والقبض عليــه والقدوم به إلى قرطبــة .

وكذلك ثار زعال بن يعيش بن فرانك النفزاوى وكان من بربر نفــزة وخرج على الأمير عبــد الله ، فى حصــن ام جعفر فى ماردة واســتطاع أن يستقل بهــذا الحصن استقلالا جزئيا حيث ظــل متمسكا بطاعة الأمير ولــو اسميا ولمــا مات خلفــه ابن عمــه عبد الله بن عيسى بن قوطى حتى استنزل من الحصن أيام عبد الرحمن بن محمد(٢٢) .

كما ثار خليــل وسعيد ابنــا مهلب بكورة البيرة واستطاعا الاستيلاء على حصن قرذيرة واشبرغرة ورغم ثورتهما إلا أنهما كانا يدينان بالطــاعة للأمير عبد الله فولاهما على ما فى أيديهما حتى كانت ايام الأمير عبد الرحمن ابن محمــد فاستنزل سعيد — بعــد موت أخيــه — ضمن من استنزل من الثــوار من حصــونهم(٢٣) .

---

(٢١) ابن حيــان : المقتبس ص ١٩ تحقيق ملشور انطونية .
(٢٢) د. السيد سالم : مرجــع سابق ص ٢٥٦ — ٢٥ .
(٢٣) ابن حيان : المقتبس ص ٣٢ ، ابن عــذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٠٨ .

ثم جاء عهد المنصور بن أبى عامر الحاجب فازداد نفوذ البربر زيادة كبيرة حيث استكثر منهم واعتمد عليهم وجعلته شيعته وأنصاره فى مواجهة خصومه ومنافسيه من الأمويين والعرب الذين كانوا يحقدون عليه لاستبداده وسيطرته على الخليفة الأموى هشام المؤيد ودليل ذلك يتجلى من خلال وصيته لابنه عبد الملك الذى تولى الحجابة بعده سنة ٣٩٢هـ حيث يقول له « ولا تنظر بك وأصحابك السلامة فتنسوا ما لكم فى نفوس بنى أمية وشيعتهم بقرطبة »(٢٤) .

وقد أدى ذلك إلى مزيد من التنافس بين العنصرين . حيث قدم المنصور البربر وآخر العرب واسقطهم عن مراتبهم . وإذا كان ابن خلدون يرى أن سبب ذلك هو ضعف عصبية العرب مما أدى لاعتماده على البربر(٢٥) فإننا نرى أن ذلك هو الذى أدى إلى ضعف عصبية العرب ونفوذهم ، وكان سببا من أسباب انهيار دولة بنى أمية بالأندلس .

وقام صراع عنيف بين العنصرين تجلى بصفة خاصة فيما يعرف بالفتنة العظمى أو البربرية التى استمرت نحو عشرين عاما وبدأت فى مستهل سنة ٤٠٠هـ . وقام البربر فيها بالكثير مما أدى إلى تخريب الكثير من مظاهر الحضارة والعمران فى الأندلس وخاصة فى قرطبة ومدينة الزاهرة ، وإشاعة الكثير من مظاهر الفوضى والانحلال فى المجتمع مما كان له أثره فى سقوط الخلافة الأموية سنة ٤٢٢ هـ(٢٦) .

---

(٢٤) ابن بسام الذخيرة جـ ١ ق ٤ ص ٥٧ .

(٢٥) المقدمة ص ٢٧٣ — ٢٧٤ .

(٢٦) عن هذه الفتنة بالتفصيل انظر : بهجة المجالس جـ ١ ص ١٠ ، ابن بسام : الذخيرة جـ١ ق٤ ص ٢٥ ، ابن حيان : المقتبس ص ١١٥ وبعدها ، البيان المغرب جـ ٣ ص ٩٠ السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٣٤٧ وبعدها ، قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ص ٧٩ وبعدها .

الفتن بين العـــرب والمولدين فى الأندلس

كثرت الفتن والثـــورات فى كل ناحية من نواحى الأندلس فى عهـــد الامير عبد الله بن محمـــد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٧٥ هـ — ٣٠٠ هـ) ، ولم تقتصر على المناطق الجبلية فقط بل امتدت إلى القواعد والمدن الكبيرة مثل إشبيلية وبطليوس وجيان ولورقـــة ومرسية وغيرها ، ولم تقتصر هذه الثورات على عنصر بعينه وإنمـــا شملت الكثير من العناصر ، فشـــارك فيها المولدون والعـــــرب والبربر ونشبت معـــارك عنيفـــــة بين العرب والمولدين ، وبين العرب والبربر فضـــلا عن المعارك التى دارت بين العرب انفسـهم ، واستطاع الكثير من هـــؤلاء ان يستقلوا بأماكـــن كثيرة ، حتى لم يبـــق لحكومة قرطبة سلطان حقيقى إلا فى العاصمة واحوازها فقط(١) .

ويلخص لنـــا ابن الأثير الأوضاع فى عهـــد الأمير عبد الله فيقـــول « وفى أيامه امتلأت الأندلس بالفتن ، وصـــــار فى كل جهـــة متغلب ، ولم تزل كذلك طـــول ولايته »(٢) .

والحقيقة ان هـــذا الأمير لم يقعـــد عن مواجهة هـــذه الثورات ، وإنمـــا بذل قصارى جهـــده للقضاء عليها ، وظـــل يكافح طـــوال مدة حكمه دون هـــوادة لانقـــاذ دولة آبائه واجـــداده من الانهيار ، واستنفذ ذلك منـــه الكثير من موارد الدولـــة ، حتى ذكر ابن خلـــدون : ان خراج الأندلس قبله كان ثلاثمائة الف دينار مائة الف منهـــا للجيوش ومائة الف للنفقة فى النوائب . وما يعرض من الخطوب ، ومائة الف ذخيرة ووفـــر

---

(١) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٣١ ، د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس جـ ١ ص ٣١٩ — ٣٢٠ .

(٢) الكامل فى التاريخ جـ ٧ ص ٤٣٥ ، العبر جـ ٤ ص ١٣٣ .

فانفق الوفر فى تلك السنين وقل الخراج(٣) .

ويبين لنا الوزير المؤرخ لسان الدين بن الخطيب اسباب انتشار الثورات والفتن فى هذا العهد فيقول : « والسبب فى كثرة الثوار بالأندلس يومئذ ثلاثة وجوه :

الأول : منعة البلاد وحصانة المعاقل وباس اهلها بمقارنتهم بعدو الدين فلهم شوكة وحد بخلاف سواهم .

والثانى : علو الهمم وشموخ الأنوف وقلة الاحتمال لثقل الطاعة ، إذ كان من يحصل بالأندلس من العرب والبرابرة اشراف يأنف بعضهم من الأذعان لبعض .

والثالث : الاستناد عند الضيقة او الاضطرار إلى الجبل الأشم والمعقل الأعظم من ملك النصارى الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض » .

وقد كانت السياسة التى جرى عليها بنو امية فى الأندلس منذ بداية أمرهم فى اصطفاء الموالى قد أخذت تحدث اثرها فى نفوس القبائل العربية التى أصبحت ترى فى هذه السياسة نوعا من المهانة لها ، ولما ثار ضرام الفتنة على يد المولدين فى الثغر الأعلى والمناطق الجنوبية على يد ابن حفصون وجدت القبائل العربية الفرصة سانحة للقيام بدورها والانتصاف لعصبيتها وكرامتها(٤) .

وكان المولدون بالرغم مما تسبغه عليهم الحكومة الأموية من ضروب

---

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٤١ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين فى الأندلس ص ٢٤٤ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٣٤٠ ، د. زيتون : المرجع السابق جـ ١ ص ٣٢١ .

(٤) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، القسم الثانى ص ٣٥ .

الرعاية والتسامح يضمر أكثرهم لهـــا الخصومة والكيد ، ولا يدينـــون بالولاء لهـــا على الدوام ، وينتهزون الفرص للخروج عليها ، وكانوا يلقون العـــون والتأييد من بنى جنسهم من النصارى المعاهـــدين(٥) .

ولذلك انضموا إلى ثورة ابن حفصون الذى كان مولدا ويرجـــع إلى أصـــل أســـبان مسيحى وكان يجيش بالمسيحية وعاد إليها بعـــد أن أسلم وسبقه أبوه قبـــل ذلك بعـــدة أعـــوام(٦) .

* * *

(٥) عنان : المرجـــع السابق ص ٧٤ .

(٦) نفســـه ص ٤٢ ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٠٢ وبعدها تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٥٩ وبعدها .

ثورة المولدين بقيادة عمر بن حفصون

وقد كان من أخطر هذه الثورات التي قامت في الأندلس ثورة ابن حفصون المولد[1] الذي كان يمثل في ثورته كل ما يجيش به المولدون نحو العرب من بغض وكراهية ، فكان يدعوهم ومن إليهم من العجم المستعربين إلى الخروج على سلطان العرب ، ويذكرهم بما ينالهم من عسف واضطهاد على أيديهم ، وأنه قام ليرفع عنهم ذلك ويرد إليهم حريتهم وهو في ذلك لا يبغي سوى تقوية نفوذه وتوطيد سلطانه الذي بسطه على معظم الأنحاء الجنوبية الغربية من الأندلس فيما بين البحر ووادي شنيل[2] .

---

(1) عن هذه الثورة بالتفصيل : انظر البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٢ وبعدها ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٥ وبعدها ، عنان : دولة الإسلام ص ٢٠ وبعدها ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٥٩ وبعدها ، د. محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ص ٣٢٢ وبعدها . وهو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان ابن فرغلوش بن أذفونش القس ، ثار بالأندلس في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن وبدأت ثورته سنة ٢٧٠ في جبل بربشتر (ببشتر) فيما بين رنده ومالقة وانضم إليه الكثيرون من المولدين والخارجين على الطاعة والمفسدين ، واستولى على غرب الأندلس إلى رنده وعلى السواحل من استجة إلى البيرة وظل مستمرا في ثورته حتى مات سنة ٣٠٦ هـ فخلفه أبناؤه إلى أن قضى على ثورته سنة ٣١٥ هـ في عهد عبد الرحمن الناصر .

(انظر : العبر ج ٤ ص ١٣٤٠ ، البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٨ عنان : دولة الإسلام ص ٢٠) .

(2) عنان : دولة الإسلام في الأندلس (عصر الفتنة الكبرى) ص ٣١،٢٧ .

ويبــدو انه كان يطمع فى الاستيلاء على مقاليــد الأمور فى الأندلس بدليــل أنه أظهر الميــل للدولة العباسية وقــد قاوم هــذه الثورة الأمير محمــد وابنــه المنذر كما قاومهــا الأمير عبد الله مقــاومة شــديدة وفى سنة ٢٨٦ هـ أظهر ابن حفصون ما كان يخفيه فعــاد إلى النصرانية وتسمى بصمويل . وقد أدى ذلك إلى انصراف الكثير من المولدين المسلمين عنه بينما فرح العجم بذلك ، واشتد السخط عليه فى انحاء الأندلس وجــد المسلمون فى قتاله حيث رأوا أن حربه من الجهاد(٣) .

وحــاول ابن حفصون أن يعوض ما فقــده من أنصــار ويقــوى مركزه فخاطب الفونسو الثالث ملك ليــون وعقــد معه محالفة كما تودد لبنى قسى فى الثغر الأعلى ، وخاطب ابن الأغلب صاحب إفريقية وهاداه ، وكذلك الفاطميين أعداء الأمويين بالأندلس ، واظهر الدعــوة العباســية بالأندلس ، كما أظهر الدعوة لعبيد الله المهدى(٤) .

وقد كان للحملات التى أرســلها الأمير عبــد الله أثرها فى استنزاف قــوة ابن حفصون بحيث لم يعــد يشن حربا هجــومية كما كان يفعــل سابقا فى عهد الأميرين محمد والمنــذر وفى الســنوات الأولى من حــكم عبد الله ، وكان لهــذا كله أثره فى إضعاف ثورته التى استمرت ما يقرب من النصف قرن حتى قضى عليها فى عهــد الخليفة عبد الرحمن الناصر ســنة ٣١٥ هـ(٥) .

---

(٣) د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ج ١ ص ٣٢٥ ، عنــان : دولة الإســلام فى الأندلس ص ٤٣ .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٩ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٥ . د. محمد زيتون : المرجع السابق ص ٣٢٥ .

(٥) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٦٥ .

١ ــ الفتنة بين العــرب والمولدين فى البيرة

ولم يكد يمضى عام واحــد من إمارة عبد الله حتى اشتعلت نيران فتنة شــديدة بين العرب والمولدين فى كورة البيرة ، وكانت مدينة قسطلة حــاضرة هــذه الكورة (التى عرفت باسم غرناطة فيما بعــد) تذخــر بعــدد هائلٍ من أهل الذمة من نصــارى ويهود وكان المسلمون فيها قلة حتى أنها سميت (بإغرناطة اليهود) نظرا لكثرتهم فيها كما كانت تضــم الكثير من المولدين ، وكان النصــارى والمولدون ــ برغم إســلامهم ــ يؤلفون فى عهــد الأمير عبد الله رابطــة قــوية متآلفة متحــدة المصالح والأهداف حيث كان يغمر أكثرهم شعور بالكراهية ضــد السكان العرب ، وكانوا ينظرون إليهم نظرة المستعمرين المغتصبين لبلادهم ، ومن هنا فقد اضطر العرب إلى تأليف جبهة قــوية لمناهضة جبهة المولدين والمعاهدين وعرفت هــذه الجبهة (بالعصبية)(٦) .

وكان أول من تزعم هــذه الجبهة عربى من ناحية البراجلة فى كورة البيرة يدعى (يحيى بن صــقالة القيسى) وكان شديد التعصب للعرب ضــد المولدين والعجم ، فغــدوا يترصــدون له حتى أتى إلى حــاضرتهم قسطلة فقتــلوه بالرغم من عقــده معهم أمانا مؤكدا واستولوا على حصن منت شاقر (منت شقند) بالقرب من البيرة .

فخلفه على رئاســة عصبية العرب ســوار بن حمــدون القيسى « وكان فارســا شجاعا محاربا فكثر أتباعــه واشتدت شــوكته واعتزت العــرب به »(٧) .

---

(٦) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٦٦ ، عنان : دولة الإســلام فى الأندلس القسم الثانى ص ٣٥ .
(٧) ابن حيــان : المقتبس ص ٥٥ .

وقام ســوار فى بداية سنة ٢٧٦ هـ بالثورة فى ناحية البراجــلة وانضمت إليه بيوتات العرب من كورة البيرة وجيان وريه وغيرها ، للأخذ بثار يحيى واسترداد حصن منت شاقر الذى استولى عليه المولدون والعجم وكان فيه نحو ستة آلاف منهم ، واستطاع استرداد الحصن وقتل الكثيرين فيــه ، ثم اخــذ فى فتــح حصون المسالمة والنصارى واحــدا بعــد الآخــر ، وقتل الكثير منهم حتى ضــجوا منــه واستغاثوا بجعــد بن عبد الغافر عامل الأمير عبد الله على البــيرة ودعوه إلى قتــاله ، وبينوا له أنهم على طاعتهم للسلطان ، فخــرج وخــرجوا معــه فى جيش كثيف لقــاتلة سوار ولكنه تمكن من هزيمتهم ، واغمل فى المولــدين الســيف حتى ذكر انه قتــل منهم ســبعة آلاف واسر جعــداً واساء معاملتــه ثم اطلق سراحه لكونه عربى ، وقــد عرفت هــذه الموقعــة (بوقيعــة جعـــد)(٨) .

وقــد أدى هــذا الانتصار إلى قــوة نفــوذ سوار واشتداد باسه فكاتبه العرب من حصن غرناطــة حتى حــدود قلعــة رباح ، وصاروا يــدا على المولدين والنصارى . وخــاطب المولدون الأمير حتى يكف بأس ســوار عنهم ، وراســله الأمير فأظهر الامتثال لطاعته وعقــد مع أهــل قسطلة الصلح ، ويظهر انه طلب من الأمير عزل جعــد فعزله وولى مكانه عمر بن عبــد الله بن خالــد وكان شريكا لسوار ، وخرج ســوار للاسهام فى مقاتلة ابن حفصون وأغار على حصونه فى سنة ٢٧٦ هـ ، فغضــب أهــل قسطلة لذلك وجمعــوا جموعهم لقتاله فيما يزيد على عشرين الفا ، واستطاع سوار هزيمتهم وقتــل منهم نحــو أحــد عشر الفا وسميت هذه

---

(٨) ابن حيان : المقتبس ص ٥٦ ، ابن عــذارى : البيــان المغرب جـ ٢ ص ٢٠٢ .

الموقعة (بوقعــة المدينــة) حيث دار القتال فى سهل وادى شنيل بالقرب من غرناطــة(٩) .

وأمام ذلك لاذ المولــدون بابن حفصــون وخلعــوا طــاعة الأمير عبد الله ، واشتبك ابن حفصون مع سوار فى معركة هزم فيهــا وأصيب بجراح كثيرة فاضطر للعودة إلى حصنه فى ببشتر . وترك قائده حفص ابن المرة لمقاتلة ســوار ، حتى استطاع أن يستدرجه للقتال فى نفر قليل سنة ٢٧٧ هـ ، ونصب لــه عــدة كمائن خرجت عليه وتمكنت من قتــله وجىء بجثته إلى قسطلة فأظهر المولدون والنصارى فيها الشماتة والفرحة حتى ذكر « أن الثكالى من نسائهم قطعن لحمــه مزقا ، وأكله كثير منهن حنقــا عليه لمــا قــد نالهن من الثــكل فى بعــولتهن وأهليهــن واليتم فى أبنــائهم »(١٠) .

وقــد أدى ذلك إلى تصــدع جبهة العرب ، فاختاروا بعــده سعيد ابن سليمان بن جودى الذى حاول جمع شملهم ، ولكنه لم يتمــكن من سد الفراغ الذى تركــه ســوار ، فلم يكن مثــله فى القــوة والشجاعة والسياسة ، وظــل رئيسا للعرب فى البيرة نحــو سبع سنوات حتى تمكن أعــداؤه من قتله غيلة فى ذى القعدة سنة ٢٨٤ هـ(١١) .

---

(٩) انظر ابن عذارى البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٠٢ وهو يذكر أن جموعهم كانت ٢٣ ألف ، ابن حيان : المقتبس ص ٥٧ ، السيد سالم : مرجــع ســابق ص ٢٦٧ .

(١٠) ابن حيان : المقتبس ص ٦٠ .

(١١) ذكر ابن عــذارى أنه قتــل فى دار عشيقة له يهودية . (البيــان المغــرب جـ ٢ ص ٢٠٤) .

ويقال إنه قتــل بتدبير الأمير عبد الله بسبب أبيات قالها فى ذم بنى

=

وقام برئاسة العرب بعده محمد بن اضحى بن عبد اللطيف الهمذانى صاحب حصن الحامة (الحمة) فسار على سياسة سلفه، ولكنه هزم فى إحدى المعارك مع ابن حفصون وأسر وافتداه أصحابه بمال جزيل ، ومن ذلك الحين فقد العرب الزعامة المماثلة لسوار فى القوة والشجاعة والسياسة فتفرقت كلمتهم وانحلت عصبيتهم ضد المولدين ، وشبت العصبية فيما بينهم ووقع الاختلاف فتفرغوا للقتال مع بعضهم(١٢) .

٢ ـ الفتنة بين العرب والمولدين فى لبلة

ومثلما حدث فى البيرة حدث فى لبلة حيث الف العرب جبهة واحدة ضد المولدين والمسالمة ، وتزعم هذه الجبهة رجل يسمى عثمان ويعرف بابن عمرون .

وقد ثار على واليها عمرو بن سعيد القرشى واستطاع الاستيلاء على دار الإمارة وإخراج الوالى من المدينة ، وما لبث أن انضم إليه جماعة من العرب فاغار بهم على قرى إشبيلية . ولما علم الأمير عبد الله بثورته بعث إليه عثمان بن عبد الغافر ليستميله فنجح فى ذلك ، وعاد ابن عمرون إلى إظهار ولائه للأمير وفرق اتباعه ، وسكنت الفتنة إلى حين ، ثم لم تلبث

=

امية جاء فيها :

يا بنى مروان جدوا فى الهرب
نجم الثائر من وادى القصب
يا بنى مروان خلوا ملكنا
إنما الملك لأبناء العرب

(١٢) السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٦٨ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس (عصر الفتنة) ص ٣٦ .

أن اشتعلت من جـديد بين العرب المولدين ، فسار ابن عمرون إلى حصن قرقبة فاستولى عليه وتحصن فيه ، وانضم إليـه عثمان ورجاله وخـرج العرب بقيادة عثمان لـملاقاة المولدين فهزموهم وقتلوا منهم عـددا كبيرا ، وامتدت نيران هـذه الفتنة إلى منت ميـور التى ثار فيها رجل من المولدين يدعى ابن خصيب ، كما ثار مولـد آخر يدعى ابن عفير فى جبـل العيون وهو من حصون لبلة وأخـذت نيران هـذه الفتنة تمتد شيئا فشيئا حتى وصلت إلى إشـبيلية(١٣) .

٣ — الفتنة بين العرب والمولدين فى شـبيلية

كانت إشبيلية تعـد العاصمة الثانية للأندلس بعـد قرطبة ، وكان العـدد الأكبر من سـكانها من النصـارى المولدين ، بالإضـافة إلى مجموعات من السكان العرب أمثال بنى موسى وبنى الجـد ، وبنى الحجاج وبنى خلدون وغيرهم وكذلك من البربر . وكانت هذه القبائل العربية تؤلف فيما بينها العصبية العـربية فى إشـبيلية ، وقـد قامت بعـد الفتـح مصاهرات بين العرب والإسبان فى إشبيلية وغيرها من كور الأندلس فكثر زواج العرب بالأسبانيات ونشأ جيل عرف بالمولدين أصبح يشكل اغلبية السكان بمضى الزمن واحتفظ كثير منهم بأسمائهم القـديمة مثل بنى أنجلين وبنى شبرقـة وغيرهم .

غير أنه بمضى الزمن أخـذت العصبية تلعب دورها فأصبحنا نرى فى إشبيلية عصبية عربية يمثلها بنـو أبى عبدة بزعامة أمية بن عبد الغافر وبنـو حجاج برئاسة عبد الله وأخيه إبراهيم وبنـو خلدون بزعامة كريب وخالد بن عثمان وهم قوم المؤرخ المشـهور ابن خلـدون ، وعصبية من

---

(١٣) ابن حيان : المقتبس ص ٦٦ — ٦٧ .

المولدين يمثلها بنو انجلين وبنو شبرقة ، كما وجد فريق محايد من العرب والبربر والموالي لم يتعصبوا لفريق وظلوا على ولائهم للإمارة الأموية(١٤) .

وكان التنافس بين العرب والمولدين على النفوذ والرياسة من اهم اسباب الاضطراب في المجتمع الأندلسي يومئذ .

وكان المولدون في إشبيلية كما يصفهم ابن حيان « اغلظ اهلها شوكة ، وأوسعهم نعمة وأعزهم جانبا ، وأحضرهم عدة ، يعتدون في اثنى عشر رئيسا ، لكل رئيس منهم عقدة يعقدها وعدة يعتد بها »(١٥) .

وكان السبب في اشتعال نيران هذه الفتنة هو قيام كريب بن عثمان بن خلدون بالتحالف مع سليمان بن محمد بن عبد الملك الثائر بشذونة ، وعثمان بن عمرون الثائر بلبلة وكانا من اليمنية ، وكذلك جنيد ابن وهب القرموني من البربر البرانس ضد المولدين والموالي باشبيلية وعندئذ كون هؤلاء حلفا مع المضربين ، والبربر البتر من اهل كورة موروز المجاورة ونلاحظ هناك تداخل العصبيات فاليمنية والبربر البرانس في جهة ، والمضربة والبربر البتر في ناحية . وهذا يدل على مدى ما فعلته العصبية بالإضافة إلى المصالح في الفتن والصراعات التي قامت بين عناصر السكان في الأندلس .

ولكن كريب لم يستطع أن يحقق اهدافه في السطرة والنفوذ على إشبيلية أمام تكتل المولدين والموالي فاضطر إلى الخروج من إشبيلية ، واستوطن قرية تشرف عليها تسمى (البلاط) ، ومن هناك حرض بربر ماردة ومدلين على مهاجمة إشبيلية لكثرة خيراتها ، فأغاروا على قرية

---

(١٤) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٦٩ كان الفريق المحايد يتألف من عرب قرشيين وبعض الموالي الأمويين وبعض البربر .

(١٥) المقتبس ص ٧٥ .

تسمى طلياطه فقتلوا الكثير من أهلها واستباحوها وسبوا الكثير من نسائهم وذراريهم ، فخرج موسى بن أبى العاص والى إشبيلية لصدهم ولكنهم استطاعوا هزيمته ، وانطلقوا يشنون غاراتهم على جميع جهاتها فأدى ذلك إلى عزل الأمير عبد الله له ، وتوليه حسين بن محمد المورى مكانه .

وفى عهد هذا الوالى ظهر بين قرطبة وإشبيلية قاطع طريق بربرى الأصل يدعى « الطماشكة » فقام أهل استجه من المولدين وعلى رأسهم محمد بن غالب بإقامة حصن فى قرية شنت طرش — بموافقة الأمير — وقام وبعض أتباعه من البربر البتر والموالى والمولدين بحراسة الطريق بين قرطبة وإشبيلية حتى علا شأنه ، وتردد ذكر اسمه . فحسده بنو خلدون وبنو حجاج أعيان إشبيلية من العرب فهاجموه لبلا للقضاء عليه حتى تكون لهم الكلمة العليا ولكنه استطاع هزيمتهم وقتل أحدهم فشكوا إلى والى إشبيلية فطالب بثأر القتيل من ابن غالب ، فأرسلهم إلى الأمير ، فالتبس عليه الحكم فى قضيتهم نظرا لتضارب الأقوال والشهادات ، وعزل الوالى حسين ابن محمد المورى وولى مكانه محمد بن خالد الخالدى المعروف بالمعوج ، ثم ما لبث أن عزله أيضا وولى مكانه ابن عمه أمية بن عبد الغافر الخالدى فاستقر مع محمد ابن الأمير عبد الله فى قصر إشبيلية ، ووكل الأمير إلى ابنه البت فى القضية ، فجمع الفريقين ولكنه وجد تعصبا فى كل فريق لرأيه ، فاضطر إلى إرجاء النظر فى القضية أيضا وسمح لابن غالب بالعودة لحصنه ، فأدى ذلك إلى غضب العرب وازدادت قلوبهم كراهية وتعصبا ضد المولدين ، وخرجوا من إشبيلية وأرسلوا إلى محالفيهم ، وشقوا عصا الطاعة على الأمير عبد الله .

واستطاعوا الاستيلاء على مدينة قرمونة ، وحصن قورية وجزيرة

الأسيلة ، ولما وصلت هذه الأخبار إلى الأمير أشار عليه وزراؤه بقتل محمد بن غالب المولد إرضاء للعرب حتى يدخلوا فى طاعته مرة أخرى ، فأخذ الأمير بذلك .

وقد أثار مقتل ابن غالب ثائرة المولدين والموالى ، فوثبوا على عامل إشبيلية أمية بن عبد الغافر بعد أن أرسلوا إلى حلفائهم من المضريين والبتر فى جمادى الآخرة سنة ٢٧٦ هـ .

وفر أمية للاحتماء بمحمد ابن الأمير عبد الله ، فأرسل إلى محمد بن خطاب بن أنجلين زعيم المولدين بإشبيلية للتفاهم معه فى إطفاء نيران الفتنة ، وكان زعيم المولدين قد اتفق مع أصحابه من المحاصرين للقصر على مهاجمته عند أذان الظهر إذا لم يخرج هو ومن معه ، ولما مضى الوقت المحدد اقتحم المولدون القصر ونهبوا خيله ومراكبه ، وكان أمية ورفاقه قد قبضوا على ابن خطاب ومن معه وأمر غلمانه بالاستعداد لصد المهاجمين ، واستمر حصار المولدين للقصر حتى اليوم التالى واستنجد الأمويون بالجعد بن عبد الغافر فأقبل بعسكره من قرمونة ودخل إشبيلية واستطاع هزيمة المحاصرين وقتل منهم عددا كبيرا .

وأمر محمد بضرب أعناق ابن أنجلين ورفاقه ومصادرة أموالهم ونهب دورهم وكتب إلى أبيه بذلك فأمره بالعودة إلى قرطبة ، واستقدم أمية والى إشبيلية سادات العرب وقربهم فأقاموا فيها بعض الوقت ، ثم ما لبثوا أن عادوا للثورة مرة أخرى . وكان لمقتل الجعد فى كمين للطماشكة هو وأخويه أثره فى حزن أمية عليهم ، وفى عودة العصبية بين العرب والمولدين من جديد حيث حمل عرب إشبيلية وقرمونة على

المولدين والأعاجم فى إشبيلية وما جاورها حملة عنيفة قتلوا فيها الكثيرين منهم .

وظلت الكلمة للجبهة العربية وحلفائها حتى استطاع الأمير عبد الله القضاء على شوكتهم بالقوة تارة ، وبالحيلة تارة اخرى إلى أن تمكن ابراهيم بن الحجاج من الاستقلال بإشبيلية سنة ٢٨٦هـ بعد أن كانت مقسمة بينه وبين حليفه كريب بن خلدون(١٦) .

واستمر إبراهيم فى حكم إشبيلية وقرمونة حتى توفى سنة ٢٩٨ هـ فخلفه ولداه عبد الرحمن فى حكم إشبيلية ، ومحمد فى حكم قرمونة حتى انتهت دولتهم فى بداية عهد الخليفة الناصر(١٧) .



---

(١٦) انظر الرواية كاملة فى المقتبس ص ٦٧ — ٨٥ .

(١٧) راجع تفاصيل ثورة بنى الحجاج فى البيان المغرب جـ ٢ ص ١٢٨ — ١٣٥ ، ابن خلدون العبر جـ ٤ ص ١٣٥ ، جـ ٧ ص ٢٨٠ — ٣٨١ . عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٣٨ — ٤٠ . د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٥٨ ، ٢٨١ .

رابعـــا : العـــلاقة بين المسلمين وأهل الذمة

كان فتـــح المسلمين لشبه جزيرة إيبيريا (الأندلس) فاتحـــة عصر جـــديد ، وبداية تطـــور هام بالنسبة لها ، فقـــد كانت تعانى قبل الفتح الإســـلامى لهـــا من كثير من مظاهر الجور والعسف والاستبداد تحـــت حكم القوط ، حيث كانت أقليـــة من الحكام والأمراء والنـــبلاء تمتـــع بكل مظاهر الثراء والنفوذ على حساب اغلبية فرضت عليها الكثير من الوان الرق والعبودية والاستغلال ، فلمـــاء جاء الإسلام الفاتح قضى على ذلك كله ، وأشاع مبادىء العـــدالة والمساواة والحرية . وأقبـــل عليه الكثير من أهـــل هـــذه البلاد ، لمـــا لمسوه فيـــه من قيم ومبادىء نبيلة خلصتهم ممـــا كانوا فيـــه .

أما من بقى على دينـــه منهم : فقـــد ترك لهم المسلمون الفـــاتحون الحرية الكاملة فى ممارســـة شعائر عقائدهم الدينية ، وضربوا بذلك مثلا أعلى فى التسامح . كما خففوا عنهم الضرائب الباهظة التى كانت مفروضة عليهم ، واكتفوا منهم بأداء الجزية التى كانت تتراوح قـــلة أو كثرة على حسب مقـــدرة الشخص المـــالية .

وكان الخراج يفرض بالتساوى على من يحوز الأرض ســـواء كان مسلما أو ذميا . وهكذا تحرر أكثر الفلاحين من الاقطاع والرق القديم ، وتملكوا الأراضى وأصبح لهم حـــق التصرف فيها . ولم يكن لهم هـــذا قبـــل الفتـــح(1) .

---

(1) عنـــان : دولة الإســـلام فى الأندلس ج 1 ص ٧٤ ، لين بول : قصة العرب فى أسبانيا ص ٤ ، د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠ .

وقـــد عومل أهل الذمة فى الاندلس بمقتضى معـــاهدات تنظم ذلك ، ويعتبر العهد الذى أعطاه عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير حـــاكم شرق الاندلس خير مثال لذلك . وهـــذا نصـــه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هـــذا كتاب من عبد العزيز بن موسى لتدمير بن غنـــدر يس إذ نزل على الصلح أن له عهد الله وميثاقه ، ومـــا بعث به أنبياءه ورســـله ، وأن لـــه ذمة الله عز وجـــل ، وذمة محمـــد ﷺ ، ألا يقـــدم لـــه والا يؤخر لأحـــد من اصحابه بسوء ، وأن لا يسبون ولا يفرق بينهم وبين نسائهم وأولادهم ، ولا يقتلون ولا تحرق كنائســـهم ، ولا يكرهـــون على دينهم ، وأن صلحهم على سبع مدائن ، وانه لا يدع حفظ العهد ، ولا يحـــل ما انعقد ، ويصحح الذى فرضناه عليه والزمناه امره ، ولا يكتمنا خبرا علمـــه ، وأن عليـــــه وعلى أصحابه غرم الجزية من ذلك على كل حـــر دينار وأربعة أمـــداد من قمـــح ، وأربعة امـــداد من شعير ، وأربعة اقساط خـــل وقسطا عسل وقسط زيت ، وعلى كل عبـــد نصف هـــذا — شهد على ذلك عثمـــان بن عبـــد الله القرشى ، وسليمان بن قيس التجيبى ، ويحيى بن يعمر السهمى ، وبشر بن قيس اللخمى ، ويعيش بن عبد الله الأزدى ، وأبو الأصـــم الهـــذلى ، وكتب فى رجب ســـنة أربع وتسعين »(٢) .

ولقـــد استطاع المسلمون الفاتحون أن يقضوا فى أعوام قليلة على الكثير من عناصر القلق والاضطراب ، وأن ينظمـــوا إدارة البلاد ، فقـــد

---

(٢) ابن الدلائى : ترصـــيع الأخبـــار وتنـــويع الآثار ص ٥ ، تحقيـــق د. الأهوانى ، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ســـنة ١٩٦٥ م . الحميرى : الروض المعطار ص ٦٢ — ٦٣ مطبعـــة لجنـــة التأليف القاهرة سنة ١٩٣٧م . د. حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ١١٤ — ١١٥ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس جـ ١ ص ٥٥ — ٥٦ .

أبقـوا لأهـل الذمة شرائعهم وقضائهم ، وعينوا لهم حكاما من أنفسهم يديرون شؤونهم ويجمعـون الضرائب المقـررة منهم ، ويفصلون بينهم فى الأحكام ، كما عينوا الكثير من الأكفـاء منهم فى مناصب هامة فى الدولة مثل أرطباس الذى عينه عبد الرحمن الداخل أول قـومس للنصـارى بالأندلس(٣) ، وجيزون قاضى النصارى بقرطبة الذى عينه الحكم المستنصر واتخـذه إلى جانب ذلك مترجما له(٤) ، وحسداى بن شبروط اليهودى الذى اتخـذه الخليفة عبد الرحمن الناصر طبيبا خاصـا لـه وغـدا من أصحاب النفوذ والثراء فى عهد المستنصر(٥) .

وهكذا تمتع أهـل الذمة بالكثير من الحقـوق فى ظـل الحـكم الإسلامى ، وكـان لهـذا التسامح أثره فى رضائهم بالنظام الجـديد ، واعترافهم صراحة بأنهم يؤثرونه على حكم الإفرنج والقـوط كما يقـول لين بول(٦) .

ويعترف بهـذه الحقـائق بعض المستشرقين والمؤرخـين الغربيين المعتـدلين فيقول دوزى مثـلا : « لم تكن حـال النصارى فى ظل الحكم الإسلامى ممـا يدعـو إلى كثير من الشكوى بالنسبة لمـا كانوا عليـه من قبـل ، وكان العرب يتحلون بكثير من التسامح فلم يرهقـوا أحـدا فى شؤون الدين ، ولم يغمط النصارى للعرب هـذا الفضـل ، بل حمدوا للفاتحين تسامحهم وعـدلهم وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج .

ويقـول معترفا بآثار الفتح الإسلامى الإيجابية « كان الفتح العربى

---

(٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٨ .

(٤) المقرى : نفـح الطيب جـ ١ ص ١٨٢ .

(٥) ابن أبى أصيبعة : عيـون الأنباء جـ ٢ ص ٥٠ .

(٦) لين بول : العـرب فى أسـبانيا ص ٣٨ ، عنان : دولة الإسـلام فى الأندلس العصر الأول ص ٦٤ ـــ ٦٥ .

نعمة لأسبانيا ، فقد احدث ثورة اجتماعية هامة ، وقضى على الكثير من الأدواء التى كانت تعانيها البلاد من قرون ... الخ » .

ويقول لين بول : « يجب الا يخطر ببال احد أن العرب عاثوا فى البلاد او خربوها بصنوف الإرهاق والظلم ، كما فعل قطعان المتوحشين قبلهم ، فإن الأندلس لم تحكم فى عهد من عهودها بسماحة وعدل وحكمة كما حكمت فى عهد العرب الفاتحين » .

ويقول ايضا « وكان للأسبان أن يحتفظوا بشرائعهم وقضائهم ، وعين لهم حكام من انفسهم يديرون المقاطعات ، ويجمعون الضرائب ، ويفصلون فيما شجر بينهم من خلاف . وكان التسامح الدينى سائدا فلم يدع للأسبان سببا للشكوى »(٧) .

ويقول المؤرخ الأمريكى سكوت : « كان دفع الجزية يضمن الحماية لأقل الناس ، وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره دون تدخل ، كما يسمح للملحد أن يجاهر بآرائه دون خشية ، والأحبار يزاولون شؤونهم فى سلام . أما أقوال الكتاب النصارى التى ينسبون للعرب فيها أفظع المثالب فهى محض مبالغة وافتراء » .

وإن كنا لا نوافقه فى أن المسلمين كانوا يسمحون للملاحدة بالمجاهرة بآرائهم خاصة إذا كان فيها تهجم الإسلام كما يتضح ذلك من حركة الاستشهاد التى سيأتى ذكرها .

وينوه المؤرخ الأمريكى الدكتور (لى) بتسامح العرب والمسلمين خلال العصور الوسطى وترفعهم عن الخصومات الدينية ، وعن بغض الأجناس والتفرقة بينهما .

---

(٧) أنظر : العرب فى اسبانيا ص ٣٨ وبعدها ، د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٢٧ — ٢٨ .

ويذكر المستشرق (التاميرا) أن أغلبية الشعب الإسبانى بقيت فى ظل حكم المسلمين محتفظة برؤسائها وقضائها وأساقفتها ، وكنائسها ، وبالجملة فقد بقيت البلاد محتفظة بما يشبه استقلالها المدنى الكامل ، وقنع الولاة بأن يفرضوا عليها الضرائب الشرعية » .

وحتى بعض المستشرقين المتحاملين لم يجدوا مناصا من الاعتراف بذلك مثل المستشرق الإسبانى سيمونت الذى يقول « إنه فيما يتعلق بالقوانين المدنية والسياسية فإن النصارى الإسبان احتفظوا فى ظل الحكم الإسلامى بنوع من الحكومة الخاصة »(٨) .

انتشر الإسلام بين غالبية سكان إسبانيا حيث وجدوه طريقهم إلى الخلاص وإلى الحرية والعدالة والمساواة ، كما اعتنقه البعض للحفاظ على ما تحت يده من أملاك وأراض ، أو للخلاص من دفع الجزية ، أو لرفع مكانته الاجتماعية .

ولم يلبث الإسلام أن نحى النصرانية عن عرشها ، وصارت الغالبية العظمى من السكان مسلمين — وسموا بالمسالمة — أما الذين بقوا على دينهم فقد أخذ يقلون شيئا فشيئا وعرفوا بالمعاهدين والمعاقدين وأهل الذمة والعجم . وقد بهر الكثير منهم بالمسلمين ومبادئهم — برغم بقائهم على دينهم — فأخذوا يقلدونهم فى كثير من العادات والتقاليد والملابس والأزياء والطعام والشراب ، ويتعلمون اللغة العربية ويجيدونها ويتحدثون بها ويكتبون ولذلك سموا بالمستعربين . وقد عاشت إلى جانب هؤلاء المستعربين النصارى جاليات من اليهود وجدت أيضا

(٨) انظر : عنان : دولة الإسلام فى الأندلس العصر الأول ص ٦٠ — ٦٥ .

د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ١٨٧ — ١٩٠ .

من المسلمين الكثير من ضروب التسامح وحسن المعاملة بعد أن وجدت فى فتحهم لإسبانيا خلاصا لها من الجور والاضطهاد الذى كانت ترزح تحته أثناء حكم القوط(٩) .

وبالرغم من هذا التسامح التام الذى ابداه المسلمون تجاه أهل الذمة من يهود ونصارى ، إلا أن فريقا من الإسبان المتعصبين كانوا ينظرون إلى المسلمين على أنهم غزاة مغتصبون ، وكان هؤلاء الغلاة يتهمون إخوانهم من النصارى المعتدلين الذين ارتضوا حكم المسلمين بالمروق والخيانة للدين والوطن .

وكان رجال الكنيسة منهم هم مبعث هذا التعصب ودعامته ، يبذرون بذور الشقاق ويوقدون نيران الفتنة ، ويوغرون صدور المتطرفين والغلاة باسم المسيحية والحفاظ عليها ، وكانوا يبغضون المسلمين ، ويناصرون المسيحيين الذين يقاومون المسلمين من خلال حركة الاسترداد أو الاستعادة لطرد المسلمين من إسبانيا(١٠) .

وكان تغلغل حركة الاستعراب عند إخوانهم من النصارى قد احدث رد فعل قوى لديهم فأخذوا يبدون أسفهم الشديد وتحسرهم لذلك . وحاولوا عبثا وقف هذه الحركة دون جدوى ، فلم يجدوا أمامهم سبيلا إلا الطعن فى الإسلام والسخرية من المسلمين ونبيهم معتمدين

---

(٩) أنظر د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٢٩ — ٣٠ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٧٥ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ١٣٣ .

(١٠) عن هذه الحركة راجع : د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٦٨ وبعدها . عنان : دولة الإسلام فى الأندلس (العصر الأول) ص ٢٠٦ وبعدها ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧١ وبعدها ، عادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة ص ٣٨ وبعدها .

على طائفـــة من الخرافات والأباطيل التى يروجها رجال الكنيسة .

ولم تكن العـــوامل الدينية هى وحـــدها مبعث ذلك التعصب ، بل كان للعـــوامل الاجتماعية أيضـــا دور فى ذلك حيث أن هؤلاء كان يثير قلوبهم ما يحيط بالحكم الإسلامى فى الأندلس من مظاهر العز والسؤدد ، وما يظهر به الحـــكام المسلمون من مظاهر الفخـــامة والعظمة ، وما ينعم به المجتمع الأندلسى من حياة رغدة آمنة مستقرة(١١) .

وكان يذكى هـــذا الحقـــد فى نفوسهم ما يتعرضون له ــ نتيجـــة لتعصبهم ــ من معاملة خشنة وخاصـــة من العامة . وبلغ هـــذا التعصب مداه فى عهـــد الأمير عبد الرحمن الأوسط الذى بدأت حضـــارة الأندلس فى عهـــده فى التألق ، وأصـــبحت الأندلس فى عـــداد الدول العظمى فى العالم الإسلامى والمسيحى على السواء(١٢) .

وكان فى وســـع هؤلاء المتعصبين فى طليطلة وغيرها من المـــدن البعيدة عن العاصمة (قرطبـــة) أن يرفعوا علم الثـــورة أو ينضـــموا إلى الثورات التى تقوم ضـــد الأمويين ، ولكنهم فى قرطبة قاموا بحـــركة دينية خطيرة سنة ٢٣٧ هـ حيث عمـــدوا إلى تحقيق أهـــدافهم بوسيلة بسيطة وخطيرة فى نفس الوقت وهى المجاهرة بسبب الإســـلام ونبيـــه فى الطرقات والأماكن العامة وهم يعلمون أن المسلمين لن يسكتوا عـــلى ذلك ، وأن تلك جريمـــة شنعاء تعرض مرتكبها لعقـــوبة القتـــل ، غير أنهـــم انزلقـــوا فى هـــذا المنحـــدر عامدين حتى يكونوا شـــهداء وقديسين فيؤدى ذلك إلى ازدياد نيران الفتنة(١٣) .

---

(١١) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٢٥٩ .

(١٢) د. السـيد ســـالم : تاريـــخ المســـلمين وآثارهـــم فى الأندلس ص ٢٢٩ ــ ٢٤١ .

(١٣) يذكر أن هـــذه الفتنة التى سميت بحركة الاستشهاد بدأت بحـــوار دار بين قسيس من قرطبـــة يدعى برفكتوس مـــع بعض المسلمين حول فضائل محمد وعيسى ، وحميت المناقشة فتحولت إلى جـــدال

=

وكان يتزعم هذه الحركة قسيس متعصب متهور من قرطبة يدعى يولوخيوس أو (ايلوج) اخذ يسب الإسلام ويهاجم الأسبان الذين اعتنقوه ، ويحبب لاتباعه الاستشهاد فى سبيل نصرة المسيحية ضد الإسلام ، وكان يساعده فى ذلك شاب مسيحى من اغنياء قرطبة يدعى (الفارو) اخذ ينتقد الأسبان الذين يتعلمون اللغة العربية وآدابها ويتركون اللاتينية وشروحها . وكان يساعدهما قسيس آخر يدعى (برفكتوس) ، وفتاة اسبانية تدعى (فلورا) كانت قد أسلمت ثم ارتدت . وأدرك الأمير عبد الرحمن دقة الموقف وخطورته ورأى معالجته بالحزم والسياسة معا ، فاستدعى مجلسا من الأساقفة عقد فى قرطبة برئاسة (ريكفارد) مطران إشبيلية ، ومثل الأمير فى هذا المجلس كاتبه النصرانى جوميز ابن أنطونيان بن جوليان عامل أهل الذمة(١٤) وتم فى هذا المجلس استعراض الموقف وما يمكن أن يترتب على أعمال هؤلاء الغلاة من عواقب خطيرة ، واصدر المجلس قرارا ينتقد فيه مسلك هؤلاء المتطرفين ، ويحذر باقى النصارى من الانضمام إليهم ، والتهديد باعتقال كل مخالف لذلك .

غير أن ذلك القرار لم يؤد إلى نتيجة حاسمة ، فقد تمادى هؤلاء فى غيهم واعتقل الكثير منهم وزج بهم فى السجون ، وقدموا للمحاكمة فأخذوا يطلقون السنتهم بالسب والقذف فى الإسلام ونبيه ،

=

عنيف أدى إلى طعن هذا القسيس فى الإسلام ورسوله فقبض عليه واعدم مما ادى ببعض رجال الكنيسة المتعصبين إلى استغلال ذلك وعلى راسهم يولوخيوس للقيام بدعاياتهم ضد الإسلام (د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والاندلس ص ٢٩٥) .

(١٤) يسميه ابن القوطية قومس بن أنتنيان بن يليانه وقد اعتنق الإسلام فيما بعد وسمى بحمامة المسجد (أنظر تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٣) .

وحاول القضـــاة إقناعهم بخطئهم ومدى خطورته ولكن ذلك لم يجـــد نفعـــا ، عند ذلك اخـــذوا يحكمون عليهم بالقتـــل جـــزاء ما يصنعون ، وكان الأحبـــار يكرمون رفات هـــؤلاء القتلى ويطلقون عليهم صفة الشهداء مما زاد هذه الحركة ضراما ، ورأى قضاة المسلمين خطر هذه الحركة فرأوا عـــدم مقابلتها بالعنف حتى لا تزداد اشتعالا فأخـــذوا فى مراجعة هؤلاء المنحرفين والحكم عليهم بالسجن بدلا من القتـــل ولكنهم كانوا يطالبـــون بالموت حتى يلحقـــوا بإخـــوانهم الشهداء ، حتى أن القاضى الذى حاكم فلورا عندما حكم عليها بالسجن اخـــذت تطالبه بالحكم عليها بالإعـــدام وتمـــادت فى السب والقـــذف أمامه حتى حكم عليها بالموت ، وظلت هذه الفتنة مستمرة وحكم على نحـــو احـــد عشر متعصبا فى شهرين(١٥) .

واعتقـــل يولوخيـــوس وغيره من زعمـــاء الحـــركة ، ورغـــم ذلك استمرت الفتنة ، ولمـــا توفى الأمير عبـــد الرحمن أفـــرج عنـــه وعـــين أسقفا لمدينة طليطلة حتى يكف عن إشعال نيران هـــذه الفتنة فهـــدأت قليلا ، ولكنه عاد إلى قرطبة ليواصـــل فتنته رغم ذلك وعند ذلك قبـــض عليـــه واعـــدم فى مارس ســـنة ٢٤٥هـ / ٨٥٩م بأمر من الأمير محـــمد الأول بن عبد الرحمن ، وبقتله أخـــذت الفتنة تضعف شيئا فشيئا حتى زالت ، وهكذا انتهـــت هـــذه الفتنة الخطـــيرة التى استمرت ما يقرب من ثمانى سنوات ٢٣٧هـ / ٨٥١م ــ ٢٤٥هـ / ٨٥٩م ولم تحقق شـــيئا من أهـــدافها بل على العكس أدت إلى مقتـــل نحـــو اربعـــة واربعين من المتعصـــبين ، وإلى إثارة الســـخط والاستنكار من جانب النصارى المعتدلين الذين كانوا يقـــدرون تسامح المسلمين(١٦) .

---

(١٥) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإســـلامى ج ٤ ص ٥٠ ــ ٥١ عنان : دولة الإســـلام فى الأندلس ص ٢٥٨ ــ ٢٦١ .

(١٦) د. محمـــد زيتـــون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٩٧ ؛ د. أحمد شلبى : المرجـــع السابق ج ٤ ص ٥١ د. السيد سالم : تاريخ المســـلمين ص ٢٤٢ ، عنـــان : دولة الإســـلام فى الأندلس ص ٢٦١ .

الفصل الثالث

الحالة الدينية

من الطبيعى أن يكون التدين ، والعنـــاية بشعائر الدين أمرا واضحا ، وسمة مميزة فى بلد شـــغل بالحروب طويلا ، وانتقدت فيه روح الجهـــاد والمرابطة كالاندلس . وقد كان لمجاورة المسلمين للنصارى فى أســـبانيا وأوربا أثر بالغ فى ازدياد هـــذا الشعور(١) .

ولذلك فقد اتصف أهل الأندلس عامة بالتدين والمحافظة على شعائر الدين إلا القليلين ، وكانوا يجلون رجـــال الدين ويقدرونهم وخاصة الفقهاء ومن هنا كان لقب فقيه عندهم من أرفع الألقـــاب ، وكانوا إذا ما أرادوا تكريم عالم أو أمير عظيم أطلقوا عليه هـــذا اللقب .

كما كانوا يقيمون الحـــدود الشرعية ، وينكرون التهاون فى تعطيلها إذا راوا فى ذلك تهاونا من قبل السلطان كما ذكر ابن سعيد المغربى(٢) .

وعندما دخل المسلمون الأندلس اظهروا حماسة بالغـــة فى نصـــرة الإسلام ونشره ، وخاضوا من أجل ذلك معـــارك شتى ، وحروبا تكاد تكون متصلة ضـــد الأعداء بحيث يمـــكن القول : إن حيـــاة المسلمين فى الأندلس كانت فى مجموعها أو مجملها عبارة عن حروب ومعارك بينهم وبين بعضهم من ناحية بفعـــل العصبية والتنافس على الملك والرئاســـة ، وبينهم وبين النصارى من ناحيـــة أخـــرى . ويلخص بعض المؤرخـــين الإســـبان

---

(١) يقول القزوينى : « ومن عجائب الدنيـــا .... المـــلكة الإسلامية بالأندلس مع إحاطة الفرنج بها من جميع الجوانب » عجائب المخلوقات ص ٣٨٨ .

وهى أعجوبة حقـــا بذل المسلمون فى ســـبيل تكوينها الكثير ، ومكثوا فى صراع لا يكاد يهدأ حتى يبدأ من جديد لمدة ثمانية قرون ، واستطاعوا فى خـــلال فترات الهـــدوء والاستقرار القليـــلة إقـــامة تلك الحضارة الباذخة .

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٢ — ١٠٣ .

تاريخ المسلمين فى الأندلس مع الأسبان وحلفائهم من النصارى بأنها « معركة القرون الثمانية Labatalle de Ocho » . ولذلك فإن الحروب المتتالية للمسلمين مع الأسبان وحلفائهم من الأوربيين كانت تبعث فى نفوسهم الحمية والحماسة الدينية فيما عدا فترات قليلة تعاون فيها بعض الطامعين فى الملك والرئاسة — وخاصة فى عصر ملوك الطوائف — مع هؤلاء الأعداء ، خاصة وأنهم أدركوا أن بقاءهم وبقاء دولتهم فى الأندلس رهين ببقاء الإسلام والالتزام بنصرته ، فيذكر المقرى عن إبراهيم بن القاسم القروى المعروف بالرقيق « أن أهل الأندلس أصحاب جهاد متصل »(٢) .

اولا — المذاهب الفقهية

وإذا كان المسلمون قد شهدوا فى المشرق نشأة الفرق والأحزاب السياسية والدينية التى أدت إلى مزيد من الصراع والتشتت والانقسام الفكرى والدينى والسياسى ، فإنهم لم يشهدوا مثل ذلك الصراع فى الأندلس ، حيث كانت مذاهب أهل السنة هى المعمول بها فى الأندلس .

فقد كان مذهب الإمام الأوزاعى إمام أهل الشام (١٥٧ هـ / ٧٤٤ م) هو المذهب المعمول به فى بداية الأمر ، ثم بدأ مذهب الإمام مالك فى دخول الأندلس منذ عصر الأمير هشام بن عبد الرحمن الملقب بالرضا (١٧٢هـ — ٧٨٨م — ١٨٠هـ/٧٩٦م)(٣) .

---

(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ٧١ .
(٣) يذهب ليفى بروفنسال إلى أن مذهب مالك دخل الأندلس قرب نهاية حكم الأمير هشام الأول أو فى السنوات الأولى من حكم ابنه الحكم (الحضارة العربية ص ١٥٨) . وقد ذهب د. حسن ابراهيم حسن وكذلك د. حسن على حسن : إلى أن مذهب مالك لم ينتشر

=

يقول ابن الفرضى فى ترجمة زهير بن مالك البلوى : « كان فقيها على مذهب الأوزاعى على ما كان عليه اهل الأندلس قبل دخول بنى أمية »(٤) .

وكان تلميذ الإمام الأوزاعى فى الأندلس ، والذى يرجع إليه الفضل فى نشر مذهبه الفقيه صعصعة بن سلام الشامى (قاضى قرطبة وصاحب الصلاة فيها ت ١٩٢ هـ)(٥) .

وقد ذهب الكثيرون إلى ان مذهب الإمام مالك قد بدأ فى الانتشار فى الأندلس فى عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وأن أول من ادخله زياد بن عبد الرحمن اللخمى الملقب بشبطون (ت ١٩٣ هـ) . وكان قد رحل إلى المدينة بعد عام واحد من إمارة هشام ، وتتلمذ على يد الإمام مالك الذى كان معاصرا لهشام وكان يثنى عليه وعلى حسن سيرته ، ثم أصبح المذهب العام والسائد والرسمى منذ عهد الحكم ابن هشام ولذلك يذكر ابن سعيد « أنه لا مذهب لهم إلا مذهب مالك ، وخواصهم يعلمون من سائر المذاهب ما يتباحثون به »(٦) .

=

إلا فى عهد الحكم بن هشام (أنظر الحياة الدينية فى المغرب فى القرن الثالث الهجرى ص ١٠٧ ، تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٣٣٣) .
والحقيقة أن معظم المصادر تتفق على أن هذا المذهب قد بدأ فى الانتشار فى عهد هشام ، واصبح المذهب الرسمى فى عهد الحكم .

(٤) تاريخ علماء الأندلس ص ١٥٣ . الدار المصرية للتاليف والترجمة سنة ١٩٦٦ م القاهرة .

(٥) نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣ ، تاريخ علماء الأندلس جـ ١ ص ١٥٤ — ١٥٥ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ٥٩ ، ١٥٨ .

(٦) وقد ذكر البعض : أن الغازى بن قيس (ت ١٩٩ هـ) هو أول من أدخل الموطأ إلى الأندلس فى أيام عبد الرحمن الداخل ، وكان مؤدبا بقرطبة ، ثم رحل إلى المشرق وشهد تأليف مالك للموطأ ، وأدرك نافع بن أبى نعيم القارىء ، واخذ عن الأوزاعى ، ويقال إن عبد الرحمن عرض عليه القضاء فأبى واشتغل بالفقه والفتوى

وتختلف الروايات فى سبب تحول الأندلسيين عن مذهب الإمام الأوزاعى إلى مذهب الإمام مالك . فمن قائل : إن العلماء والفقهاء الأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق قابلوا الإمام مالك فى المدينة فأعجبوا بشخصه وفقهه المعتمد على الكتاب والسنة ، والذى يميل إلى الناحية العملية — فهو يرى أن كل ما هو نافع للمسلمين ويتفق مع مصالح جمهورهم فهو من الإسلام ما دام لا يتعارض من أوامره ونواهيه — وقد اخذت المذاهب الأخرى من هذه القاعدة بأطراف ولكن الإمام مالك يعمم ذلك ، ويجعله قاعدة ولم يكن يلجأ إلى الرأى إلا فى حالات الضرورة القصوى(٧) .

ومن قائل : إن الإمام مالك سأل بعض الحجاج الأندلسيين عن أميرهم هشام فأثنوا عليه خيرا — وكان تقيا ورعا مجاهدا — فقال مالك — وكان فى نفسه من بنى العباس شيىء — : ليست الله أن يزين موسمنا بمثله ، أو ليت الله أن يزين حرمنا بملككم » .

فلما سمع هشام هذا سمح لتلاميذه من أمثال الغازى بن قيس ، وزياد ابن عبد الرحمن (شبطون) ويحيى بن يحيى الليثى ، وعيسى بن دينار ، وسعيد بن أبى هند ، وقرعوس بن العباس بتدريس مذهبه ونشره ، وأمر القضاة بالعمل به .، ومن هنا أخذ مذهب مالك فى الانتشار حتى غدا المذهب الرسمى فى الأندلس(٨) .

=

(أنظر : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٤ ، تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٠١٥ جـ ٢ ص ١٧٧) .

(٧) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٩ ، د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٥ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٧٤ .

(٨) أنظر د. مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٩ — ٢٧٠ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم والأندلس ص ٢١٨ ، قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٤ — ٥٥ . ويذهب د. الشكعة : إلى

=

ويذكر المقرى سبب دخول مذهب مالك إلى الأندلس فيقول : « ذهب الجمهور إلى أن السبب فى ذلك هو رحلة علماء الأندلس إلى المدينة ، وعند رجوعهم افاضوا فى الحديث عن فضل مالك ، وسعة علمه ، وجلال قدره ، ومن هنا اقبلوا على مذهبه ، على أن هناك رأيا يذهب إلى أن مالكا سأل بعض الأندلسيين عن سيرة أميرهم فسره ما سمع من حسن سيرته وعدله فى حكمه » وقد كان مالك يكره سلوك بنى العباس وخاصة المنصور ، وذلك لما فعله بالعلويين فى ثورة النفس الزكية ، ومن هنا تمنى أن يهب الله المشرق خليفة عادلا ، وبلغت امنيته الحكم بن هشام فحمل الناس على اتباع مذهبه وترك مذهب الأوزاعى(٩) .

كما نقل المقرى عن ابن حزم رأيه فى ذلك حيث يقول (ابن حزم) : « مذهبان انتشرا فى بدء أمرهما بالرياسة والسلطان مذهب أبى حنيفة فى المشرق ، ومذهب مالك عندنا بالأندلس فإن يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان مقبول القول فى القضاء ، وكان لا يلى قاضى فى أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس

=

أن الحكم بن هشام هو الذى نشر مذهب مالك بن جمهرة الناس ، وخلط بين هشام وبين ابنه حين قال « فسمع الحكم ثناء مالك عليه » . وقد اتفقت غالبية المصادر على أن هشام هو الذى أثنى عليه الإمام مالك (أنظر الأدب الأندلسى ص ٧٤) .

(٩) نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٨ المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٠٢ هـ .

ويمكن دمج الرأيين فى رأى واحد فنقول : إن مالكا سأل بعض علماء الأندلس الذين التقوا به وتتلمذوا على يديه واسوا جلال قدره وسعة وعلمه عن أميرهم فأثنوا عليه خيرا مما جعله يثنى عليه فتمنى ما تمنى مما كان سببا فى إقبال الناس فى الأندلس على علمه ومذهبه وقام هؤلاء التلاميذ بدور أساسى فى ذلك .

سراع إلى الدنيا فاقبلوا على ما يرجـون به أغراضهم(١٠) . ولكننـا لا نوافق ابن حزم على أن السبب في إقبال الناس في الأندلس على مذهب مالك هو طمعهم في الدنيا ، والحق أن مذهب مالك مذهب واقعي أو عملي يرى أن كل ما هـو نافـع للمسلمين وفي صـالح جمهورهم يعـد من الإسـلام ما لم يتناقض مع مبـادئه وأحـكامه أو أوامره ونواهيه ، هـذا فضلا عن أنه مذهب أهل المدينة مستقر رسول الله ﷺ ومثواه والتي عاش فيها كثير من صحابته ، وتهوى إليها النفوس .

ويضيف ابن خلدون سـببا آخـر على طريقته في فلسفة أحداث التاريخ فيذكر أن البداوة كانت هي الغالبة على أهـل المغرب والأندلس وأنهم لم تكن لهم حضارة أهـل العراق ، فكانوا إلى مذهب أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة(١١) . ونضيف إلى ما قاله ابن خلدون أن مذهب مالك يعتمد على النصوص أكثر مما يعتمد على العقل والقياس ، وهذا أيضا ممـا يناسب البداوة . ويعد أكثر ملائمة لعقلية الأندلسيين .

ويفسر الأستاذ العبـادي انتشار مذهب مالك بعـوامل سياسية فيذكر أن النفور كان شديدا،والخصومة مستحكمة بين الأمويين والعباسيين حيث كان العباسـيون على المذهب الحنفي لأن مالـكا لم يكن يستريح لسياسـة العباسـيين(١٢) .

وبالاضافة إلى هـذه الأسباب فإننا نستطيع أن نضيف سببا آخـر له أهميته وهو أن الأندلس لم تكن بمنـأى عن التيـارات المذهبيـة في المغرب الذي لا يفصلها عنها إلا مضيق صغير ، وكان المذهب المـالكي قـد انتشر في بلاد المغرب على يد سحنون وأسـد بن الفـرات اللذين

---

(١٠) نفح الطيب ج ٢ ص ٢١٨ .
(١١) المقـدمة ص ٤٢٥ المطبعة الأميرية سنة ١٣٢٠ هـ .
(١٢) المجمـل في تاريخ الأندلس ص ٨٩ .

ادخـــلاه إليها وعمـــلا على نشره مـــع طائفة من الفقهاء(١٣) .

ومن هنـــا آمتد هـــذا المذهب إلى الأندلس حيث كان كثير من البربر الذين شاركوا فى فتحها على المذهب المـــالكى الذى غـــدا بمثابة الهوية والقومية بالنسبة للسكان فى المغرب والأندلس(١٤) .

وقـــد كان شـــبطون أول من ادخـــل الموطـــأ كاملا إلى الأندلس على رأى الكثيرين واخـــذه عنـــه يحيى بن يحيى الليثى المصمودى ، الذى اشـــار عليه زياد بالرحيل إلى المدينة للتتلمذ على يد الإمام مالك فلازمـــه مدة وسمع عنه الموطأ ، ثم رحل إلى مـــكة فســـمع من سفيان بن عيينة ، كما سمع بمصر عن فقيهيها الليث بن ســـعد وعبـــد الرحمن بن القـــاسم العتقى ، ولمـــا عاد إلى الأندلس عمـــل هـــو الآخر على نشر مذهب مالك، وتولى الرئاســـة فى الفقه والقضاء واصبح إمام عصره ، وغـــدا لـــه منزلة ســـامية ومكانة عظيمة فى عهـــد هشام الذى قرب الفقهـــاء حتى سمى عصره بعصر نفـــوذ الفقهاء(١٥) .

وكذلك غـــدا لـــه منزلة كبيرة فى عهـــد حفيده عبد الرحمن الأوسط وبلغ من نفـــوذ يحيى انه كان لا يولى احـــدا فى القضاء إلا بمشورته .

---

(١٣) د. مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٩ . وسحنون هو عبد السلام بن سعيد ، وكان من اشهر فقهاء المـــالكية بالمغرب ، وعليـــه تتلمذ الكثيرون من فقهاء الأندلس . فيذكر أنه كان بكـــورة إلبيرة ســـبعة سمعوا كلهم منه فى زمن واحـــد وأصبحوا يدورون حـــول كتابه المدونة الذى جمعـــه من آراء عبد الرحمن بن القاسم العتقى تلميذ مالك وفقيه المـــالكية بمصر حتى وفاته سنة ١٩١ هـ .
(انظر : الذخـــيرة ق ١ جـ ١ ص ١٤٠ ـــ ١٤١ ، ابن حيـــــان المقتبس ص ٣٠٣ تحقيق د. محمود مكى) .
د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى (عصر سيادة قرطبـــة ص ٢٤ ، ص ٢٥ . الحياة الدينية فى المغرب ص ١٠٣ .

(١٤) د. حسن على حسن : الحياة الدينية فى المغرب ص ١٠٧ـــ١٠٨ .

(١٥) د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى جـ ٤ ص ٤٤ .

وقد اصبح المذهب المالكى فى الواقع هو المذهب الوحيد المعترف به رسميا فى الأندلس وأقام الغالبية العظمى من فقهائه أنفسهم حراسا له وتحمسوا له تحمسا شديدا وصل بالكثير منهم إلى درجة التعصب له ، وانتهى بهم إلى التقليد والجمود .

وقد وصل التعصب بالبعض لدرجة أنه إذا تناظر فقيهان فى قضية أو مسألة وقال أحدهما : قال رسول الله رد الآخر قائلا : وقال مالك وهذا من الجهل المؤدى إلى العصبية لأن مالكا ما استقى إلا من الرسول ﷺ .

كما وصل التحمس لدرجة أن بعضهم ألف كتبا فى مناصرة هذا المذهب على غيره مثل عبد الوهاب بن نصر البغدادى الذى ألف كتابا فى مائة جزء كما يذكر المقرى عن « الوادى آشى » سماه (النصرة لمذهب إمام الهجرة) ويذكر أن الكتاب وقع فى يد أحد قضاة الشافعية بمصر فألقى به فى النيل لما فيه من عصبية شديدة(١٦) .

ظل الأندلسيون فى الأعم الأغلب على هذا المذهب وتحمسوا له وتعصب بعضهم له تعصبا شديدا ، ولذلك لم تعد الأندلس تسمع غير صوت هذا المذهب بفضل التأثير الذى مارسه فقهاؤه ، ولكن كان هناك أناس اعتنقوا مذاهب اخرى غير أن صوتها كان خافتا ، وكان هناك امراء عرفوا كيف يتحررون من نفوذ الفقهاء المالكية كالحكم الربضى ، ويسمحون بل ويشجعون دخول تيارات فكرية ومذهبية جديدة ما دامت لا تمس سلامة العقيدة ولا تهدد نظام الحكم مثل الأمير محمد الأول (٢٣٨هـ — ٢٧٣هـ) والحكم المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦هـ) ولكن الفكر المناصر للمذهب المالكى حاول التقليل — إن لم يكن القضاء — على هذه التيارات

---

(١٦) انظر المقرى ج ٣ ص ٢٧٥ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٧٤ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٥٤ .

الوافــدة ، وإهمال شأنها ، وقصر النشـاط الدينى فى مجالات الفقــه والتشريع على هــذا المذهب وحـــده(١٧) .

وقد كانت سيادة مذهب مالك مما قلل من المذاهب الأخرى المخالفة لأهــل السنة عموما ، وجعل الأندلسيين من عامة وعلماء يصـــدرون فى الغالب عن راى واحد وعاطفة واحدة(١٨) .

غير أن سيادة هــذا المذهب لم تلغ وجــود مذاهب أخرى ســواء اكانت مذاهب فقهية كالمذهب الشافعى والمذهب الحنفى والمذهب الظاهرى ، او مذاهب دينية كالخوارج والشيعة والمعتزلة .

موقف فقهــاء المذهب المــالكى من المذاهب الأخرى :

تعصب فقهـــاء المــالكية لمذهب مالك تعصبا شديدا ، وتحمسوا له تحمسا بالغا ، ولذلك وقفــوا ضـــد انتشار المذاهب الأخرى سواء أكانت مذاهب فقهية أو دينية . فقــد كان الإمام مالك عندهم هــو صاحب الكلمة العليـــا والأخيرة فيما يتصل بالفقه والعقيدة وعلم الكلام .

ودليــل ذلــك موقفهـــم من بقى بن مخــلد الذى ادخــل مصــنف ابن أبى شيبة كاملا ، كما أدخل كتاب الفقه الكبير للشافعى ، كما أدخـــل ايضـــا كتاب التاريخ لخليفة بن خياط وكتابه فى الطبقات ، وكتاب سيرة عمر بن عبد العزيز للدروقى ، وصنف تفسير القرآن ومسند النبى ﷺ لبس لأحد قبله كما قيل . واحتفظ بلون من الاستقلال الفكرى فلم يكن يتبع مذهبا معينا وإنما يصـــدر فتاواه تبعـــا لاجتهاده الشخصى معتمدا على القرآن

---

(١٧) ليفى بروفنسال : الحضـــارة العربية فى اسبانيا ص ١٥٤ .

(١٨) ابن الأحمر : نثير فرائد الجمان ص ٤٥ تحقيق د. رضـــوان الداية دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٧ م .

والسنة(١٩) وهـو شيىء لم يكن لفقهاء المالكية أن يتركوه عليه .

ولكنهم لم يستطيعوا مهاجمته مباشرة وانتهزوا فرصة تدريسه لمسند ابن أبى شيبة الذى يعرض آراء مالك وآراء الفقهاء الآخرين فهاجموه .

وقد واجه بقى معارضة عنيفة من فقهاء المالكية وعلى رأسهم ابن مرتنيل(٢٠) ، واصبغ بن خليل الذى ينسب إليه انه قال « لأن يكون فى تابوتى رأس خنزير أحب إلى من أن يكون فيه مسند ابن أبى شيبة »(٢١) ، ومحمد بن حارث(٢٢) . وقد اخذ هؤلاء الثلاثة وغيرهم من المالكية فى إثارة العامة ضد بقى واقترح بعضهم إصدار فتوى بإباحة دمه وقرر بقى الرحيل فرارا بنفسه ، وبلغ الأمير محمد ما يحدث فاستدعاه وجميع الفقهاء وعقدت مناظرة دافع فيها بقى عن آرائه بقوة فطلب منه مسند ابن ابى شيبة ليطلع عليه ، ثم قال لخازن كتبه : هذا الكتاب لا تستغنى عنه خزائننا فأنظر فى نسخة لنا ، وقال لبقى فى صراحة : انشر علمك وارو ما عندك . ونهاهم عن أن يتعرضوا له(٢٣) .

وإذا كان هذا مثل واحد يبين لنا كيف كان موقف فقهاء المالكية من المذاهب الفقهية ، فما بالنا بموقفهم من المذاهب الدينية والكلامية مثل مذهب المعتزلة والشيعة والخوارج ، لا شك أن الموقف كان أشد ويدلنا على ذلك قول المقدسى (وهم يقولون لا نعرف غير كتاب الله وموطأ مالك فإن ظهروا على شافعى أو حنفى نفوه ، وإن عثروا على معتزلى أو شيعى ونحوهما ربما قتلوه)(٢٤) .

---

(١٩) ابن الفرضى تاريخ علماء الأندلس ترجمة رقم ٢٨٣ .
(٢٠) انظر ترجمته فى ابن الفرضى المرجع السابق رقم ٢٤٥ .
(٢١) ابن الفرضى نفس المرجع رقم ٦٢٢ .
(٢٢) ابن الفرضى نفس المرجع رقم ١١٠٧ .
(٢٣) ابن الفرضى نفس المرجع رقم ٢٨١ ، البيان المغرب ج ٢ ص ١١٢ .
(٢٤) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٣٦ .

ويكفى أيضـــا لفهم ما صـــنع المــالكية بالتعليم فى الأندلس حيث قصروه فى الغالب على دراســـة المذهب المــالكى وعادوا ما سواه ولكن كانت هناك أوقات يستطيع فيها أصحاب المذاهب الأخرى تدريس مذاهبهم ولكن على استحياء أو فى خفاء غالبا . ومن ثم فقد فشلت هـــذه المذاهب فى أن تجـــد لها اتباعا كثيرين مثل المذهب المــالكى(٢٥) .

ومع مجىء المنصور بن ابى عامر اشتدت قبضـــة الفقهاء المــالكية حيث كان فى حاجة إلى التأييد من جراء استبداده بالسلطة فقربهم إليـــه وامر بحرق كتب الفلسفة ، وأطلق لهم العنان فى محاســـبة الكثيرين على عقائدهم فاتهم الكثيرون بالزندقة(٢٦) ، ولذلك أخـــذت حرية العلمـــاء تقيد فى إلقـــاء دروسهم . ويبدو أن المنصور قد قام بذلك سياسة حـــيث يقال إنه كان محبا للفلسفة فى قرارة نفسه(٢٧) .

كما واجـــه ابن حزم الظاهرى نفس الموقف فأحرقت كتبه فى ميادين إشبيلية(٢٨) .

وفى بعض الأحيـــان كانت تخف حـــدة المواجهـــة للمخـــالفين فى المذهب نظرا للحاجـــة إلى توحيد الصف ضـــد العـــدو المسيحى المتربص بالمسلمين على اختلاف نزعاتهم ومشاربهم . وربمـــا كان لهـــذا الاعتبار اثره فى عـــدم انتشار المذاهب المخـــالفة للمذهب المـــالكى فى الأندلس كثيرا .

---

(٢٥) ريبرا ، التربية الإسلامية فى الأندلس ص ٢٥ – ٢٦ ترجمـــة د. الطاهر مكى . دار المعارف سنة ١٩٨١ .
(٢٦) الطرطوشى : سراج الملوك ص ١٦٧ ط بولاق .
(٢٧) نفح الطيب ج ١ ص ٢٢١ ، ريبرا : التربية الإسلامية ص ٢٦ – ٢٧
(٢٨) انظر : الطاهر مكى : دراسات عن ابن حزم ط ٢ مكتبـــة وهبـــة سـنة ١٩٧٧ م .

المذهب الشافعى

بالرغم من سيادة المذهب المالكى بالأندلس إلا أن المذهب الشافعى وجد له طريقا إلى هذه البلاد منذ حكم الأمير محمد الأول (٢٣٨ — ٢٧٣هـ) الذى كان أول أمير أموى يتسامح ويشجع دخول المذاهب الأخرى ، لما رآه ولمسه من قوة نفوذ الفقهاء المالكية ، ورغبته فى الحد من نفوذهم كما حاول الحكم الربضى ذلك من قبل ، وأيضا توسيع آفاق الحياة الفقهية بحيث لا تقتصر على مذهب واحد . وذلك بالرغم من تحذيرات الفقهاء المالكية له(١) .

وكان قاسم بن محمد بن سيار القرطبى أول دعاة المذهب الشافعى فى العاصمة الأندلسية ، حيث كان قد تفقه فى المشرق على هذا المذهب وارتبط به ولما عاد إلى الأندلس دعا إلى ترك التقليد ، والأخذ بالحجة والنظر والاستنباط والاعتماد على الاجماع والقياس ، وأخذ يدرس هذا المذهب فى قرطبة تحت رعاية الأمير محمد ، الذى منحه الحماية فى مواجهة دعاة التقليد من فقهاء المالكية بخاصة ، وعهد إليه بتحرير وثائقه وشروطه ، وظل فى هذا المنصب حتى توفى سنة ٢٧٦ هـ/٨٩٠ م .

---

(١) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١٦٤ .

(٢) قاسم بن محمد بن سيار : هو مولى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك قال عنه ابن الفرضى : « كان يذهب مذهب الحجة والنظر وترك التقليد ، ومال إلى مذهب الشافعى . يذكر أن اباه أوصاه بالأخذ برأى الشافعى ، ولم يكن مثله فى حسن النظر والبصر والحجة قال عنه أحمد بن خالد ومحمد بن عمر بن لبابة (ما رأينا أفقه من قاسم ابن محمد ممن دخل الأندلس من أهل الرحل) وذكر انه توفى سنة ٢٧٧ ، ٢٧٨هـ (تاريخ علماء الأندلس ص ٣٥٥ — ٣٥٦ ترجمة رقم ١٠٤٩ . ج

وقد تأكد هـــذا التشجيع من الأمير محمد عندما شمل برعايته فقيها آخـــر هو أبو عبد الرحمن بقى بن مخلد القرطبى صـــاحب التفسير الذى اشاد به ابن حـــزم وقال عنـــه :

« الكتاب الذى أقطع قطعا لا استثنى فيـــه ، أنه لا يوجد فى الإسلام تفسير مثله لا تفسير محمد بن جرير الطبرى ولا غيره »(٣) .

وقد قام بمحاولات لإدخال المذهب الشافعى إلى الأندلس إلا أنها لم تؤد إلى نتائج هامة فى ســـبيل نشر هـــذا المذهب(٤) .

وكان قد رحل إلى المشرق فى طلب العلم ، وسمع من عدد من الأعلام فى مـــكة والمدينة ومصر ودمشق وبغداد ، واختلف إلى علماء المـــالكية والشافعية ، كما سمع من الإمام أحمد وروى عنـــه وعن ابن أبى شيبة ، كما سمع بإفريقية عن سحنون وغيره ولم يتبع مذهبـــا معينا ، وإنما كان يصدر فيما يعرض له من قضايا بحسب ما يتراءى له من اجتهاد معتمـــدا على الكتاب والسنة ، وأخـــذ يدرس الحديث فى قرطبة ويقرأ مســـند ابن أبى شـــيبه ، وأصبح له تلاميذ ساروا على نهجه من أبرزهم محـــمد ابن وضـــاح(٥) ، وقد صنف فى الحديث كتابا رتبه على أســـماء الصحابة روى فيـــه عن الف وثلاثمائة صحابى وعلى أبواب الفقه المختلفة فهو مصنف ومسند قال عنـــه ابن حـــزم « وما أعلم هـــذه الرتبة لأحد قبله مع ثقته

---

(٣) انظر ترجمته فى البغية ص ٢٤٥ وبعدها (٥٨٤) ، الجذوة ص ١٧٧ وبعدها (٣٣١) ، تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٩١ وبعدها (٢٨٣) .

(٤) بروفنسال : الحضارة العربية فى اسبانيا ص ٦٠ .

(٥) هو محمد بن وضـــاح بن بزيع مولى عبد الرحمن الداخل ، كان من الرواه المكثرين طوف بالمشرق فى طلب العـــلم ، وسمع من كثيرين منهم سحنون بن ســـعيد التنوخى بإفريقيـــة ويحى بن يحيى الليثى بالأندلس ، وأخـــذ يحدث بالأندلس مدة طويلة وروى عنـــه كثيرون ونشر علما كثيرا وتوفى سنة ٢٨٦هـ (بغية الملتمس ص ١٣٣ — ١٣٤ ترجمة رقم ٢٩١)

وضبطه وإتقـانه وإحتفاله فيـه بالحديث وجودة شيوخه »(٦) .

وقد ملأ الأندلس حديثا ورواية ، وقد ثار عليـه فقهاء المـالكية لأن مسند ابن ابى شيبة الذى كان يقرأه لم يكن يعرض وجهـة نظر اهل المدينة فقط ، وإنما كان يعرض آراء خصومهم ايضـا مما جعلهم يثيرون عليـه العـامة ويغرون به الأمير محمد ، وينكرون عليـه ما ادخـله من كتب الاختلاف وغريب الحديث مما جعل الأمير يتحدث إلى وزيره هشـام ابن عبد العزيز فى هـذا الأمر ويدعوه إلى أن يضع له حـدا ، فأحضره وخصومه من المـالكية امام الأمير الذى تصفح الكتاب ثم قال لخازن كتبه « هذا الكتاب لا تستغنى خزانتنا عنـه فانظر فى نسخه لنـا » ثم قال لبقى انشر علمك واروا ما عندك ، ونهاهم أن يتعرضوا له .

فاخذ فى نشر حديثه وقراءة روايته وانتشر الحديث من يومئذ بالاندلس ثم تلاه تلميذه ابن وضـاح « فصارت الأندلس دار حديث وإسناد وكان الغالب عليها قبـل ذلك حفـظ راى مالك واصـحابه » كمـا يقـول ابن الفرضى .

وكان مما انفرد به بقى انه ادخل مصنف ابى بكر بن ابى شـيبة كاملا ، وكتاب الفقه للشافعى وكتاب التاريخ لخليفة بن خياط وكتابه فى الطبقات وكتاب سيرة عمر بن عبد العزيز للدروقى . وقد اعتبره بعـض المؤرخين شافعى المذهب على حين اعتبره البعض الآخـر مستقلا عن اى مذهب فقهى(٧) .

وقد عرفت الأندلس بعـد ذلك عددا من فقهاء الشافعية الذين تولوا تدريس المذهب ونشره فيهـا وخاصة فى عهد الحـكم الثانى (المستنصر)

---

(٦) بغيـة الملتمس ص ٢٤٥ .

(٧) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٩٢ ، بغية الملتمس ص ٢٤٦ .

بعد ان كانوا فى عهد ابيه الناصر قد التزموا جانب الظل فيما يبدو ، حيث لم يعد صوتهم قويا كما كان فى عهد الأمير محمد ، بينما علا صوت المالكية قويا ، واشتدت قبضتهم على مقاليد الحياة الدينية والثقافية من جديد فى حماية المنصور بن أبى عامر(٨) .

وقد كان الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الناصر احد الدعاة النشطين للمذهب الشافعى فيقول عنه الحميدى « كان فقيها شافعيا شاعرا اخباريا متنسكا »(٩) . وقد اتهم بالاشتراك فى مؤامرة ضد والده فكان مصيره القتل سنة ٣٣٨هـ/٩٥٠م .

وكان من اتباع المذهب الشافعى ايضا ابو الجعد أسلم ابن عبد العزيز بن هاشم القرطبى الذى تتلمذ على يد بقى بن مخلد ، ورحل للمشرق سنة ٢٦٠هـ ، ولقى بمصر عددا من أصحاب الشافعى ومنهم محمد ابن عبد الحكم ويونس بن عبد الأعلى وغيرهم . وقد ولى قضاء الجماعة مرتين فى عهد الناصر ، وبالرغم من أنه كان يميل للمذهب الشافعى إلا انه كان يقضى طبقا للمذهب المالكى لأنه المذهب الرسمى للدولة ، وقد توفى سنة ٣١٩هـ »(١٠) .

ومنهم احمد بن بشر بن محمد بن اسماعيل التجيبى المعروف بابن الأغبش وكان من أهل قرطبة سمع من ابن وضاح والخشنى وغيرهما ، وكان متقدما فى معرفة لسان العرب والبصر بلغاتها منفردا فى ذلك ، وكان مشاورا فى الأحكام ، ويذهب فى فتياه إلى مذهب الشافعى ويميل إلى النظر والحجة وتوفى سنة ٣٢٧هـ(١١) .

---

(٨) بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٦٦ .
(٩) جذوة المقتبس ص ٢٦٢ ترجمة (٥٥٥) .
(١٠) تاريخ علماء الأندلس ص ٢٧٨ ، جذوة المقتبس ص ٣٢٢ ، الخشنى : قضاة قرطبة ص ١٨٢ - ١٨٨ ، ١٩٠ - ١٩١ .
(١١) ابن الفرضى ص ٣٣ ترجمة (١٠٢) .

ومنهم أحمد بن عبد الوهاب بن يونس المعروف بابن صلى الله ، من أهل قرطبة . كان حافظا للفقه ، عالما بالاختلاف ، بصيرا بالحجاج حسن النظر ، وكان يميل إلى مذهب الشافعى ، وله سماع من شيوخ وقته صحب عبيدا الشافعى وتفقه معه ، وكان له حظ وافر من العربية واللغة وسار فى جملة المقابلين للمستنصر ، وكان ينسب أيضا إلى مذهب الاعتزال(١٢) .

وخلال السنوات التى حفلت بالاضطرابات والفتن ، وسبقت سقوط الخلافة الأموية وجد المذهب الشافعى بعض أنصار له فى قرطبة من أبرزهم ابن حزم الذى درس المذهب المالكى ، ثم تحول عنه إلى المذهب الشافعى بعض الوقت ، ثم تحول بعد ذلك إلى المذهب الظاهرى، وأصبح أكبر داعية بالأندلس ، وسخر مواهبه لبعثه وإحيائه من جديد(١٣) .

* * *

---

(١٢) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٤٧ ترجمة ١٥٤ .

(١٣) د. محمود حماية : ابن حزم ومنهجه فى دراسة الأديان ص ٥٨ .

المذهب الحنفي

الواقع أن هذا المذهب لم يجد له أتباعا في الأندلس في عصر بني أمية إلا أفرادا قلائل . وقد أبدى المقدسي دهشته من ذلك حين ذكر : إنهم في الأندلس يقولون لا نعرف غير كتاب الله وموطأ مالك ، على حين أن ثمة أتباعا كثيرين لمذهب أبي حنيفة في المغرب .

وكان الرد عليه أن هذا من فعل الأمير ، ثم يروي قصة ينسبها إلى هذا الأمير الذي لم يذكر اسمه — ولعله هشام بن عبد الرحمن — فيقول : إن الأحناف والمالكية تناظرا بين يديه ذات يوم فقال : من أين أبو حنيفة ؟ قالوا : من الكوفة ، قال : ومالك ؟ قالوا : من المدينة . فقال : عالم دار الهجرة يكفينا . وأمر بإخراج أصحاب أبي حنيفة وقال : لا أحب أن يكون في عملي مذهبان(١) .

ولكن يبدو في هذه القصة طابع الصنعة والتكلف بالرغم من ذكر المقدسي أنه سمعها من عدة مشايخ في الأندلس وهي من نوع الحكايات التي تجري على ألسنة الناس دون تحقق من صحتها . فهل كان الأمير الأموي يجهل موطن أبي حنيفة ومالك حتى يسأل عن ذلك ؟ . ويظهر أن السبب في ذلك هو عدم ميل الأمويين لهذا المذهب نظرا لأنه كان مذهب خصومهم العباسيين ، ولذلك مالوا إلى مذهب الأوزاعي إمام أهل الشام أولا ، ثم إلى مذهب الإمام مالك إمام أهل المدينة الذي أثنى على سياسة هشام بن عبد الرحمن الداخل بعكس العباسيين ، هذا بالإضافة إلى أن مذهب أبي حنيفة مذهب يعتمد على العقل والمنطق أكثر من مذهب مالك الذي

---

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٢٣٧ ، ليفي بروفنسال : الحضارة العربية في أسبانيا ص ١٦٣ — ١٦٤ .

يعتمد اكثر على النصوص ، مما جعل الأندلسيين — وكان فيهم كثير من البربر الذين انتشر مذهب مالك فى بلادهم قبل ذهابهم إلى الأندلس — يقبلون عليه اكثر نظرا لتوافقه مع طبيعتهم وثقافتهم البسيطة ، ثم إنه مذهب اهل المدينة مثوى رسول الله ﷺ ، ولها من المنزلة والمكانة ما لها .

ومن أشهر اتباع المذهب الحنفى فى الأندلس الذين عثرنا عليهم فى كتب التراجم الأعشى القرطبى الذى كان أول من تأثر من الأندلسيين بفقه اهل العراق(٢) .

ويظهر ذلك من خلال رايه فى شرب النبيذ فقد ذهب مذهب أبى حنيفة فى هذه المسألة(٣) حيث قال : بقصر اسم الخمر على عصير العنب فقط . واما ما اتخذ من غير العنب من الأشربة كالتمر والشعير فيسمى نبيذا وهو حلال إذا لم يسكر اما إذا أسكر فإنه يلحق بالخمر فيصير محرما .

ويستدلون على ذلك بقوله ﷺ : حرمت الخمرة بعينها والسكر من كل شراب ، وبما روى من أن عمر بن الخطاب كان يشرب النبيذ ويقول : إنا نأكل لحوم هذه الإبل فنشرب عليها النبيذ الشديد ليقطعها فى بطوننا(٤) .

---

(٢) وهو أبو عبد الله محمد بن عيسى بن عبد الواحد بن نجيح المعافرى المعروف بالأعشى القرطبى ، رحل من الأندلس إلى مكة سنة ١٧٩هـ ، وسمع من سفيان بن عينية وغيره ، وكان الغالب عليه الحديث ورواية الآثار ، وكان صالحا عاقلا سريا جوادا يذهب إلى مذهب اهل العراق توفى سنة ٢٢١هـ (نفح الطيب جـ ١ ص ٣٥١) .

(٣) عن هذه المسألة راجع : تفسير آيات الأحكام جـ ١ ص ٢٧٧ وبعدها، الأجوبة الخفيفة فى مذهب الإمام أبى حنيفة ص ٧٩ — ٨٠ .

(٤) الأصفهانى : محاضرات الأدباء جـ ١ ص ٤١٢ ، د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى جـ ٣ ص ٢٠٣ . يروى الجهشياوى : ان شريكا القاضى تحدث مع معاوية بن يسار وزير المهدى العباسى يوما بحديث فى تحليل النبيذ فقال عافية القاضى وكان حاضرا :

ويتجلى ذلك من قصته (الأعشى القرطبي) مع القاضي محمد بن زياد الذي قبض على رجل شرب نبيذا فحبسه ليقيم عليه الحد ، فذهب الأعشى إلى حارسه واخبره بأن القاضي قد أمر باطلاق سراح الرجل فأطلق سراحه ولم يكن القاضي قد أمر بذلك . وكان قد عرض على الأعشى القضاء فرفض واشتهر بمزاحه وأنه صاحب حكايات ونوادر(٥) .

ومن الذين ذهبو مذهب أهل العراق أيوب بن سليمان بن حكم ابن عبد الله بن بلكايش بن إليان القوطي ، وقد رحل إلى المشرق ، ودخل العراق فسمع بها وعاد ومعه الكثير من كتب أهلها ، وكان يميل إلى الحجة والنظر ولا يرى التقليد ، ولذلك انصرف عنه الطلاب ولم يتتلمذ عليه إلا ابنه(٦) .

وقد وجد اتباع هذا المذهب اضطهادا في الأندلس كما يستدل على ذلك من قول المقدسي : « أما في الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع ، وهم يقولون لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك . فإن ظهروا على حنفي أو شافعي نفوه ، وإن عثروا على معتزلي أو شيعي ونحوهما ربما قتلوه »(٧) .

=

ما سمعنا بهذا الحديث فقال شريك : وما يضر عالما إن جهل جاهل . ويروى أن عيسى بن موسى سأل أحد العلماء عن النبيذ فقال : حلال وقد أدركنا بعض أبناء الصحابة والتابعين وهم يشربونه . أما مذهب الأئمة مالك والشافعي وأحمد وأهل الورع فقد عدوا كل مسكر خمرا وحرموا كل أنواع المسكرات من العنب وغيره . (انظر الوزراء والكتاب ص ١٤٤ ، ابن تيمية : السياسة الشرعية ص ١١٣ ، د. أحمد شلبي : التاريخ الإسلامي ج ١ ص ٢٠٢) .

(٥) ابن حيان : المقتبس ص ٢٠٨ — ٢٠٩ ، ص ٢٣١ تحقيق د. محمود مكي ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٥ .

(٦) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ترجمة رقم ٢٧٠ .

(٧) أحسن التقاسيم ص ٢٣٦ . أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٢ ص ١٣ ، ليفي بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٦٣ .

المذهب الظاهرى

تأسس هذا المذهب بالعراق على يد داود بن على بن خلف الأصبهانى البغدادى (٢٠٠ — ٢٧٠هـ) . وكان على المذهب الشافعى أولا ، ثم خرج عنه وأظهر القول بالظاهر . وهو على حد قول الخطيب البغدادى : « أول من أظهر انتحال الظاهر ، ونفى القياس فى الأحكام(١) .

وقد نشأ هذا المذهب كرد فعل للمذهب القياسى والإسراف فيه ، ويقوم على الأخذ بظواهر النصوص والتأويل ، ويتلخص فى جعل مدارك الشرع كلها منحصرة فى النصوص والإجماع ، ورد القياس الجلى والعلة المنصوص عليها إلى النص ، لأن النص على العلة نص على الحكم فى جميع مجاليها(٢) . وجعل المصادر الشرعية هى النصوص فقط وإبطال القياس . وعدم الأخذ به . ويذكر أن دواد لما سئل عن ذلك وقد أخذ الشافعى به قال : أخذت أدلة الشافعى فى إبطال الاستحسان فوجدتها تبطل القياس(٣) .

وقد دخل المذهب الظاهرى إلى الأندلس على يد عبد الله بن محمد ابن قاسم بن هلال القرطبى المتوفى سنة ٢٧٢هـ تقريبا وذلك فى عهد الأمير محمد الأول . وكان عبد الله قد رحل إلى المشرق وتلقى العلم على

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٨ ص ٣٧٤ .

(٢) د. حسن على حسن : الحياة الدينية فى المغرب ص ١١٣ ، د. محمود حماية : ابن حزم ومنهجه ص ١٥٨ ، د. صلاح الدين رسلان : الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ص ٤٨ .

(٣) الشيخ محمد أبو زهرة : ابن حزم ص ٣٧٠ .

يد داود مؤسس المذهب وكتب عنه كتبه كلها وأدخلها إلى الأندلس وغلب عليه هذا المذهب(٤) .

كما وجد عدد من العلماء الذين رحلوا إلى المشرق ومهدوا للفقه الظاهرى بعد عودتهم ومن أشهرهم بقى بن مخلد وأبو عبد الله محمد ابن وضاح ، وقاسم بن أصبغ ، حيث كانوا من علماء الحديث .

ومن ثم ظهر علماء أمكنهم أن يجهروا بظاهريتهم وعلى رأسهم القاضى الشهير منذر بن سعيد البلوطى ت ٣٥٥هـ/٩٦٦م الذى كان « يؤثر هذا المذهب ، ويجمع كتبه ، ويحتج لمقالته ، ويأخذ به نفسه وذويه ، فإذا جلس للقضاء قضى بمذهب مالك الذى عليه العمل بالأندلس »(٥) . ولذلك فإنه يعتبر الممثل الأول للمذهب الظاهرى فى الأندلس . يقول عنه ابن الفرضى « وكان مذهبه فى الفقه مذهب النظار والاحتجاج وترك التقليد ، وكان عالما باختلاف العلماء ، وكان يميل إلى رأى داود بن على

---

(٤) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس رقم ٦٥٥ .

(٥) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٣٣ . وقد لقب بذلك نسبة إلى موطن نشأته وهو فحص البلوط بالقرب من قرطبة ، ولى قضاء الأندلس فى عهد الخليفة الناصر سنة ٣٣٩هـ ، وظل فى هذا المنصب فى عهد المستنصر حتى توفى سنة ٣٥٥هـ فكانت ولايته للقضاء ست عشرة سنة لم يؤخذ عليه فيها جور أو هوى — كما ذكر المقرى — وكان خطيبا مفوها خطب فى الاحتفال بسفارة قنسطنطين بعد ان أرتج على أبى على القالى سنة ٣٣٨هـ .

قال عنه ابن حزم « كان مائلا إلى القول بالظاهر ، قويا على الانتصار له ، ومن مصنفاته (الإنباه على استنباط الاحكام من كتاب الله (والإبانة عن حقائق أصول الديانة . (انظر نفح الطيب جـ ١ ص ٣٣٣ ، بغية الملتمس ص ٤٦٦ ، جذوة المقتبس ص ٣٤٨ — ٣٤٩)

ابن خلف العباسى ويحتج له ، وكان بصيرا بالجدل ، منحـــرفا إلى مذهب أهل الكلام لهجا بالاحتجاج(٦) .

وكذلك أبو الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت (ت ٤٢١ هـ) ، الذى تتلمذ عليه ابن حزم ، وأخذ عنه المذهب يقول عنه الضبى « فقيـــه عالم، زاهـــد يميل إلى الاختيار والقول بالظاهر ، ذكره أبو محمد بن حـــزم ، وكان أحـــد شيوخه »(٧) .

ويعتبر ابن حزم أكبر داعية لهذا المذهب بالأندلس ، فقد ناضـــل من أجل إحيـــائه ونشره بعـــد أن كان قد خبـــا فى المشرق ، ولولاه لاندثرت فروعه فضلا عن أصـــوله وبقى أشتاتا متفرقات فى بطون الكتب هنـــا وهنـــاك .

وليست لدينا نصوص صريحة تبين سبب تحول ابن حـــزم إلى هذا المذهب واعتناقه له ويمكن إرجـــاع ذلك إلى عدة أسباب منها :

١ ـــ ضـــيق صدر ابن حـــزم بكثرة الآراء والاختلافات فى المسألة الواحـــدة مما جعله يرد المصـــادر الأخـــرى غير النصوص والإجمـــاع ، ويرفضها ويؤلف الرسائل فى إبطالها . مثـــل كتابه (ابطـــال القيـــاس والاستحسان) ، وكتابه (المحـــلى) الذى بين فيـــه ضعف هذه المصادر وتهافتها .

٢ ـــ الخصومة والتنازع والفرقة بين أتبـــاع المذاهب المختلفة نتيجة للاتباع والتقليد لأصحابها ، مما جعله يحمل على التقليد ويرى أن الاختلاف بين المذاهب ليس رحمـــة كما يقـــال ، وإنما هو شر كله ولا يمكن أن يأتى

---

(٦) تاريخ علماء الأندلس جـ ٢ ص ١٤٤ ، ترجمة (١٤٥٤) .
(٧) بغية الملتمس ص ٤٦٧ ، جذوة المقتبس ص ٣٥٠ .

بخير ابدا ، ووجـــد فى منهج الظاهر الراحة للنفس والاطمئنان للقلب .

٣ — الفساد الخلقى والنفــاق الاجتماعى الذى جعل طائفـــة من العلماء والفقهاء فى عصره يتقربون إلى الحـــكام بلوى عنــق النصـــوص مستخدمين فى ذلك القياس والاستحسان والمصـــالح المرسلة وغيرها . فانكر هـــذه الوصولية والأدوات التى استخدمها هؤلاء فى ســـبيل الوصول إليهـــا .

٤ — اقتناعه ببطلان التقليد ، وأن اتبـــاع مذهب معـــين بدعة لأن « ســـيرة الصـــحابة والتابعين وطريقتهم هى الاجتهاد ، وطلب ســـنن النبى ﷺ ولا مزيد ، وترك تقليد إنسان بعينه »(٨) .

٥ — سعة علمه وكثرة اطلاعه على كتب الســـنن والآثار والفقـــه وغيرها مما جعله يرى نفسه مجتهدا توافرت فيـــه صفات الاجتهـــاد . ويطمح إلى أن يكون صـــاحب مذهب يقول عنـــه الذهبى « كان رجـــلا من العلماء الكبار فيـــه أدوات الاجتهاد كاملة »(٩) .

ويقول عنـــه الكوثرى « وحيث كانت نشـــأته فى بيت عز واعتزاز كان يطمح إلى التفرد بمذهب ليكون متبوعا لا تابعا »(١٠) .

ولا غرو فقـــد بلغت تصانيفه فى علوم شتى نحو أربعمائة مجـــلد تشتمل على ما يقرب من ثمانين ألف ورقة وهـــذا شىء لم يجتمع لأحـــد قبله إلا لابن جرير الطبرى الذى ذكر انه كان أكثر أهل الإسلام تصنيفا(١١) .

---

(٨) رسائل ابن حزم : رسالتان أجاب فيهما عن سؤالين ص ٩٢ .

(٩) تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ١١٥٣ .

(١٠) مقدمة كتاب النبذ فى أصول الفقه الظاهرى ص ٥ ، تحقيق الكوثرى مطبعة الأنوار بمصر سنة ١٩٤٠م .

(١١) ياقوت : معجم الأدباء ج ١٢ ص ٢٣٨ ، ابن العماد : شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٩٩ . المراكشى : المعجب ص ٣٠ — ٣١ .

ويعتمد منهج ابن حزم الظاهرى على أصلين : الأول : القول بظاهر الكتاب والسنة والاجماع . والثانى : إبطال القول بالقياس والاستحسان والرأى والتقليد .

ويعد ابن حزم من أشد دعاة المذهب الظاهرى وإمامه فى عصره ، وكتبه تعتبر المرجع الباقى للتعرف عليه حتى قيل « من أراد الاطلاع على مذهب داود فعليه بكتب الإمام ابن حزم الظاهرى ، وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية الحنبلى »(١٢) .

ولعل خير ما يوضح مذهب الظاهرية كتابه فى أصول الفقه المسمى (الإحكام فى أصول الأحكام) الذى سلك فيه مسلكا يدل على التجديد والابتكار حيث تحدث فيه عن مسائل لم يتحدث فيها ظاهرية المشرق . وقد عقد فيه فصلا بين فيه معنى الظاهرية ، وانهم لا يعتمدون فى استنباط الأحكام على القياس بل على النص فقط ، وإذا كان النص مطلقا أخذ على إطلاقه إلا إذا قيده نص آخر . بيد أن اعتماد الظاهرية على النصوص فقط قد أوقعهم أحيانا فى بعض المتناقضات ومثال ذلك : انهم يوجبون غسل الإناء من ولوغ الكلب لوجود النص ، ولا يوجبون غسله من ولوغ الخنزير مع أنه أشد نجاسة لعدم ورود النص .

وبينما يوجبون غسل اليد ثلاثا بعد القيام من النوم ، ويحكمون بنجاسة الماء الذى مسته يد مستيقظ لم يغسل يده ، نراهم يجيزون للجنب قراءة القرآن والجلوس فى المسجد . إلى غير ذلك من المسائل التى جعلت البعض يحمل عليهم بشدة(١٣) .

---

(١٢) صلاح الدين رسلان : السياسة والأخلاق عن ابن حزم ص ٥٣ .
يعد مذهب الإمام أحمد أقرب المذاهب للظاهرية لأنه يترك القياس إلا فى أضيق الحدود ، ويأخذ بالمأثور ، ويقف عند النصوص .

(١٣) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٥٤ .

وقد أخذ ابن حزم يدعو إلى مذهبه الظاهرى الجديد الذى يقوم أول ما يقوم على التفسير الحرفى للنصوص فنراه يقول « ولذا وجب علينا اتباع النص لأنه كاف بنفسه واضح ظاهر » ، ويقول : « وحمل الكلام على ظاهره الذى وضع له فى اللغـة فرض لا يجوز تعديه إلا بنص أو إجماع ، لأن من فعل غير ذلك أفسد الحقائق كلها ، والشرائع كلها ، والمعقول كله »(١٤) . ولكنه يجيز التأويل حين يكون هنـاك نص آخـر محيل لهـذه الدلالة ، أو إجماع متيقن أو ضرورة حس فحينئذ يعمل بالتأويل المخالف للظاهر على مقتضى البلاغة العربية(١٥) .

وكنتيجة حتمية للتمسك بالنصوص يرفض ابن حزم القياس والتقليد والرأى والاستحسـان لأن هـذه فى نظره هى التى فتحت باب الخـلاف والنزاع على مصراعيه . فنراه يقول : « فجميع أهل القياس مختلفون فى قياساتهم ، وهم كلهم مقرون على أن كل قياس ليس صحيحا ، ولا كل رأى حقـا »(١٦) .

ولم يقتصر ابن حـزم فى منهجه الظاهرى على ميـدان الفقه وأصول الفقه فقط وإنمـا حـاول تطبيقه على العقائد والمذاهب الكلامية . ويعتبر تطبيقه لهـذا المنهج فى هـذا المجال من المبتكرات التى انفرد بها(١٧) .

وقد أصبح ابن حزم صـاحب مذهب نسب إليـه شمل كثيرا من الأتبـاع الذين سموا بالحزمية ، وهو فى كتابه المحلى يدعه إلى مذهبـه

---

(١٤) الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ ٢ ص ١١٦ ، جـ ٣ ص ٣ .
(١٥) صلاح رسلان : الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ص ٥٦ .
(١٦) المحلى جـ ١ ص ٥٨ . القاهرة سنة ١٣٤٧هـ .
(١٧) ديلاس أوليرى : الفكر العربى ومكانته ص ٢٤٠ ، د. طه الحاجرى : صـور اندلسية ص ٨٢٩ .

هـذا دعوة صريحة ، نراها واضـحة فى كل صفحة من صفحات هـذا الكتـاب(١٨) .

ومن اشهر اتباعه : ابن عبد البر القرطبى ، والحميدى صـاحب جذوة المقتبس ، كما اخـذ بلون منه محيى الدين بن عربى الصوفى المشهور الذى اخـذ بمنهج الظاهرية فى العبـادة والفروع ، والفيلسوف الكبير ابن رشد وابن تومرت زعيم الموحدين ، والمنصور الموحدى الذى جعل مذهبه المذهب الرسمى لدولته(١٩) .

ولكن لم يجد مذهب ابن حزم قبـولا لدى الكثير من الاندلسيين فى العصر الأموى حيث كانوا على المذهب المـالكى الـذى كان بمثـابة دين لهم ، وجـزءا لا يتجزءا من شخصيتهم .

وقد ثارت بينـه وبين الفقهاء — وخاصة المـالكية — مسـاجلات عديدة ومناظرات عنيفة ولذلك فقـد عاش شـطرا كبيرا من حياته فى عنت واذى ومضايقات دفاعا عن آرائه . ودارت بينه وبين معاصريه من العلماء والفقهاء مناظرات شديدة وخاصة بينه وبين أبى الوليد البـاجى الفقيه الأشعرى المعروف .

يقول المقرى « إنه لمـا قدم الاندلس وجـد لكلام ابن حزم طلاوة ، إلا أنه كان خارجا عن المذهب (يقصد المذهب المـالكى) ولم يكن بالاندلس من يشتغل بعلمه ، فقصرت السنة الفقهاء عن مجـادلته وكلامه ، واتبعه على رأيه جماعة من اهل الجهل وحل بجزيرة ميورقة فراس فيها ، وتبعه اهلها ، فلما قـدم ابو الوليـد كلموه فى ذلك فدخل إليـه وناظـره ، وشهر باطله ، وله معـه مجالس كثيرة »(٢٠) .

---

(١٨) احمد امين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٥٥ .
(١٩) الشيخ ابو زهرة : ابن حزم ص ٥١٧ ، ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٦٣ .
(٢٠) نفح الطيب جـ ٦ ص ١٧٦ تحقيق د. فريد رفاعى ، احمد امين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٥٩ وبعدها .

وكان من أشهر الذين تصدوا للرد على آرائه ونقدوه نقدا لاذعا بعد وفاته (٤٥٦هـ) القاضي المالكي أبو بكر بن العربي في كتاب سماه (الدواهي والنواهي) يصف فيه الظاهرية بأنهم : « أمة سخيفة تسورت على مرتبة ليست لها ، وتكلمت بكلام لم تفهمه ، تلقفوه من إخوانهم الخوارج حين حكم علي رضي الله عنه يوم صفين فقالوا : لا حكم إلا لله وكان أول بدعة لقيت في رحلتي القول بالباطن ، فلما عدت وجدت القول بالظاهر قد ملأ به المغرب سخيف كان من بادية إشبيلية يعرف بابن حزم ، نشأ وتعلق بالمذهب الشافعي ، ثم انتسب إلى داود ، ثم خلع الكل ، واستقل بنفسه وزعم أنه إمام الأمة يضع ويرفع ، ويحكم ويشرع ، ينسب إلى دين الله ما ليس فيه ويقول عن العلماء ما لم يقولوا تنفيرا للقلوب منهم ... الخ »(٢١) .

وقد اضطهد ابن حزم وشدد عليه وشرد عن وطنه وأحرقت كتبه علنا في إشبيلية في عهد المعتضد بن عباد . ويصف ابن حزم شيئا من ذلك فيقول « ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام بالنكبات ، وباعتداء أرباب دولته ، وامتحنا بالاعتقال والتغريب ، والإغرام الفادح ، وأرزمت الفتنة — الفتنة البربرية — وعمت الناس وخصتنا إلى أن توفى أبي الوزير رحمه الله ، ثم ضرب الدهر ضرباته ، وأجلينا عن منازلنا ، وتغلب علينا جند البربر وخرجت عن قرطبة سنة ٤٠٤هـ وتقلبت في الأمور »(٢٢) .

ويقول الذهبي « وقد امتحن هذا الرجل ، وشدد عليه ، وشرد عن وطنه وجرت عليه أمور لطول لسانه ، واستخفافه بالكبار ، ووقوعه

(٢١) الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ص ٥٩ .
(٢٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٥٥ .

فى ائمة الاجتهاد ، باقبح عبارة وافظ محاورة وامنع رد »(٢٣) .

لقــد كان ابن حزم ضــيق الصــدر ، متقلب المزاج ، حاد اللسـان ويمكن إرجــاع ذلك إلى عدة اسباب منها :

١ ــ مرض الكبد والطحال الذى اصيب به فى صباه وهو يشير إلى ذلك فيقول : « لقــد اصابتنى علة شديدة ولدت وفى ربو فى الطحــال شديد ، فولد ذلك على من الضــجر وضــيق الخلق وقــلة الصــبر أمرا جاشت نفسى فيــه ، إذا انكرت تبدل خلقى ، واشتد عجبى من مفارقتى لطبعى ووضح عندى ان الطحال موضع الفرح ، وإذا فسد تولد ضده » . وهــذا تحليل دقيق ينم عن ثقافة طبية واسعة .

٢ ــ ما عاناه من جمود الاندلسيين على مذهب مالك وحده وتعصبهم له ، ورفضهم لأى مذهب آخــر سواه ، مما الجاه إلى هــذا الأســلوب العنيف لنشر مذهبه خاصة وانه لقى صدا وهجوما عنيفا فبادله بمثله .

٣ ــ الظــروف السياسية المتقلبة التى عاش فى ظلها ، واكتوى بنارها هو واسرته مما ادى به إلى التنقل المستمر وهو يشير إلى ذلك فيقول « انت تعلم ان ذهنى متقلب وبالى مضطرب مما نحن فيه من نبو الديار ، والجــلاء عن الأوطــان ، وتغير الزمــان ، ونكبات السلطان ، وتغير الإخوان ، وفساد الأحوال وتبدل الأيام »(٢٤) .

ويشير ابن حزم فى قصيدة له إلى مذهبه وما لقيه بسببه فيقول :

قالوا تحفظ فإن الناس قد كثرت

اقوالهم واقاويل العــدى محــن

---

(٢٣) سعيد الأفغانى : ابن حزم ص ١٢١ ، ١٣٠ وصفه البعض بقــوله « كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين » . (الأخــلاق والسياسة عند ابن حزم ص ٤٥) .

(٢٤) طوق الحمامة ص ١٥٤ .

فقلت هل عيبهم لى غير انى لا
اقول بالراى إذ فى رايهم فتــن

واننى مولع بالنــص لســت إلى
سواه انحو ولا فى نصره اهــن

لا انثنى، نحو آراء يقــال بهـــا
فى الدين بل حسبى القرآن والسنن

ويقول فى قصيدة اخرى بعد ان احرقوا كتبه ساخرا :

وإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى
تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى

يسير معى حيث استقلت ركائبى
وينزل إن انزل ويدفن فى قبرى

دعونى من إحــراق كاغــد وقولوا
بعلم كى يرى الناس من يدرى

وإلا فعــودوا فى المــكاتب بدأة
فكم دون ما تبغون لله من ستر(٢٥)

واخيرا ننهى حديثنا عن ابن حزم بقول عبد الواحد المراكشى — الذى كان قريبـــا من عصره — عنه « وهو اشهر علماء الاندلس اليوم ، واكثرهم ذكرا فى مجالس الرؤساء ، وعلى السنة العلماء ، وذلك لمخالفته مذهب مالك ، واستبداده بعلم الظاهر . ولم يشتهر به أحد قبــله ممن علمنـــا ، وقد كثر اهل مذهبه واتباعه عندنا اليوم بالاندلس »(٢٦) .

---

(٢٥) معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٥٢ — ٢٥٣ طبعة فريد رفاعى .

(٢٦) المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ص ١٤٦ وبعدها .

ثانيا ــ المذاهب الدينية (الكلامية)

مذهب الشيعة

كان الفاطميون بعد تأسيس دولتهم فى المغرب يهدفون إلى نشر مذهبهم الشيعى فى الأندلس ، وإلى غزو هذه البلاد لجعلها مع المغرب وحدة واحدة تخضع لسلطانهم ولمذهبهم ، وبهذا ينقسم العالم الإسلامى إلى قسمين :

قسم شرقى تابع للخلافة العباسية ، وقسم غربى تابع للخلافة الفاطمية . ولهذا أخذ الفاطميون فى إرسال عيونهم إلى الأندلس للتعرف على احوالها مثل ابو اليسر الرياضى ، وابن هارون البغدادى ، وابن حوقل النصيبى .

وقد لعب هؤلاء العيون (الجواسيس) دورا مهما فى الدعاية للفاطميين والمذهب الشيعى بالأندلس ، بالاضافة إلى جمعهم للمعلومات عن أحوالها وأوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية تحت حكم الأمويين .

وقد دخل هؤلاء متسترين إما بغرض العلم كابن هارون البغدادى أو بغرض الرحلة والتجارة كابن حوقل النصيبى ، ولكنهم فى الحقيقة كانوا يتجسسون للفاطميين(1) .

يقول ابن الفرضى عن ابن هارون « ادخل بعض كتب ابى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، وبعض كتب عمرو بن بحر الجاحظ رواية ، وانصرف إلى المشرق بعد ما تردد فى الأندلس أعواما واخبرنى سليمان

---

(1) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٨٧ .

ابن أيوب أن أبا جعفر البغدادى — وهــذه كنيته — إنما دخل الأندلس متجسسا »(٢) .

وقد قدم ابن حوقل تقريرا مفصلا للفاطميين عن الأندلس يغــرى بالزحف عليها جــاء فيــه أنها بلاد غنية طيبة الهواء ، كثيرة المــاء ، وان حكومتها ضعيفة لا تقوى على المقــاومة .

ومما قاله فى تقريره « ومن أعجب ما فى هــذه الجــزيرة بقــاؤها على من هى فى يده ، مع صغر أحلام أهلها ، وضــعة نفوسهم ، ونقص عقولهم ، وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة »(٣) .

وقد بدأ الفاطميون لذلك يرســلون دعــاتهم متخفين إلى الأندلس ، ونجحوا فى اجتذاب بعض أنصار لهم فيها مثل ابن أبى المنظور الذى رحل إلى المغرب وتولى القضــاء للخليفــة المنصــور الفاطمى ، وابن هانىء الأندلسى الشاعر المشهور الذى التحق بخدمة الخليفة المعز لدين الله(٤) .

---

(٢) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٦ ترجمة « ٢٠١ » .

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٩٨ — ٩٩ ، د. أحمد شلبى ، موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٦٠ ، د. مصطفى الشهابى : الجغرافيون العرب ص ٥٥ .

(٤) هو أبو القاسم محمد بن هانىء الأزدى ، أصله من بنى المهلب الأزديين بافريقية ، انتقل أبوه إلى الأندلس وسكن البيرة فولد له محمــد الذى برع فى الشعر واشتهر . يذكر أنه قصد جعفر بن على الأندلسى ملك الزاب من المغرب الأوسط فوجد بابه عامرا بالشعراء ، فتزيا بــزى بربرى وكتب على كتف شاة بيتين من الشعر هما :

الليــل ليــل والنهــار نهــــار
والبغــل بغــل والحمــار حمــار

والديك ديك والدجاجة زوجه
وكلاهما طير له منقار

وأدخلهما إلى وزيره فأراد أن يضحك الملك فأبلغه بذلك فأمر بدخوله فأنشده قصيدة مدح رائعة منها :

كأن لواء الشمس غرة جعفر
رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا

فقام إليه جعفر وعانقه بعد أن عرفه ، وخلع عليه وظل عنده حتى كتب له المعز الفاطمى ليتوجه إليه ، فاتصل به فى المغرب ، ولما توجه إلى مصر تبعه ابن هانىء ، ثم عاد لأخذ أولاده ولكنه قتل برقة سنة ٣٦٢ هـ. وكان المعز يؤمل عليه آمالا كبارا وأسف لوفاته اسفا شديدا وقال : « هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك » .

وله قصائد كثيرة فى مدح الفاطميين وخاصة المعز ، وكان شيعيا متحمسا ، وبلغ من تحمسه أن وصف سيفه بالتشيع كذلك حيث يقول :

لى صارم وهو شيعى كحامله
يكاد يسبق كراتى إلى البطل
إذا المعز معز الدين سلطه
لم يرتقب بالمنايا مدة الأجل

وقد بالغ ابن هانىء فى وصف المعز حتى جعله فى مرتبة الأنبياء بل نسب إليه بعض صفات الألوهية والقدرة على الإتيان بالمعجزات ومن أجل ذلك اتهم بالكفر . مثل قوله :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار

ويذكر المستشرق ليفى بروفنسال : أن الدعوة للمذهب الشيعى قد بدأت فى الأندلس خلال حكم عبد الرحمن الناصر ، ولكنه لا يعرفنا على وجه التفصيل كيف بدأت ؟ ولكننا نعتقد أنها بدأت قبل ذلك منذ أن استطاع الفاطميون تأسيس دولتهم فى المغرب فمدوا أبصارهم إلى الأندلس التى كون الأمويون لهم فيها دولة .

ويبدو أن عددا من عيون الفاطميين ودعاتهم المتخفين قد تولوا أمر هذه الدعوة فى الأقاليم الأندلسية القريبة من المغرب ، والمطلة على البحر المتوسط لسهولة الوصول إليها والخروج منها بسبب موقعها الجغرافى ، وبعدها النسبى عن العاصمة الأندلسية (قرطبة) .

وقد أشار ابن حزم فى القرن الخامس الهجرى إلى وجود نواة

=

وكانما انت النبى محمد

وكانما انصارك الانصار

انظر : ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ٩٧ — ٩٨ ترجمة (٤٠٩) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤ — ٥ ، ديوان ابن هانىء ص ٣٤ ، ٣٦ ، ١٦٤ ، ١٨٢ طبعة بيروت سنة ١٣٢٦هـ . وإن ذهب البعض إلى أنه تشيع لا عن عقيدة ، ولكن طمعا ذهب المعز وعطاياه .

وقد فسر البعض أمثال هذه الأقوال حسب نظرية المثل والممثول التى آمن بها الشيعة حيث جعلوا الإمام مثل العقل الكلى الذى يعتبر فى نظرهم أول ما خلق الله ، ولذلك فالإمام عندهم متصل بالله لأن ممثوله وهو العقل الكلى متصل بالله . ولذلك فإنها فى نظرهم لا تعد كفرا (انظر : د. محمد كامل حسين : نظرية المثل والممثول القاهرة سنة ١٩٤٨م دار الفكر العربى) .

للشيعة بين سكان إقليمى المرية ، وبلفيق ، ولكننا لا نعرف عنهم المزيد من الأخبار(٥) .

وقد استطاع القاسم بن حمود — الذى ينتمى إلى الأدارسة العلويين — أن يعتلى عرش الخلافة الأموية مرتين فى الأندلس ٤٠٨هـ ، ٤١٣هـ لعدة شهور قبل سقوطها ، وجاهر بآرائه الشيعية ، وقدم نفسه كممثل لها ، وهى بلا شك نفس آراء الأدارسة الذين حاصر الأمويون نشاطهم المعادى لهم فى شمال المغرب(٧) .

ويذكر المراكشى والضبى : أن القاسم كان يذكر عنه أنه تشيع ولكنه لم يظهر ذلك ولا غير على الناس عادة ولا مذهبا(٨) . وعلى أى الأحوال فإنه بعد من الشيعة بالأندلس سواء جاهرا أو لم يجاهر ، كما كان من الشعراء المتشيعين بالأندلس الشاعر والمؤرخ أبو بكر عبادة بن ماء السماء الذى تشتم من كتاباته وأشعاره رائحة التشيع والتعصب ضد بنى أمية وهو ينتسب إلى قيس بن سعد بن عبادة الخزرجى ، واشتهر بالموشحات ،

---

(٥) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١٦٩ .

(٦) بنو حمود : أسرة يتصل نسبها بأدارسة شمال إفريقية ، وكانت تقيم فى سبتة ، ثم دخلت قرطبة ، وقبضت على زمام الأمور ، واخذت تعبث بالخلفاء الأمويين فمرة تضع خليفة دون أن يكون له من الأمر شىء ، ومرة يتولى أفراد منها الحكم ويدعون انهم خلفاء . ولم يستطيع بنو حمود او الأمويين الذين وضعوهم على عرش الخلافة أن يحافظوا على وحدة الأندلس فسقطت الخلافة سنة ٤٢٢هـ وبدأ ما يسمى بعصر ملوك الطوائف .

(٧) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١٦٩ .

(٨) المعجب فى تلخيص اخبار العرب ص ٣٣ ؛ بغية الملتمس فى تاريخ رجال اهل الأندلس ص ٢٨ .

واتصل ببنى جهور بعـــد انهيـــار الخلافة الأموية ، واختص ببنى حمود العلويين ، ولذلك كله اتهم بالتشيع(٩) .

وممن ذكرتهم المصـــادر الاندلسية على أنهم من المتشيعين الشاعر أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن حيون ، وكان من وادى الحجارة ، ورحل إلى المشرق نحو خمسة عشر عاما فسمع بصنعاء ومـــكة وبغداد ومصر ، ولقى جماعة من أصـــحاب الإمام أحمد وكان كما ذكر المقرى « إماما فى الحديث ، حافظا للعلل ، بصيرا بالطرق ، ولم يكن بالأندلس قبـــله أبصر بالحديث منـــه ، لم يذهب مذهب مالك ، وكان يظن به التشيع لشىء كان يظهر منـــه فى حـــق معاوية » وقد توفى بقرطبة سنة ٣٠٥هـ(١٠) .

ونظرا لشدة الخصومة بين الفاطميين الشيعة بالمغرب وبين الأمويين السنة بالأندلس فقد أخـــذ الأمويون وبخاصة منذ عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر فى مجابهة الفاطميين بعدة وسائل وأساليب منها :

١ — التلقب بألقاب الخلافة حيث تلقب الناصر بألقـــاب الخليفـــة ســـنة ٣١٦هـ/٩٢٨م لتوطيد مركزه ، وتثبيت دعائم دولتـــه فى الداخل والخارج ، وإظهار انه لا يقل عن الخليفة العباسى أو الفاطمى . وأن دولتـــه لا تقل عن الدولة العباسية أو الفاطمية بل تنافسهما .

٢ — بث بذور الفتن والخلافات والقلاقل بين القبـــائل البربرية فى بلاد المغرب لإزعاج الفاطميين ، واجتذاب بعض زعماء هـــذه القبـــائل . ومد الخارجين على الفاطميين بمـــا يحتاجونه .

٣ — الحرص على تقوية الأســـطول الأندلسى لمنافسة اســـطول

---

(٩) ابن حيـــان : المقتبس فى اخبار بلد الأندلس ص ٣٤٥ — ٣٤٦ تحقيق د. محمود مـــكى .

(١٠) نفح الطيب ج ١ ص ٣٤٦ .

الفاطميين فى البحر المتوسط ورد هجماته والسيطرة على مضيق جبل طارق بعد الاستيلاء على طنجة وسبتة وهما معبرى الأندلس من المغرب .

٤ — توطيد العلاقة ببعض الدويلات المغربية بالرغم من مخالفتها فى المذهب مثل دولة بنى رستم الخارجية فى تاهرت(١١) .

٥ — عقد المعاهدات مع اعداء الفاطميين من الدول الأجنبية مثل ملك إيطاليا هوجو البروفانس (هوجو دى بروفانس) الذى كان يحنق على الفاطميين لهاجمتهم ميناء جنوه وتدميره ، وامبراطور بيزنطة الذى كان يهدف إلى استرجاع جزيرة صقلية من أيدى الفاطميين ، والاخشيديين فى مصر لمجابهة محاولات الفاطميين المتكررة لغزوها .

٦ — محاربة المذهب الشيعى فكريا فى الداخل والخارج : وحظر التأليف فى مسائل الفكر الشيعى والمعتزلى . حتى استقر فى أذهان الأندلسيين أن تناول هذه المسائل يعتبر خروجا عن الدين الإسلامى القويم الذى يمثله المذهب المالكى . ولذلك ذكر المقدسى عنهم قولهم « لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك »(١٢) .

٧ — تأليف الكتب فى الرد على هذا المذهب الذى كان يخشى من تسربه إلى الأندلس ، ومن تعدد الفرق المذهبية فتصاب البلاد بالتمزق والانقسام مرة أخرى بعد أن بذلت جهود مضنية فى توحيدها بالقوة سياسيا وبالمذهب المالكى دينيا .

كما نرى الناصر برسل مجموعة من الفقهاء المالكية إلى مصر فى

---

(١١) انظر : د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٨٧ — ٢٨٨ ،
د. محمود مكى : التشيع فى الأندلس ص ١٢١ .

(١٢) احسن التقاسيم ص ٢٣٦ ، بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٦٣

عهد الإخشيديين لمجابهة مذهب الشيعة فى الخارج . مثل محمد بن القاسم ابن شعبان المعروف بابن القرطى(١٣) .

٨ — استقبال العلماء والأدباء المناوئين للفاطميين والفارين منهم مثل الخشنى صاحب كتاب (قضاة قرطبة) . الذى فر من بطشهم ، واتصل بالحكم وحبب إليه العلم وغرس فيه هواية جمع الكتب . ومثل حكم بن محمد ابن هشام القيروانى المقرىء الذى فر منهم إلى الأندلس فأكرمه المستنصر واجرى عليه العطاء حتى توفى سنة ٣٧٠هـ(١٤) .

وقد اثمرت هذه السياسة التى اتبعها الناصر تجاه الفاطميين فادت إلى فشلهم فى النيل من الأندلس ، والتوجه ناحية مصر لفتحها .

كما اهتم الخليفة الحكم المستنصر بمحاربة الفاطميين ومذهبهم الشيعى مثل أبيه وسار على سياسته تجاههم قبل رحيلهم إلى مصر . وبالغ فى ذلك حيث رأى فى محاربتهم نوعا من الجهاد ضد خصوم سياسيين ودينيين فى آن واحد . وكان حماسه للفقه السنى على مذهب مالك مما جعله ينظر إليهم على أنهم زنادقة تجب محاربتهم خشية انتقال مذهبهم إلى الأندلس(١٥) .

هذا فضلا عن أنه — مثل بقية بنى أمية — كانوا ينظرون إليهم على أنهم مدعين للنسب الفاطمى ، ودليل ذلك تلك الرسائل المتبادلة بينه وبين العزيز بالله الفاطمى فقد ذكر ابن خلكان : ان العزيز كتب إلى الحكم رسالة يسبه فيها ويهجوه فرد عليه الحكم قائلا « أما بعد

---

(١٣) د. محمود مكى : التشيع فى الأندلس ص ١٢٤ . ويذكر أن الناصر أرسل إليه عشرة آلاف دينار ليفرقها فى شيوخ المالكية بمصر ، فأخرج الإخشيد مثلها لشيوخ الشافعية . انظر : خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٩٤) .

(١٤) د. محمد زغروت : مكتبة الأمويين الإسلامية مجلة البحوث الإسلامية عدد ١٧ ص ٣٥٢ ، تاريخ علماء الأندلس ص ١٢١ .

(١٥) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

فقد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك »(١٦) .

كما ذكر العينى : أن الحكم كتب إلى العزيز كتابا هجاه فيه وذكر انه دعى فى نسبه وأن جده ميمون القداح ينتسب إلى الباطنية(١٧) .

ويبدو انه بعد رحيل الفاطميين إلى مصر ، وزوال خطرهم عن الاندلس نهج المستنصر نهجا آخر حيث كان محبا للعلم والثقافة — مثل المأمون العباسى — فاتسعت حركة التاليف والترجمة فى عهده ، لتشمل الوان الفكر المختلفة بما فيها الفكر الشيعى حيث لم يعد هناك ما يخشى منه من تهديد أمن البلاد . وأصبح لدى الأندلسيين من الوعى الدينى ، والتعصب الشديد للمذهب المالكى ما يضمن عدم تحولهم عنه او انحرافهم لمذهب آخر . فنراه يطلب من بعض العلماء التصنيف فى اخبار الفاطميين وانسابهم ، فيؤلف له معاوية بن محمد بن هشام المروانى المعروف بالشبانسى أو ابن الشبانسية (ت. ٣٩٠هـ) كتابا فى نسب العلويين سماه (التاج السنى فى نسب آل على) ويحتوى على اخبار الشيعة فى المغرب والأندلس(١٨) .

والخلاصة أن الفاطميين لم يتمكنوا من نشر مذهبهم الشيعى فى الاندلس ، كما فعلوا فى المغرب ، ولم يسجل هذا المذهب إلا نتائج محدودة وغير ذات أثر كبير تمثلت فى تلك الأقليات الشيعية التى عاشت فى بعض البلاد الأندلسية وخاصة بعد عصر الخلافة الأموية كما أشار إلى ذلك ابن حزم فى القول الذى ذكرناه آنفا .

---

(١٦) عقد الجمان جـ ١٩ ص ٣٩٦ ، تاريخ الإسلام جـ ٣ ص ٢٣٠ .

(١٧) د. محمد زغروت : مجلة البحوث الاسلامية ص ٣٥٢ .

(١٨) التشيع فى الأندلس : جـ ٢ ص ١٢٦ مجلة معهد الدراسات الاسلامية فى مدرد مجلد سنة ١٩٥٤م ، الحلة السيراء : جـ ١ ص ٤٠ هامش ٣ ، د. محمد زغروت : مكتبة الأمويين الاسلامية مجلة البحوث الاسلامية عدد ١٧ ص ٣٤٦ — ٣٤٧ .

مذهب المعتـزلة

وجـدد دعاة المعتزلة كغيرهم من دعاة المذاهب الأخرى ــ كالشيعة والخـوارج ــ متنفسـا لهـم فى بلاد المغرب ، واستطاعوا نشر آرائهم وافكارهم فى أوساط البربر بصفة خاصة . ويرجع نشـاط المعتزلة إلى أوائل القرن الثانى الهجرى حيث أرسل واصل بن عطاء الذى ينسب إليه تاسيس المذهب مجموعة من الدعاة لنشره فى كثير من الأقطار كما يتضح من شعر صفوان الانصارى أحـد شعراء المعتزلة حيث يقول عن واصل :

له خلف شعب الصـين فى كل ثغرة
إلى سوسها الأقصى وخـلف البـرابر

رجـال دعـاة لا يفـل عزيمهم
تهكم جبـار . ولا كيـد مـاكر(١)

وكان من هؤلاء الدعاة الذين أرسلهم إلى بلاد المغرب لنشر المذهـب عبد الله بن الحارث(٢) ويبدو أن نشاطه قد لقى رواجا فى أوساط البربر حيث تشير بعض المصـادر إلى اعتنـاق بعض قبـائل البـربر لمذهب الاعتزال(٣) .

وإذا كان مذهب الشيعة قد وجـد مقاومة شديدة من الأمويون فى الأندلس ولذلك لم ينتشر ولم يحرز إلا نتـائج محدودة ، فإن مذهب المعتزلة

---

(١) انظر : الجاحظ : البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٨ بيروت سنة ١٩٦٨م .
(٢) أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ٣ ص ٩٢ .
(٣) انظر : د. حسن على حسن : الحياة الدينية فى المغرب فى القـرن الثالث الهجرى ص ١٤١ .

قد وجد مجالا اوسع وعددا اكبر من المؤيدين ربما يفوق بكثير ما أورده لنا المؤرخون الأندلسيون الذين ترجموا لعلماء وطنهم .

ولعل السبب المهم فى ذلك يعود إلى ان الأمويين كانوا ينظرون إلى المذهب الشيعى على أنه مذهب يريد به أصحابه أن يصلوا إلى أهداف سياسية ، بخلاف مذهب المعتزلة الذين لا يبغون من ورائه إقامة دولة مثل الشيعة والخوارج ، ولكن ليس معنى ذلك أن الأمويين قد رحبوا بهذا المذهب بل إنهم قاوموه أيضا ولكن لم تكن مقاومتهم له مثل مقاومتهم للمذهب الشيعى وبخاصة أولئك الأمراء والخلفاء الذين اهتموا بالعلم والثقافة ، وحاولوا مقاومة نفوذ وتسلط الفقهاء المالكية على مقاليد الحياة الفكرية والدينية فى الأندلس .

وما لا شك فيه أن تعصب جمهور الأندلسيين للمذهب المالكى قد جعلهم ينظرون إلى غيره من المذاهب الفقهية والدينية (الكلامية) نظرة تشدد واضطهاد . كما يستدل على ذلك من قول المقدسى السابق . « وهم يقولون لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك ، فإن ظهروا على شافعى أو حنفى نفوه ، وإن عثروا على معتزلى أو شيعى ربما قتلوه »(٤) .

وقد واجه فقهاء المالكية هذا المذهب باستنكار شديد ، والذى كان يكتشف أمره وأنه يدعو لهذا المذهب كان يتم إبعاده من أولى الأمر بواسطة تأثيرهم وتدخلهم كما حدث عندما وصل إلى قرطبة ابو الطيب ابن أبى بردة سنة ٣٦١هـ ، فى عهد الخليفة المستنصر فأحسن استقباله على انه من كبار الشافعية ، ولما اكتشف انه من المعتزلة ابعد على الفور سنة ٣٧٣هـ(٥) .

---

(٤) أحسن التقاسيم ص ٢٣٦ ، ضحى الإسلام جـ ٣ ص ١٣ .

(٥) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٧٠ .

ورغم ذلك فقــد وجـد من يعتنق مذهب المعتزلة ، ويدعو إليه ، ويبدو ان سبب ذلك هو أن المعتزلة التزموا العمل سرا اكثر من الشيعة ، واستطاع بعضهم أن يبث آراءهم خفيــة دون أن يلحظهم احـد ، أو يثيروا غضب المتشددين من فقهاء المــالكية الحريصين على الاتجـاه الســنى المحــافظ . ودليل ذلك ما يذكره ابن حــزم « من أن وادى بنى توبة كان كله معتزليــا »(٦) .

ومن الصعب تحــديد الوقت الذى بدأت فيــه آراء المعتزلة تتسلل تدريجيــا بين اكثر عناصر الشعب الأندلسى ثقــافة ــ نظرا لطبيعة هذا المذهب الذى يعتمد على العقل كثيرا ــ وإن كنا نعتقد ان ذلك لم يحدث قبــل حــكم الأمير محمد الأول بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ ــ ٢٧٣هـ) الذى سمح للكثير من الآراء والأفكار بالدخول إلى الأندلس فدخلت كثير من كتب المعتزلة إلى الأندلس وتلقفها الكثير من المثقفين وخاصة القضاة(٧) .

ومن أوائل القائلين بهــذا المذهب فى الأندلس : احمــد بن موسى ابن حدير الذى كان يقول : إن الله عاقل وأحمد بن عبد الوهاب بن يونس . كما كان منذر بن سعيد البلوطى يتهم بالميل إلى هذا المذهب أيضا . أما ابنه الحكم فقد كان رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم واستاذهم ومتكلمهم كما يقول ابن حزم(٨) ، ومنهم ايضا عبد الأعلى بن وهب القرطبى ت ٢٦٢هـ(٩)

---

(٦) المرجع السابق ص ١٧١ ، دراسـات عن ابن حزم ص ٦٠ .

(٧) الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ ٤ ص ٢٠٣ .

(٨) ابن حزم : طوق الحمامة ص ٧٢ ، تاريخ علماء الأندلس : ترجمــة ١٥٤ ، وترجمة ١٤٥ .

(٩) انظر ترجمته فى تاريخ علماء الأندلس رقم ٨٣٧ .

وكان من الفقهاء المشهورين الذين آمنوا بحرية الاختيار ونفى خلود الروح(١٠) .

وكذلك خليل بن عبد الملك بن كليب القرطبى الذى اشتهر باسم خليل الغفلة(١١) وكان معاصرا لبقى بن مخلد ، وقد رحل إلى المشرق ، ودرس على الكثيرين وأخذ يتحدث بعد عودته إلى الأندلس عن استقلال الإرادة ، وحرية الإنسان فى أفعاله ورفض مبدأ الجبرية القائل بأن الإنسان مجبور فى أفعاله(١٢) .

وقد اشتهر خليل بالمجاهرة بآرائه دون تستر ، وكان فى أول أمره صديقا لمحمد بن وضاح فلما تبين له أمره هجره وكان يؤول كثيرا من الأشياء . ويذكر أنه جاء إلى بقى بن مخلد فسأله بقى عن أربعة أشياء . قال : ما تقول فى الميزان ؟ قال عدل الله ونفى أن تكون له كفتان . فقال : ما تقول فى الصراط ؟ قال : الطريق (يريد الإسلام) فمن استقام عليه نجا ؟ قال فما تقول فى القرآن ؟ فلجلج ولم يقل شيئا وكأنه ذهب إلى أنه مخلوق . فقال : ما تقول فى القدر ؟ قال : أقول إن الخير من عند الله والشر من عند الرجل . فقال بقى : لولا حالتك لأشرت بسفك دمك ، قم فلا أراك فى مجلسى بعد هذا الوقت(١٣) .

ويظهر أنه لم يتعرض لأذى فى حياته ، وإن تعرض للهجر والمقاطعة من أصدقائه نظرا لآرائه ، ولكنه بعد وفاته جاء جماعة من الفقهاء المالكية ومنهم أبو مروان بن أبى عيسى وأخرجوا كتبه من بيته وأحرقوها إلا ما كان فيها من كتب المسائل (الفقهية)(١٤) .

---

(١٠) الحضارة العربية ص ١٧١ .
(١١) انظر ترجمته فى تاريخ علماء الأندلس رقم ٤١٩ جا ص ١٣٩ وبعدها .
(١٢) الحضارة العربية ص ١٧٢ .
(١٣) انظر : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ١٣٩ .
(١٤) المرجع السابق ص ١٣٩ .

وكان لخليل مؤيد قوى فى مذهبه وهو تلميذه أبو بكر يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة (ت ٣١٥هـ) وكان كما يقول ابن الفرضى « متصرفا فى ضروب من العلم ، متفننا فى الآداب ورواية الأخبار ، مشاركا فى الفقه والرواية وعقد الشروط ، بصيرا بالاحتجاج وعلم الكلام ، نافذا فى معانى الشعر وعلم العروض والتنجيم والطب » .

وكان قد رحل إلى المشرق ومال إلى كتب الحجة ومذاهب المتكلمين ، ثم عاد إلى الأندلس وأصيب بمرض النقرس ، وظل ملازما لداره يقصده فيها الكثيرون ، وكان يعلن بالاستطاعة أخذ ذلك عن أستاذه خليل ابن عبد الملك (١٥) .

ويبدو أن مذهب الاعتزال قد أخذ يشق طريقه رويدا رويدا بين المثقفين والعامة أيضا حيث يصف ابن حزم سكان وادى بنى توبة بأنهم من المعتزلة(١٦) كما ذكر أيضا : أنه كان فى الأندلس قوم يذهبون إلى الاعتزال ويؤلفون فيه(١٧) .

وبعد ذلك وخلال عصر الخلافة الأموية طوى الصمت مذهب المعتزلة الكلامى البحت وظهر مذهب جديد على يد ابن مسرة الابن (ولد سنة ٢٦٩هـ وتوفى سنة ٣١٩هـ)(١٨) .

---

(١٥) تاريخ علماء الأندلس جـ ٢ ص ١٨٨ ترجمة (١٥٨٠) .
(١٦) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٧٤ .
(١٧) انظر أحمد أمين : ظهر الاسلام جـ ٣ ص ٩ .
(١٨) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيح الجبلى القرطبى ، كان أبوه مولى لرجل من البربر من أهل فاس ، وقيل لبنى هاشم ، وقيل لبنى أمية ، رحل الأب إلى المشرق وسمع بالبصرة عن كثيرين . والمعروف أنها كانت مقر المعتزلة الأول ، ولذلك كان متهما بالقول بالقدر وكان يكتم ذلك ولا يظهره ، وكان خليل الغفلة صديقا له ، وكان ورعا فاضلا طويل الصلاة ، رحل فى آخر عمره إلى المشرق

=

وقد تتلمذ على يـد أبيـه الذى اعتنق المذهب ، كما تتلمذ على يـد محمد بن وضـاح الخشنى وخـرج إلى المشرق فى أواخـر أيام الأمير عبد الله حيث اتهم بالزندقة(١٩) . ودخل القيروان ولبث فيهـا مـدة ، وهناك رآه الخشنى فى مجلس أستاذه أبى جعفر أحمد بن نصر أحد تلاميذ سحنون ، ثم ذهب بعـد ذلك إلى الحجاز فحج وزار قبر الرسول وظـل بالمدينة مدة يتتبع آثاره فدل على دار زوجـه مارية القبطيـة وكانت دارا بسيطة ، وفى أعلاها سقيفة ، فصلى بهـا ، وحـددا مساحتها ، ولمـا عاد إلى الأندلس بنى مثلها لسكناه فى جبل قرطبة(٢٠) .

وقد صحبه فى هـذه الرحـلة اثنان من معتنقى مذهبه وهما محمد ابن حزم بن بكر التنوخى ويعـرف بابن المرينى وكان من أهـل طليطلة ، وأيوب بن فتـح ، واثنـان آخـران هما أحمـد بن غـانم ، ومحمـد ابن وهب المعروف بابن الصيقل(٢١) .

=

ونزل بمـكة وتوفى بهـا فى ذى الحجة سنة ٢٨٦هـ ويقال : إن خروجه كان بسبب دين عليـه ، ولكن يبـدو أنه اتهـم بالاعتزال وطورد فكان ذلك سـببا لخـروجه (انظر تاريخ علمـاء الأندلس جـ ١ ص ٢١٧ — ٢١٨) .

(١٩) انظر : تاريخ علماء الأندلس جـ ٢ ص ٣٩ ترجمة رقـم (١٢٠٤) . حدد د. إحسـان عباس مولـده بأنه سـنة ٢٩٩هـ (تاريخ الأدب الأندلسى (عصر سيادة قرطبة) ص ٥٢) وربما كان خطأ مطبعيا ، والصحيح أنه ولد سنة ٢٦٩هـ كما ذكر ذلك ابن الفرضى فى ترجمته له (تاريخ علماء الأندلس جـ ٢ ص ٣٩ ترجمة ١٢٠٤) . كما حـدد خروجه فى سنة ٣١١هـ فى أواخـر عهد الأمير عبد الله وربما كان هـذا خطأ مطبعيا أيضا لأن عبد الرحمن الناصر قد ولى الحـكم سنة ٣٠٠هـ ، ولذلك ذهب البعض إلى أنه خـرج فى عهد الناصر سنة ٣٠١ هـ (د. محمود حمايـة ابن حزم ومنهجه ص ٣٨) .

(٢٠) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ص ٣٦٥ .

(٢١) التكملة ص ١١ ، ص ١٩٩ ، ص ٣٢١ .

ويذكر ابن الفرضى : ان ابن مسرة اشتغل فى الشرق بملاقاة أهل الجدل وأصحاب الكلام والمعتزلة ، ثم عاد إلى الأندلس فأظهر النسك والورع ، واختلف الناس إليه وسمعوا منه ، ثم انقسموا فى موقفهم منه إلى فريقين : فريق رآه إماما فى العلم والزهد ، وفريق آخر طعن عليه ووصف مذهبه بالفساد وسوء المعتقد والابتداع والخروج عن العلوم المعلومة بالأندلس الجارية على مذهب التقليد والتسليم(٢٢) .

ويبدو من الأخبار القليلة التى وردت عنه فى كتب التراجم والتاريخ ان مذهبه كان يجمع بين التصوف والاعتزال فلم يكن معتزليا خالصا ولا باطنيا خالصا(٢٣) .

فأما مبادىء الاعتزال التى كان يقول بها فهى القول بالاستطاعة ، وانفاذ الوعيد والتأويل فى كثير من القرآن(٢٤) . يقول ابن حزم « إن ابن مسرة شارك المعتزلة فى القول بالقدر ، وكان يقول : إن علم الله وقدرته صفتان محدثتان مخلوقتان ، وأن لله تعالى علمين احدهما : أحدثه جملة وهو علم الكتاب أو علم الغيب ، والثانى : علم الجزئيات وهو علم الشهادة فإنه لا يعلم منه شيئا حتى يكون واستشهد على ذلك بقوله تعالى (عالم الغيب والشهادة)(٢٥) .

---

(٢٢) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٤٩ .

(٢٣) ذهب الأستاذ أحمد أمين إلى أنه كان معتزليا كأبيه ، وأسر مذهبه مثله ، ولذلك اعتزل الناس ، ولم يستطع المحافظة على ذلك طويلا فاتهم بالإلحاد ، وفر من الأندلس وأظهر التقية وأخذ يبث تعاليمه (ظهر الاسلام ج ٣ ص ٦٩ — ٧٠) .

(٢٤) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٣٩ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٤ .

(٢٥) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ١٩٨ مصر سنة ١٣١٧هـ .

وقد ذكر ابن الفرضى : انه كان يحرف التأويل فى كثير من آيات القرآن ، وكان مع ذلك يدعى التكلم على تصحيح الأعمال ، ومحاسبة النفوس على حقيقة الصدق فى نحو من كلام ذى النون الإخميمى المصرى ، وابى يعقوب النهرجورى ، وأنه كان له لسان يصل به إلى تأليف الكلام وتمويه الألفاظ وإخفاء المعانى وانه وفد عليه جماعة من أهل المشرق منهم ابن زياد الأعرابى وابن سالم التسترى(٢٦) .

وأما المبادىء الباطنية فى مذهبه فإنه بناها على آراء نسبت لانبيذوقليس الفيلسوف اليونانى الذى يعد أول الحكماء اليونانيين السبعة ونسبت إليه كرامات كالصوفية ، والحقيقة انها بعض آراء فيلون الاسكندرى وافلوطين .

ومن هذه الآراء المنسوبة إليه الجمع بين معانى صفات الله ، وانها كلها تؤدى إلى شىء واحد ، وأنه إذا وصف بالعلم والجود والقدرة الخ فليس هو ذا معان متميزة تختص بهذه الأسماء المختلفة ، بل هو الواحد بالحقيقة الذى لا يتكثر بوجه . وتزعم الفرقة الباطنية ان له رموزا قلما يوقف عليها(٢٧) .

وقد يستنتج مما جاء فى كتب ابن مسرة ان النبوة من الممكن اكتسابها وأنه قد يصل إليها من بلغ الغاية فى الصلاح وطهارة النفس وإن انكر بعض أصحابه نسبة هذا القول إليه(٢٨) .

وقد أبرز مذهب ابن مسرة نظرية ثانوية كانت موجودة عند افلوطين

---

(٢٦) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٤٠ ترجمة سنة ١٢٠٤ .
(٢٧) القفطى : اخبار الحكماء ج ١ ص ١٣ .
أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ٣ ص ٦٩ — ٧٠ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٤ — ٥٥ .
(٢٨) ابن حزم : الفصل ج ٤ ص ١٩٩ .

وهى القول بوجود مادة روحانية تشترك فيها جميع الكائنات ما عدا الذات الإلهيــة . واعتبرت هذه المــادة أول صورة برزت للعالم العقلى الذى يتألف من الجواهر الخمسة الروحانية . ويذكر المستشرق الإسبانى بالنثيا : أن ابن مسرة قــد دافع عن هــذا المذهب تحت ستار إسلامى من آراء المعتزلة والباطنية(٢٩) .

ويذكر ليفى بروفنسال : أنه أراد بنــاء منهج فلسفى يقوم على مبدأ وحــدة الوجود ، وأن أصــالة فلسفة ابن مسرة تكمن فى الاستفادة من هذه الفــكرة ، وأنه بنى على هذا المذهب فكرته عن كونية العالم ، وعقيــدته فى الإرادة الحــرة ، والعلم الإلهى السابق وعدم تطهير الروح إلا بعــد عودتها للعالم الروحانى(٣٠) .

ويرى جولد زيهر : أنه تأثر بنظرية الأفلاطونية الحــديثة التى كانت منتشرة بالمشرق فى ذلك الوقت وكون مدرسة تدعو إلى حرية الفكر(٣١) .

وقد انتهى المستشرق الإسبانى آسين بلاسيوس إلى نتــائج تختلف بعض الشىء عن نتــائج ليفى بروفنسال وجولد زيهر فهو يرى وجــوب الفصل عند دراســة أفكار ابن مسرة بين المنهــج اللاهــوتى والمنهــج الفلسفى . وحــاول أن يتبين خصائص كل منهما معتمدا على آراء اثنــين من الأندلسيين وهما ابن حــزم وصاعد الطليطلى ، واثنين من المشــارقة وهما الشهرزورى والشهرستانى(٣٢) .

وأيا ما كان الأمر فقد استطاع ابن مسرة أن يجتذب إليــه تلامــذة

---

(٢٩) تاريخ الفكر الأندلسى ص ١٨٠ ترجمة د. حسين مؤنس .
(٣٠) الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١٨٠ ترجمة د. الطاهر مكى .
(٣١) المرجــع السابق ص ١٧٩ .
(٣٢) الحضارة العربية فى أسبانيا ص ١٨٠ .

كثيرين عاش معهم فى عزلة بجبل قرطبة ، وكان كما تصوره الروايات ذا قدرة ساحرة مؤثرة فى النفوس ، والف بعض الكتب فى مذهبه ومنها كتاب الحروف وكتاب التبصرة ، ويذكر ابن الأبار : أنه لم يكن يخرج كتابا إلا بعد أن يتعقبه حولا كاملا (٣٣) . وكانت بعض كتبه معروفة فى الأندلس ورأى ابن حزم عددا منها (٣٤) .

وقد أثارت آراء ابن مسرة خصومات جدلية فى الأندلس والمشرق ، وتصدى للرد عليها علماء من الأندلسيين والمشارقة فممن تصدى للرد عليه من المشارقة احمد بن محمد بن زياد الأعرابى ، وأحمد بن محمد بن سالم التسترى .

وممن تصدى للرد عليه من الأندلسيين ابن أبيض الذى الف كتابا كبيرا فى ذلك أكثر فيه من الحديث والشواهد (٣٥) ، وكذلك الزبيدى العالم اللغوى المشهور الذى الف كتابا فى الرد عليه أيضا (٣٦) ، والقاضى ابن زرب (محمد بن يبقى) الذى كان يعارض آراء ابن مسرة معارضة شديدة والف كتابا أخذ عنه عدة مرات بقرطبة (٣٧) . وقد منحه الخليفة عبد الرحمن الناصر سلطات واسعة ومعه الزبيدى لمحاصرة

---

(٣٣) التكملة ص ٢٨٤ — ٢٨٥ . يذكر أنه كان حريصا على عدم اطلاع أحد على كتبه حتى المقربين إليه من تلاميذه ويقال : إنه لما الف كتاب التبصرة احتال صاحبه يحيى بن عبد الملك الذى كان يسكن معه فى خلوته بالجبل فاستخرج هذا الكتاب ونسخ منه نسخة لنفسه ثم أراها له فلما تصفحها قال : لا نفعك الله به ولم يخرج هذا الكتاب بعد ذلك لأحد (التكملة ص ٢٨٥) .

(٣٤) احسان عباس : مرجع سابق ص ٥٥ .

(٣٥) ابن بشكوال : الصلة ص ٢٤٤ .

(٣٦) الصلة ص ٤٦٥ .

(٣٧) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٩٤ .

آراء ابن مسرة ، فأمر باعتقال تلاميذه وطلب منهم التبرؤ من أفكارهم علنا ، وأحرق كتبهم التى نسخوها من كتبه خارج مسجد قرطبة .

ثم جاء عهد الخليفة الحكم المستنصر فخفت حدة ملاحقتهم بعض الشىء نظرا لاهتمام هذا الخليفة بالعلوم العقلية ومنها الفلسفة إلى جانب العلوم الدينية . ولكن ما إن جاءت خلافة ابنه هشام المؤيد الذى تولى حجابته المنصور بن أبى عامر حتى عادت ملاحقتهم من جديد — حيث كان المنصور شديدا على المشتغلين بالفلسفة — وتم تعيين ابن زرب قاضيا للجماعة ، فاهتم بالكشف عنهم وتتبعهم واستتابتهم فتاب على يديه عدد منهم وأحرق ما وجده من كتبهم وكان ذلك فى حدود سنة ٣٧٠هـ (٣٨) .

وفى سنة ٣٦٨هـ/٩٧٩م اكتشفت مؤامرة ضد الخلافة الأموية وكان من بين المتهمين فيها عبد الملك بن منذر بن سعيد البلوطى القاضى المشهور فى عهد الناصر والمستنصر وقد حكم على عبد الملك بالقتل والصلب حيث اتهم بأنه معتزلى وانه ضم ثلاثة من إخوته وهم سعيد وعبد الوهاب والحكم إلى مذهب ابن مسرة ، وأخذوا يبثونه فى قرطبة ، وساعدهم فى ذلك نظام الخلوة التى اقامها ابن مسرة بعيدا عن العاصمة فى جبل قرطبة . وتكوين مقر آخر لأتباع المذهب فى مدينة بجانة(٣٩) .

وكان هناك أناس انضموا إلى مذهب ابن مسرة دون أن يلتقوا به أو يتتلمذوا على يديه ومنهم طريف الروطى ، وأضحى بن سعيد وكانا من

---

(٣٨) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٨١ ، د. محمود حماية : ابن حزم ومنهجه ص ٣٩ ، د. إحسان عباس : مرجع سابق ص ٥٨ .

(٣٩) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٨١ — ١٨٢ .

اهل الزهد والخير وقد الف بعضهم كتابا فى اخبار ابن مسرة واصحابه نقل عنه ابن الابار فى التكملة(٤٠) .

ومن اشهر اتباع ابن مسرة وتلاميذه ايضا : إلياس بن يوسف الطليطلى ت ٣٢١هـ ، واخوه عون بن يوسف الطليطلى ، وخليل ابن عبد الملك (ت ٣٢٣هـ) الذى تفقه بكتب ابن مسرة وضبطها وكان يجاهر بالقول بالاستطاعة والقدر والتاويلات التى تفسر لنا شيئا من تاويلات ابن مسرة كقوله إن الصراط هو الطريق اى الإسلام ، والميزان هو عدل الله(٤١) .

وايوب بن سليمان بن اسماعيل الطليطلى ت ٣٤٣هـ وكان قديم الجوار لابن مسرة طويل الملازمة له(٤٢) ، ومحمد بن مفرج المعافرى (ت ٣٧١هـ) الذى لم يقف عند حد الاعتقاد بالمذهب وإنما كان يدعو إليه(٤٣) ، ومحمد بن فضل الله بن سعيد الذى تفقه بكتب ابن مسرة ، واحمد بن وليد (ت ٣٧٦ هـ) وهو من أهل بجانة وكان من الذين استتابهم القاضى محمد بن يبقى(٤٤) ، ورشيد بن فتح الدجاج من أهل قرطبة (ت ٣٧٦هـ) وكان يتهم بمذهب ابن مسرة ولما توفى صل عليه القاضى محمد بن يبقى ودفن بمقبرة قريش ويظهر انه استتابه(٤٥) .

وأبان بن عثمان (ت ٣٧٧هـ) من أهل شذونة وكان نحويا لغويا ،

---

(٤٠) التكملة ص ١٢ ، ٣٤٦ .
(٤١) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس جـ ١ ص ١٣٩ .
(٤٢) ابن الأبار : التكملة ص ١٩٩ .
(٤٣) تاريخ علماء الأندلس جـ ٢ ص ٨١ — ٨٢ ترجمة رقم (١٣٣١) .
(٤٤) تاريخ علماء الأندلس جـ ١ ص ٥٣ ترجمة (١٨١) .
(٤٥) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس جـ ١ ص ١٤٧ — ١٤٨ ترجمة (٤٣٩) .

لطيف النظر . جيـد الاستنباط ، بصيرا بالحجة متصرفا فى دقيق العلوم ، حسن الشعر ينسب إلى اعتقاد مذهب ابن مسرة(٤٦) .

وعبد العزيز بن حـكم الأموى (ت ٣٧٨هـ) وكان مائلا إلى الكلام والنظر وقد غض منـه انتحـاله لمذهـب ابن مسرة كمـا يقـول ابن الفرضى(٤٧) ومحمد بن أحمد بن حمدون القرطبى المعروف بابن الإمام (ت ٣٨٠هـ) وكان مشهورا باعتقاد مذهب ابن مسرة يجاهر به ولا يتستر، وكان مولعا بالتشريق فى صلاته(٤٨) .

ومحمد بن عبد الله بن عمر بن خير القيسى القرطبى (ت ٣٨٢هـ) وأصله من جيان وكان ينسب إلى اعتقاد مذهب ابن مسرة ويبدو أنه تاب عنـه(٤٩) .

وآخـر من عرف من أصحاب ابن مسرة اسماعيل بن عبد الله الرعينى وهو متأخر عن الجيل الثانى من أتباعه ، وقد أدركه ابن حزم ولكنه لم يلقه وقال عنه « وكان من المجتهدين فى العبـادة المنقطعين فى الزهد »(٥٠) . وقد أحدث فى المذهب أقوالا نفرت سـائر من بقى من أتباعه منـه وكفروه لذلك إلا القليل منهم ومنها قوله : إن الأجساد لا تبعث أبـدا وإنما تبعث الأرواح ، وأن الإنسان حين يموت تلقى روحه الحساب ، ويصير إما إلى الجنـة وإما إلى النـار ، وأنها لا تبعث إلا على هذا الوجه أبدا .

وقوله : إن العـالم لا يفنى أبدا ، وكان لا ينسب الفعل إلى اللـه

---

(٤٦) تاريخ علماء الأندلس جـ ١ ص ٢٢ ترجمة (٥٤) .
(٤٧) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٧٩ ترجمة (٨٣٦) .
(٤٨) تاريخ علماء الأندلس جـ ٢ ص ٩٣ ترجمة (١٣٦١) .
(٤٩) المرجع السابق جـ ٢ ص ٩٦ ترجمة (١٣٦٦) .
(٥٠) الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ ٤ ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

وينزهه عن ذلك ، ويرى أن العرش هو الذى يدير العـــالم وينسب قوله هـــذا إلى ابن مسرة ويستشهد على ذلك بأقوال فى كتبه .

ولكن ابن حـــزم يدافع عن ابن مسرة فى ذلك قائلا : « ليس فيهـــا لعمرى دليـــل على هـــذا القول » ويذكر أنه عرض هـــذه الأقـــوال على ابن لإسماعيل فأنكرها ، ولمـــا برىء منـــه أتباع ابن مسرة بقيت ابنـــة له تتبعه وكانت متكلمة ناسكة مجتهدة(٥١) .

ويذكر ابن حزم أيضـــا أنه رأى من أصـــحاب إسماعيل من يصفه بفهم منطق الطير ، وبأنه كان ينذر بأشـــياء قبل أن تكون فتكون .

ويبدو أن اسماعيل قـــد حاول تكوين مذهب جـــديد يكون إماما له ونادى بمبادىء جـــديدة وانه اتبعه أناس على هـــذا المذهب ويستشف ذلك من قول ابن حزم : « وهناك أمور لا شك فيهـــا وهى أنه كان عنـــد فرقته إماما واجبة طاعته ، يؤدون إليه زكاة أموالهم . وكان يذهب إلى أن الحرام قد عم الأرض ، وأنه لا فرق بين ما يكتسبه المـــرء من صـــناعة أو تجـــارة أو ميراث وبين ما يكتسبه من الرفاق ، وأن الذى يحل للمسلم من كل ذلك قوته كيفما اخـــذه هـــذا أمر صحيح عندنا عنـــه يقينـــا ، وأخبرنا عنـــه بعض من عرف باطن أمورهم أنه كان يرى الدار دار كفر مباحة دماؤهم وأموالهم إلا أصـــحابه فقـــط ، وصح أنه كان يقول بنـــكاح المتعـــة »(٥٢) .

وبالرغم من كل المحاولات التى بذلت فى سبيل القضاء على هـــذا المذهب سواء من الخلفاء أو الفقهاء المـــالكية إلا أن ذلك لم يؤد إلى منـــع بعض مبادئه إن لم يكن كلها من البقـــاء لتأخذ فى الانتشار بعـــد ذلك منذ منتصف القرن الخامس الهجرى لتحـــدد بدقة ووضـــوح ملامح الحيـــاة الصوفية الجماعية فى الاندلس وتطورها(٥٣) .

---

(٥١) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الاندلسى ص ٥٨ .

(٥٢) انظر الفصـــل ج ٤ ص ٢٠٠ ، إحســـان عبـــاس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٨ .

(٥٣) بروفنســـال : الحضارة العربية ص ١٨٢ .

مذهـــب الخــــوارج

إذا كان مذهب المعتزلة قـــد لقى معارضة شديدة فى الأندلس ، فإن مذهب الخوارج بلا شك قد لقى معارضة ومقاومة أشد .

ومن المعروف أن مذهب الخوارج وخاصة الإباضية والصفرية(١) .

---

(١) **الإباضية :** تسمية أطلقت عليهم من قبـــل خصومهم وهى نسبة إلى عبد الله بن إباض الذى اشتهر بالدفـــاع عن المذهب . ومؤسسه الحقيقى هو الإمام جابر بن زيد أســـتاذ عبد الله ، وقـــد استخدم أسلوب التقيـــة الدينية فى البصرة ، وعرف بأنه أحـــد التـــابعين المحدثين الثقـــات ومن فقهاء البصرة وعلمائها . (الحياة الدينيـــة فى المغرب فى القرن الثالث الهجرى ص ١٩٧) وهـــم لا يعتبرون انفسهم من الخوارج وإنما هم الجماعة المؤمنة ولذلك يتبرأون من فرق الخوارج الأخرى التى حكمت على مرتكبى الكبائر بالشرك واحـــلت دماءهم واموالهم . وقد بين الشهرستانى وغيره من كتاب الفرق آرائهم حيث قالوا : « إن مخالفينا من أهل القبلة غير مشركين ، ومناكحتهم جائزة وموارثتهم حلال ، وغنيمة أموالهم من السلاح والكراع عند الحرب حـــلال وما سواه حـــرام ، وحرام قتلهم ، وسبيهم فى السر غيـــلة إلا بعـــد نصب القتـــال وإقامة الحجة ، وقالوا إن دار مخـــالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد إلا معسكر الســـلطان فإنه دار بغى ، وأجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم وقالوا فى مرتكبى الكبـــائر إنهم موحدون لا مؤمنون » (الملل والنحل ص ١٣٤ ، مقالات الاسلاميين جـ ١ ص ١٧١) .

وفى هـــذه الآراء نلمس مدى المسالمة والاعتدال الذى اتسم به الإباضية بالقياس إلى الفرق الأخرى من الخوارج التى كفرت المسلمين واستباحت دماءهم وأموالهم وأعراضهم (انظر د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٤٠١) .

قد وجد له مجالا وصدى فى بلاد المغرب ، ووجد أتباعه فيها مجالا خصبا لبث أفكارهم وتشريعاتهم بعيدا عن قبضة الخلافة ، وأقبل عليه الكثير من البربر لأنه كان يتلائم مع نزعتهم وعقلياتهم وطبيعتهم بما فيه من بساطة ووضوح من ناحية ، وصلابة وتشدد وقوة مراس من ناحية اخرى .

الصفرية : أصحاب زياد بن الأصفر ، وقيل سموا بذلك نظرا لاصفرار وجوههم نتيجة لكثرة العبادة . ومبادئهم فى الجملة كمبادىء الأزارقة فى أن مرتكبى الكبائر مشركون ، غير أنهم لا يرون قتل مخالفيهم مثل الأزارقة ، وهم يقولون بموالاة عبد الله بن وهب الراسبى وحرقوص بن زهير السعدى واتباعهما من المحكمة الأولى ويقولون بإمامة أبى بلال مرداس الخارجى وعمران بن حطان السدوسى بعده (الفرق بين الفرق ص ٧٠ — ٧١ ط ٢ بيروت سنة ١٩٧٩م) .

وقد أشار الشهرستانى إلى الخلاف بين الصفرية من ناحية والأزارقة والنجدات والإباضية من جهة أخرى فقال « إنهم لم يكفروا القعدة عن القتال إذا كانوا موافقين فى الدين والاعتقاد ولم يسقطوا الرجم ، ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم وتخليدهم فى النار ، وقالوا التقية جائزة فى القول دون العمل . وأما قضية الإيمان والشرك والبراءة عند الصفرية فيلخصها قول نسب لزياد « نحن مؤمنون عند أنفسنا ولا ندرى لعلنا خرجنا من الإيمان عند الله . والشرك شركان : شرك هو طاعة الشيطان وشرك هو عبادة الأوثان ، والكفر كفران : كفر بانكار النعمة ، وكفر بانكار الربوبية والبراءة براءة من أهل الحدود سنة وبراءة من أهل الجحود فريضة » (الملل والنحل ص ٢٥٠ — ٢٥١ تحقيق د. محمد بدران القاهرة سنة ١٩٥١م) .

ويشير ابن خلدون إلى شىء من ذلك فيقول : « ثم نبضت فيهم عروق الخارجية فدانوا بهـا ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق ، وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقها من الإباضية والصفرية ... الخ »(٢) .

وقد ساهمت الظروف والأوضـاع السياسية والاجتماعية التى كان يمر بهـا المغرب فى تمهيد السبيل لانتشار مذاهب الخوارج فيه ، والمتصفح لأسماء القبـائل التى انضمت للمذاهب الخارجية يجـد أنها شملت البتر والبرانس أصـل البربر . فقد أعتنقت زناتة المذهب الإباضى ، وساندت الدولة الرستمية الإباضية ، مما دفـع أحـد ولاتها إلى القول « بأن هـذا الدين إنما قام بسيوف نفوسة وأموال زناتة »(٣) .

وكذلك قبيلة نفوسة التى تعـد من أكبر قبائل البربر ، وقد اعتنقت المذهب الإباضى ، وقبيلة لمـاية التى اعتنقت المذهب الإباضى أيضـا . وقبيلة هوارة التى تنتمى للبرانس التى اعتنق اغلبها المذهب الإباضى(٤) .

والى جانب المذهب الإباضى التى انتشر فى مناطق كثيرة من بلاد المغرب فقـد وجـد المذهب الصفرى الذى انتشر ايضـا واعتنقه العديد من البربر وخاصـة قبـائل مكناسة ومطغرة وبرغواطة وكانت اول ثورة خارجية تندلع على ارض المغرب سـنة ١٢٢هـ بقيـادة ميسرة المدغرى (المطغرى) ويعرف بالحقير بائع المـاء بسوق القيروان(٥) .

وقـد اسـتطاع ميسـرة ان يقـود جمـوع أتبـاعه من الخـوارج الصـفرية وغيـرهم ليقـضى عـلى ولاة طنجـة وإقليم السوس واتبعه هؤلاء وبايعوه بالخـلافة وخاطبوه بامير المؤمنـين وفشت دعوته فى سـائر القبائل بافريقية(٦) . ويذكر ان اتباعه كانوا

---

(٢) العبر جـ ١ ص ١١٠ ط بيروت سنة ١٩٧١م .
(٣) الحياة الدينية فى المغرب ص ١٥٤ — ١٢٥ .
(٤) العبر جـ ٦ ص ٥٨٦ .
(٥) الكامل جـ٥ ص ١٩١ — ١٩٢ ، العبر جـ٤ ص ١٨٩ ، تاريخ افتتـاح الأندلس ص ١٤ .
(٦) عن هذه الثورة انظر السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٥٤ — ١٥٥ ؛

يحلقون رءوسهم تشبها بالخوارج من الأزارقة وأهل النهروان من أتباع عبد الله بن وهب الراسبى(٧) .

وقد استطاع المذهب الخارجى بشقيه الإباضى والصفرى أن يحقق نجاحا سياسيا بإقامة دولتين خارجيتين إحداهما دولة صفرية فى سجلماسة فى المغرب الأقصى سنة ١٤٠هـ والأخرى إباضية فى المغرب الأوسط وهى الدولة الرستمية سنة ١٦٠هـ(٨) .

وقد ذكر ابن خلدون أسماء قبائل أربعة كان يتألف منها جيش طارق الذى دخل الأندلس وهى مطغرة ومديونة ومكناسة وهوارة وكلها متفرعة من زناتة(٩) . ومن المعروف أن قبيلة مطغرة كانت تعتنق المذهب الصفرى ومنها ميسرة المدغرى الذى قام بأول ثورة خارجية فى المغرب وامتد صداها إلى الأندلس .

ولا شك أنه كان من بين البربر الذين دخلوا الأندلس من كان يعتنق المذاهب الخارجية وان كانت المصادر لم تورد لنا كثيرا من ذلك . والدليل على ذلك أن هناك ثورات بربرية رفعت شعار الخوارج وتشبهت بهم ومن أخطرها ثورة ابن هدين أو زقطرتق سنة ١٢٥هـ التى حلق فيها البربر رءوسهم اقتداء بميسرة « ولكى لا يخفى أمرهم وليضربوا ولا يختلطوا » . وقد ذكر ابن حزم : أن النكارية كانوا هم الغالبين على خوارج الأندلس(١٠) .

وبذكر دوزى : أن رجع ثورة البربر بقيادة ميسرة فى افريقية كان شديدا فى إسبانيا حيث رحب بربرها بمبعوثى الخوارج الوافدين من إفريقية لدعوتهم إلى حمل السلاح لاستئصال شأفة العرب فنشبت فتنة سياسية دينية كفتنة إفريقية(١١) .

---

(٧) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ٣٢ ، د. السيد سالم : تاريخ : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٥٤ .

(٨) الحياة الدينية فى المغرب ص ١٢٧ ، ابن الأثير ج ٦ ص ٨ .

(٩) القيروان المبتدأ والخبر ج ٦ ص ١٠٦ وبعدها .

(١٠) أخبار مجموعة ص ٣٩ — ٤٠ ، الفصل : ج ٤ ص ٢٠٢ .

(١١) تاريخ مسلمى إسبانيا ج ١ ص ١٥٧ — ١٥٨ ترجمة د. حسن حبشى دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٣م .

التصـــوف

هنـــاك ناحية جديرة بالبحث فى الحالة الدينية وهى ناحية التصوف ، وكما نشأ التصوف فى المشرق فى القرن الثانى ، كذلك نشأ فى الأندلس فى نفس القرن بعـد الفتح غير أن التصوف فى المشرق كان مزيجـا من التعاليم الإسلامية وتعاليم الفرس واليونان والهنود وتصوف الأندلس كان مزيجا من تعاليم الإسلام والأفلاطونية الحديثة والتعاليم اليونانية والرومانية وما جاء من قبل المشرق من تعـاليم فارسية وهندية ، حيث كانت الأندلس تجـاور هـذه البـلاد .

يضاف إلى ذلك أن الأندلس قد كثر فيها العنصر البربرى ، وقـد اشتهر هـذا العنصر من قديم بأن أهله أصـحاب خيـال واعتقاد بالمغيبات وسرعة تصـديق أصحاب الدعاوى الغيبية ولا ننسى ما لقيـه العرب عند فتحهم للمغرب من شـدة مقاومة هـذا العنصر وخاصة على يد امرأة تدعى (الكاهنة) حيث التف حولها الكثيرون ، وقاوموا العرب مقاومة شديدة . وحتى الآن فى كثير من بلاد المغرب لازال للبربر شهرة قوية فى فتح الكتاب، وكشف الكنوز وقراءة الكف والتنجيم وإدعاء معرفة المستقبل وهى اشياء من قبيل التصوف بعد أن يتدلى ولذلك كله اتسعت عند الأندلسيين حـركة التصوف(١) .

وأول من عرف تصوفه فى الأندلس ابن مسرة محمد بن عبد الله المولود سنة ٢٩٦هـ وقد عرف أبوه بالاعتزال وكان ذلك المذهب قليـلا وغير مرغوب فيـه فاضطر أن يخفى ذلك . وأورث هـذا المذهب لابنه فاعتزل الناس قبل الثلاثين فى خلوة بجبل قرطبة يتعبد فيـه ويبث هـذا المذهب لأتباعه . وساعدته عزلته على سـعة الخيـال وعمق التفكير والصفاء ولكن ما لبث أن انكشف أمره فاتهم بالزندقة فخرج من الأندلس مظهرا انه يريد الحج

---

(١) أحمد امين : ظهر الاسلام جـ ٣ ص ٦٨ ــ ٦٩ ، إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٤ .

حتى كانت خلافة عبد الرحمن الناصر فعاد مرة أخرى وأخذ فى نشر مذهبه فازداد أتباعه ، ويبدو أنه اتخذ التقية وسيلة لاخفاء حقيقة مذهبه الذى يجمع بين الاعتزال والتصوف(٢) .

ويبدو أن تطور مذهب الاعتزال وانتشاره فى الأندلس قد ارتبط بحياة الزهد والتصوف(٣) .

وهنا يصح لنا أن نتساءل هل بلغ تصوف الشرق ابن مسرة فتصوف ، أو أن ميله الطبيعى ومزاجه وتعاليم النصارى الإسبان والفلاسفة اليونان هى التى أنتجت ذلك ؟ فيكون التصوف الأندلسى مستقلا عن التصوف فى المشرق . ليس بين أيدينا ما يقطع بالاجابة خصوصا وقد كان فى الأندلس قبل الإسلام زهاد من الرهبان المسيحيين انقطعوا للعبادة . ولا مانع من أن يكون التصوف الأندلسى قد أخذ من هذا وذاك . وعلى أية حال فقد كان ابن مسرة أول من عرفنا فى الأندلس من المتصوفة وكان من تلاميذه أبو بكر محمد الهاشمى الذى أخذ عنه محيى الدين ابن عربى وكان متقشفا زاهدا ولم نعرف له كتبا ، وعاصره صوفى آخر يدعى أبو عبد الله القرشى الهاشمى الذى نسبت إليه أقوال صوفية كثيرة منها « من لم يدخل فى الأمور بلطف الأدب لم يدرك مطلوبه فيها » ، « من لم يراع حقوق الإخوان يترك حقوقه حرم بركة الصحبة » وقد توفى ببيت المقدس سنة ٥٥٩هـ وكان الناس يتبركون بضريحه هناك(٤) .

ويرى أسين بلاسيوس أن حياة الزهد كانت هى الطريقة الوحيدة المثلى والممكنة فى عصر الخلافة لمن يريدون الفرار من سيادة رجال

---

(٢) ظهر الاسلام جـ ٣ ص ٦٩ .

(٣) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٧٥ .

(٤) ظهر الاسلام جـ ٣ ص ٧٠ .

الدن المالكية فى الأندلس ، وأن يثوا تعاليمهم فى دائرة ضيقة من الأتباع والمريدين دون أن يتعرضوا لخطار جسيم .

واستطاع هؤلاء الزهاد بورعهم أن يكتسبوا مكانة عند السلطان والفقهاء والعامة ، واستعانوا بالتفسيرات الرمزية للتوفيق بين النصوص وبين الأفكار الباطنة المشرتبة(٥) .

وكان هؤلاء يشكلون على نحو ما رواد الحركة الصوفية فاعتزلوا الحياة فى المدن ، واعتكفوا فى الجبال والغابات ، واجتهدوا فى العبادة والطاعة وحرمان النفس من الشهوات والملذات ، وآثروا الفقر على الغنى وكانوا يقطعون الليل فى تلاوة القرآن ، والنهار فى الصيام ولا يأكلون إلا القليل ، ويصبرون على المرض ويفضلون حياة العزوبية ، ويخرجون عما بأيديهم للفقراء ، يفتدون الأسرى ، ويقطعون حياتهم فى العزلة والتأمل والفكر والعبادة ، أو يرابطون فى الثغور لمحاربة النصارى طلبا للشهادة .

وكان المؤرخون وكتاب التراجم يطلقون عليهم العباد والنساك والزهاد والصوفية وكان الكثيرون منهم قد قطعوا كل صلة لهم بالحياة العامة فى مجتمعاتهم بينما أبقى البعض منهم على صلاته بالأوساط العلمية والدينية . وتميزوا بملابسهم الغريبة الخشنة ، وحياتهم القاسية ، وممارسة الأعمال اليدوية للتعيش منها ، ومن حين لآخر يشاركون فى الحملات الحربية الموجهة ضد النصارى .

وقد قدم لنا الضبى فى كتابه بغية الملتمس نموذجا حيا لواحد من هؤلاء الزهاد ويدعى محمد بن طاهر القيسى فيقول عنه « ورع فاضل من أهل بيت جلالة وصلاح برع بخصاله المحمودة فكان فى نفسه فقيها عالما زاهدا خيرا ناسكا متبتلا فى طلب العلم ، ورحل فى التماسه إلى

---

(٥) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٧٥ .

قرطبة فروى الحديث بها وتفقه بأهل الشورى المفتين وناظرهم وأخذ بحظ وافر من العلم ، ثم ارتحل إلى المشرق عند إتمام الثلاثين فسكن الحرمين ثمانية أعوام بتعيش من عمل يده بالنسخ ، ورحل إلى بيت المقدس ثم إلى العراق ، ودخل مدينة واسط ، واستكثر من لقاء العلماء والفقهاء ، وصحب الأخيار والنساك وتألفهم واقتدى بهم ولبس الصوف وقنع بالقرص وتورع جدا واعرض عن شهوات الدنيا فأصبح عالما عاملا منقطع القرين ، قد جربت منه دعوات مجابة ، وحفظت له كرامات ظاهرة ، يطول القول فى تعدادها حملها عنه رواة صدق » .

ثم قدم تدمير سنة ست او سبع وثلاثمائة ولم يزل بمدينة مرسية قاعدة تدمير وطنه ، ونزل خارجا عنها فى القرية المنسوبة إلى بنى طاهر ، وابتنى لنفسه بيتا سقفه بحطب الشعر أو الطرفاء(٦) آوى إليه وكانت له هناك جنينة يعمرها بيده ويقتات بما يزرعه فيها من البقل والثمر . وكان لا يدع فى خلال ذلك الجهاد مع محمد بن ابى عامر وقوادة وشهد معه فتح مدينة سمورة ، وقلمرية من قواعد مملكة جليقية المسيحية ثم ترك قريته ورحل إلى الثغر . وواصل الرباط بفروجه المخوفة .

وكان ذا باس وشجاعة وثقافة تحدث بها أهل الثغر فى حكايات عجيبة وظل مرابطا بطلبيرة حتى استشهد سنة ٣٧٩هـ(٧) .

وثمة نموذج آخر وهو عثمان بن محامس ت ٣٥٦هـ/٩٦٦م قال عنه الضبى « زاهد عالم مشهور بالعزوف عن الدنيا من اهل استجة ....

---

(٦) ورد فى نفح الطيب بحطب السدر ، وفى هامشه بحطب الشعراء ، والسدر شجر النبق ، والشعر والشعراء شجرة ليس لها ورق ولها أهداب تحرص عليها الأبل أشد الحرص (بغية الملتمس ص ٨٤ هامش ٢) .

(٧) الضبى : بغية الملتمس ترجمة رقم (١٥٤) (ص ٨٣ — ٨٤) .

كتب على باب داره (ياعثمان لا تطمع) »(٨)

ويقول عنه ابن الفرضى « كان حافظا للتفسير ، عالما بأخبار الدهور ، وله فى ذلك كتاب نقل أكثره عن ظهر قلب وتوفى رحمه الله سنة ست وخمسين وثلاثمائة »(٩) .

وخلال عصر الخلافة بدأت الأندلس تستقبل أعدادا من هؤلاء النساك الجوالين الذين أخذوا يزدادوا فى القرون التالية وبخاصة فى شرق الأندلس ومملكة غرناطة ومن هؤلاء ابراهيم بن على الديلمى الخراسانى ، وأحمد بن محمد بن صالح الأنطاكى(١٠) .

ونجد فى هذه الفترة نزعة زهد واضحة عند بعض الشعراء مثل ابن أبى زمنين والغزال وابن عبد ربه وأبى بكر الزبيدى وغيرهم(١١) ونحس فيها بأفكار شاعر الزهد أبى العتاهية ونظرته إلى الحياة والموت . ومن العسير أن نحكم بأن الشعراء الأندلسيين قد استعاروا هذه الموضوعات من أبى العتاهية أو اقتبسوها من شعره لأن الزهد نزعة لها أصولها الاجتماعية ولا تجىء كلها اقتباسا ، فموضوع الحياة والموت مشترك بين الناس جميعا ، ولكن أثر أبى العتاهية فى تقوية هذه النزعة الزاهدة فى الشعر الأندلسى لا يمكن إنكاره فعندما تنظر إلى الزبيدى فى قوله :

تفكر فى الممات فعن قريب ينادى بالرحيل إلى الحساب
وقدم ما ترجى النفع منه لواء الخلد واعمل بالكتاب
ولا تغتر بالدنيا فعما قريب سوف تؤذن بالخراب

---

(٨) الضبى : بغية الملتمس ترجمة ١١٩٤ ص ٤١٣ .
(٩) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ص ٣٠٥ ترجمة ٩٠١ .
(١٠) انظر ترجمتهما فى تاريخ علماء الأندلس رقم ٥٠ ص ٢٠ ، ورقم ٢٠٤ ص ٦٢ — ٦٣ .
(١١) راجع عن أشعار الزهد عند الغزال وكذلك ابن عبد ربه ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٠٩ — ١٢٣ .

فإننا نجده قد اتفق فى الشكل والموضوع بــل والقافية مــع قول ابى العتاهيــة :

لدوا للموت وابنو للخراب فكلكم يصــير إلى تبــــاب

وإذا نظرنا إلى قول ابن أبى زمنين :

ايها المرء إن دنياك بحــر طامح موجه فــلا تأمننها

وسبيل النجاة فيها مبين وهو اخذ الكفاف والقوت منها(١٢)

وإلى قول أبى العتاهية :

كل اهــل الدنيا تعوم على الغفلة

منهــا فى غمــر بحـــر عميق

يتبــارون فى الســباح فهم مــنا

بــين ناج منهــم وبين غـــريق

فاننا نجــد الموضوع واحــدا بينها وإن اختلفت الصورة فالصورة عند أبى العتاهية غير تلك التى يرسمها ابن زمنين وهى اقرب إلى أن تكون اندلسية أصيلة من تلك الصورة التى رسمها لنا الزبيدى فى أبيــــاته السابقة(١٣) .

ويذكر د. إحسان عباس : أن شعر الزهد فى الأندلس قد ولد فى احضــان ثورة الربض التى قامت ضد الحــكم بن هشــام ، حيث كان الفقهاء والأتقياء ينظمون أشعار الزهد ، ويتغنون بهــا ليــلا ، ويعرضون فيهــا بالحكم ، ثم أخــذ هــذا النوع يقوى ردا على الحيــاة اللاهية ، وانقيــادا لدواعى التقى أيام الشيخوخة ، كما نرى فى زهديات الغزال وممحصات ابن عبد ربه — وهى قصائد نظمها بعــد أن تقدمت به السن .

---

(١٢) الثعالبى : يتيمة الدهر ج ١ ص ٤١٠ .

(١٣) إحسان عباس : الأدب الأندلسى ص ٩٤ — ٩٥ .

لينقض بهـا قصائد اللهو التى قالها أيام شبابه(١٤) ووجـد من الأتقياء من تخصص فى هـذا النوع من الشعر مثل ابن ابى زمنين صاحب ديوان (النصائح) ، وقاسم بن نصير الذى الف كتابا فى شعر الفقهاء تكملة لهذا الاتجـاه الذى كان قد انتهجه فى شعره(١٥) .

ولكننا نعتقد أن شعر الزهد كان موجودا قبل ثورة الربض لأن الزهد ليس من الأمور التى تحدث فجاة فى المجتمع ، فأى مجتمع من المجتمعات يجتمع فيـه الجانبان جانب الترف واللهو وجانب الزهد والتصوف ، وقـد يتغلب اى منهما على الآخـر في بعض الفترات لكن لا يخلو الأمر من وجود احدهما إلى جانب الآخـر ولكن بدرجات مختلفة حسب ظروف كل مجتمع من المجتمعات ودرجة تدينه .

ودليل ذلك اننـا نجـد فى كتب التراجم الاندلسية اسـماء لزهاد وجـدوا حتى منـذ بداية دخـول المسلمين إلى الاندلس وقال البعـض منهم أشعارا فى الزهد والحكمة(١٦) .

وقد كان تيـار الزهد فى الأندلس ثم التصوف بعـد ذلك رد فعل شديد لتيار الإسراف فى الترف واللهو الذى جـذب الكثيرين فـكان من الطبيعى أن يعلو صوت هـذا التيار الذى يهون من شأن الدنيـا ويبصر بحقيقتها ويدعو إلى الآخـرة فى مقـابل صوت الفريق الذى ينادى باللذة والمتعـة .

ويبدو أن عـدد الزهاد فى الأندلس كان من الكثرة بمـكان حتى إن

---

(١٤) ظهر الاسلام جـ ٣ ص ١٢٢ .

(١٥) تاريخ الأدب الأندلسى (عصر سـيادة قرطبة) ص ٧٣ — ٧٤ .

(١٦) راجع تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ، بغية الملتمس فى تاريخ رجـال أهل الأندلس للضبى ، جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس للحميـدى ، د. مصـطفى الشـكعة : الأدب الأندلسى ص ٥٧ وبعـدها .

ابن بشكوال - حسب ما ذكر ابن الآبار - صنف كتابا بعنوان (زهاد الأندلس وأئمتها) ولكنه لم يصل إلينا(١٧) .

وإذا كان الأدب هو ظل الحياة في المجتمع وهو المرآة التي تنعكس عليها فإننا نستطيع من خلال الكثير من النصوص أن نتبين بوضوح جانب الزهد في المجتمع الأندلسي

ومن هنا فإن أشعار الزهد فيه تكاد تكون أضعاف مثيلاتها في المشرق ولا غرابة في ذلك حيث كان المجتمع مليئا بوسائل الترف وأسباب اللهو ومن هنا كان رد الفعل قويا ، فإذا كان الخليفة الناصر مثلا محبا للعمران والبناء ، متفننا في مظاهر الابهة والترف محبا لاقتناء الجوارى والقيان ، فإن ابنه عبد الله كان شديد الزهد مبتعدا عن ترف الحياة ومتعها مستنكرا لإسراف أبيه في الترف(١٨) .

يقول عنه الحميدي والضبي (وكان فقيها شافعيا شاعرا إخباريا متنسكا)(١٩) .

---

(١٧) انظر التكملة لكتاب الصلة ص ٧١٨ .

(١٨) د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٥٧ دار العلم للملايين بيروت . وقد ذكر الدكتور الشكعة أن استنكاره لإسراف أبيه وإغراقه في الإقبال على الدنيا دفع به إلى التآمر عليه للتخلص منه ولكن مؤامرته باءت بالفشل فقبض عليه وقتله أبوه بيديه يوم عيد الأضحى . والحقيقة أن هذه المؤامرة كانت بسبب حسده لأخيه الحكم على العهد إليه بالخلافة ، حيث سول له بعض خاصته ومنهم الفقيه أحمد بن عبد البر وأحمد بن العطار وياسر الفتى وغيرهم قتل أبيه قبل أن يسلم الحكم لأخية فانكشف أمر هذه المؤامرة وقتل عبد الله ومن شارك معه في ذي الحجة ٣٣٨هـ (انظر : ابن الأبار : الحلة السيراء جـ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٨ ، تحقيق د. حسين مؤنس ط ٢ سنة ١٩٨٥ دار المعارف بمصر ، محمد دياب : تاريخ العرب في إسبانيا جـ١ ص ٣٥٣ - ٣٥٩ مصر سنة ١٨١٤ م) .

(١٩) جذوة المقتبس ص ٢٦٢ - ترجمة (٥٥٥) ، بغية الملتمس ص ٢٤٧ ترجمة (٩٣٢) .

الفصل الرابع

الفصل الرابع

مظاهر الحياة الاجتماعية

العمـــارة

اولا ـ العمـارة الدينيـة

المســاجد

اقترن عصر الفتوحات الإسلامية للبـلاد الأجنبية خـارج شـبه الجزيرة العربية بإنشاء مراكز عمران إسلامية (أمصـار) كان الغرض منها أن تكون قواعد حربية ومراكز لجيوش المسلمين الفاتحة من ناحية ، ولصبغ البـلاد المفتوحة بالصبغة العربية الإسلامية من ناحية أخرى .

وقد كانت المساجد هى الأساس الذى اعتمـد عليـه الفـاتحون المسلمون فى صـبغ المدن المفتوحة بالصبغة الإسلامية ، حيث يصـبح المسجد الجامع بمرور الزمن هو مركز المدينة وقلبهـا النابض . فمنه تتفرع الأزقة والطـرق المؤدية إلى ابوابها ، وحـول ساحته أو قريبـا منـه تقـام الأسواق والفنادق والقيـاسر والحـمامات وغيـرها ، وهو مركز الاجتماعات السياسية ، ومقر توزيع الجيوش ، ومـكان عقـد الحلقـات العلمية ، والفصل فى الخصومات وغير ذلك ، فضـلا عن كونه مـكان إقامة شـعائر الإسـلام . فليس غريبـا أن يسيطر المسـجد فى المدن الإسلامية فى تلك العصور على مناحى الحيـاة . وهكذا كان بناء المسجد الجامع فى الإسلام أساس الحـركة العمرانية فى المدن الإسلامية .

وعندما فتح المسلمون الأندلس شاطروا الأسـبان فى كنائسهم فى قرطبـة وغيرها حيث اقاموا فى جزء من كنيسـة (شنت بنجنت) الكبرى بقرطبة مسجدا بسـيطا متواضع البنـاء ، وقـام حنش الصنعانى وابو عبد الرحمن الحبلى التابعيان بوضع قبلته بأيديهما ، وترك القسم الآخـر للأسبان يقيمون فيـه شعائرهم .

فيذكر المقرى نقلا عن الرازى : (انه لما افتتح المسلمون الأندلس امتثلوا ما فعله ابو عبيدة عامر بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأى عمر من مشاطرة الروم بالشام فى كنائسهم مثل كنيسة دمشق وغيرها مما أخذ صلحا ، فشاطر المسلمون فى الأندلس أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى وكانوا يسمونها (شنت بنجنت) (سانت فنسنت Sant Vencent) — وكانت فى الأصل معبدا رومانيا — وابتنوا فى ذلك الشطر مسجدا جامعا ، وبقى الشطر الثانى بيد النصارى الخ »(١).

كما أقام المسلمون جامعا بالجزيرة الخضراء على انقاض كنيسة قديمة على يد عبد الله بن خالد ، وكذلك جامعا فى طرطلة .

وإذا تحدثنا عن المساجد التى بناها الأمويون فى الأندلس فإننا نجد الكثير(٢) وسوف نقتصر على ذكر أشهرها

١ — **مسجد قرطبة** : يعتبر المسجد الجامع بقرطبة من أروع أمثلة العماره الإسلامية والمسيحية على السواء فى العصر الوسيط . قال عنه الحميرى : « إنه الجامع المشهور أمره ، الشائع ذكره ، من أجل مصانع الدنيا وكبر مساحة ، وإحكام صنعة ، وجمال هيئة ، وإتقان بنية . تهمم به الخلفاء المروانيون فزادوا فيه زيادة بعد زيادة ، وتتميما إثر تتميم حتى بلغ الغاية فى الإتقان ، فصار يحار فيه الطرف ، ويعجز عن

---

(١) نفح الطيب : ج ١ ص ٢٥٦ ط الأزهرية ، وانظر البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٩ ، وكان له عدة تسميات كالمسجد الجامع ، والجامع الأعظم والجامع المبارك والجامع المكرم .

(٢) يذكر أن عدد المساجد فى عهد عبد الرحمن الداخل بلغ ٤٩١ مسجدا ولا شك أن معظمها كان مساجد صغيرة ووصلت فى عهد المنصور ابن أبى عامر إلى ١٦٠٠ مسجد فى رواية ، ٣٨٣٧ فى رواية أخرى ، (انظر : الحميرى : الروض المعطار ص ١٥٧ ، المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٧٨ — ٧٩ ، ويذكر ابن غالب نقلا عن ابن حبان أن مساجد قرطبة بلغت عند انتهاء اكتمالها ١٨٣٦ مسجد ، (انظر فرحة الأنفس ص ٢٧) .

حسنه الوصف ، فليس فى مساجد المسلمين مثله تنميقا وطولا وعرضا »(٣) .

ولذا أصبح يضرب به المثل فى العظمة والفخامة والاتساع والزخرفة . وقد وصفه الكثير من المؤرخين وصفا ضافيا كالمقري وابن بشكوال وابن الخطيب وابن عذاري وغيرهم . وكان يعد مفخرة من مفاخر قرطبة وفى ذلك يقول القاضى أبو محمد بن عطية :

باربع فاقت الأمصار قرطبة — منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة — والعلم أكبر شيء وهو رابعها (٤)

وقد بدأ بنياء هذا المسجد الأمير عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) ، وذلك بعد أن ضاق المسجد القديم — الذى كان جزءا من الكنيسة — بالمصلين بعد تكاثر عدد المسلمين الوافدين على الأندلس وخاصة العاصمة قرطبة ، وشاهد عبد الرحمن ما يعانونه من زحام ومتاعب بسبب تقارب السقف من الأرض حتى لا يستطيع الواحد منهم أن يقوم فى اعتدال وبخاصة فى المؤخرة حيث كان مستوى الأرض يرتفع كلما اتجهنا شمالاً لأن أرضية الجزء القبلى من المسجد كانت منحدرة نحو النهر ، ولما كان المسجد يشغل الجزء الشمالى من الكنيسة فقد كان طبيعيا أن يكون تعلبق السقائف من الجهة الشمالية وليس القبلية حيث المحراب . وعلى هذا فقد سبب انخفاض السقائف مضايقات شديدة للمصلين . ومن هنا فقد عزم عبد الرحمن الداخل على حل هذه المشكلة ، وذلك بضم ما بقى من الكنيسة للمسجد ، وإعادة بنائه من جديد ليتسع لجميع المصلين ، وليتناسب مع عظمة وفخامة الدولة الجديدة .

---

(٣) الروض المعطار فى خبر الأمطار ص ١٥٣ .
(٤) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٤٦ ، جـ ٢ ص ١٤٦ .

ولذا فقد ساوم نصارى قرطبة فى بيع نصيبهم ، وأوسع لهم ، فرفضوا فى البداية ، فظل بهم حتى وافقوا أخيرا بشرط أن يسمح لهم ببناء كنيسة لهم خارج الأسوار وشرع فى هدم الكنيسة والمسجد القديم وبناء جامع قرطبة بأسلوب جديد فى سنة ١٦٨هـ (٧٨٤م) ، وتم بناؤه واكتملت أسواره فى سنة ١٧٠هـ (٧٨٦ م) . ويذكر أنه أنفق على بنائه ثمانين الف دينار ، واشترى نصيب النصارى بمائة الف(٥) وفى ذلك يقول الشاعر دحية بن محمد البلوى مادحا له :

وانفق فى ذات الإله ووجهه
ثمانين الفا من لجين وعسجد
توزعها فى مسجد اسه التقى
ومنهجه دين النبى محمد
ترى الذهب النارى فوق سموكه
يلوح كبرق العارض المتوقد(٦)

وكان المسجد الجديد الذى بناه الداخل على قسمين : قسم مسقوف وهو بيت الصلاة وقسم مكشوف وهو الصحن ، وكان بيت الصلاة يشتمل على تسع بلاطات تتجه عموديا على جدار القبلة ممتدة على اثنى عشر عقد (قوس) فى كل بلاطة ، وتقوم هذه العقود على عمد من الرخام جلبت من الكنائس الخربة(٧) .

وكان الصحن مغروسا بالأشجار حيث عهد عبد الرحمن الداخل إلى

---

(٥) المقرى : نفح الطيب جـ١ ص ٢٥٦ ، ٢٦٢ .
(٦) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٣٤٢ ، نفح الطيب : جـ ٢ ص ٢٦٢ .
(٧) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣٨٤ والبلاط أو البلاطة : المساحة الواقعة ما بين أربعة أعمدة .

صعصعة بن سلام الشامى (ت ١٩٢ هـ) صاحب الصلاة بالمسجد — وكان على مذهب الإمام الأوزاعى — أن يغرس فى صحنه الأشجار ، واتبع أمراء الأندلس وخلفاؤها هذا التقليد بعد ذلك فى بقية مساجد الأندلس . ولذلك يقال : إن الأثر الباقى من مذهب الأوزاعى فى الأندلس بعد انتشار مذهب الإمام مالك يتمثل فى هذا .

وتوفى الأمير عبد الرحمن سنة ١٧٣هـ قبل أن يتم بناء المسجد فلم تكن له مئذنة أو سقائف لصلاة النساء . فجاء ابنه هشام من بعده فأقام له مئذنة من خمس فيء (أربونة) ، وبلغ ارتفاعها إلى موضع الأذان نحو عشرين مترا ، كما أقام فى نهايته مما يلى الجوف (الصحن) سقائف للنساء ، كما أمر ببناء ميضأة فى شرقيه(٨) .

وفى عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام زيدت بلاطات المسجد من تسع إلى أحد عشر بلاطا ليتسع المسجد وذلك سنة ٢١٨هـ ٨٣٣ م ، وجعل هذين البلاطين الجديدين فى سقيفتين ، ووصلهما بالسقائف التى كانت معدة لصلاة النساء . وبنى فى مؤخرة الصحن سقيفة أخرى ، كما زاد فى سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م فى بيت الصلاة فاتسع المسجد من جهة القبلة ، وبلغ طول هذه الزيادة نحو خمسين ذراعا وعرضها نحو مائة وخمسين ، وعدد سواريها ثمانين سارية(٩) . ونقل

---

(٨) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٣ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٣٤٢ .

لم يقدر لهذه المئذنة أن تعيش طويلا حيث تصدعت فى آخر عهد الأمير عبد الله (٢٧٥ — ٣٠٠هـ) فهدمها الخليفة عبد الرحمن الناصر وأقام أخرى بدلا منها ، وقد تمكن أحد المهندسين الأثريين الأسبان من الاهتداء إلى أساسها وكان طول قاعدتها يبلغ ستة أمتار (انظر : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٣٨٧) .

(٩) البيان المغرب جـ ٢ ص ٣٤٣ .

المحراب القديم إلى جدار القبلة الجديد ، وفتح فى بيت الصلاة بابين فى جانبى المسجد الشرقى والغربى ، بالإضافة إلى البابين القديمين ، فأصبح له أربعة أبواب اثنان فى الجهة الشرقية ، وآخران فى الجهة الغربية

وتوفى عبد الرحمن الأوسط قبل أن يتم زخرفة المسجد ، فجاء ابنه محمد فأمر فى سنة ٢٤١هـ (٨٥٥م) « بإتقان طرز الجامع وتنميق نقوشه » ، ثم أمر سنة ٢٥٠هـ بصنع مقصورة خشبية حول المحراب لها ثلاثة أبواب ، ولما تم ذلك صلى فيه فقال فى ذلك موسى ابن سعيد :

لعمرى لقد ابدى الإمام التواضعا
فاصبح للدنيا وللدين جامعا
بنى مسجدا لم يبن فى الأرض مثله
وصلى به شكرا لذى العرش راكعا
فطوبى لمن كان الأمير محمد
له إذ دعا فيه إلى الله شافعا(١٠)

وفى عهد الأمير المنذر بن محمد أقيم فى صحن المسجد بيت المال على غرار بيوت المال فى جامع عمرو بالفسطاط والجامع الأموى بدمشق ، كما أمر بتجديد السقاية وإصلاح السقائف(١١) .

وفى عهد أخيه الأمير عبد الله بن محمد أنشأ ساباطا (طريقا مغطى) معقودا على حنايا يصل ما بين القصر والجامع من جهة الغرب ، وفتح إلى المقصورة بابا كان يخرج منه إلى الصلاة ، وهو أول من اتخذ ذلك من أمراء بنى أمية ، وتابعه فى ذلك من جاء بعده(١٢) .

---

(١٠) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٤٣ .
(١١) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٤٣ .
(١٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٤٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٣٨٩ ، غون شاك : الفن العربى فى أسبانيا وصقلية ص ٢٤ .

وفى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر هدمت المئذنة القديمة التى أقامها هشام بعد أن تصدعت ، وأقيم مكانها مئذنة جديدة سنة ٣٤٠هـ (٩٥٠م) كانت تسمو على عمائر مبانى قرطبة ، ويراها القادمون من بعيد كأنها المنار على مياه البحر لهداية السفن ، وتم بناؤها فى ثلاثة عشر شهرا بالحجارة المصقولة ، وجعل لها مطلعان منفصلان عن بعضهما بعد أن كانت مئذنة هشام ذات مطلع واحد ، لكل مطلع مائة وسبع درجات ، ولا يلتقى الراقون فيها إلا بأعلاها ، وبلغ ارتفاعها ثمانين ذراعا حتى مكان المؤذن أى ضعف ارتفاع المئذنة الأولى ، ومن مكان المؤذن إلى أعلاها عشرين ذراعا ، ونصب بأعلاها سفود بارز ركبت فيه ثلاث تفاحات من الذهب والفضة(١٣) وبنى إلى جانب هذه المنارة حجرة للمؤذنين(١٤) .

كما قام الناصر بترميم واجهة بيت الصلاة المطلة على الصحن بعد تصدعها ، وأصلح الباب المواجه للقصر فى الجانب الغربى وكان يعرف بباب الوزراء (باب سان استبيان) ، وأقام على الصحن ظلة لوقاية الناس من حر الشمس تستند على كوابيل على نمطرتلك التي تقوم عليها واجهة بيت الصلاة .

وقد سجل اعماله هذه على لوحة بجوار المدخل فى البلاط الأوسط ونصها : « بسم الله الرحمن الرحيم أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله — أطال الله بقاءه — ببنيان هذا الوجه ، وإحكام إتقانه ، تعظيما لشعائر الله ومحافظة على حرمة بيوته التى أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر ،

(١٣) الحميرى : الروض المعطار ص ١٥٥ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤٤ .

(١٤) الفن العربى فى إسبانيا وصقلية ص ٢٤ .

وجزيل الذخر مع بقـاء شرف الأثر وحسن الذكر . فتم ذلك بعون الله فى شهر ذى الحجة سنة ست واربعين وثلاثمائة ، على يدى مولاه ووزيره وصاحب مبانيه عبد الله بن بدر ، عمل سعيد بن أيوب . »(١٥) .

وقد أنفق الناصر فى بناء المئذنة وغير ذلك مما قام به فى المسجد سبعة امداد وكيلين ونصف من الدراهم القاسمية كما ذكر ابن عذارى(١٦) .

اما أعظم زيادة فى مسجد قرطبة فقد تمت فى عهد الخليفة الحكم المستنصر بعد تضاعف عدد سكان قرطبة بحيث لم يعد المسجد يتسع لجموعهم الغفيرة . وقد عهد الحكم إلى حاجبه جعفر بن عبد الرحمن الصقلبى بذلك ، فجلبت الأحجار من جبال قرطبة ، واشرف الحكم بنفسه على تقدير الزيادة وتفصيل بنائها واحضر لذلك الأشياخ والمهندسين فرسموا بأن تكون بمد بلاطات المسجد جنوبا على اثنى عشر عقدا ، واستمر البناء فيها اربع سنوات أنفق فيها مائتان وواحد وستون الف دينار وخمسمائة وسبعة وثلاثون دينارا(١٧) .

ويصف ابن سعيد هذه الزيادة بقوله « وبها كملت محاسن هذا الجامع ، وصار فى حد يقصر الوصف عنه »(١٨) .

وفى جمادى الآخرة سنة ٣٥٤هـ أتم بناء قبة المحراب واحاطها بقبتين جانبيتين وقبة أخرى على مدخل زيادته بالجامع تجاه قبة المحراب ، وهناك نقش يدور بعقد المحراب ومنه « امر الإمام المستنصر بالله عبد الله الحكم أمير المؤمنين ونقه الله مولاه وحاجبه جعفر

---

(١٥) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٠ . انظر د. السيد سالم : تاريخ ص ٣٩١ ، المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٠ .
(١٦) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣١ .
(١٧) البيان المغرب جـ ٢ ص ٣٥٩ ، نفح الطيب جـ ٢ ص ٨٤ .
(١٨) نفح الطيب جـ ٢ ص ٩٧ .

ابن عبد الرحمن رحمه الله بتشبيك هــذه البنية ، فتم بعون الله بنظــر محمد بن تمليخ ، واحمد بن نصر ، وخالد بن هاشم أصــحاب شرطته ، ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب »(١٩) .

كما شرع فى تزيين المسجد بالفسيفساء الذى كان ملك الروم قــد بعث إليه به مع صــانع يتقن ذلك ، ومنه تعلم بعض الصناع المسلمين حتى حذقوا ذلك وتفوقوا فى الصنعة . ويوجد فى أعلى عقد المحراب نقش بالخط الكوفى جــاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم . أمر عبد الله الحكم امير المؤمنين اصلحه الله ، مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله ، بعمل هذه الفسيفساء فى البيت المكرم ، فتم جميعها بعون الله سنة اربع وخمسين وثلاثمائة »(٢٠) .

كما أمر الحكم بوضع المنبر القــديم إلى جانب المحراب سنة ٣٥٥هـ، ونصب فى قبلة الزيادة التى زادها مقصورة من الخشب منقوشــة من الظاهر والباطن مشرفة الذروة بلغ طولهــا خمســة وسبعون ذراعا ، وعرضها اثنــان وعشرون ، وارتفاعها ثمانية اذرع وجعل لها ثلاثة أبواب بديعة الصنعة عجيبة النقش(٢١) .

كما أمر بصنع منبر جــديد « ليس على معمور الأرض أتقن منــه ، ولا مثله فى حسن صنعته وخشبه ساج وابنوس وبقم وعود قاقلى » .

---

(١٩) السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٣٩٢ .

(٢٠) نفس المرجــع ص ٣٩٣ .

(٢١) ابن عذارى : البيــان المغــرب ج ٢ ص ٣٢٧ — ٣٢٨ ويذكر ابن غالب الأندلسى : أن باب هــذه المقصورة كان من الذهــب المضروب ، وأن عضادتاه كانتا من الابنوس ، بينما كان طــوله وأوصاله من الفضة (انظر نص أندلسى جديد من فرحة الأنفس مجلة معهد المخطوطات العربية ج ١ ص ٢٨ تحقيق د. لطــفى عبد البديع) .

ويذكر أنه كان يعمل فيه ثمانية صناع ، واستغرق العمل فيه سبع سنوات ، وأن عدد درجاته تسع درجات ، وعدد حشواته ست وثلاثون الف حشوة سمرت بمسامير من الذهب والفضة ورصعت بهما ، وكان هذا المنبر يسير على عجل ، ويوضع بعد صلاة الجمعة فى غرفة خلف المحراب ، وقد اتبعت هذه الطريقة بعد ذلك فى المغرب(٢٢) .

وفى سنة ٣٥٦هـ هدم الحكم الميضأة القديمة التى كانت تقع بفناء المسجد ويجب لها الماء من بئر الساقية ، والتى أنشأها هشام ، وبنى بدلا منها أربع ميضآت فى الجانبين الشرقى والغربى للفناء ، وأجرى إليها الماء من عين بجبل قرطبة فى قناة حجرية متقنة البناء جعل فى جوفها أنابيب من الرصاص لحفظ الماء من الدنس والأوساخ وكانت تصب فى أحواض من الرخام ، كما أجرى الماء إلى سقايات من الرخام أيضا اتخذها على أبواب الجامع فى الجهات الثلاث الشرقية والغربية والشمالية ، وفى ذلك يقول الشاعر محمد ابن شخيص :

وقد خرقت بطون الأرض عن نطف
من أعذب الماء نحو البيت تجريها
طهر الجسوم إذا زالت طهارتها
رى القلوب إذا حرت صواريها
قرنت فخرا بأجر قل ما اقترنا
فى أمة أنت راعيها وحاميها(٢٣)

---

(٢٢) الحميرى : الروض المعطار ص ١٥٥ ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٦١ ذكر ابن عذارى أن المنبر كان من عود الصندل الاحمر والأصفر والأبنوس والعاج والعود الهندى وبلغت تكلفته ٣٥٫٧٠٥ دينار وكان تمامه فى خمسة أعوام (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٠) .
(٢٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٠ ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٠ .

وأخيراً فقد اختتم الحكم بناء المسجد بإقامة دار للصدقة فى غربيه لتكون مكانا لتوزيع صدقاته ، كما أقام فى ساحته وحوله مكاتب لتعليم أولاد الأيتام والمساكين وفى ذلك يقول ابن شخيص :

وساحة المسجد الأعلى مكللة مكاتبا لليتامى من نواحيها
لو مكنت سور القرآن من كلم نادتك يا خير تاليها وراعيها(٢٤)

وتعتبر زيادة الحكم أعظم زيادة فى جامع قرطبة من حيث البناء والزخرفة حيث جعلته متناسقا متعادل الأجزاء ، وأهم ما فيها تلك القباب التى تقوم على هياكل من عقود بارزة متشابكة فى أشكال هندسية رائعة وقد كان لهذه القباب أثرها فى أوربا حيث أوحت للفنانين الفرنسيين بالقبوات القوطية الشهيرة(٢٥) .

أما المحراب الجديد فيعتبر أجمل عنصر معمارى فى المسجد أضافه الحكم ، حيث عنى به المهندسون عناية كبيرة ، فأقاموا القباب على بلاطه الأوسط ورواقه الأمامى ونقشوه من الداخل والخارج بالتوريقات ، وزينوا عضادتيه بلوحات من الرخام عليها حفر غائر على هيئة زخارف نباتية وتوريقات تتمشى مع الأسلوب البيزنطى .

وقد فتح الحكم إلى يمين المحراب بابا يؤدى إلى الساباط الجديد الذى يصل بين القصر والمقصورة ، ويتصل هذا الباب بمخزن لحفظ الأدوات والعدد والطسوت والحسك الخاص بإيقاد الشموع فى ليلة السابع والعشرين من رمضان (ليلة القدر) وذكر أنه كان يحفظ

---

(٢٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٠ — ٢٤١ ويذكر ابن عذارى أن عدد المكاتب التى أنشأها الحكم بلغ سبعة وعشرين مكتبا منها ثلاثة حول المسجد والباقى فى الأرباض (أحياء قرطبة) .

(٢٥) د. السيد سالم : المساجد والقصور بالأندلس ص ٣٤ — ٣٦ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٣٩٤ .

بهذا المخزن مصحف يرفعه رجلان لثقله ، فيه أربع أوراق من مصحف عثمان الذى كان يقرأ فيه يوم قتل وفيه نقط من دمه(٢٦) . وكان يخرج فى صبيحة كل يوم جمعة ، وله غشاء بديع الصنع ، وكرسى يوضع عليه ، ويقوم الإمام بقراءة نصف حزب منه ثم يرد إلى مكانه .

ويذكر أن هذا المصحف ظل بالمسجد حتى آل الأمر إلى الموحدين فى الأندلس فأخرج فى ١١ شوال سنة ٥٥٢هـ أيام عبد المؤمن بن على فاعتنى به وتبركوا به ، ثم إلى بنى مرين ، وكان السلطان أبو الحسن المرينى يحمله معه فى أسفاره دائما ، حتى هزم فى موقعة طريف فوقع المصحف فى يد البرتغاليين ، وتحايل المسلمون فى استرداده حتى جاء به إلى فاس أحد تجار ازمور سنة ٧٤٥هـ ، وحفظ بالخزانة السلطانية(٢٧) .

ثم كانت الزيادة الأخيرة فى مسجد قرطبة على يد المنصور ابن أبى عامر والتى امتدت طولا من أول المسجد إلى آخره . وبدأت فى سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م حيث أضاف ثمانية أروقة على المسجد من الجهة الشرقية ، وذلك نظرا لاتصال الجانب الغربى منه بقصر الخلافة فوصلت جملة البلاطات تسع عشرة بلاطة . وذلك لما زاد الناس بقرطبة وخاصة من البربر الذين استكثر المنصور منهم واعتمد عليهم ، وقد كان قصد المنصور إتقان البناء ، والمبالغة فى إحكام البنية دون الزخرفة .

---

(٢٦) الإدريسى : وصف المغرب والأندلس من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ص ٨ — ١٠ . وقد شك المقرى فى نسبة هذا المصحف وما فيه من أوراق لعثمان حيث قال « وما توهموه من أنه خطه بيمينه فليس بصحيح ، فلم يخط عثمان واحدا منها ، وإنما جمع عليها بعضا من الصحابة » (نفح الطيب جـ ٢ ص ١٣٥) .

(٢٧) نفح الطيب جـ ٢ ص ١٣٦ — ١٣٧ .

وبالرغم من ذلك فإن الزخارف لم تكن تقل عن سابقتها روعة وجمالا (٢٨) .

وقد قام المنصور بنزع ملكيـة الأراضى والدور الواقعـة فى شرق الجامع ، وتعويض أصـحابها بما يرضيهم من مال أو عقار وبلغ عـدد سوارى المسـجد بعد هـذه الزيادة ١٤١٧ سارية ، وعدد ثرياته ٢٨٠ سرية . وبلغ عدد الأئمة والمقرئين الأكفاء والمؤذنين والخـدم والمؤقـتدين وغيرهم ١٥٩ شخصا(٢٩)

وظل العمل فى هذه الزيادة مدة عامين ونصف كان المنصـور فيهـا يعمل بنفسه فى أحيـان كثيرة ، واستخدم مجموعة من أسرى النصارى فى ذلك . وأصبح المسجد مؤلفـا من تسع عشرة بلاطة ، ففقد المسجد تناسقه وتعادل أجزائه وأصبح المحراب متطرفا عن وسط جـدار القبة بعـد أن كان يقع فى محور الجامع ، وهدم أبواب الجـامع من الجهة الشرقية قبل الشروع فى الزيادة ، وفتح فى الجدار الشرقى ببيت الصلاة القديم ثغرات واسـعة تصل بين الزيادة الجـديدة وبيت الصلاة القديم ، كما فتح فى الجـدار الشرقى الجديد ثمانية أبواب فأصبح عدد الأبواب المؤدية إلى بيت الصلاة ١٦ بابا يضاف إليها خمسة أبواب تفتح على جوانب الصحن فيكون عدد أبواب المسجد ٢١ بابا كانت ملبسة بالنحاس الأصفر ومخرمة تخريما رائعـا (٣٠) .

---

(٢٨) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

(٢٩) ذكر ابن بشكوال : أن المنصور كان يطلب من صاحب الأرض أو الدار أن يطلب ما يشاء ثمنا لهـا ثم يضاعفه له ، حتى أن امرأة كان لهـا دار بهـا نخلة ، فقالت لا اقبل عوضـا إلا مثل ذلك فأمر بأن تشترى لهـا دار بنخلة حتى ولو ذهب فيها مال بيت المـال . (المقـرى نفح الطيب ج ٢ ص ٨٤) .

(٣٠) تاريخ المسلمين ص ٣٩٧ ، الفن العربى فى اسبانيا وصقلية ص ٢٦ .

وقد احتفظ المسجد بصورته تلك دون أن يطرأ عليه تغيير فى نظام بنائه حيث لم تضف إليه أى اضافات فيما عدا أعمال الترميم اللازمة وخاصة فى عصرى المرابطين والموحدين وظل كذلك حتى سقطت قرطبة فى يد فرناندو الثالث ملك قشتالة سنة ١٢٣٦م فتحول إلى كنيسة عرفت باسم كنيسة سانتا ماريا العظمى أو الكبرى(٣١) .

ويعكس المسجد الجامع بقرطبة التأثيرات السورية سواء فى زخارفه المعمارية او فى نظام عقوده المزدوجة ونظام سقفه ، أو فى وضع المئذنة ، او فى تصميم المجنبات حول الصحن كما تذكرنا عقوده المتعامدة على جدار القبلة بنظائرها فى المسجد الأقصى .

ولا شك أن عبد الرحمن الداخل قد استعان بعرفاء ومهندسين شاميين فى بناء هذا المسجد ، كما فعل حفيده الأمير عبد الرحمن بن هشام عندما استعان بأحد الموالى الشاميين ويدعى (عبد الله بن سنان) فى بناء سور إشبيلية سنة ٢٣٠هـ بعد غزو النورمان لها(٣٢) .

وهكذا كان لعبد الرحمن الداخل فضل كبير فى تطعيم حضارة الأندلس بالتأثيرات المشرقية وعلى رأسها التقاليد السورية .

وقد كان لهذا المسجد تأثيرات كبيرة فى العمارة الإسلامية والمسيحية على حد سواء . ففى العمارة الإسلامية كان نموذجا يحتذى فى كثير من المساجد التى اقيمت فى الأندلس بعد ذلك فى نواحى شتى مثل نظام القباب ذات الضلوع ، ونظام البلاطات المتجهة عموديا على جدار القبلة ويتضح ذلك جليا فى جامع الباب المردوم بطليطلة ، ومثل اتساع الصحن

---

(٣١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣٦٨ ، انظر : دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٨ .

(٣٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٩٥ ، د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٣ .

ونظام العقود وأسلوب الزخارف كما يتضح فى جامع إشبيلية الذى أنشىء فى عصر الموحدين . كما امتد تأثيره الفنى إلى بعض بلاد العالم الإسلامى كالمغرب ومصر والشام فمئذنة جامع ابن طولون تجلو علينا عقودا من النوع الشائع فى جامع قرطبة ، والقنطرة التى تصل بين الجامع تستند على عقدين متجاورين على الطراز القرطبى وبأسفلها كوابيل من نفس نظام كوابيل مسجد قرطبة(٣٣) .

وأما عن تأثيراته فى العمارة المسيحية فتتضح فى إسبانيا حيث ترى واضحة فى بعض الكنائس مثل كنيسة المزان بقشتالة ، وقبوة مصلى توريس ديل ، وكنيستى سانتيا جو دى بينايا ، وسان مرتينيو بجليقية ، وكليستى سان ميان ، وسان ثبريان فى مملكة ليون وغيرها(٣٤) .

٢ ـ **جامع إشبيلية** : وقد أنشىء فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، حين أمر قاضيه عمر بن عدبس بتشييده سنة ٢١٤هـ/٨٢٩ ـ ٨٣٠م ولذلك نسب إليه . وقد سجل تاريخ إنشائه على بدن عمود من الرخام لا زال محفوظا فى متحف الآثار الأهلى بإشبيلية بخط كوفى ونصه « يرحم الله عبد الرحمن بن الحكم الأمير العدل المهتدى الآمر ببنيان هذا المسجد على يدى عمر بن عدبس قاضى إشبيلية فى سنة أربع عشرة ومئتين ، وكتب عبد البر بن حرون »(٣٥) .

وكان هذا الجامع يشبه جامع قرطبة فى نظامه العام وفى عدد بلاطاته حيث كان يشتمل على أحد عشر بلاطا متجهة عموديا على جدار القبلة الذى بلغ طوله ما بين ٤٨ ـ ٥٠ مترا ، وكان البلاط الأوسط أكثر البلاطات اتساعا وارتفاعا . وأقيمت له مئذنة فى منتصف الجدار

---

(٣٣) انظر : دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٧٢ . تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣٨٩ ـ ٤٠٠ .
(٣٤) انظر . تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٤٠٠ هامش ٢ .
(٣٥) تاريخ المسلمين ص ٤٠١ .

الشمالى تشبه نظام المآذن القرطبية التى ترجع إلى عهد عبد الرحمن الأوسط ، وكانت مربعة من الخارج مستديرة من الداخل بلغ طول كل جانب من جوانبها الأربعة ٥٫٨٨ م .

وقد غرس فى صحنه أشجار النارنج والبرتقال ، وكانت تتوسطه قطعة من الرخام تنبثق منها نافورة على شكل محارة(٣٦) .

ويصفه المستشرق الألمانى (فون شاك) « بأنه جاء عملا رائعا وشهيرا ولكنه لم يكمله على ما أراد له » . كما يذكر أن المؤرخين العرب يقصون : أن عبد الرحمن رأى فى نومه عند تمامه أنه دخله فوجد النبى عليه الصلاة والسلام ميتا ومسجى فى قبلته فانتبه مغموما وسأل أهل العبارة عن ذلك فقالوا : هذا موضع يموت فيه دينه . فحدث على أثر ذلك غلبة المجوس (النورمان) على المدينة (إشبيلية) واستيلائهم عليها ، وتحقق معنى الحلم عندما حاولوا هدم المسجد ، وقذفوا سقفه بالسهام الملتهبة المحمية ، وجمعوا كثيرا من الوقود ، وكوموه فى إحدى البلاطات لإحراقه ، وعندما هموا بذلك ظهر من جانب المحراب ملاك فى صورة غلام نادر الجمال فطردهم من المسجد(٣٧) .

ولا ندرى من أين جاء هذا المستشرق بهذه القصة ففى المصادر الأندلسية التى رجعنا إليها وهى كثيرة ومتعددة لم نجد أية إشارة ولو من بعيد لمثل ذلك ، ويبدو أن خيال هذا المستشرق هو الذى صور له تلك القصة ، أو خيال المستشرق دوزى الذى نقل عنه ذلك ، وعملية ظهور الملاك والتصديق به شىء موجود لدى هؤلاء فأرادوا أن يطبقوه على تاريخنا الإسلامى ، وللأسف فإن مترجم الكتاب لم يعلق على هذه القصة المزعومة بالرغم من تعليقاته الضافية فى مواضع كثيرة .

---

(٣٦) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١١ ، تاريخ المسلمين ص ٤٠١ .
(٣٧) الفن العربى فى إسبانيا وصقلية ص ٦٢ ترجمة د. الطاهر مكى .

وقد أصيب المسجد ببعض الأضرار نتيجة لغارة النورمان على إشبيلية سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤م وقد ظل يحتفظ بنظام بنائه ومساحته دون أن تدخل عليه زيادات لمدة ثلاثة قرون حتى ضاق بالمصلين فى عصر الموحدين فأنشىء إلى جانبه جامع القصبة الكبير بإشبيلية . وحدث فى سنة ٤٧٢هـ (١٠٧٩م) أن هدم الجزء الأعلى من مئذنته على أثر زلزال شديد فجددها المعتمد بن عباد فى شهر واحد فقط ، كما تصدعت جدرانه الغربية ومالت بعد مدة بتأثير هذا الزلزال ، كما تآكلت جوائز سقفه وظل كذلك حتى أمر أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدى سنة ٥٩٢هـ بترميمه وإقامة ركائز قوية تسند هذه الجدران وأعاد إليه الصلاة بعد أن كانت متوقفة فيه منذ سنة ٥٧٠هـ(٣٨) .

وبعد سقوط إشبيلية فى يد الإسبان سنة ١٢٤٦م حول إلى كنيسة سميت (سان سلفادور) ثم أصيبت المئذنة بأضرار بالغة سنة ١٣٥٦م نتيجة زلزال عنيف هدم الجزء العلوى منها فأقام الأسبان مكانها برج النواقيس ، ثم قاموا بهدم المسجد بأكمله سنة ١٦٧١م باستثناء ما بقى من المئذنة والبهو لبناء الكنيسة الجديدة مكانه وتم بناؤها سنة ١٧٢١ م ولم يتبق من المسجد فى الوقت الحالى سوى جزء من الصحن وجزء من المئذنة يبلغ ارتفاعه ½ ٩ م فى داخله درج حلزونى عرضه ٨٠ سم يدور حوله دعامة اسطوانية ضخمة . وهو يعطينا صورة عن المآذن الأندلسية فى هذا العصر (٣٩) .

٣ — **مسجد الباب المردوم بطليطلة** : وقد قام بتأسيسه قاضى طليطلة أحمد بن حديدى من ماله الخاص . فقد تولى الوزارة أيام اسماعيل بن ذى

---

(٣٨) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة على المستضعفين ص ١٣٤ .

(٣٩) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١١ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٤٠١ .

النون ملك طليطلة . وتعلو واجهته كتابة تاريخية نصها « بسم الله الرحمن الرحيم . أقام هـذا المسجد أحمد بن حديدى من ماله ابتغاء ثواب الله ، فتم بعون الله على يدى موسى بن على البناء وسعادة ، فتم فى المحرم سنة تسعين وثلاثمائة »(٤٠) .

وهو مسجد صغير المساحة ولكنـه يعتبر من أهم مساجد الأندلس بعـد مسجد قرطبة نظرا لاحتفاظه بتسعة قبـاب قائمة على الضـلوع المتقاطعة تمثل أول مراحل التطور التى مرت بها قباب جامع قرطبة(٤١) .

وقد شيد من الحجر الجرانيتى والآجـر وفقـا للأسـلوب الـذى اختصت به طليطلة . وهو على شكل مربع لا يتجاوز طول الجـانب منـه ثمانية أمتـار . ويتألف من ثلاثة أروقة طولية تقطعها ثلاثة أروقة عرضية ، بحيث يحدث ذلك التقاطع تسعة أساطين ، تفصل بينها أربعـة أعمـدة تيجانها قوطية قديمة ، يتفرع منهـا اثنـا عشر قوسا على شكل حـدوة الفرس ، ويعلو كل اسطوان من هـذه الأساطين قبـة تتقـاطع فيهـا الأقواس على نحو ما رأينـاه فى قباب قرطـبة ، والقبة الوسطى أكثر ارتفاعها من القباب الأخرى .

أما واجهة المسجد الرئيسية — وهى الجنوبية الغربية — فتطل على الطريق المؤدى إلى البـاب المردوم بثلاثة عقود ، ويوجد فى أعلاها نص التأسيس السابق . ويعلو هـذه العقود الثلاثة بائكة صـماء من أقواس متقاطعة . ويتوج هـذه البائكة إفريز بداخله شبكات مخرمة على شـكل معينات . أما الواجهة التى تطل على صحن المسجد فتتألف من ثلاثة عقود متجاورة تعتبر بمثابة أبواب ، تعلوها ستة أقواس متجاورة صماء يتناوب

---

(٤٠) عرف هـذا المسجد بذلك الاسم نسبة إلى باب مجاور له ما زال قائما ويعرف بالباب المردوم .

(٤١) ابن بسام : الذخيرة ج ١ ق ٤ ص ١١٨ ، ابن الخطيب : أعمـال الأعلام ص ٢٠٧ .

فيها اللونان الأبيض والأحمر نتيجة لتعاقب قوالب الآجر والحجر على نظام أقواس جامع قرطبة(٤٢) .

وقد تحول هذا المسجد إلى كنيسة بعد استيلاء ألفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة سنة ١٠٨٥م أطلق عليها سانتا كروز ، واضيفت إليه فى الجانب الشرقى حنية من الطراز المدجن فى القرن الثالث عشر الميلادى ، ووهبه الملك ألفونسو الثامن لإحدى الجمعيات الدينية ويعرف اليوم باسم كنيسة (الكريستو دى لاثوث El Cristo de Laluz)(٤٣) .

٤ — **المسجد الجامع بالمرية :** يعتقد العالم الأثرى الإسبانى (توريس بلباس) أن هذا المسجد قد شيد فى عهد الحكم المستنصر بعد زيادته فى جامع قرطبة بسنوات قليلة ، وانتهى بعد دراسة ما تبقى منه من آثار ضئيلة داخل كنيسة سان خوان — وهى لا تعدو المحراب وجزءا من جداره — أنه كان يتألف من خمس بلاطات عمودية على جدار القبلة ، وأن البلاط الأوسط منها كان أكثر البلاطات اتساعا ، وأن المحراب كانت تعلوه قبيبة مفصصة ما زالت قائمة حتى اليوم

وان نظام البناء — كما يتجلى من خلال ما بقى من جدار المحراب — كان على نمط النظام القرطبى القائم على تناوب حجرين عرضا مع حجر طولا وهو ما يعرف فى عصرنا باسم (آدية شناوى) . وقد أضيفت إلى هذا المسجد زيادات من جوانبه الثلاثة الشرقى والغربى والشمالى بواسطة زهير العامرى الصقلبى كما يتجلى من قول ابن الخطيب « وهو الذى بنى هذا المسجد وزاد فيه الزيادات من جهاته الثلاث ما سوى القبلة »(٤٤) .

وكان صحن هذا المسجد مغروسا بأشجار الليمون والبرتقال ، ومفروشا بالرخام وتتوسطه نافورة للوضوء ، شأن نظام مساجد الأندلس .

---

(٤٢) المرجع السابق ص ٤٠٣ — ٤٠٤
(٤٣) تاريخ المسلمين ص ٤٠٣ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١٣ .
(٤٤) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١٢ .

وقد تحول إلى كنيسة سنة ١٤٩٠م وشيدت بداخله كاتدرائية سنة ١٤٩٢م وسميت بكنيسة (سان خوان) ، وقد حولت هذه بدورها إلى مخزن للمدافع والمهمات العسكرية سنة ١٨٤٥م . ثم سلمت إلى جماعة الآباء فرنسسكان فحفظت بقاياها وبقايا الجامع . وقد عثر فى أرضية هذا المسجد على بضعة كوابيل حجرية تشبه كوابيل جامع قرطبة إلا انها تختلف عنها فى كثرة زخارفها القائمة على التوريقات وتبدو فيها أوراق مبسوطة مقسمة على أصابع ، وتتشابه مع زخارف قصر الجعفرية بسرقسطة وقصبة مالقة مما يرجح أنها من عصر المعتصم بن صمادح(٤٥) .

٥ – **مسجد الزهراء** : كما أقام الخليفة عبد الرحمن الناصر فى مدينة الزهراء التى أقامها إلى جانب قرطبة مسجدا كان يعمل فى بنائه كل يوم ألف رجل منهم ثلاثمائة بناء ، ومائتى نجار ، وخمسمائة من الصناع والأجراء وتم بناؤه فى ثمانية وأربعين يوما سنة ٣٢٩هـ ، وكان يتكون من خمس بلاطات ، كان البلاط الأوسط منها أكثر اتساعا ، وكان صحن المسجد مفروشا بالرخام الخمرى اللون وتتوسطه فوارة يجرى فيها الماء ، وكان ارتفاع مئذنته أربعين ذراعا وهى شبيهة بالمئذنة الأولى لجامع قرطبة التى أقامها الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل . أما منبره فقد جاء فى غاية الحسن والبهاء وجعلت حوله مقصورة من الخشب . بديعة الصنع . وقد بلغ طوله من القبلة إلى الجوف (الصحن) سوى المحراب سبعة وثلاثون ذراعا ، وعرضه من الشرق إلى الغرب تسعة وخمسون ذراعا(٤٦) .

---

(٤٥) المرجع السابق ص ١١٤ .

(٤٦) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٤ ، أزهار الرياض جـ ٢ ص ٢٦٥ – ٢٦٢ . هذا وقد ذكر د. حسن ابراهيم : أن الذى بناه هو الحكم ابن الناصر وأنه قد تم بناؤه فى شعبان سنة ٣٢٩هـ وهذا خطأ واضح حيث أن الحكم لم يل الخلافة إلا بعد وفاة أبيه سنة ٣٥٠هـ ، إلا إذا كان المقصود انه هو الذى أشرف على بنائه . (انظر تاريخ الاسلام السياسى جـ ٣ ص ٤٧٣) .

العمـــارة المدنيـــة

القصـــور والـــدور

حظيت قرطبة منـــذ بداية الفتح الإسلامى للأندلس بنصيب كبير من عنـــاية ولاة الأندلس وأمرائها وخلفائها ، وغـــدت حـــاضرة للمسلمين فى الأندلس ، وظلت تحتل المكانة الأولى بين المدن الأندلسية حتى ســـقوط الخـــلافة الأموية(١) .

---

(١) قرطبة مدينة قديمة ، يرجـــح أنهـــا أنشـــئت فى العصر الأيبيرى ويستدل على ذلك من اسمها الأيبيرى Corduba الذى عربه المسلمون إلى قرطبـــة ، ومن الحفائر الأثرية التى أجريت فى نطاقها حيث عثر على تماثيل برونزية أيبيرية .. وقـــد ظلت تتمتع بمكانة لائقـــة حتى أواخر القرن السابع الميلادى حيث أخذت تفقد أهميتها شيئا فشيئا أمام طليطلة فى العصر القوطى .

وعنـــدما جاء الفتح الإسلامى لشبه جزيرة إيبيريا كانت قرطبـــة من بين المدن التى فتحها المسلمون حيث أرسل إليها طارق بن زيـــاد قائده مغيث الرومى فى سبعمائة فارس ففتحها بسهولة عن طـــريق الحيلة والمفاجأة . واصبحت قرطبة منذ ولاية أيوب بن حبيب اللخمى حاضرة الأندلس فى سنة ٩٩هـ ، ونقلت إليها العاصمة من إشبيلية التى كان موسى بن نصير قد اتخذها قاعدة للحكم بعـــد الفتـــح ، وظلت عاصمة للأندلس نحو ثلاثة قرون حتى سقطت الخلافة الأموية سنة ٤٢٢هـ .

وتقـــع قرطبة على سهل مرتفع فى سفح جبـــل قرطبة (جبـــل العروس) ، الذى يعتبر جـــزء من سلسلة جبـــال سيراموريناً ، وتشرف من جهـــة الجنوب على الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير

=

يقول ابن حوقل الرحالة الشيعى فى وصفها ، وقد زارها فى القرن الرابع الهجرى فى عهد الخليفة الناصر : « وهى أعظم مدينة بالأندلس ، وليس بجميع المغرب لها عندى شبيه فى كثرة أهل ، وسعة محل ، وفسحة أسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق »(٢) .

ويرجع الفضل فى تمصير قرطبة وتجميلها ، وتنظيم شؤون الحكم والإدارة فيها إلى الأمير عبد الرحمن الداخل ، فقد كان عصر الولاة عصرا مضطربا سادت فيه المنازعات والقلاقل نتيجة للعصبية القبلية بين اليمنية والمضرية . فلما استقر الأمر لعبد الرحمن الداخل بدأ فى إرساء قواعد الحكم والإدارة التى كانت سائدة فى الدولة الأموية بالمشرق ، وسرعان ما ارتقت الأندلس من مجرد ولاية تابعة للخلافة الأموية إلى مصاف الدول الكبرى المستقلة . ويشير ابن حيان إلى هذا التطور الكبير فيقول « لما الفى الداخل الأندلس ثغرا قاصيا ، غفلا من حلية الملك عاطلا ، أرهف أهلها بالطاعة السلطانية ، وحنكهم بالسيرة الملوكية ، وأخذهم بالآداب ، فأكسبهم عما قليل المروءة ، وأقامهم على الطريقة ، وبدأ فدون الدواوين ، ورفع الأواوين ، وفرض الأعطية ، وعقد الألوية ، وجند الأجناد ، ورفع العماد ، وأوثق الأوتاد ، فأقام للملك هيبته ، وأخذ للسلطان عدته ، فاعترف له بذلك أكابر الملوك ، وحذروا جانبه ، وتحاموا

وترتفع عن سطح البحر بما يتراوح بين ١٠٠ — ١٢٣ م ، وهى تعتمد فى ثروتها على الزراعة خاصة فى سهلها الجنوبى الذى يعرف بالكنبانية وأهم محاصيلها الكروم والزيتون ، كما تشتهر بالكثير من المعادن والأحجار كالفضة والزئبق وحجر الشادنة الذى يستعمل فى التذهيب . كما تكثر بها مقاطع الرخام الأبيض الناصع اللون والخمرى .

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٨ .

حوزته ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس ، واستقل له الأمر فيها »(٣) .

وقد عمل عبد الرحمن الداخل على إحاطة ملكه بهالة من الأبهة والفخامة يعيد به ملك آبائه وأجداده ، فزود حاضرته بالكثير من المنشئات والعمائر ، فقامت فيها حركة عمرانية لم تشهد لها نظيرا من قبل ، واتخذت مظهر المدن والعواصم الكبرى فيذكر المقرى : أنه لما تمهد ملكه شرع فى تعظيم قرطبة ، فجدد مغانيها ، وشيد مبانيها ، وحصنها بالسور ، وابتنى قصر الإمارة والمسجد الجامع ، ووسع فناءه ، وأصلح مساجد الكور(٤) ، ثم ابتنى مدينة الرصافة متنزها له ، واتخذ بها قصرا حسنا وجنانا واسعة ، نقل إليها غرائب الغراس ، وكرائم الشجر من بلاد الشام وغيرها من الأقطار .

ويقول فى موضع آخر « إن عبد الرحمن الداخل لما استقر أمره وعظم بنى القصر بقرطبة وبنى المسجد الجامع ، وأنفق عليه ثمانين ألف دينار ، وبنى قرطبة الرصافة تشبها برصافة جده هشام »(٥) .

ويبدو الطابع السورى فى تلك المنشآت التى أقامها عبد الرحمن الداخل بقرطبة فقد حاول أن يعيد ما طمس لآبائه وأجداده من معالم الخلافة ، وما درس من آثارها ، ويطعم الحضارة الأندلسية بالتقاليد السورية حتى تكون استمرارا للحضارة الأموية فى بلاد الشام .

(انظر : د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ص ١٥ وبعدها ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٩٣ وبعدها ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٥ — ١٦) .

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠ .

(٤) ذكر المقرى أن عدد مساجد قرطبة فى عهد عبد الرحمن الداخل بلغ ٤٩٠ مسجدا (نفح الطيب ج ٢ ص ٧٨) .

(٥) نفح الطيب ج ٢ ص ٨٣.

قصر الإمــارة (الخلافة) فى قرطبة :

عندما فتح المسلمون الأندلس نزل قادتهم ورؤساؤهم بالقصور التى كانت موجودة فى المدن المفتوحة ، وعندما فتح مغيث الرومى قرطبة أقــام فى قصر أميرها القوطى والمعروف ببلاط قرطبة . ورأى موسى بن نصــير أن هــذا القصر أنسب لأن يكون مقرا للوالى فأعطى مغيث « دارا شريفة ذات مسقى وزيتون وثمار يقال لها اليسانة كانت للملك الذى أسره وسميت بلاط مغيث »(٦) .

وتتــابع ولاة الأندلس فأقاموا فى قصر الإمارة بقرطبــة ، ونزل به عبد الرحمن الداخل وصار مقرا له ولأبنــائه ، ودخلت عليــه الكثير من الإضافات والزيادات ، وأصبح يعرف بالقصر الخلافى بعــد ذلك . ويقول عنه ابن بشكوال « هو قصر أولى تداولته ملوك الأمم وفيــه من المبــــانى الأولية ، والآثار العجيبة — لليونانيين ثم للروم والقوط والأمم السابقة — ما يعجز عن الوصف . ثم ابتدع الخلفاء من بنى مروان — منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيهــا — البــدائع الحسان ، وآثروا فيــه الآثار العجيبــة والرياض الأنيقة ، وأجروا فيــه الميــاه العــذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وتمونوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها إلى القصر الكريم ، وأجروها فى كل ســـاحة من ساحاته ، وناحية من نواحيه فى قنوات الرصاص ، تؤديها منها إلى المصــانع (الأبنية المختلفة) صــور مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه ... إلى البحيرات الهائلة ، والبرك البديعة ، والصهاريج الغريبة ، فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة » ويضيف ابن بشكوال قائلا : « وفى هــذا القصر القصاب العالية السمو ، المنيفة العلو التى لم يــر الراءون

---

(٦) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٢٤ .

مثلها فى مشارق الأرض ومغاربها »(٧) .

وقد وصف المقرى قصر قرطبة بقوله « ابتدع الخلفاء من بنى مروان — منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها — فى قصرها البدائع الحسان ، وآثروا الآثار العجيبة ، والرياض الأنيقة ، وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وتمونوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها إلى القصر الكريم ، وأجروها فى كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه في قنوات الرصاص تؤديها منها إلى المصانع صور مختلفة لأشكال من الذهب الإبريز ، والفضة الخالصة ، والنحاس المموه ، إلى البحيرات الهائلة ، والبرك البديعة ، والصهاريج الغريبة ، فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة ، وفى القصر القباب العالية السمو ، المنيفة العلو ، التى لم ير الراءون مثلها فى مشارق الأرض ومغاربها »(٨) .

ويبدو أن هذا القصر كانت له مناظر تطل على نهر الوادى الكبير والربض الجنوبى من قرطبة ، وانه قد أضيف إليه فى عهد عبد الرحمن الأوسط « الذى اتخذ القصور والمتنزهات ، وجلب إليها المياه من الجبال ، وجعل لقصره مصنعا اتخذه الناس شريعة »(٩) ولعله بنى القصر المسمى بالكامل أيضا(١٠) .

ويذكر ابن خلدون أن الحكم الربضى وعبد الرحمن الأوسط وابنه محمد قد اهتموا بتشييد المجالس (شبيهة بالاستراحات) فى هذا القصر ومنها المجلس الزاهر والبهو والكامل والمنيف . كما أضاف إليه الأمير عبد الله

(٧) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٦ ، جـ ٢ ص ١٠٢ .
(٨) نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٩ .
(٩) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٢٥ .
(١٠) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧٧ .

ابن محمد (٢٧٥ – ٣٠٠هـ) ففتح فيه بابا عند الركن القبلى سماه باب العدل كان يجلس فيه يوما فى الأسبوع لمباشرة أحوال المتظلمين بنفسه ، كما اقام ساباطا (طريقا مسقوفا) يصل بين القصر وجامع قرطبة المواجه له ، كما أن الناصر اضاف إليه إضافات كثيرة . حيث يذكر ابن عذارى أنه « لم يترك فى قصر الإمارة بنية إلا وترك فيها اثرا محدثا إما بتجديد أو بتزييد ، ومن هذه الاضافات بناء عرف بدار الروضة(١٢) بجوار المجلس الزاهر – الذى استقبل فيه سفير بيزنطة سنة ٣٣٨هـ – كما اسس الدار المعروفة باسم دار الرخام(١٣) .

ويغلب على الظن أن هذه المجالس أو القصور التى اقامها هؤلاء الأمراء فى قصر قرطبة القديم كانت ابنية جديدة على أجزاء من أنقاض القصر القديم .

وكان هذا القصر يضم قصورا أو مجالس داخلية منها – بالاضافة إلى ما مر ذكره – المجدد ، والحائر ، وقصر الوزراء ، والمعشوق ، والمبارك ، والرشيق ، والسرور ، والتاج ، والبديع ، والبستان(١٤) .

وكان لهذا القصر عدة أبواب منها باب السدة وهو الباب الرئيسى فى الناحية القبلية ، وباب قورية ، وباب الصناعة فى الناحية

---

(١١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١١٢ .

(١٢) لعلها سميت بذلك لأنها كانت تطل على تربة الخلفاء داخل القصر والمعروفة بالروضة . (انظر ابن حيان : المقتبس ص ٣ نشر ملثور أنطونيه) .

(١٣) ابن حيان : المقتبس ص ١٩٣ نشر د. عبد الرحمن الحجى . ويبدو أن السبب فى تسميتها بذلك هو استخدام الرخام فيها بكثرة .

(١٤) المقتبس ص ٢٣٠ نشر الحجى ، نفح الطيب جـ ٢ ص ١١٢ ، جـ ٢ ص ١٥٣ .

الشمالية ، وباب الجامع فى الناحية الشرقية وكان يدخل منه الأمراء يوم الجمعة . اما الجهة الغربية من القصر فلم يكن فيها ابواب حيث كانت تلها بساتين وروضات(١٥) . وقد تعرض هذا القصر للتخريب عقب دخـول البربر قرطبة سنة ٤٠٣هـ فيما يسمى بالفتنة البربرية(١٦) .

وبعد سقوط قرطبة فى يد الأسبان سنة ١٢٣٦م سمى بالقصر الأسقفى بدلا من القصر الخلافى ، ثم حوله الأسقف (دون سانشورى روخاس) فى القرن الخامس عشر إلى قصر من الطراز القوطى ، وتهدمت واجهتـه الجنوبية فى أوائل القرن السابع عشر ، ثم أحرق سنة ١٧٤٥م ولم يبـق منـه اليوم سوى الجدار المقـابل لجدار جامع قرطبة ، وجزء من الجدار الشمالى ، ويحتفظان بنظام جدران جامع قرطبة بما فى ذلك الركائز التى تدعمها(١٧) .

قصر الرصـــــافة :

كان عبد الرحمن يحن إلى قصور آبائه واجداده وخاصة رصـــافة جـده هشام(١٨) فاقام المنية المعروفة بالرصافة — على بعد ٢ كم —

---

(١٥) عنها بالتفصيل انظر : السيد سالم : قرطبة حـاضرة الخـلافة ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

(١٦) نفح الطيب : جـ ٢ ص ١٣ .

(١٧) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٢٦ .

(١٨) الرصافة : كان بعض الخلفاء الأمويين يتخذون قصورا لهم فى بادية الشام بعيدا عن العاصمة لقضاء بعض أوقاتهم فيها ومنها قصير عمرة الذى بنـاه الوليد بن عبد الملك ، وقصر المشتى الذى ينسب للوليد بن يزيد ، وقصر الحير الغربى الذى يقع على بعد اربعـين ميلا جنوب غربى تدمر ، وقصر الحير الشرقى الواقع على بعد ستين

=

شمال غربى قرطبة وبنى بها قصرا للتنزه والسكنى فيه فى بعض الأوقات ، وسماها بذلك نسبة إلى رصـــافة جــده هشام(١٩) .

يقول المقرى « فاتخذ بهـــا قصرا حسنا ، ودحا جنانا واسعة ، ونقل إليها غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية ، وأودعها ما كان استجلبه سفر بن زيد مولاه إلى الشام من النوى المختارة ، والحبرب الغريبة حتى نمت بيمن الجد وحسن التربية فى المدة القريبة أشجارا معتمة أثمرت بغرائب من الفواكه ، انتشرت عما قليل بأرض الأندلس فاعتــرف بفضلها عــلى أنواعها »(٢٠) .

وقد كان من أشهر الفواكه التى غرست فى منية الرصـــافة (الرمان السفرى) الذى وصفه ابن حيان بأنه « الموصوف بالفضيلة ، المقدم على

=

ميلا إلى الشمال الشرقى منها وأربعين ميلا من الرصافة . وقد أشار الطبرى إلى نزول هشام بهـــا وابتنائه قصرين فيها ولعلهما هذان القصران (قرطبة حاضرة الخلافة) (تاريخ الحضارة الاسلامية العربية ص ٥٠٢) . وأشار السيوطى إلى أن هشام قد بنى قصر الرصافة بقنسرين ليخلو فيه (تاريخ الخلفاء ص ٢٤٨) .

(١٩) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١٤ ، كما أقام ابنه عبد الله المعروف بالبلنسى ربضـــا ببلنسية سماه بالرصافة . ولعل هذه الرصافة التى أقامها عبد الله هى الولجة التى ذكرها ابن الأبار فى الحـــلة السيراء (انظر ج ٢ ص ١٢٧) وقد كان موضع منيـــة الرصافة التى أنشأها الداخل بستانا يعرف باسم (رينالش) ولا زال هذا الاسم يطلق على ضاحية سكنية على بعـــد ٥ كم شـــمال شرق قرطبــــة .

(٢٠) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٤ .

أجناس ، الرمان بعـــذوبة الطعم ، ورقة الحجم ، وغزارة المـــاء ، وحسن الصـــورة » .

ويذكر أن أم الأصبغ أخت عبد الرحمن الداخل قـــد أحضرت نوعا من الرمان من رصـــافة هشام بن عبد الملك بالشام ، وارســـلته إلى أخيها عبد الرحمن الداخل مع رسول له ، فعرضـــه عبد الرحمن على خواصـــه مزهوا به ، وكان من الحاضرين ســـفر بن زيد الكلاعى من جنـــد الأردن الذين قدموا الأندلس ، فأعطاه منـــه « فراقه حسنه وخبره ، فسار به إلى قربة بكورة رية ، فعالج عجمه ، واحتال لغرسه وغذائه وتنقيله ، حتى طلع شجرا أثمر وأينع ، فنزع إلى عرقه ، واغرب فى حسنه » ، ثم حمل بعض ثماره إلى عبد الرحمن ، فلما سأله عن مصدره ، أخبره بطريقته فى استنباطه ، فأعجب الأمير ببراعته وغرس منـــه فى منيته وغيرها ، فأدى ذلك إلى انتشار زراعته ، وغـــدا يعـــرف (بالرمان السفرى) نســـبة إلى ســـفر الكلاعى(٢١) .

كما أرسلت أم الأصبغ إلى أخيها شتلات من أشجار النخل فغرسها فى منيته بالرصافة . ويذكر أنه عندما نزل بهـــا لأول مرة شاهد نخـــلة أهاجت أشجانه ، وذكرته بموطنه الذى تركه فارا منه ، فقال مرتجلا :

تبدت لنا وسط الرصـــافة نخلة

تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهى فى التغرب والنوى

وطول التنائى عن بنى وعن أهلى

---

(٢١) نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٧ . ولا يزال هـــذا النوع من الرمان يعرف بهذا الاسم إلى اليوم فى أسبانيا (السفرى . Azifri) . (انظر دراسات فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ص ٣٨٤) .

نشات بارض انت فيهــا غريبــة
فمثلك فى الإقصاء والمنتهى مثلى
سقتك غوادى المزن من صوبها الذى
يسح ويستمرى السماكين بالوبل(٢٢)

وبقول أيضــا فيها :

يا نخــل انت غريبــة مثــلى
فى المغرب نائيــة عن الأصــل
فابكى وهـــل تبـــكى مكبسة
عجمــاء لم تطبــع على خبــل ؟
لــو انهــا تبــكى إذا لبــكت
مــاء الفــرات ومنبــتا النخــل
لكنهـــا ذهـــلت واذهـــلنى
بغضى بنى العباس عن أهلى(٢٣)

وكان عبد الرحمن يؤثر الجلوس فى عليــة بالرصافة لمشاهدة الجنان المحيطة بالقصر الذى انشأه بهــا ، وكان يحيط به سور له عــدة أبواب منها : باب الجبل الذى عرف بذلك فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحــمن الأوســط(٢٤) .

---

(٢٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ج ١ ص ٣٧ . وقد ذكر ابن الأبار : انه قيل إن هــذه الأبيات لعبد الملك بن بشر بن عبد الملك بن مروان قالها عنــد دخوله الأندلس فى صدر أيام الأمير عبد الرحمن الداخل والمشهور انها لعبد الرحمن كما فى الكثير من المصــادر .

(٢٣) الحلة السيراء ج ١ ص ٣٧ وقد ذكر أيضا أن هــذه الأبيــات لعبد الملك بن عمر بن الحكم ولكن نسبتها إلى عبد الرحمن الداخل اقوى كما ذكر ابن بشكوال أيضا (الحلة السيراء ج ١ ص ٣٧ — ٣٨) .

(٢٤) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٤ ، مؤلف مجهول : اخبار مجموعة فى فتح الأندلس : ص ١١٥ .

ويمكن أن نستنتج مما ذكره صاحب اخبار مجموعة : ان عبد الرحمن كان يلجأ إلى هذا القصر ايضا عندما كانت تواجهه مشكلة كبيرة ، وبخاصة من الثائرين والمتمردين. ففيه أمر بقتل وهب بن ميمون ، وابن سليمان الأعرابى ، وهذيل بن الصميل ، ومغيرة بن الوليد ابن اخته الذى ثار عليه وساعده هذيل ، كما حبس فى هذا القصر أيضا جماعة منهم كيحيى ابن يزيد بن هشام ، وعبيد الله بن أبان بن معاوية بن هشام وأعوانهما ، ثم أمر بقتلهم فيه ، وسحبت جثثهم إلى نهر قرطبة حيث صلبت أمام القصر(٢٥) .

وقد ظلت الرصافة من الأماكن الاثيرة لدى أمراء بنى أمية ، فزادوا فى عمارتها ، ونزلوا بها ، كما نزل بقصرها بعض ملوك الدول الأجنبية الذين قدموا إلى الأندلس ، مثل الملك اردون الرابع ملك قشتالة المخلوع الذى استعان بالخليفة الحكم المستنصر لاستعادة عرشه فوعده بذلك(٢٦) .

وقد وصف هذه الرصافة الكثير من الشعراء ، وظلت بعد سقوط الخلافة الأموية منتدى للأدباء ، وملتقى للشعراء ، يتبادلون فيها الأشعار .

ومن أمثلة ذلك قول قاسم بن عبود الرياحى :

اسقينها إزاء قصر الرصافة
واعتبر قليلا فى مآل الخلافة
وانظر الأفق كيف بدل ارضا
كى يطيل اللبيب فيه اعترافه(٢٧)

---

(٢٥) اخبار مجموعة ص ١١٠ — ١١٥ .

(٢٦) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٩ .

(٢٧) نفح الطيب ج ٢ ص ١٥ — ١٦ .

وبعد سقوط قرطبة فى يد الاسبان سنة ١٢٣٦م ، أصبحت منية الرصافة ، مقرا لجماعة الآباء الفرنسيسكان . وقد بقى منها إلى اليوم بعض آثار جدران وقاعات ، وفى جوف هذه الأطلال باب يؤدى إلى نفق فى باطن الأرض يقال : إن عبد الرحمن كان يرتاده كلما أراد أن يخلو بنفسه ، ويصل ما بين الرصافة وقرطبة ، وهناك آثار نخلة قديمة هرمة قد تآكلت أجزاء كثيرة منها ، وتداخلت فيها قطع الحجارة ، وبقايا أبنية قديمة يقال إنها نخلة عبد الرحمن الداخل ويطلق عليها نخلة عبد الرحمن(٢٨) .

قصر الدمشق :

ولم يكن قصر الرصافة هو الوحيد الذى أقامه عبد الرحمن الداخل بقرطبة ، واتضحت فيه التأثيرات الشامية (السورية) فهناك قصر آخر ذكره بعض المؤرخين ويعرف بقصر الدمشق ، ويغلب على الظن أنه من بناء عبد الرحمن أيضا ، وقد ذكر المقرى : أن هذا القصر شيد « بالصفاح والعمد ، وأبدع فى بنائه ، ونمقت ساحاته ، وكسيت سقفه بالزخارف المذهبة والمفضضة ، وأحيطت رياضه وجداوله فى ساحاته وأغنيته بأرضيات مرخمة » .

وقد أضاف إليه أمراء بنى أمية بعد ذلك وزخرفوه ، واتخذوه « ميدان مراحهم ومضمار أفراحهم » ، وقلدوا به قصور أجدادهم فى المشرق(٢٩) .

وقد ظلت أطلال هذا القصر قائمة فى عصر ملوك الطوائف ، وقد زاره الوزير الشاعر أبو بكر بن عمار وقال فيه :

---

(٢٨) د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٢ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١٩ ، (٦٤) ص ١٢٧ .
(٢٩) المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ١٩٠ ـ ١٩٢ .

كل قصر بعد الدمشق يذم
فيه طاب الجنى ولذ المشم
منظر رائق وماء نمير
وثرى عاطر وقصر أشم
بت فيه والليل والفجر عندى
عنبر أشهب ومسك أحم(٣٠)

قصر ابن الشالية :

ومن القصور التى تعود إلى العصر الأموى أيضا ، واقيم خارج قرطبة قصر عبيد الله بن أمية المعروف بابن الشالية وعنه يقول الشاعر عبيديس ابن محمود وكان كاتبا له :

قصر الأمير أبى مروان منتسخ
من جنة الخلد بالسراء معمور
فيه مجالس قد شيدت بلا عمد
بنيانها مرمر بالتبر مطمور(٣١)

وكان عبيد الله من كبار الثوار فى عهد الأمير عبد الله بن محمد ، واستطاع أن يسيطر على جبل شمنتان وما يليه من كورة جيان ، ومد نفوذه إلى حصن قسطلونة وغيره . وبنى المبانى الفخمة ، واتصل بعمر ابن حفصون زعيم ثورة المولدين فى ببشتر ، وصاهره بتزويج ابنته من

(٣٠) قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٣ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٢٧ .

(٣١) ابن حيان : المقتبس القسم الثالث ص ١١ تحقيق ملثور أنطونية ، دوزى : تاريخ مسلمى اسبانيا جـ ٢ ص ٢٦٣ ، فون شاك : الفن العربى فى أسبانيا وصقلية ص ٦١ .

جعفر ولد ابن حفصون . حتى تم القضاء على ثورته فى عهد الخليفة الناصر(٣٢) .

وفى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط بدأت معالم الحضارة الأندلسية تتضح شيئا فشيئا ، وشهدت قرطبة العاصمة سيلا من التأثيرات المشرقية فى الفنون والآداب والعلوم . وكان عبد الرحمن « أول من فخم السلطنة بالأندلس ، فنظم الشرطة ، وميز ولاية المدينة عن ولاية الأسواق ، واحدث بقرطبة دار السكة ، وضرب الدراهم باسمه لأول مرة منذ دخل المسلمون الأندلس ، وأول من اتخذ للوزراء بيتا للوزارة فى قصره واتخذ القصور والمتنزهات ، وأحدث الطرز ، وكسا الإمارة ابهة الجلالة »(٣٣) .

وقد تشبه عبد الرحمن بجده الداخل ، بل وفاقه فى بناء القصور ، وأسرف فى الإنفاق عليها ومنها : البهو والكامل والمنيف ، ويصف عباس ابن فرناس ما رآه فيها من فخامة وترف فيقول :

حنايا كأمثلة الأهلة ركبت
على عمد تعتد فى جوهر البدر
كأن من الياقوت قيست رءوسها
على كل مسنون مقيض من السدر
ترى الباسقات الناشرات فروعها
موائس فيها من مداولة الوقر

---

(٣٢) انظر : ابن الأبار : الحلة السيراء ج ١ ص ٢٣٠ — ٢٣١ ترجمة رقم ٨٩ .

(٣٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٢ ، ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٤٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٣٦ ، ابن الخطيب : اعمال الأعلام ص ٢٠ .

كان صناعا صاغ بين غصونها
من الذهب البادى عراجين من تمر
نشت لؤلؤا ثم استحالت زمردا
يؤول إلى العقيان قبل جنى البسر

وهـذا شاعر آخر يصف أحد هـذه القصور فيقول :

ومن عمد تزهى بماء محاسن
يصوب عنه كل طرف مصعد
حكت حمرها الياقوت والدر بيضها
ومن خضرها اشتق اخضرار الزبرجد
يجول السنا فيها مجال الشعاع فى
صفيحة سيف الصيقل المتقلد
عشيق ومعشوق وبهو زاهر
إلى كامل فى حسنه ومجدد(٣٤)

اما فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر فقد وصلت قرطبة إلى الذروة ، حيث كثرت حركة التشييد والبناء بها ، وبلغت مستوى من التقدم والازدهار لم تبلغه أى حاضرة اخرى فى الأندلس من قبل ، بل إننا لا نبالغ عندما نقول : إنها صارت أعظم مدن العالم بعد القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، وقد شهد لها الرحالة الشيعى ابن حوقل — برغم ما عرف عنه من عداء للأمويين — فقال : « هى أعظم مدينة بالأندلس ، وليس بجميع المغرب لها عندى شبيه فى كثرة أهل ، وسعة محل ، وفسحة أسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق »(٣٥) .

---

(٣٤) الكتانى : التشبيهات ص ٧٠ — ٧٨ .
(٣٥) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٨ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٨ .

وقد شهدت قرطبة فى عهد الناصر عصرا من الرخاء والازدهار والعمران لم تشهده حاضرة من قبل . وقد كان الناصر شغوفا بالبناء والعمران ، وساعده فى ذلك ما وصلت إليه جباية الأندلس وخراجها فى عهده من كثرة واتساع ، فجعل ثلثها للبناء والعمران(٣٦) . وينسب إليه انه قال :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم
ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم قدره
أضحى يدل على عظم الشان(٣٧)

ولذلك يقول ابن عذارى عنه إنه « أسس الأسوس ، وغرس الغروس ، واتخذ المصانع والقصور ، ولم يبق له فى القصر الذى هو من مصانع أجداده ، ومعالم أوليته بنية إلا وله فيها أثر محدث إما بتجديد أو بتزييد »(٣٨) .

ويقول ابن خلدون : « ولما استفحل الملك للناصر صرف نظره إلى تشييد القصور والمباني »(٣٩) .

---

(٣٦) يذكر المقرى أن جباية الأندلس بلغت فى عهد الناصر خمسة آلاف ألف ألف دينار ، وأربعمائة ألف ألف وثمانين الف دينار ، ومن السوق المستخلصة سبعمائة ألف دينار وخمسة وستون ألفا (نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٥) .

(٣٧) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٣ .

(٣٨) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٣٩) العبر جـ ٤ ص ١٤٤ ، وانظر المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٠ .

مدينـــة الزهـــراء :

ويمكن أن نقسم المدن الإسلامية فى الأندلس إلى نوعين

الأول : المدن السابقة على الفتـــح والتى نزل بهـــا المسلمون مثـــل قرطبـــة وإشبيلية وغيرها .

والثانى : المدن التى أسسها المسلمون بعـــد الفتح ، واستقروا بهـــا وصبغوها بالصبغة العربية والإسلامية ، وهـــذه المدن تنقسم إلى قسمين أيضـــــا :

١ ـــ مدن حربية أو عسكرية : مثل مدينة قلعة رباح ، وقلعة أيوب ، وحصن القصر ، وحصن الفرج ، ومدينة القلعة ، ومدينة القليغة وغيرها .

٢ ـــ مدن أميرية يبنيها الأمراء والخلفـــاء للراحة والاستجمام وأحيانا للإقامة مثل مدينة الزهراء التى بناها الناصر ، ومدينة الزاهرة التى بناها المنصور بن أبى عامر(٤٠) .

ويهمنا فى هـــذا المقـــام الحديث عن هـــذا النوع الأخير ونخـــص بالذكر مدينتى الزهراء والزاهرة .

اما الزهراء فإن تاريخ بنائها يحيط به نوع من القصص أقـــــــرب إلى الأساطير حيث ذكر المؤرخون فى سبب بنائها : أن الناصر قـــد ماتت له جـــارية تركت مـــالا كثيرا ، فأمر بأن يفتـــدى بذلك المـــال أســـرى المسلمين لدى الفرنج فلم يوجـــد لديهم أسرى . فطلبت منـــه جارية لـــه تدعى الزهراء ـــ وكان مغرما بهـــا ـــ أن يبنى لها بهذا المـــال مدينـــــة ويسميها باسمها ، فاستجاب لذلك وأخـــذ فى بنـــاء المدينة سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٦م تحت جبل العروس شمال قرطبة على بعـــد ثلاثة أميال أو نحـــو ذلـــك(٤١) .

---

(٤٠) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٢٦ .
(٤١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٥ .

والواقع ان الناصر كان محبا للبناء والعمران بطبعه ، ويرى ان البناء إذا تعاظم قدره اضحى يدل على عظيم الشأن كما قال ، وانه احد أسباب تخليد ذكرى الإنسان . فرأى ان يؤسس ضاحية خلافية يقيم فيها قصرا يليق بجلال الخلافة وبهائها ، خاصة وانه قد تلقب بلقب الخلافة منذ وقت قصير سنة ٣١٧هـ(٤٢) .

ويبدو أن قصة الجارية إنما هى محض خيال من ابتكار المؤرخين العرب الذين يريدون ان يجعلوا لكل تسمية أصلا ، ويحبكون القصة حتى تبدو حقيقية ، فيذكرون انه نقش صورة هذه الجارية فى تمثال وضعه على باب المدينة مبالغة فى حبه لها ، وحقيقة الأمر ان هذا التمثال لا يعدو أن يكون احد التماثيل الرومانية التى نصبت على احد أبواب المدينة تقليدا لتمثال على هيئة امرأة وضع على باب القنطرة بقرطبة ، والذى عرف بباب الصورة أو باب العذراء(٤٣) .

أما اسم المدينة فإنه نسبة إلى القصور الزاهرة التى اسسها الخليفة فى هذه المدينة ، أو نسبة إلى الأزهار حيث غرس الأشجار والأزهار

---

(٤٢) يذكر د. حسن ابراهيم : ان عبد الرحمن الناصر لما وطد دعائم ملكه ، ووحد بلاد الأندلس واصبح خليفة فكر فى بناء مدينة يتخذها حاضرة لخلافته ، مقتديا فى ذلك بأبى جعفر المنصور عندما بنى بغداد سنة ١٤٥هـ ، وعبيد الله المهدى حين بنى المهدية سنة ٣٠٣هـ ، والمعز لدين الله حين بنى مدينة القاهرة فيما بعد . وإذا كان للناصر ان يتمثل بالمنصور والمهدى ، فكيف يتأتى له ان يقتدى بالمعز ، والقاهرة لم تنشأ إلا سنة ٣٥٨هـ ؟ وهو قد بدأ بناء الزهراء سنة ٣٢٥هـ ! (انظر تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٤٧٠) .

على جبل قرطبة التى تقع المدينة على سفحه ، وخاصة أشجار التين واللوز(٤٤) .

وقد بدأ الناصر فى بناء هذه المدينة فى المحرم سنة ٣٢٥هـ ، على بعد خمسة أميال تقريبا إلى الشمال الغربى من قرطبة(٤٥) .

وقد كلف الناصر عبد الله بن يونس عريف البنائين ، وحسن القرطبى ، وعلى بن جعفر الاسكندرانى بجلب الأعمدة والرخام إليها . وكان يصلهم على كل رخامة بثلاثة دنانير ، وعلى كل سارية بثمانية دنانير سجلماسية كما ذكر ابن عذارى ، أو بعشرة دنانير على كل رخامة كبيرة أو صغيرة كما ذكر المقرى ، فجلبوا لها الرخام الأبيض من المرية ، والرخام المجزع من رية ، والوردى والأخضر من قرطاجنة وإصفاقس . وكان يورد إليها من الجير والجص ألف ومائة حمل كل ثلاثة أيام .

وقد ذكر ابن عذارى : أنه كان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنجور ستة آلاف صخرة ، سوى التبليط فى الأساس ، وأن عدد السوارى التى جلبت لها بلغ (٤٣١٣) سارية ، جلب منها (١٠١٣) سارية من إفريقية ، وأهدى ملك الروم للناصر (١٤٠) سارية ، والباقى من رخام الأندلس من طركونة وغيرها .

وذكر أنه كان يعمل فيها كل يوم من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل ، ومن الدواب ألف وخمسمائة دابة ، وكان المشرف على البناء الحكم ابن الناصر . واستمر العمل فى بنائها بقية عهد الناصر وعهد

---

(٤٣) ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس ص ٦١ .
(٤٤) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .
(٤٥) ذكر المقرى أن المسافة بين الزهراء وقرطبة أربعة أميال وثلث ، وطولها من الشرق إلى الغرب (٢٧٠٠) ذراع ، وعرضها (١٥٠٠) ذراع ، وعدد سواريها (٤٣٠٠) سارية ، وأبوابها تزيد على ١٥ ألف باب (نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥) .

ابنه الحكم إلى سنة ٣٦٥هـ أى نحو أربعين سنة(٤٦) .

وقد بنيت الزهراء على سفح جبل العروس (جبل قرطبة) ، وكانت تشتمل على ثلاث مستويات متدرجة فى البناء كما يتبين من وصف الإدريسى لهـا حيث قال « وهى فى ذاتهـا مدينـة عظيمة مدرجة البنية ، مدينـة فـوق مدينـة ، سطح الثلث الأعلى يوازى الجـزء الأوسط ، وسطح الثلث الأوسط ، يوازى الثلث الأسفل ، ولكل ثلث منها سور . فكان الجزء الأعلى منها قصورا يعجز الوصف عن صفاتها ، والجزء الأوسط للبساتين والروضـات ، والجزء الثالث للديار والجوامع »(٤٧) .

وقد جلب الناصر من القسطنطينية حوضـا من الرخـام منقوشـا بالذهب ، وعليه رسوم بارزة ، ونصـبه فى بيت المنـام بالقصر الشرقى بالمدينة ، الذى عرف بقصر المؤنس ، وأقام عليـه اثنى عشر تمثـالا من الذهب الأحمر المرصع بالدر النفيس المصنوع بدار الصناعة بقرطبة(٤٨) .

كما أقام الناصر فى المدينـة القصر الخـلافى والذى عرف بالمجلس الزاهر ، وكان آية فى الترف . فقـد ذكر أنه اتخـذ فيه قبة قراميدها من الذهب والفضـة أنفق فيها مالا كثيرا ، وجعل فى وسطه صهريجا عظيما مملوءا بالزئبق ، إذا سطعت عليـه أشعة الشمس أحدثت نورا وبريقـا يخطف الأبصـار ، ويأخذ بمجامع القلوب حتى ليخيل للناظر أن المجلس يتحرك ، وقيل إن الناصر كان إذا أراد أن يفزع أحـدا من أهـل مجلسه أومأ إلى أحـد الصقالبة ، فيحرك ذلك الزئبق ، فيظهر فى المجلس لمعان

---

(٤٦) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣١ ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٤ — ٢٦٦ .
(٤٧) صـفة المغرب والأندلس (من كتاب نزهة المشتاق) ص ٢١٢ .
(٤٨) انظر المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٦ ، ابن عذارى : البيـان المغرب جـ ٥ ص ٢٣١ .

كالبرق . وقيل إن هـــذا المجلس كان يدور ويستقبل الشمس اينما دارت ، وهـــذا من قبيل مبالغات المؤرخين .

وكان فى كل جانب من جوانب هـــذا القصر ثمانية ابواب قد انعقدت على حنايا قائمة على أعمدة من الرخام الملون والبلور الصافى ، وقد رصعت هـــذه الحنـــايا بالذهب وأصناف الجواهر . إلى غير ذلك من الأوصـــاف التى تحمل فى طياتها كثيرا من المبالغة(٤٩) .

كما بنى إلى جانب المجلس الزاهر قصرا سماه (دار الروضة) . كما أخـــذ فى بنـــاء المتنزهات ، فاتخـــذ منية الناعورة خـــارج القصور ، وســـاق إلى هـــذه القصور والمنيـــات المـــاء من أعلى الجبل على مسافة بعيـــدة . ويصف ابن خلدون ما أنشأه الناصر فى مدينة الزاهرة فيقول : « وانشأ فى مدينة الزاهرة من المبـــانى والقصور والبساتين ما عفا على مبانى من سبقه ، واتخذ فيها دورا فسيحة للوحوش متباعدة الســـياج ،

---

(٤٩) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ — ٢٤٧ . ويذكر النباهى : ان النـــاصر لمـــا بنى هـــذه القبة جلس فيها وقال لمن حوله « هل رأيتم أو سمعتم ملكا فعل مثل هـــذا ، أو قـــدر عليه ؟ فقالوا : لا يا أمير المؤمنين » وبينما هو كذلك فى غبطة وسرور دخل عليه القاضى منذر بن سعيد البلوطى فقـــال له : والله يا أمير المؤمنين ما ظننت ان الشـــيطان يبلغ منك هـــذا المبلغ ؟ فقال الناصر غاضبا : انظر ما تقول . قال : أليس الله يقول (**ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضـــة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون ، وزخرفا وإن كل ذلك لمـــا متاع الحياة الدنيـــا والآخرة عنـــد ربك للمتقين**) .

فوجم الناصر وأطرق مليـــا ثم بكى ، ودعـــا للقاضى بخير ، وقام عن مجلسه وأمر بنقض سقف هـــذه القبة ، وجعل قراميدها من التراب (نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٨ — ١١٠) .

ومسارح للطيور مظللة بالشباك » ، كما بنى الناصر بها أيضا دورا لصناعة الآلات من السلاح والحلى وغير ذلك(٥٠) .

وكانت هناك بحيرة بالقصر تربى فيها الحيتان ، وكان طعامها فى كل يوم ثمانمائة خبزة ، وقيل اثنى عشر الف خبزة ، وينقع لها من الحمص الأسود ستة أقفزة فى كل يوم(٥١) .

قصر منية الناعورة :

كما أنشأ الناصر فى منية الناعورة(٥٢) غربى قرطبة قصرا له نسب.

---

(٥٠) العبر جـ ٤ ص ١٤٤ .

(٥١) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٥ — ٢٦٦ ، بينما يذكر ابن عذارى أنه كان يخبز كل يوم برسم حيتان البحيرات ١٨ الف خبزة ويعلق على ذلك قائلا « وهذا من أعظم الأشياء » (البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣١) .

(٥٢) سميت بذلك نسبة للناعورة (الساقية) التى كانت ترفع المياه إلى بساتينها (قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ص ٢٠٣) ، وكانت منية الناعورة فى بداية الأمر ارضا تقع على شاطىء نهر قرطبة بجوار مصلى فحص المصارة العتيق ، اشتراها الأمير عبد الله أيام والده محمد بن عبد الرحمن الأوسط بما حولها من المزارع من رجل يسمى خليل البيطار سنة ٢٥٣هـ « فأنشأها منية عجيبة ، واسعة الخطة ، ارادها للفرجة ، وأوسع خطتها ، وأكثر غراساتها ، واقتصد مع ذلك فى الانفاق عليها » وكانت بساتينها تسقى من نهر قرطبة بواسطة النافورة ولذلك سميت بها ثم انتقلت ملكيتها لعبد الرحمن الناصر ، فاقام بها هذا القصر ، وأجرى له الماء العذب من جبل قرطبة فى جسر أو قناة على حنايا معقودة استغرق بناؤها أربعة عشر شهرا ، وكان اثيرا لديه يقصده للراحة والنزهة ، وخاصة بعد عودته من الغزوات ،

إليها فى سنة ٣٢٩هـ « وأجرى له المـاء العـذب من جبل قرطبة فى قناة يجرى ماؤها بتدبير عجيب ، وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة عليها أسـد عظيم الصورة بديع الصنعة ، يجوز المـاء إلى عجزه فيمجه بفمه فى تلك البركة فيسقى جنان القصر على سعتها » كما ذكر المقرى(٥٣) .

وقد ذكر ابن عذارى : أن عدد الدور التى كانت تضمها مدينة الزهراء ١١٣ الف دار للرعية ، بخـلاف دور الوزراء والكبراء . وهـذا دليل على انتقال الكثير من الناس إليها من قرطبة ، وخاصة بعـد أن اتخذها الناصر مقرا جديدا للخـلافة . هـذا بخلاف عـدد دور القصر الخـلافى وتبلغ اربعمائة دار لسكنى الخليفة وحاشيته وأهل بيته ، وذكر أن عـدد الفتيان الصقالبة فى القصر بلغ ٣٧٥٠ فتى ، وعدد النساء من الجوارى والخـدم بلغ ٦٣٠٠ امراة ، وانه كان يصرف لهم من اللحم فى كل يوم ١٣ الف رطل سوى الطيـور والأسماك(٥٤) .

وقد بالغ المؤرخون والرحالة فى وصف قصور الزهراء ، وما احتوته من مظاهر الثـراء والتـرف بأوصـاف لا يصـدقها العقل فى كثير من الأحيـان .

غير أن ما أسفرت عنه الحفائر الأثرية التى أجريت فى موضع هـذه

وفيـه نزل الملك أردون الرابع ملك قشـتالة لمـا قـدم يستنجد بالمستنصر لرده إلى عرشه سنة ٣٥١هـ (انظر : المقتبس ص ٣٨ تحقيق ملثور انطونيه ، البيان المغرب جـ ٢ ص ٣٠٢ ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٤) .

(٥٤) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣١ هـذا بينما يذكر المقرى أن عـدد الفتيان الصقالبة بالزهراء ١٣٫٧٥٠ ، وعـدد النسـاء ٦٣١٤ ، وقيل عـدد الصبيان الصقالبة ٣٧٥٠ أو ٣٧٨٧ أو ٦٠٨٧ (انظر نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٥) .

المدينة قد اثبتت صدق كثير من هذه الأوصاف إلى حد كبير(٥٥) .

وما كاد عبد الرحمن الناصر ينتهى من بناء قصور الزهراء ، حتى شرع فى إقامة الأسواق والحمامات والخانات والمتنزهات بها ، وشجع الناس على السكنى فيها . ويذكر أنه أمر مناديه بالنداء فى جميع أقطار الأندلس أن من يبنى بها دارا ، أو يتخذ بها مسكنا فله أربعمائة درهم معونة « فتسارع الناس إلى العمارة ، وتكاثفت الأبنية ، وتزايدت فيها الرعية »(٥٦) .

وقد أدى ذلك إلى هجرة الكثيرين إليها حتى ازدحمت بالسكان ، وامتد العمران خارجها فى الطريق الممتد بينها وبين قرطبة حتى كادت الأبنية تتصل بينهما . وتوفى الناصر قبل أن يتم بناء المدينة بأكملها ، فأخذ ابنه الحكم المستنصر فى إكمالها . ولكن لم يتح لهذه المدينة الفخمة أن تنعم بالحياة والازدهار طويلا ، حيث شرع المنصور بن أبى عامر فى بناء مدينته الزاهرة سنة ٣٦٨هـ لمنافسة الزهراء فسلب منها الكثير من مظاهر النشاط والازدهار ونقل منها الدواوين ، وبيت المال ، والخزائن ، وغير ذلك ، حتى جاءت الفتنة البربرية فى بداية القرن الخامس لتعصف بحياتها مع الزاهرة ، ولم يتجاوز عمرها نحو ثلاثة أرباع قرن — وقد ندبها الكثير من الشعراء ومنهم السميسر الألبيرى الذى يقول :

وقفت بالزهراء مستعبرا معتبرا أندب أشتاتا

---

(٥٥) انظر عن هذه الحفائر : الفن العربى فى اسبانيا وصقلية ملحق رقم ٣ ص ٢٠٨ وبعدها ، د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ٢٥٦ — ٢٥٧ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٤١٠ — ٤١١ .

(٥٦) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٠٧ ، المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ١١٢ .

فقلت يا زهــرا الا فارجعى   قالت وهل يرجــع من ماتا ؟
فلــم ازل أبكى وأبكى بهــا   هيهات يغنى الدمع هيهــاتها

وأبو الحزم بن جهور الذى زارها يوما ووقف على أطلالها فقال :

قلــت يوما لــدار قــوم تفــانوا
اين ســكانك العــزاز علينــا
فاجــابت هنــا اقــاموا قليــلا
ثم ساروا ولست اعلم أينــا(٥٧)

مدينــة الزاهــــرة :

بعــد وفاة الخليفة الحــكم المستنصر ، وتولى ابنه هشام مقاليــد الخلافة وكان لا يزال غلاما فى العاشرة من عمره ، تولى محمد بن أبى عامر الملقب بالمنصور الحجابة له ، وأخــذ نفوذه فى الازدياد ، وســيطر على مقــاليد الأمور فى الأندلس ، وحجر على الخليفة الصغير بعــد أن تخلص من منافسيه .

وأراد أن يسجل ما وصل إليه من نفــوذ وسلطان فأقام على نهــر الوادى الكبير بالقــرب من قرطبــة قصرا له كان نواة لمنيته التى سميت بالزاهرة ، وغدت منافسة لمدينــة الزهــراء التى بدأها النــاصر وأكملها المستنصر .

ويعبر الفتح ابن خاقان عن ذلك بقوله « عندما استفحل أمره ، واتقد جمره ، وظهر استبداده ، سما إلى ما ســمت إليــه الملوك من اختــراع قصر ينزل فيه ، ويحل به أهــله وذويه ، ويضم إليــه رياسته ، ويتــم به تدبيره وسياسته ، ويجمع فيه فتيــانه وغلمانه » .

---

(٥٧) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٦٦ ، تاريــخ المســلمين وآثــارهم ص ٤١٠ .

كما يذكر المقرى أيضا أنه « بنى على طريق المباهاة والفخامة مدينة العامرية ذات القصور والمتنزهات المخترعة كمنية السرور وغيرها من مخترعاته العجيبة »(٥٨) .

وهناك عامل آخر فى بناء المنصور للزهراء واتخاذها مقرا له وهو خشيته على نفسه من دخول قصر الخليفة هشام بعد أن حجر عليه ، واستبد بالأمر من دونه ، وكثر حساده ومنافسوه وخصومه(٥٩) .

وقد شرع المنصور فى بناء هذه المدينة سنة ٣٦٨هـ ، فحشد لها العمال والفعلة ، وجلب لها ما تحتاج إليه من مواد البناء ، وبدأ العمال فى تسوية ارضها تمهيدا للبناء . وقد وسع المنصور فى تخطيطها ، فامتدت رقعتها امتدادا كبيرا ، وسورها بأسوار عالية ، وفتح فيه عدة ابواب منها باب الفتح ، وباب السباع ، وباب الجنان .

وقد استغرق البناء فيها مدة عامين حيث انتقل إليها المنصور سنة وامتعته ، واتخذ فيها الدواوين ، وعمل داخلها الأهراء (مخازن الغلال) ، وأطلق بساحتها الأرحاء ، ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه ، وقواده وحجابه ، فابتنوا بها كبار الدور ، وجليلات القصور واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة ، والمنازة المشيدة ، وقامت بها الأسواق وكثرت فيها الأرفاق ، وتنافس الناس فى النزول بأكنافها ، والحلول بأطرافها للدنو من صاحب الدولة ، وتناهى الغلو فى البناء حولها ، حتى اتصلت أرباضها

---

(٥٨) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٣ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٩٩ .

(٥٩) د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ص ٢٥٨ .

بأرباض قرطبة »(٦٠) .

وقد أدى إنشاء الزاهرة إلى فقدان الزهراء لمكانتها ، فقد أخذ الكثيرون من أهلها فى الرحيل عنها إلى الزاهرة ، ليكونوا بالقرب من صاحب النفوذ والسلطان .

وكان المنصور قد رتب جلوس الوزراء والكبراء والشيوخ بها ، وندب إليها أرباب الخطط ، وجعلها مقرا للشرطة ، وعين عليها واليا على نحو ما كان معمولا به فى الزهراء وقرطبة ، كما اقام بها مسجدا جامعا لتكتمل جميع مرافقها ، وتصبح مدينة مستقلة بذاتها ، وهكذا حلت محل الزهراء وأصبحت قاعدة الحكم ومركز السلطنة بالرغم من وجود الخليفة فى الزهراء . فقد كانت تصل إليها الضرائب والجبايات ، ويقصدها الولاة والحكام وطلاب الحاجات ، وغدت مركزا للاحتفالات السياسية الكبرى ، ومكانا لاستقبال الملوك والأمراء الأجانب . فقد استقبل فيها المنصور سنة ٣٨٢هـ شانجة (سانشو) ملك بنبلونة — الذى أهدى للمنصور ابنته فتزوجها وولدت منه عبد الرحمن المعروف بشنجول — استقبالا حافلا .

كما استقبله عبد الملك بن المنصور سنة ٣٩٤هـ ، واستقبل عبد الملك أيضا الخليفة هشام المؤيد فيها سنة ٣٩٨هـ بعد أن أعد له نزهة فيها(٦١) . وقد اتسع عمران الزاهرة شيئا فشيئا وتزايد فيها البناء وأقيمت فيها المنيات والمتنزهات ، والبساتين والرياض إلى جانب القصور .

---

(٦٠) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٤١٠ ، المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ١١٣ .

(٦١) المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ١٤٦ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٧٣ ، ٨٨ .

ومنها قصر ناصح ، وقصر الزاهى الـذى كسيت جدرانه بالمرمر ، واجريت فيـه المياه والغدران التى تحف بهـا الأشجار والأزهار ، وقصر الحاجبية الذى أقامه المظفر إلى جانب المدينة خارج السور(٦٢) .

ومن منياتها : منيـة السرور ذات الحسن النضير ، وهى جامعة بين روضـة وغـدير(٦٣) وذات الواديين ، ومنيـة أرطـانية ومنيـة اللؤلؤة(٦٤) .

ومن أشهر المنيات منية العامرية أو منية المنصور(٦٥) التى كان يقضى بهـا الكثير من أوقاته مع خاصته . وقد احتفى بهـا الكثير من الشعراء ، بسبب سـحر حدائقها ومنهم ابن أبى الحباب الشاعر ، الذى دخل على المنصور فى منيته « والروض قـد تفتحت أنواره ، وتوشحت أنجـاده وأغواره ، وتصرف فيها الدهر متواضعا ، ووقف بهـا السعد خاضعا » . ووقف على روضـة فيها ثلاث سوسنات تفتحت اثنتان منهما دون الثالثة فقـال :

---

(٦٢) البيان المغرب جـ ٣ ص ٦٢ .

(٦٣) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٨٩ — ٢٩٠ .

(٦٤) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٩٩ ، ص ٣٠٠ .

(٦٥) أسسها المنصور سنة ٣٦٩ إلى جـانب مدينة الزهـراء وحاطهـا بالرياض والجنان وأجرى فيها قنـاة تنساب ملتوية كالثعبان بـين بساتينها وعلى ضفتيها تكثر الأشجار ، وتقـع آثارها اليوم على بعد ثلاثة كم من مدينة الزهراء وتسعة كم غربى قرطبة (انظـر البيان المغرب جـ ٢ ص ٤١٤ ، نفح الطيب جـ ٢ ص ١١٥ ، قرطبة حاضرة الخلافة ص ٢١٣) .

لا يوم كاليوم فى ايامنـا الأول

بالعامرية ذات المـاء والظـل

هواؤها فى جميع الدهر معتـدل

طيبـا وإن حـل فصل غير معتدل

ما إن يبالى الذى يحتل ساحتها

بالسعد الا تدل الشمس فى الدول

كأنما غرست فى ساعة وبدا السوسان من حينه فيها على عجل

ابدت ثلاثا من السوسـان مائلة

أعنـاقهم من الإعيـاء والكسـل

فبعـض نوارها للبعـض منفتـح

والبعض منغلق عنهن فى شـغل

كأنهـا راحـة ضمت اناملهـا

من بعد ما ملئت من جودك الخضل

واختهـا بسـطت منهـا اناملها

ترجو نداك كما عودتها فضل(٦٦)

ويذكر ابن سعيد أن ابن العريف النحوى دخـل على المنصور بهـا وعنـده صاعدا البغدادى فقال منشدا :

فالعـامرية تزهى على جميع المبـانى

وانت فيها كسيف قد حل فى غمدان(٦٧)

فقام صاعد وكان منافسا له فقال : اسعد الله تعالى الحاجب الأجل ، ومكن سلطانه . هـذا الشعر الذى قاله قـد أعده وروى فيـه ، اقـدر

---

(٦٦) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٧٧ .

(٦٧) غمدان : قصر سيف بن ذى يزن باليمن .

ان اقول احسن منـــه ارتجالا فقال له المنصور : قل ليظهر صدق دعـ واك فقـــال :

يا أيها الحـــاجب المعتـــلى على كيوان
ومن به قـــد تناهى فخـــار كل يمان
العـــامرية أضـــحت كجنـــة الرضوان
فريـــــدة لفـــــريد ما بين أهل الزمان

ثم قـــال فى وصـــفها :

انظـــر إلى النهـــر ينســـاب كالثعبان
والقضب تلتف سكرا على ذرا الأغصان
والطير يخطب شكرا بميس القضـــبان
والروض يفتر زهوا عن مبسم الأقحوان
والنرجس الغض يرنو بوجنـــة النعمان
وراحة الريح تمتـــا ر نفحة الريحان
فـــدم الدهر فيهـــا فى غبطـــة وأمان(٦٨)

وفى منيات الزاهرة وقصورها يقول صاعد البغدادى اللغوى :

اما ترى العين تجرى فوق مرمرها
زهوا فتجرى على احفافها الطربا
اجـــريتها فطمـــا الزاهى بجـــريتها
كما طموت فسدت العرب والعجما
تخال فيه جنود المـــاء رافـــلة
مستلئمات تريـــك الدرع والقلبـــا

---

(٦٨) نفح الطيب جـ ١ ص ٤٨٤ ، ٥٨٢ .

تحفها من فنون الأيك زاهرة
قد أورقت فضة إذ أورقت ذهبا
بديعة الملك ما ينفك ناظرها
يتلو على السمع منها آية عجبا
لا يحسن الدهر أن ينشى لها مثلا
ولو تعنت فيها نفسه طلبا(٦٩)

وكان يكثر فيها النرجس والياسمين والبنفسج وقد وصف الوزير الجزيرى مجلسا للمنصور فيها فقال :

وتوسطتها لجة فى قصرها
بنت السلاحف ما تزال تنفنق
تنساب من فكى هزبر إن يكن
ثبت الجنان فإن فاه أخرق
صاغوه من ند وخالق صفحتى
هادية محض الدر فهو مخالق
للياسمين تطلع فى عرشه
مثل المليك عراه زهو مطرق
ونضائد من نرجس وبنفسج
وجنى خيبرى وورد يعبق
ترنو بسحر عيونها وتكاد من
طرب إليك بلا لسان تنطق
وعلى يمينك سوسنات أطلعت
زهر الربيع فهن حسنا تشرق

---

(٦٩) البيان المغرب جـ ٢ ص ٤١٤ ، نفح الطيب جـ ٢ ص ١١٥ .

كما أنشد الشاعر الجزيرى على لســان النرجس فيهـا مخـاطبا المنصـور :

حيتك يا قمـر العـــلا والمجلس

أزكى تحيتهـا عيـون النـــرجس

زهــــر تريك بحســنها وبلونهـا

زهر النجوم الجاريات الكنس(٧٠)

وإذا كانت حياة الزهراء قد امتدت نحو سبعين عاما ، فإن حيـاة الزاهرة لم تبلغ نصف هــذه المدة ، حيث ثار العـامة على عبد الرحمن شنجول ســنة ٣٩٩هـ وهاجموها ونهبوها وهدموا مبانيها ومحوا رسومها ، فخربت وتلاشى أمرها وصارت كأمس الدابر ، وكانت كارثتها أعظم من الزهراء ، حيث أن موجــة التخريب ضــدها كانت أشد وأعنى نكاية فى العـامريين .

وذكر أن بعض ما نهب منها بيع فى العراق وغيرها من بلاد المشرق . ويروى ابن عــذارى : أن العــامة نهبــوا ما كان فيهــا من الأمــوال والســلاح والخــزائن والأمتعة والآلات السلطانية ، حتى اقتلعت الأبواب الضخمة وغيرها مما حوته القصور ، وصارت تباع بكل جهة .

ثم أمر محمد بن هشام بن عبد الجبار الأموى بهدمها ، وقلع أبوابها ، وتحطيم أسوارها ، وتشعيث قصورها ، وأضرمت النيران فيها حتى طمست معالمها ، وأعاد العاصمة إلى قرطبة(٧١) .

---

(٧٠) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٧٠ ، ٧١ .

(٧١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ٦٤ ، وقد وجــد فى بهــو الجص بقصر إشبيلية ــ الذى بنى فى عهــد بنى عبــاد (ملوك إشبيلية ، وأضيف إليه فى عصر الموحدين ــ أعمدة تيجانها متخــذة من أطــلال الزاهرة والزهراء . (دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٢٨) .

ويبدو أن المنصور قـد كان يتوقع خراب الزاهرة وضـياع معالمها فقد ذكر ابن حـزم : أنه كان مع المنصور وجماعة فى نزهة بالزورق فى نهر الوادى الكبير الذى تقع عليه المدينة فقال : « ويها لك يا زاهرة الحسن لقد حسن مرآك ، وعبق ثراك ، وراق منظرك ، وفاق مخبرك ، وطاب تربك ، وعـذب شربك . فليت شعرى من المريد الذى يعدمك ، ويوهن ركنك ويهدمك ، ويخلى ميدانك ، ويضـوى قصبتك وافنائك . فبؤسا له إذ لا يودنه حسنك . فكيف عن تغييرك ؟ . الا تسبيه بهجة منظرك فكيف عن محو أثرك ؟ » قال ابن حزم : فاستعظمنا ذلك وأنكرنا ما صـدر عنه وظننا أن الراح قـد غلبت عليه ، وخيلت ذلك إليـه فقال : « والله كأنكم لا تعلمون ذلك ، نعم سيظهر علينا عدونا فى أقرب مدة فيهدم هـذا كله ويعدمه ، وكأنى بحجارتها فى هـذا النهر »(٧٢) . وقد حدث ما كان يحس به المنصور بعـد أن فرط فى حـق الكثيرين ووصل إلى النفـوذ والسلطان بكل حيـلة ووسيلة ممكنة .

وذكر ابن سعيد : أنه كان فى بلنسية كثير من المتنزهات والمسارح ، ومن أبدعها واشهرها الرصـافة ومنية ابن أبى عامر ، تحيط بها الجنان والأنهار من كل جانب(٧٣) .

كما كانت هناك منيات أخـرى ألحقت بهـا بالطبع مجالس أو قصور للإقامة أو النزول فيها ومن أشهرها :

منية نصر الفتى فى الربض : وكان مولى للأمير عبد الرحمن الأوسط ، ومن أكبر الفتيـان الخصيان فى بلاطه ، وقد وكل إليه عبد الرحمن القيام ببناء الزيادة التى زادها فى جامع قرطبة(٧٤) . وقد اتخذ نصر هـذه المنية

---

(٧٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٨ .

(٧٣) المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ٢٩٨ .

(٧٤) المقتبس ص ٢٤٤ تحقيق الحجى ، البيان المغرب ج ٢ ص ١١٦ .

فى عـــدوة الربض التى تشرف على نهــــر الوادى الكبير بجــوار مقبرة الرّبض(٧٥) . وكان موضعها بيتـــا للرحا فى أيام أبى الخطار الكلبى فى عصر الولاة . ويبدو أنه أقيم مكانها فنــدق « كان متقبله من أهل الإضرار والفسق »(٧٦) فأمر عبد الرحمن بهــدمه بعــد مبايعته بالإمارة ســـنة ٢٠٦هـ .

ويظهر أن الأمير قــد أقطع فتاه ــ وكان أثيرا لديه ــ هــذه الأرض فاقام عليها منيته ، وظلت بحوزته حتى مات مسموما سنة ٢٣٦هـ على يــد الأمير نظرا لتآمره عليه مع جاريته عجب(٧٧) ، ثم آلت إلى زرياب المغنى المشـهور ، ثم آلت بعــده إلى الأمير عبد الله بن محمد حفيد عبد الرحمن « فشيد بنيانها وأتقن مصانعها » وكان يوزع أوقاته بينها وبين منية الناعورة السالفة الذكر . وفى عهد الخليفة الناصر آلت إلى ابنه الحـكم ولى عهده ، وفيها نزل سفراء الامبراطور البينطى قنسطنطين السابع فى صفر ســنة ٣٣٨هـ عنــد قدومهم إلى قرطبة(٧٨) .

منيــة عجب : كما أقامت عجب جــارية الحـكم الربضى منية لهـــا فى الربض القبلى فى مواجهة رصيف قرطبة الكبير ــ وهو الطريق المرصوف بالحجارة الذى كان يمتد من شرق قرطبة حتى الناحية الغربية للقصر ، ويقع ما بين الضــفة اليمنى للنهر وبين القصر ، ويفتح عليــه البــاب القبـلى للقصر المؤدى مباشرة إلى القنطرة المقــامة على النهر . وكانت هذه المنية تشتمل على عدة مساكن موقوفة على المرضى(٧٩) .

---

(٧٥) المقتبس ص ٣٨ تحقيق ملشور أنطونيه .
(٧٦) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٠ .
(٧٧) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧٧ ، المغــرب فى حلى المغــرب جـ ١ ص ٤٩ .
(٧٨) المقتبس ص ٣٨ تحقيق أنطونية .
(٧٩) قرطبة حاضرة الخلافة ص ٢٠١ ، ٢١٩ .

قصر الفارسى : وكان من القصور المقصودة للنزهة والفرجة شمال قرطبة . وقد ورد اسم هـذا القصر بين معاهد بنى أمية التى شهدت أول إشراقة عشق ابن زيدون الوزير الشاعر لولادة بنت المستكفى . وفيه يقول أحد الشعراء :

ويهتاج قصر الفارس صبابة

لقلبى لا يألو زناد الأسى قدحا(٨٠)

منية ابن أبى الحكم بن القرشية : وكانت تقع على نهر قرطبة الأعظم (نهر الوادى الكبير) بمنطقة تعرف باسم (الشامات)(٨١) ، وكانت منيعة محصنة مرتفعة الأسوار ، بهـا عمارات مسورات ، وقـد نزل بهـا أبناء على بن الأندلسى صاحب المسيلة ، وعيال أخيه جعفر عنـد قدومهم إلى قرطبة سنة ٣٦٠هـ فى عهد الحكم المستنصر مبالغة من الحكم فى إكرامهما بعـد خروجها على المهدى الفاطمى .

منية ابن عبد العـزيز : وكانت تقع فى الصحراء الممتدة ما بين قرطبة والزهراء وكان قاصدها يصل إليها بعـد مروره على السـدة والمصـارة ومسجد الحاجب ابن أبى عبـدة — الذى أنشىء فى عهـد عبد الرحمن الاوسـط — ثم ربض مسـجد الشـفاء ، وربض حـمام الإلبيرى أو النـدى(٨٢) . وقـد نزل فيها يحيى بن على المعـروف بابن الأندلسى وأخوه جعفر فى ٢٧ ذى القعدة سنة ٣٦٠هـ .

منية جعفر المصحفى : أقامها الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى فى خلافة الحكم المستنصر . وقد ذكر ابن عذارى أنها كانت فى منطقة تسمى

---

(٨٠) نفح الطيب جـ ٢ ص ٥٥ .
(٨١) المقتبس : ص ٤٣ ، ٢٢٨ نشر الحجى .
(٨٢) نفسـه ص ٤٦ .

الشر غربى قرطبة . وذكر أن السبب فى بنائها : أن الخليفة الحكم كان متخوفا على ابنه هشام من ابن ابى عامر ، وكان لشدة نظره فى الحدثان متيقنا من انه سينزع السلطان من ولده ، ويؤسس لنفسه مدينة فى موضع يسمى الشر (بفتح اللام) فأمر حاجبه بالمسارعة إليها والشروع فى البناء عليها وأنفق فيها مالا عظيما ، ولكنه اكتشف بعد بنائها ان هناك موضعا آخر يقع فى شرقها بنفس التسمية ولكن بضم اللام عند منزل رجل يسمى ابو بدر . وقد كان هذا الموقع فعلا هو الذى أختاره المنصور ابن أبى عامر لبناء مدينة الزاهرة التى جعلها مقرا له(٨٣) . وقد آلت هذه المنية بعد نكبة جعفر المصحفى إلى المنصور . وفيها يقول أبو بكر ابن جعفر :

قف بالمصحفية واندب مقلة اصبحت بلا إنسان

واسالنها عن جعفر وسطاه ونداه فى سالف الأزمان(٨٤)

* * *

(٨٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٨٤ — ٣٨٥ .

(٨٤) نفح الطيب ج ٢ ص ١٧ .

الـــــدور

وإذا كانت قصور الأمراء والخلفـــاء والوزراء قـــد كثرت فى الأندلس فى العصر الأموى ، فإن دور الخاصة والكبراء قد زادت أيضا(١) . حيث حاولوا التشبه بهذه الطبقة فى البناء والعمران والزخرفة والتأثيث كل على قـــدر إمكاناته .

وليس من السهل تحـــديد مواقع دور الخاصة فى قرطبة وغيرها من مدن الأندلس ، أو وصفها حيث لم تزودنا المصـــادر بالكثير فى هذا الصدد فيما عـــدا الإشارة إلى بعض دور المشاهير من القضاة والفقهاء والعلماء . بينما أفاضت فى وصف القصور . ويمـــكن تقسيم الدور فى الأندلس إلى قسمين : دور رسمية تابعـــة للدولة ، ودور خاصة بالناس . أما الدور الرسمية فكان منها بقرطبة :

دار الوزراء : ويبدو أنهـــا أنشئت فى عهـــد الأمير عبد الرحـــمن الأوسط لأنه كان « أول من رتب اختلاف الوزراء إلى القصر » وذلك للتشاور معهم فى أمور الدولة(٢) وعلى هـــذا فإن هـــذه الدار كانت تقع بجانب قصر الإمارة ، أو أنهـــا كانت من ملحقـــاته . وقد ذكرها ابن القوطيـــة وابن حيـــان(٣) .

---

(١) ذكر المقرى : أن عدد دور الخاصة والكبراء وصـــل فى عهد المنصور ابن أبى عامر فى قرطبة وحـــدها (٦٠٫٣٠٠) دار ، وان عـــدد دور العـــامة فيها وصل إلى (٢١٣٫٠٧٧) دار ، سوى الدور التى أعدت للكراء ، وهو ما نطلق عليـــه فى العصر الحـــاضر مســـاكن الإيجار (نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٩) .

(٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٢ .

(٣) نفس المصدر ص ١٠٧ ، المقتبس ص ٢٥ تحقيق الحجى .

دار القومة : ويبدو انها انشئت فى عهد الخليفة الحكم المستنصر بعد الزيادة التى اضافها للمسجد الجامع بقرطبة ، وكانت خاصة بسكنى قومه هـذا المسجد ، وكانت تقـع بداخله فى الجهة الشمالية . ويذكر أنهـا تعرضت لحريق « أتى على غرفها ، ودمر سقفها ، وأدى إلى تشعيثها » فى ليـلة الجمعة لخمس خلون من شهر رجب سنة ٣٦٢هـ(٤) .

دار الرهائن : وكانت تجـاور باب القنطرة ، وفيها كان يتم حبس بعض الرهائن حتى يتم الفصل فى أمرهم ، فقـد حبس فيها صالح وعلى ابنـا رافع صاحب حصن (حجبة) ونفر من بنى عمهما(٥) .

دار الصـدقة : وقد انشأها الخليفة المستنصر غرب المسجد الجامع بقرطبة بعـد الانتهاء من الزيادة التى أضافها للمسجد وكانت مزودة بعلية وكان يتم من خلالها توزيع الصدقات(٦) .

بيت العمال : وكانت دويرة من ملحقات القصر الخـلافى ، اتخـذت فى الأصل لعمال القصر ، ثم تحولت إلى سجن ، وكان موضـعها بفصيل باب الجنان المطل على النهر ، ولعلها كانت نفس سجن قرطبة القـديم فى عهـد الإمارة(٧) .

ويمكن أن نضيف إلى هـذه الدور الرسمية بعض الدواوين والمصالح الحـكومية مثل :

دار الصـناعة : وكانت تقـع بجوار مسجد ابى عثمان بقرطبـة (وهو عبد الله بن عثمان زعيم موالى الأمويين قبل دخـول عبد الرحمن

---

(٤) المقتبس ص ١٠٤ تحقيق الحجى .
(٥) نفسـه ص ١٧٦ .
(٦) نفسـه ص ١٩ .
(٧) المقتبس ص ٢٠٢ تحقيق الحجى .

إلى الأندلس) ، وكان هـذا المسجد يقـع شمال القصر الخلافى حيث كان هنـاك باب للقصر يعرف (بباب الصناعة) لأنه كان يشرف عليها .

ويظهر أن هـذه الدار أنشئت فى عهـد الأمير عبد الرحمن الأوسط بعـد غزو النورمان لإشبيلية سنة ٢٢٩هـ ، وكانت تصـنع فيها المراكب والسفن ، ولكنها اقتصرت منذ زمن الناصر على صناعة الآلات والحـلى والتماثيل فيما يبدو ، وذلك نظرا لكثرة دور الصناعة التى أنشئت لبنـاء السفن فى سواحل الأندلس ، وفيها تمت صـناعة الاثنى عشر تمثالا من البرونز المرصـع بالدر النفيس والتى وضعت فى مجلس المؤنس بمدينة الزهـراء(٨) .

دار الطراز والبرد : ويذكر أنها أنشئت فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، فهو الذى أحـدثها واستنبط عملها كما ذكر ابن عذارى ، وإن كان ابن حيان يذكر أنها من بنـاء عبد الرحمن الداخل(٩) .

ويبدو أن الداخل هو الذى أنشأها واختصت بصناعة البرود الأميرية ولذلك عرفت بالدار البردية ، ثم تطورت فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، واتسعت مرافقها ومهامها وما يصنع فيها . فقد ذكر ابن الخطيب « أنه اتخذ الطراز الذى كان حدث الرفاق وطرفة أهل الآفاق »(١٠) .

ومعنى هـذا أنه أنشأ دار للطراز لنسج الثياب الأميرية له ولأهله وحاشيته ويبدو أنها أنشئت إلى جانب الدار البردية التى أقامها الداخل .

وفى عصر الخليفة الناصر اتسعت وأصبح ينسج فيها ما يحتاج إليه من الخـلع والكسوات وملابس الحريم وغير ذلك . ويذكر ابن الخطيب معلقـا على ذلك « ولو تتبعنا أصنافهم وما كانوا يحاولونه من صناعاتهم ،

---

(٨) ابن عذارى : البيـان المغـرب ج ٢ ص ١٥٥ ، نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٤ .
(٩) المقتبس ص ٦٦ ، البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٦ .
(١٠) أعمال الأعـلام ص ٢ .

ويناغسون به المشرق من بضائعهم ، ومقدار جراياتهم ونفقاتهم لضاق عنه الكتاب »(١١) . وقد أشار ابن حوقل إلى شهرة قرطبة فى زمن الناصر فى صناعة الجيد من الثياب والكسوة من الكتان والخز والقز(١٢) .

وقد ذكر ابن حيان : أن هذه الدار نقلت من موضعها الأول سنة ٣٦١هـ فى عهد المستنصر من غرب القصر إلى دار الزوامل بالمصارة فى غرب قرطبة ، وأما دار الزوامل فقد نقلت من موضعها إلى دار تقع بالقرب من المحبس عند قصر الناعورة . وأما دار البرد القديمة فقد أمر الحكم بإقامة حوانيت للبزازين مكانها(١٣) .

وكان لها قيم يشرف عليها حيث تولاها فى عهد الأمير عبد الله زيان الفتى ، وفى زمن الناصر خلف الفتى الكبير ، وفى زمن المستنصر فائق الفتى المعروف بالنظامى(١٤) .

دار السكة : وكان أول من أنشأها فى قرطبة الأمير عبد الرحمن الأوسط ، حيث لم تكن هناك دار سكة للمسلمين بعد فتح الأندلس ، ويبدو أنهم كانوا يتعاملون بالعملات الأموية والعباسية وبعض العملات المغربية ، وكذلك بعض العملات التى كانت موجودة بالأندلس كالرومانية والقوطية ، وكانت تسك دراهم وفلوسا يتعامل بها الناس كل ستين فلسا بدرهم ، وفى سنة ٣١٦هـ أمر الخليفة عبد الرحمن الناصر بإقامة دار جديدة للسكة داخل قرطبة بدل الدار القديمة التى كانت تقع بجوار

---

(١١) أعلام الأعلام ص ٤٠ .

(١٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٠٨ .

(١٣) المقتبس ص ٦٦ نشر الحجى .

(١٤) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٢٣ ، ص ٢٨٤ ، ص ٢٨٧ ، المقتبس ص ٦٦ ، ٣١٧ واغلب الظن انها كانت تقع بجوار قصر الإمارة فى قرطبة من الجهة الغربية استنادا إلى ما ذكره ابن حيان وابن الخطيب . (انظر المقتبس ص ٦٦ ، أعمال الأعلام ص ٤٠) .

بباب العطارين خارج قرطبــة(١٥) لضرب الدنانير والدراهم الأندلسية ، وولى خطتها أحمد بن موسى بن حــدير ، ثم نقلها بعــد ذلك إلى مدينــة الزهراء التى أسسها(١٦) .

اما دور الخاصة فكان من اشهرها : دار الأمير عبد الله بن عبد الرحمن وكانت قريبة من باب القنطرة .

ودار القاضى منذر بن سعيد البلوطى : وكانت تقع بجوار مســجد السيدة الكبرى بالقرب من مقبرة قريش بالربض الغربى من قرطبة .

ودار بقى بن مخلد : وكانت تقع بظاهر المدينة فى فحص المطرف على شارع المبطلة الممتد من باب عبد الجبار .

ودار الأمير عبد الله بن محمد : وكانت تقع بجوار باب قرطبة الغربى ، ولها عليــة تشرف على الطريق .

ودار الفقيه المشاور أبى ابراهيم : وكانت تقــوم بجــوار مســجد أبى عثمان تجــاه باب الصناعة من أبواب قصر قرطبة الشمالية .

ودار محمد بن سعيد الأموى : وكانت تقــع بمنية عبد الله بالناحية الشرقية من قرطبة .

ودار ريان الوصيف : وكانت تقع بجوار منار الجــامع بقرطبــة . وغيرها(١٧) .

وقد كانت الدور فى الأندلس بصفة عامة تقوم حــول فراغ مركزى هو الصحن الذى تتوزع حــوله الغرف ، وتتالف من جزئين أساسيين : الواجهة الخارجية ، وداخل البيت . وبينما كانت الواجهة الخارجية بسيطة

---

(١٥) الهمذانى : مختصر كتاب البلدان ص ٨٨ تحقيق دى غويه ، ليــدن ســنة ١٨٥٥م .

(١٦) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٩٦ ، ٣٢١ .

(١٧) انظر : قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

فى الغالب تكاد تخلو من الزخرفة ، كانت الغرف تزخر بالكثير من الزخارف الرائعـــــة .

ويمكن تفسير ذلك بأن حياة الأسرة الأندلسية كانت تتركز فى داخل الدار حيث تقضى المرأة جل وقتها ، فكان من الطبيعى أن يتأنق النـــاس فى تزيينها من الداخل ، وكسوتها بنوع من الزجـــاج المفضض ، المعروف فى الشرق بالفسيفساء ، وكان يعرف عندهم (بالزليجى) ، وهو ذو ألوان عجيبة ، ويقوم عندهم مقام الرخام الملون المتخذ فى الشرق للزخرفة .

وكان له تأثير كبير فى ترطيب الأبهاء والقـــاعات فى فصل الصيف . هـــذا بالإضـــافة إلى ما لألوانه المتعددة ، وخطوطه الهندسية الرائعـــة من آثار طيبة فى النفس . وكان المدخل فى دور الأثرياء عـــادة ما يفضى إلى ردهة تؤدى إلى البهو ، أما فى دور العـــامة فكان يفصل بممر منكسر على شـــكل زاوية قائمة حتى لا يرى المـــارة من فى الداخل .

وقد كانت المرأة الأندلسية تجـــد فى ذلك تعويضا عن العزلة التى تعانيها فى البيت . ولعل هذا هو السبب فى أن أغلب الدور فى مـــدن الأندلس كانت تحتوى على عليـــات أو غرف علوية ، أو مصارى (جمع مصرية) وهى غرف بارزة عن جدران البيت ، مزودة بشبكات من عيدان الخشب المتقـــاطعة وتسمى (بالشراجيب) . وهى لا تختلف كثيرا عن المشربيات فى المنـــازل المصرية . وهكذا كان يتاح للمرأة الأندلسية التمتع بمشاهدة الخارج دون أن يراها أحـــد .

وكان صحن البيت أو فناؤه عنصرا هاما باعتباره المكان الذى تقضى فيـــه المرأة معظم وقتها ، ومنـــه ينفذ الضوء والشمس والهواء إلى غرف الدار ، ولذلك فقـــد اهتموا بتزيينه ، وفرشه بالحجر أو الرخام أو غير ذلك ، وغرسه بالأشـــجار كالبرتقال والليمون ، ومده بالميـــاه الجـــارية

مما يزيده روعة وجمالا ، ويخفف فى نفس الوقت من حرارة الشمس(١٨) .

ولقد وصف ابن سعيد المغربى دور الأندلس بأنها « فى غاية الجمال لمبالغة أهلها فى أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون عنها » وأضاف مقارنا بينها وبين الدور المصرية « إننى تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التى تكدر العين بسوادها ، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها » . وهو يشير بذلك إلى استخدام الطوب اللبن فى بنائها ، واستخدام الطين فى تجصيصها ، وهو ما كان سائدا فى الريف المصرى إلى وقت قريب ، ويوجد منه أمثلة حتى الآن كما أثنى الشقندى فى رسالته على المبانى الأندلسية فقال « أما مبانيها فقد سمعت عن إتقانها ، واهتمام أصحابها بها ، وكون أكثر ديارها لا تخلو من الماء الجارى ، والأشجار المتكاثفة كالنارنج والليم والليمون والزنبوع وغير ذلك »(١٩) .

* * *

(١٨) انظر دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٢٤ .

(١٩) عن دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٢١ .

مجالس الموسيقى والغناء

ازدهر فن الغناء والموسيقى فى الأندلس ، وساعد على هذا الازدهار عدة عوامل نستطيع أن نجملها فيما يأتى :

١ — طبيعة بلاد الأندلس الجميلة التى تدعو إلى البهجة والسرور واللهو والطرب .

٢ — ميل أهل الأندلس بصفة عامة للموسيقى والغناء ، ومما يدل على ذلك تلك النقوش المحفورة على علب العاج الأندلسية التى عثر عليها ، وفيها مجالس طرب وموسيقى وشراب ، وقد أمسك فيهما بعض الأشخاص بآلات موسيقية .

٣ — ولع كثير من الأمويين بالأندلس بالغناء والموسيقى ، وإجزالهم العطاء لأهلهما . كما يتجلى من خلال الروايات التاريخية ، ومن خلال بعض النقوش المحفورة على بعض التحف التى عثر عليها ، ومنها علب العاج الأندلسية(١) .

٤ — قدوم كثير من مشاهير المغنين والمغنيات من المشرق إلى

---

(١) انظر دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٠ ، د. عبد العزيز عتيق : الأدب العربى فى الأندلس ص ١٤٧ ، د. الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٦ — ٨٧ . ويروى أن المطرف بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط كان شاعرا مفلقا عالما بالغناء (الحلة السيراء جـ ١ ص ١٢٨) ، وكذلك اثنان من إخوته أيضا (د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٣٩) . كما يروى أن أبا الأصبغ عبد العزيز ابن عبد الرحمن الناصر كان مغرما بالغناء ، محبا للشراب ، ولما انقطع عن الشرب سر أخوه المستنصر بذلك ، وتمنى أن يترك الغناء أيضا ، فلما سمع ذلك عبد العزيز قال : والله لا تركته حتى تترك

الاندلس — وخاصة من الحجاز والعراق اللذين انتشر بهما الغناء — وعلى راسهم زرياب .

٥ — اختراع الموشحات والأزجال فى الأندلس ، واستجابة الكثير من الأندلسيين لها ، لانهم راوها اقرب إلى التعبير عما فى أنفسهم ، وأسهل فى التلحين والغناء ، وأنسب للمغنيين المتجولين الذين يتكسبون بغنائهم (٢) .

==

الطيور تغريدها . (دائرة معارف الشعب ص ١٠٠ هامش ١) .

ومما يدل على ان الغناء والموسيقى قد اصبحا جزءا من كيان معظم أهل الأندلس من مختلف طبقاتهم ما ذكره ابو بكر الطرطوشى (٥٠٢هـ) من انهم فى أوساطهم الشعبية كانوا يقراون القرآن بالألحان والرقص بالأرجل ، والتصفيق بالأيدى ، وهى عادات اخترعوها على حد قوله .

يقول : « وجعلوا لكل لحن من الحانهم فى القرآن اسما مخترعا ، فقالوا : اللحن الصقلبى ، فإذا قرأوا قوله تعالى (**وإذا قيل إن وعد الله حق**) يرقصون فى هذه الآية كرقص الصقالبة بأرجلهم وفيها الخلاخيل ، ويصفقون بأيديهم على نغمات متوازنة ، ومن ذلك الرهب (الرهبان) أن نظروا إلى كل موضع فيه ذكر المسيح تمثلوا أصواتهم فيه بأصوات النصارى والرهبان والأساقفة فى الكنائس » . (الحوادث والبدع ص ٧٧ — ٧٨ تحقيق محمد الطالبى) .

ولا نعتقد أن ذلك قد حدث إلا فى عصر ملوك الطوائف الذى وصل فيه الترف واللهو والتمزق إلى درجة كبيرة ، فانصرف الكثيرون إلى الدنيا ، ويمكن أن يكون فى قول الطرطوشى بعض المبالغة حيث نظر إلى تمايل البعض وإظهار إعجابه بالقراءة هذه النظرة ، كما هو حادث فى بعض سرادقات العزاء حتى وقتنا الحاضر .

(٢) انظر احمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣٠٧ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٤ — ٤١٥ .

٦ – قيام بعض الأندلسيين بتأليف الرسائل والكتب فى الموسيقى والغناء ، ومنهم عباس بن فرناس (ت ٢٧٤هـ) الذى كان إلى جانب محاولاته فى الاختراع والابتكار(٣) « قد حذق الموسيقى ، وعانى ضرب العود وصوغ الألحان ، وهو أول من فك بالأندلس كتاب العروض للخليل ، وأول من فك الموسيقى »(٤)، وكذلك يحيى الخدج المرسى الذى ينسب إليه كتاب (الأغانى الأندلسية) على غرار كتاب الأغانى للأصفهانى(٥) .

ويذكر التيفاشى (ت ٦٥١هـ) : أن أهل الأندلس فى القديم كان غناؤهم إما بطريقة النصارى – يعنى ألوان الغناء الشعبى التى كانت منتشرة فى أسبانيا قبل الفتح – أو بطريقة حداة العرب (فن الحداء)

---

(٣) من هذه المحاولات محاولته الطيران التى تعتبر أول محاولة إسلامية للطيران فى الهواء ويذكر أن رجلا يونانيا يدعى إيكاروس سبقه فى هذه المحاولة . فقد صنع لنفسه كساء من الريش له جناحان وضع فيهما ذراعيه ، وقفز من أعلى تل قرب بلنسية يسمى (مونت أجودو) فطار بضعة أمتار ، ثم سقط نظرا لأنه لم يجعل لهذا الكساء ذيلا لحفظ توازنه .

ومن هذه المحاولات كذلك التى كللت بالنجاح صنعه آلة عرفت (بالميقاتة) لمعرفة الوقت تعتمد على الظل ، واختراعه طريقة لصناعة الزجاج من طحين الأحجار .

(انظر : د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٩١ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ٧٤ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٧٣) .

(٤) ابن حيان : المقتبس ص ٢٧ تحقيق د. محمود مكى ، المقرى : نفح الطيب جـ ٣ ص ٣٧٤ .

(٥) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٠ .

الذى كان من الطبيعى أن ينتقل مع العرب الفاتحين . كما انتقل الغناء الحجازى والعراقى أيضا مع القادمين إلى الأندلس من المشرق من مغنين ومغنيات .

ويقول « ولم يكن عندهم قانون يعتمدون عليه إلى أن تأثلت الدولة الأموية ، وكانت مدة الحكم الربضى ، فوفد عليه من المشرق ومن إفريقية من يحسن غناء التلاحين المدنية فأخذ الناس عنهم ، إلى أن وفد الإمام المقدم فى هذا الشأن على بن نافع الملقب بزرياب غلام إسحاق الموصلى على الأمير عبد الرحمن الأوسط ، فجاء بما لم تعهده الأسماع واتخذت طريقته مسلكا ونسى غيرها »(٦) .

ويذكر أنه كان بقرطبة فى عهد عبد الرحمن الداخل قينة تسمى العجفاء(٧) ، كانت جارية لمسلم بن يحيى مولى بنى زهرة ، فاشتراها من الأمير وضمها إليه(٨) . وهذا يدل على ميل الكثير من الأمويين للغناء منذ بداية عهدهم فى الأندلس بالرغم مما صادفهم من صعوبات فى سبيل تأسيس دولتهم ، وتوطيد أركانها ، والقضاء على المخالفين .

ويبدو أن (علون وزرقون) كانا أول مغنيين دخلا الأندلس من المشرق ، وكان ذلك فى عصر الحكم الربضى (١٨٠ — ٢٠٦هـ) الذى

---

(٦) مجلة عالم الفكر مجلد ١٢ عدد ١ ص ٢٠ (حضارة الأندلس) .

(٧) لم تذكر لنا المصادر اسمها ، ويبدو أنها اشتهرت بذلك اللقب لأنها كانت نحيلة ، وكانت تسكن مع مولاها فى بيت صغير متواضع مساحته اثنا عشر ذراعا فى مثلها ، وليس به الكثير من الفرش والأثاث سوى نمرقتين ومقعدين مفككين من قدمهما كما يذكر المقرى عن رواية الأرقمى (نفح الطب ج ٤ ص ١٣٨ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٦) .

(٨) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ١١٩ .

وصـــفه الكثيرون بالميـــل إلى الترف واللهو وخاصة فى مرحـــلة شـــبابه برغم قضـــائه على الكثير من الثورات التى قامت ضـــده وأشهرها ثورة الربض . كما اشتهر بالغنـــاء فى عصره رجل يسمى (منصور اليهودى) .

ولكن غناء هؤلاء ذهب لغلبة غنـــاء زرياب عليهم بعـــد قدومه إلى الأندلس(٩) .

ويعتبر الكثيرون عصر عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦هـ — ٢٣٨هـ) عصر ازدهار لفن الغناء والموسيقى بالأندلس ، حيث كان أديبـــا شاعرا بعيـــد الهمة والغـــايات كما وصف . ويعتبر أول من اتخذ رسوم الخلافة وابهتها . وكان كما ذكره المقرى « مولعـــا بالغناء مؤثرا له على جميـــع لذاته »(١٠) . ولذلك فقـــد رفـــد إلى الأندلس فى عهده بعض القيـــان المغنيات من المدينـــة ، فأفـــرد لهن دارا ملحقـــة بقصره ســـميت (دار المدنيـــات)(١١) .

ومن أشهر هؤلاء القينات (فضل المدينة) التى كانت جاريه لإحدى بنـــات الخليفة هارون الرشيد ، ثم ذهبت إلى المدينة لتعـــلم الغنـــاء ، فاشتريت للأمير عبد الرحمن ومعها جارية أخرى تسمى (علم) ، وكان يؤثرهما لظرفهما وأدبهما وحسن غنائهما ، كما كانت هناك جارية أخرى تسمى (قلم) ، وكانت فى الأصل من سبى البشكنس ، ثم أرسلت إلى

---

(٩) نفح الطيب جـ ٣ ص ١٣٠ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٠ .

(١٠) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٣ .

(١١) نفح الطيب جـ ٢ ص ١١٨ ، وقد ذكر د. احمد هيكل (فى تاريخ الأدب الأندلسى ص ٧٣) أن الذى فعل ذلك هو عبد الرحـــمن الداخل وهو خطأ وربما كان سهوا أو نسيانا فجعل الداخل مكان الأوســـط .

المشرق ، فتعلمت الأدب والغنـاء ، وروت الشـعر ، وحفظت الكثير من الأخبـار(١٢) .

كما كان من القيان الوافدات من المشرق أيضا غير هؤلاء جارية بغدادية ذات فصاحة وبيان ومعرفة بالألحان تسمى (قمر) ويصفها المقرى بأنها « جمعت أدبا وظرفا ، ورواية وحفظا ، مع فهم بارع وجمال رائع ، وكانت تقول الشعر بفضل أدبها »(١٣) .

وقد كانت جارية لإبراهيم بن الحجاج اللخمى (ت ٢٨٨هـ) الذى ثار على الأمير عبد الرحمن الأوسط ، واستقل بإشبيلية . ومن شعرها فى مدح إبراهيم :

ما فى المغارب من كريم يرتجى
إلا حليف الجود إبراهيم
إنى حللت عليه منزل نعمة
كل المنازل ما عداه سقيم

ومن شعرها فى الحنين إلى موطنها :

آها على بغدادها وعراقها
وظبائها والسحر فى احداقها
ومجالها عند الفرات بأوجه
تبدو اهلتها على اطواقها
متبخرات فى النعيم كأنما
خلق الهوى العذرى من اخلاقها

---

(١٢) د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٤٤ ، دائرة معارفه الشعب (٦١) ص ١٠٠ .

(١٣) نفح الطيب ج ٤ ص ١٣٦ .

نفسى الفـــداء لهـــا فأى محاسن
فى الدهر تشرق من سنا إشراقها(١٤)

كما كان للمنصور بن أبى عامر جارية شاعرة مغنية تسمى (أنس القـلوب), شغف بهـــا وزيره أبو المغيرة بن حزم(١٥) .

كما كان من المغنيين الذبن قدموا إلى الأندلس أيضـــا مغن من مصر يدعى عبد الواحـــد بن بزيد الاسكندرانى الذى قـــدم حدثا متظرفا يشدو بشىء من الغنـــاء ، واتصل بالحاجب عيسى بن شـهيد ، فلما رأى نجابته نصحه بالإقلاع عن الغنـــاء ، والاكتفاء بأدبه وفضـــله ، ففعل واتصـــل بالأمير عبد الرحمن ، فاعجب به وقربه وصيره واليـــا ، ثم ترقى بعد ذلك إلى مرتبة الوزارة . وقد توفى سنة ٢٣٧هـ عن نيف وثمانين سنة(١٦) . على أن أهم واشـــهر مغن دخــــل الأندلس هـــو أبو الحسن على بن نافع الملقب بزرياب (١٧) تلميذ إسحاق الموصلى أشهر المغنين فى بغداد فى عصر الرشـــيد .

ويذكر أن الرشيد طلب من اسحاق أن يأتيه بمغن مجيـــد للصـــنعة فجاءه بزرياب ومعه عوده الخـــاص بدلا من عود أستاذه ، ولمـــا ســـأله عن الســـبب قـــال : « عودى وإن كان فى قدر جسم عوده ، ومن جنس

---

(١٤) نفـــح الطيـــب جـ ٤ ص ١٣٧ ، د. الشـــكعة : الأدب الأندلسى ص ١٣٠ ، ١٣٢ .

(١٥) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٨٩ ، الأدب الأندلسى ص ٨٨ — ٨٩ .

(١٦) ابن حيان : المقتبس ص ١٦٩ — ١٧٠ ، ابن عذارى : البيـــان المغرب جـ ٢ ص ٦٤ — ٨٦ .

(١٧) أطلق عليه هـــذا اللقب تشبيها له بطائر أسود اللون حسن التغريد وذلك لسواد بشرته وحسن غنـــائه (انظـــر : تاريخ الحضـــارة الإسلامية العربية ص ٤٢٧) .

خشبه ، فهو يقع من وزنه فى الثلث او نحوه ، وأوتارى من حرير لم يغزل بماء ساخن يكسبها انائة ورخاوة ، وبمها ومثلثها اتخذتهما من مصران شبل أسد ، فلها فى الترنم والصفاء والجهارة والجدة أضعاف ما لغيرها من سائر الحيوانات ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها »(١٨) . ثم غنى أمام الرشيد :

يا ايها الملك الميمون طائره
هارون راح إليك الناس وابتكروا

فطرب الرشيد ، وعاتب إسحاق على أنه لم يخبره به ، وطلب إليه العناية به حتى ينظر فى شأنه ، فدب الحسد فى قلب إسحاق ، وخشى ان يحتل تلميذه مكانه ، فهدده بالقتل أو مغادرة بغداد ، فرحل إلى المغرب حيث قضى وقتا قصيرا فى بلاط زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب أمير القيروان ، وكتب إلى أمير الأندلس الحكم الربضى يسأله الإذن فى الوصول إليه ، ويعلمه بمكانه فى الغناء ، فأذن له فى دخول الأندلس(١٩) .

وأرسل إليه منصور المغنى اليهودى لاستقباله ، ونزل بالجزيرة الخضراء مدة ثم جاءته الأخبار بوفاة الحكم فهم بالعودة ، ولكن منصور ثناه عن ذلك ورغبه فى قصد من سيحل محل الحكم فى الملك ، ولما تولى عبد الرحمن الأوسط كتب إليه منصور يخبره بخبر زرياب ،

---

(١٨) نفح الطيب جـ ٣ ص ١٢٣ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠١ . وغنى أمام الرشيد :

(١٩) يذكر ابن عبد ربه : أن سبب مغادرة زرياب المغرب أنه غنى زيادة أبياتا لم تعجبه فأمر بصفع قفاه وطرده . (العقد الفريد جـ ٧ ص ٣١ مطبعة الاستقامة القاهرة سنة ١٩٥٣) . ولكننا نميل إلى أن سبب خروجه من المغرب دعوة الحكم له ، وانه توقع أن ينال فى الأندلس ما لم ينله فى بغداد وتحقق له ما كان يتوقعه .

فكتب إلى عماله أن يحسنوا استقباله ويوصلوه إلى قرطبة وأمر خصيا من أكبر خصيانه بتلقيه(٢٠) . ولما وصل أنزل فى دار فخمة ، واستقبله الأمير وبالغ فى إكرامه ، وجعل له رزقا شهريا قدره مائة دينار ، ولكل ولد من أولاده الأربعة عشرين دينارا ، كما جعل له ثلاثة آلاف دينار فى كل عام ، ألفا فى كل من عيدى الفطر والأضحى ، وخمسمائة فى كل من عيدى النيروز والمهرجان ، عدا ما خصص له من القمح والشعير ، وما وهب له من الضياع والبساتين التى قدرت بأربعين الف دينار(٢١) .

وقد أعجب عبد الرحمن بمواهبه فقربه إليه ، حتى قيل إنه جعل له بابا خاصا فى قصره يدخل منه كلما استدعاه(٢٢) . وقد أدت هذه المكانة إلى حسد البعض له فيذكر ابن سعيد : أن زرياب غنى يوما أمام عبد الرحمن وأطربه فأعطاه ثلاثة آلاف دينار ، فاحتوشه جواريه وولده فنثرها عليهم ، فكتب أحد السعاة إلى عبد الرحمن بذلك قائلا : إنه فعل ذلك لأن ذلك المال لم يعظم فى عينيه وفرقه فى ساعة واحدة ، فوقع عبد الرحمن على هذه الرسالة :

---

(٢٠) يذكر ابن خلدون والمقرى : أن عبد الرحمن خرج لاستقباله بنفسه (العبر ج ٤ ص ١٧٤) ، (نفح الطيب ج ١ ص ١٦١) .

(٢١) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٦ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ٦٧ — ٦٨ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٣٨ — ٣٩ ، محمد دياب : تاريخ العرب فى أسبانيا ج ١ ص ١٦٥ — ١٦٦ ، ويذكر الأخيران أن راتبه الشهرى كان مائتى دينار .

(٢٢) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤١٦ .
خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ٩٤ .

« قــد راينا انه لم يفعل ذلك إلا ليحببنا إلى اهل داره ، ويغمرهم بنعمنا وقد شكرناه ، واذنا له بالمــال المتقــدم ليمسكه لنفسه ، فإن كانت عندك مضرة اخرى فى حقه فارفعها إلينا »(٢٣) وهــذا يدل على مــدى حــب عبد الرحمن لزرياب ، وعدم استماعه إلى وشاة الراشين فيه .

وقد ابدع زرياب فى تنســيق الالحــان ، واظهر براعة فائقــة فى الموسيقى والغناء حتى ادعى ان الجن هى التى تعلمه الأصوات ، ويبــدو انه قد ورث هــذا الشعور عن استاذه اسحاق الموصلى الذى ورثه عن ابيه ابراهيم . وكان يهب من نومه سريعا ، فيدعو جاريتيه غزلان وهيندة ، فتمسك كل واحدة بعود ، ويمسك هو بعوده ، ويطارحهما الغناء ليلته ، ثم يكتب الشعر ويعود إلى مضجعه(٢٤) .

وقد كانت له ابتكارات فى مجال تطوير الآلات الموسيقية وعلى راسها العود ، فقد اضــاف إليه وترا خامسا بعــد أن كانت أوتاره اربعــة ، واتخذ مضربه من قوادم النسر بدلا من الخشب . وقد اثر عنــه انه كان يحفظ عشرة آلاف بيت مقطوعة من الأغانى بالحانها(٢٥) . وبذلك يعتبر

---

(٢٣) المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ٥١ .

(٢٤) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٧ .

(٢٥) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ٧٨ ، تاريخ الإســلام السياسى ج ٢ ص ٤١٨ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى اســبانيا ص ٦٩ . ويذكر ليفى بروفنسال أن الأوتار كانت ثلاثة ، ومعظم الباحثين أن الأوتار أربعة وهى : الزير والبم والمثنى والمثلث ، وكل منها يرمز إلى طبع من طباع النفس البشرية . وكان الوتر الخامس الذى زاده زرياب ولازال إلى اليوم وســطا بين الهادىء والحاد وسمى صول رمز له بالروح وهو أحــد درجات السلم الموسيقى المعروف اليوم (انظر تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٤٢٧ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٥) .

زرباب هو المؤسس الحقيقى لمدرسة الموسيقى والغناء فى الأندلس ، حيث أورث فيها صناعة الغناء كما يقول ابن خلدون(٢٦) .

وقد تخرج على يديه الكثير من التلاميذ . ويذكر أنه كانت له طريقة فريدة مع تلاميذه المبتدئين ، فكان يبدأ بالنشيد أول شدوه بأى نقر كان ، ويأتى إثره بالبسيط ، ويختم بالمحركات والإهزاج .

وكان إذا أراد تعلم أحدهم أمره بالقعود على الوسادة المدورة ، وأن يشد صوته إذا كان قوى الصوت ، وإن كان لين الصوت أمره أن يشد على بطنه عمامة لأن ذلك مما يقوى الصوت فلا يجد متسعا فى الجوف عند خروجه من الفم فإن كان ألصق الأضراس لا يقدر على فتح فمه ، أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق راضه بأن يدخل فيه قطعة من الخشب عرضها ثلاثة أصابع يجعلها فى فمه عدة ليال حتى ينفرج فكاه ، وإذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت من تلاميذه من غير المطبوع أمره أن يصيح بأقوى صوته (ياحجام) أو يقول آه ، ويمد صوته ، فإن سمع صوته صافيا نديا قويا لا تعتريه غنة ولا حبسة ولا ضيق نفس ، أشار بتعليمه وإلا أبعده(٢٧) .

ويذكر حسين مؤنس : أن زرياب ابتكر طريقة لكتابة موسيقاه . ولكننا لا نعرف إلى الآن كيف كان يكتبها ؟ وما هى نوتها الموسيقية ؟ وأنه ابتكر أيضا الفرقة الموسيقية التى تجمع بين العازفين والمنشدين ، وكان يلحن الصوت تلحينا يجمع بين العزف والإنشاد الجماعى والفردى ، وأنه يعتبر أول من أنشأ فى الأندلس التخت (المسرح الصغير) الذى تجلس

---

(٢٦) المقدمة ص ٣٠٠ المطبعة البهية .

(٢٧) لين بول : قصة العرب فى أسبانيا ص ٧٨ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٤١٨ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى (عصر سيادة قرطبة) ص ٣٩ .

مثيه الفرقة الموسيقية ، وكان يسمى بالستارة ، وأن موسيقاه التى أدخلها اصبحت تمثل الموسيقى الراقيــة فى الأندلس ، ونسبت إليــه فعرفت (بالموسيقى الزريابيــة) ، وأصــبح الحــداء بمثابة الغنــاء العــامى او الشعبى(٢٨) .

وقد علم زرياب أولاده الغناء والموسيقى ، وكانوا عنــد قدومه إلى الأندلس أربعة فأصبحوا ثمانية ذكور وبنتين هما عليــة وحمدونة ، فتعلموه ومارسوا صناعته ، وكان أشهرهم به عبد الرحمن الذى صــار مثــله فى الصــنعة والحظوة(٢٩) ، كما علم جــارية له تدعى (منفعــة) أحسن اغانيه ، وأهداها للأمير عبد الرحمن الأوسط ، وكذلك (مصابيح) جارية الكاتب أبى حفص عمر بن قهليل(٣٠) .

وإلى جانب هؤلاء المغنين والمغنيات فقد تعلم بعض رجــال الأندلس اصول فن الغناء مثل عباس بن فرناس ، وعقيل بن نصر الشاعر لذى كانت له أغان يجرى فيها مجرى اسحاق الموصلى . وقد أصبح لزرياب طرائق خاصة فى الغناء يتناقلها الناس وقــد ألف فيهــا البعض ، مثل أســلم ابن أحمد بن سعيد الذى ألف كتابا فى أغانيه(٣١) .

وصفوة القول : أن زرياب كان أشهر مغن فى الأندلس ووصل إلى مكانة مرموقة حسده عليها الكثيرون فى الأندلس والمشرق لدرجة أنه كان يركب فى مائة غلام(٣٢) .

---

(٢٨) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٨٩ .

(٢٩) نفح الطيب ج ١ ص ١٦١ .

(٣٠) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٣٩ .

(٣١) تاريخ الأدب الأندلسى ص ٣٩ .

(٣٢) لبفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ٦٨ — ٦٩ .

فهذا عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس يقول مخاطبا عبد الرحمن :

قد طاح امرى والذى ابتغى
هين على الرحمن فى قدرته
الف من الحمر واقلل بها
لعالم اربى على بغيته
زرياب قد اعطيها جملة
وحرفتى اشرف من حرفته(٣٣)

وهذا علوية الأعسر المغنى البغدادى يشكو للمهدى العباسى ويقارن بين ما هو فيه وما غدا فيه زرياب(٣٤) .

وإلى جانب قرطبة فقد اشتهرت اشبيلية باللهو والغناء ايضا — وخاصة فى عصر ملوك الطوائف — فيذكر ابن خلدون « انه طما من صناعة الغناء بإشبيلية بحر زاخر ، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العدوة الإفريقية والمغرب ، وبها الآن منه صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها »(٣٥) .

ويقول صاحب منهاج الفكر « وبأهلها يضرب المثل فى الخلاعة ، وانتهاز فرص الزمان الساعة بعد الساعة »(٣٦) وكان يقال « إذا مات

---

(٣٣) نفح الطيب جـ ١ ص ٣٢٧ .

(٣٤) الحضارة العربية ص ٦٩ .

(٣٥) المقدمة ص ٣٠٠ وقد اشتهر بالغناء فى إشبيلية ابو بكر الإشبيلى والسوسى وما زالت آثار الموسيقى الأندلسية موجودة إلى اليوم بالمغرب وتعرف بموسيقى الأندلس (دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٢ هامش ١) .

(٣٦) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٧٦ .

عالم باشبيلية فأريد بيــع كتبه حملت إلى قرطبة لتباع فيها ، وإذا مات مغن بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية لتباع فيها »(٣٧) .

ولمــا ابتكرت الموشحات والأزجال أعجب بهــا أهل الأندلس أيمــا إعجاب ، وأخــذت تغنى مثل القصائد الشعرية ، وازدهر فن الموشحات بصفة خاصــة فى عصر ملوك الطوائف(٣٨) .

وإلى جانب المغنين كانت هناك شخصية الزامر الذى لا يستغنى عنه فى الحفلات والأعراس . ومن أشهرهم النكورى زامر عبد الرحمن الناصر الذى كان انيقــا يلبس القلنسوه من الوشى والثوب من الخــز ويتوسط الناس فى الحفل . ومنهم ابن مقيم وكان طيب المجلس صــاحب نوادر . ومن أصحاب الطنابير زربوط الطنبورى الذى قتــل هو وقنبوط الملهى فى موقعة قنطيش زمن فتنة البربر مع سليمان المستعين(٣٩) .

هــذا وقد امتد اثر الغناء الأندلسى إلى الممالك المسيحية فى أسبانيا ومما يدل على ذلك ما رواه ابن الكنانى المتطبب قال : « شهدت يوما مجلس العلجــة بنت شانجة ملك البشكنس زوج الطاغيــة شانجة بن غرســية ابن فردلند .... لبعض ترددنا عن ثغرنا إليه فى الفتنــة (الفــتـــة البربرية) وفى المجلس عــدة قينات مسلمات من اللواتى وهبهن له سليمان ابن عبد الحــكم (المستعين) أيام إمارته بقرطبة فأومأت العلجــة إلى جارية منهن فأخــذت العود وغنت :

---

(٣٧) نفح الطيب ج ١ ص ١٩٣ ، ص ٢٢١ ، نهاية الأرب ج ٢٣ ص ٣١٧ هامش ١ ، د. الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٩ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٤ .

(٣٨) عن الموشحات : انظر د. محــمد عنانى : الموشحات الأندلســية سلسلة عالم المعرفة (٣١) ســنة ١٩٨٠م .

(٣٩) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٣٩ — ٤٠ .

خليلى ما للريح تأتى كأنما
يخالطها عند الهبوب خلوق
أم الريح جاءت من بلاط أحبتى
فأحسبها ريح الحبيب تسوق
سقى الله أرضا حلها الأغيد الذى
لتذكاره بين الضلوع حريق
أصار فؤادى فرقتين فعنده
فريق وعندى للسياق فريق

فأحسنت وجودت ، وعلى رأس العلجة جاريات من القوامات أسيرات كأنهن فلقات قمر »(٤٠) .

وقد كانت هناك مجالس غناء تعقد فى قصور الأمراء والخلفاء

---

(٤٠) ابن بسام : الذخيرة ق ٣ مجلد ١ ص ٣١٨ .
وما زالت آثار الموسيقى الأندلسية باقية حتى اليوم فى أسبانيا فيما يعرف بغناء (السجيريا) الذى يغنيه النور وهو غناء شعبى أشبه بالموال ، وفيما يسمى بالسوليارس أيضا ، وهو نوع من الغناء الشعبى كذلك . ويذكر بعض الباحثين أنه كان من عادة المغنين والمغنيات فى الأندلس أن يبدأوا الغناء بجس اللحن فيكررون جملة منه وهو ما يفعله الأسبان اليوم حين يبدأون بالمقطع التالى : Ay, Ay, Ay, Ojiiomio ومعناه : آه ، آه ، آه يا حبيبى ، ويؤكد المستشرقان الأسبانيان أنطونيو أرفالو وخوليان ربيرا أن الغناء الأسبانى المشهور (بالفلامنجو) ليس إلا أثرا من آثار الغناء الأسبانى . (انظر دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٥) ، كما كان لهذا الغناء أثره فى فرنسا وخاصة فى إقليم بروفانس عند شعراء التروبادور (تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٤٢٩).

والأغنياء ، وكانت القيــان المغنيات يغنين فيما يبدو من وراء ستارة(٤١) .

ومن أمثلة هــذه المجالس التى ورد ذكرها : مجلس غناء لســعيد الخير أبى عثمان أخى عبد الرحمن الأوسط . فقــد بنى دارا جديدة ، وأقام احتفالا ومجلس غناء دعــا إليــه الكثيرين ، وحــدث أن سقط المجلس على من كان فيــه ، ونجــا سعيد بفضل عمود من الأعمدة التى كان يقوم عليها ، ومعــه جاريته (منتهى المنى) أم ولده مروان ، وماتت أربع عشرة جــارية من جواريه ، فارتجت قرطبة بالخبر ، ووصل إلى عبــد الرحمن فسر بنجاته وعوضــه عما أصــابه ، وأعطاه بكل جارية ماتت جاريتين ، وأعطاه مالا كثيرا ليعيد بناء ما تهدم من مجلسه(٤٢) . ومجلس غنــاء للمنصور بن أبى عــامر فى منيته السرور بمدينة الزاهرة ، كانت تغنى فيه جاريته أنس القلوب وكان معــه الوزير الكاتب أبو المغير بن حــزم فغنت شــعرا منــه :

يا لقومى تعجبوا من غــزال ... جائر فى محبتى وهو جــارى

ليت لو كان لى إليه سبيل ... فاقضى من الهوى أوطــارى

قال أبو المغــيرة : فلما أكملت الغناء أحسست بالمعنى فقلت :

كيف كيف الوصــــول للأقمــــار

بين سمر القنــا وبين الشــفار

---

(٤١) انظر : ابن حيان : المقتبس ص ٣٤٥ تحقيــق د. مكى ، جــذوة المقتبس ص ٧١ ، ويبدو أن لفــظ الستارة كان يطلق فى البــداية على المكان الذى تستتر فيــه الجوارى والقيان فى قصور الأمراء والوجهاء ، ثم استخدم بعــد ذلك للدلالة على هؤلاء القيــــان أنفسهم حيث كن يغنين من وراء ستارة ، ثم استخدم للدلالة على المكان الذى تقــام فيــه مجالس الغناء .

(٤٢) المقتبس ص ٢٢٥ تحقيق د. مكى ، بروفنسال : الحضارة العربية فى أسبانيا ص ٦٣ .

لو علمنا بأن حبك حـــــق
لطلبنــا الحيـــاة منك بثـــار
وإذا مــا الكرام همــوا بشىء
خاطروا بالنفــوس فى الأخطـــار

وعنــد ذلك أحس المنصور بأن فى الأمر شــيئا فأغلظ فى القــول للجارية وقال لهــا لمن تشيرين بهذا ؟ فبكت وأنشدت :

اذنبت ذنبا عظيما فكيف منــه اعتــذارى
والله قــدر هــذا ولم يكن باختيــارى
والعفو احسن شىء يكون عنــد اقتــدار

فوهب الجــارية لأبى المغــيرة ، فانصرف بهــا فى الصــباح إلى منــزله(٤٣) .

وقد كان البعض يتبسط فى مجالسه إلى درجة كبيرة ، فيظهر الممازحة والهجاء ، ويسقط مئونة التحفظ(٤٤) . فقد ذكر ابن عذارى : ان الناصر طلب من وزيره أبى القاسم لب ان يهجو الوزير عبد المــلك بن جهــور ، فامتنع خشية من لســـانه ، فطلب من ابن جهور ان يهجــو ابا القاسم ، فامتنع أيضـــا ، فقال الناصر انا اهجوه :

لـــب ابو القاسم ذو لحيــة طويلة فى طولها ميل
وعرضــها ميـــلان إن كسرت
والعقــل مافــون ومخبـــول
لــو انه احتــاج إلى غســلها
لم يكفــه فى غســلها النيــل

---

(٤٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٩ — ٢٩٠ .
(٤٤) انظر الحميدى : جــذوة المقتبس ترجمة ٥٦٠ ص ٢٦٤ .

وضحك الناصر ثم قال للب إنه هجاك فاهجه فقال :

قال امين الله فى خلقه
لى لحية أزرى بها الطول
وابن عبير قال قول الذى
ماكوله القرضيل والفول
لولا حيائى من إمام الهدى
نخست بالمنخس شوقول

وكان عندما بلغ إلى قوله (شو) قد سكت ، فقال له الناصر (قول) فأتم له البيت على نحو ما كان أضمر ، وقال : أنت هجوته يا مولاى . فضحك الناصر وأمر له بصلة(٤٥) . كما كان البعض يظهر غضبه ايضا . فقد ذكر ابن عذارى أيضا أن محمد بن سعيد المكنى بابن السليم — وكان قد تولى عدة ولايات للناصر واحتجن مالا كثيرا — حضر بعض مجالس الناصر الخاصة وشرب فأخذ منه الشراب ، فشق الناصر تفاحة بسكين وقال معرضا به « وددت أن أشق هكذا رأس من اعرف له مالا كثيرا غله دوننا ، ولم يسهم ببيت المال منه »(٤٦) .

وقد وصل الأمر بالبعض إلى حد خلع ثوب الوقار والرقص فى المجلس فقد ذكر المقرى : أن الوزير عبد الملك بن أحمد بن شهيد كان من وزراء المنصور بن أبى عامر ومن أخص ندمائه ، وكان يجتهد فى مرضاته، ويحاول أن يدخل عليه السرور والمرح . وحدث أن قام وحاول أن

---

(٤٥) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ، والقرضيل : أو القرط هو البرسيم ، وشوقول : لفظتان اسبانيتان باللهجة الرومانسية الأولى تدل على ضمير الغائب والثانية تعنى الردف أى نخست بالمنخس ردفه أى إليته (د. احمد هيكل : الأدب الاندلسى ص ٢٢٧) .

(٤٦) البيان المغرب جـ ٢ ص ٣٢٦ .

يرقص فى مجلس له متحاملا على أصحابه ، رغم مكانته وكبر سنه ، وذلك ليبهج المنصور(٤٧) .

كما ذكر ابن عذارى أيضا أن المنصور دعا جعفر بن على ابن حمدون المعروف بالأندلسى إلى مجلسه ليتخلص منه بالحيلة سنة ٣٧٢هـ ، فقدم إليه ساقى المجلس كأسا فطلب منه أن يعطيها لجعفر، فاستخفه الطرب ، وقام يرقص ، فلم يبق أحد فى المجلس إلا فعل مثله ، وشرب كثيرا حتى ثقل وانصرف مع غلمانه ، فخرج إليه البعض ، وقتله وحمل رأسه إلى المنصور فأظهر الحزن عليه(٤٨) .

موقف الناس من الغناء بالأندلس :

وجد الغناء والموسيقى بالأندلس قبولا يكاد يكون عاما ، ولم يتحرج من سماعه الكثيرون ، بينما تورع عنه بعض الفقهاء والعلماء(٤٩) .

وقد تناول ابن حزم الأندلسى الغناء من الناحية الفقهية فى رسالته (الغناء الملهى وهو هو مباح أو محظور) ، ورد الأحاديث التى تقول بحظره(٥٠) .

إلا أنه وجد من بين علماء وفقهاء الأندلس من أنكر مذهب ابن حزم ، ورد عليه . وعندما أراد ابن حيان أن ينتقد أحد الفقهاء الذين يبيحون الغناء قال فيه « إنه رجل مرخص للسماع ، صب بإنشاد الأغانى

---

(٤٧) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٠ .

(٤٨) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٨٠ — ٢٨١ .

(٤٩) عن موضوع الغناء وموقف العلماء منه انظر : ابن الجوزى : تلبيس إبليس ص ٢٢٣ — ٢٥٠ ، الشيخ محمد الغزالى : السنة بين الفقه والتشريع ، مائة سؤال عن الإسلام جـ ١ ص ١٧٥ وبعدها .

(٥٠) رسائل ابن حزم ص ٩٣ وبعدها .

الفاتنة »(٥١) فجعل ذلك من معـــايبه . والحقيقــة أنه كان فى الأندلس كغيرها من المجتمعات الإسلامية دائما رأيان أو فلسفتان : فلسفة تقـــوم على التشديد والتحريم فى كثير من الأشياء ، وفلسفة تقوم على التوسط والاعتدال والمرونة وعـــدم التضييق ، والحكم على الأشياء من منطلق أن الأصل فيها هو الإباحة ما لم يرد نص قاطع بتحريمها .

وقد تغلبت هذه الفلسفة فى كثير من الأوقات ، وكانت وجهة نظرها فى الغناء أنه كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح ، ومن غنى أو استمع إلى غناء شريف المعنى ، طيب اللحن ، غير مثير للغرائز ، أو مله عن الفرائض ، أو مؤد إلى الوقوع فى المحرمات فـــلا حرج فى ذلك ، أما الحرج فيأتى من الغناء الهابط المعنى واللحن ، المثير للغرائز ، الملهى عن الفرائض ، المؤدى للوقوع فى المحظور . ويرى أصحاب هـــذه الفلسفة ومنهم ابن حزم أنه لم يرد حديث صحيح فى تحريم الغنـــاء(٥٢) .

ومن العسير أن نثبت أن كل رجـــال الدين فى الأندلس كانوا يكرهون الغنـــاء ، أو يشددون النكير على أهـــله ، بل كان منهم من يستمع إلى الغناء الجيـــد ويعجب به ولا يجـــد حرجا فى ذلك . ومن أمثلة ذلك قصة قاضى الجماعة بقرطبة محمد بن أبى عيسى ، وكان عنـــد رجل من بنى حدير — وكانوا من بيوتات قرطبـــة — وجارية له تغنى بتلك الأبيات :

طابت بطيـــب لثـــاتك الأقـــداح
وزهـــت بحمرة خـــدك التفـــاح
وإذا الربيـــع تنسمت أرواحـــه
طابت بطيـــب نسيـــمك الأرواح

---

(٥١) ابن بسام : الذخيرة ١/٢ ص ١٠٠ .

(٥٢) د. محمد الخطيب : دراســـات فى تاريخ الحضـــارة الإســـلامية ص ١٧٠ — ١٧١ .

وإذا الحنــادس البســت ظلماءها

فضياء وجهك فى الدجى مصباح

فكتب القاضى هــذه الأبيــات على يده ، وخــرج للصلاة عــلى جنازة وهى مكتوبة على باطن كفه لم يغسلها(٥٣) .

ويذكر ابن عبد ربه صــاحب العقــد ــ وكان محافظا ــ مر ببعض الأحيــاء ، فسمع مصابيح جارية الكاتب أبى حفص عمر بن قهليل تغنى ، فأعجبه غناؤها ، فوقف تحت الروشن منصتا حتى فرغت ، ثم ذهب إلى احــد المساجد فأخــذ لوحا لبعض الصبية الذين كانوا يتعلمون وكتــب عليــه :

يا من يضن بصوت الطائر الفرد

ما كنت أحسب هذا البخل من أحد

لو أن أسماع أهل الأرض قاطبــــة

أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد

فلما قرأ سيدها هــذه الأبيات ، خرج مسرعا ولحــق به ، وأدخله بيته ورحب به(٥٤) .

ويصف لنــا ابن حزم فى كتابه (طوق الحمامة) كثيرا من مجــالس الغناء ، وما كان يغنى فيها من شعر ، ويصور لنــا شــدة تأثره ومن معه بما كان يسمع فيها من غنــاء .

ويذكر أن حفنى العــامرية إحــــدى بنــــات المظفر عبــد المــلك ابن المنصور كلفته بصنع أبيــات تلحنها ففعل ، وذكر أنها كانت تجيــد

---

(٥٣) جذوة المقتبس ترجمة ١٠٧ ص ٧٥ ، بغيــة الملتمس ترجمة ٢١٨ ص ١١١ .

(٥٤) جــذوة المقتبس ص ٩٥ .

الغناء ولهـا صنعة رائعة فى الإنشاد(٥٥) .

ويصف لنا التجيبى (شارح المختار من شعر بشار) مدى حبـه للغناء وهو مريض بمدينة مالقـة سنة ٤٠٦هـ فيقول « وكنت إذا جننى الليل اشتد سهرى ، وخفقت حولى أوتار العيـدان ، والطنابير ، والمعـازف من كل ناحيـة »(٥٦) .

***

---

(٥٥) طـوق الحمامة ص ٣١ ، ١١٠ ، ١١٤ .

(٥٦) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤١ ، ٤٢ .

الطعـــام والشراب

لما فتح المسلمون من عرب وبربر الاندلس ، كانوا يعتمدون غالبا على الأطعمة التى عرفوها فى بلادهم ، حتى عرفوا الكثير من ألوان الأطعمة التى كانت موجودة فى هـذه البلاد شيئا فشيئا ، باستقرارهم واختلاطهم بالسكان ، فأخـذت أطعمتهم تتغير وتتعدد ألوانها .

وقد كان من أطعمة العرب المعروفة : الثريد ، والخريزة ، والعصيدة والربيكة ، والجشيشة ، والسخينة وغيرها(١) .

وبمضى الزمن وبمزيد من الاختلاط والتزاوج بين المسلمين والأسبان اخـذت أنواع من الأطعمة الأسبانية تعرف طريقها إلى موائد المسلمين . وبدأت ألوان من التـرف والبذخ تتسرب إلى أطعمـة الأمراء والخلفـاء والخاصة ، حتى كان بعضهم إذا جلس إلى الطعام يقف الأطباء بين يديه ومعهم (الجوارشنات) أو الأدوية الهاضمة ، إلى جانب أنواع الشراب الأخرى ، كما أن البعض كان يستشير الأطباء فيما يأكل ويشرب(٢) .

ولم تمدنا المصـادر الأندلسية إلا بالقليل النـادر فى هـذا المجال ..

---

(١) انظـر د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسـلام ج ١ ص ٥٧٧ ، ج ٢ ص ٤٢٧ . الخريرة : اللحم يقطع صغيرا على المـاء فإذا نضـج ذر عليـه الدقيق ، والعصيدة : ماء ودقيق وسمن . والربيكة : من البر والتمر المعجون بالسمن ثم يسوى ، والجشيشة : دقيق مجروش خشن يوضع فى قدر ويلقى عليه لحم أو تمر ويطبخ ، والسخينة : طعام من الدقيق والسمن كان العرب يكثرون من أكله فى أحـوال الشدة . (انظر : الحياة الاجتماعية فى العصر الأموى ص ٢٠٤ — ٢٠٥) .

(٢) انظر : د. طه ندا : فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٠١ .

ولكننا نستطيع من خـلال الأمثلة القليلة التى عثرنا عليها من أخبـار الأمراء والخلفـاء الأمويين أن نتبين مقـدار الترف والبذخ فى طعامهم .

فقـد ذكر المقرى : أن عـدد الفتيان الصقالبة بمدينة الزهراء بلغ ثلاثة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين فتى دخالتهم من اللحم كل يوم بخلاف الطير والحوت (السمك) ثلاثة عشر ألف رطل . أى بمعدل نحو رطل للفرد الواحـد أو أقل قليـلا ، وأن المرتب من الخبز لحيتان بحيرة الزهراء ١٢ ألف خبزة (رغيف) كل يوم ، وأنه كان ينقع لها من الحمص الأسود ستة اقفزة كل يوم(٣) .

كما ذكر أيضـا أن المنصور بن أبى عامر كان له كل يوم اثنا عشر ألف رطل من اللحم عـدا الصيد والطير والحيتان ، وهـذا لطعامه ومن فى قصره بمدينة الزاهرة من الخـدم والحشم والجوارى(٤) .

ومما يدل على مدى التقدم والازدهار فى هـذا العصر أنه كانت هناك أفران عامة ـــ كما يبدو ـــ يجهز فيها الناس طعامهم كما فى عصرنا الحاضر. فقـد ذكر ابن حيان : أن سعيد بن سليمان القاضى صلى صلاة الجمعة فى المسجد الجامع بقرطبة ، ثم خرج متوجها إلى داره ، فلما انتهى إلى باب الفرن الذى كان يطبخ فيـه قال لصاحبه : أطبخت خبزتى ؟ قال : نعم ، فأخذها تحـت إبطه ، وسـار إلى منزله ومعه جماعة أخروا دوابهم إجلالا له حتى أوصلوه (٥) .

وعندما قـدم زرياب إلى الأندلس جاء معـه بالكثير من ألوان الطعام البغدادى ، وأخـذ عنـه الأندلسيون طـرق طهيه ، وابتدع ألوانا أخرى

---

(٣) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٥
(٤) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٣
(٥) ابن حيان : المقتبس ص ١٩٠ تحقيق د. محمود مكى .

من الأطعمة المطيبة بالتوابل والأفاويه ، كما أدخل لونا أطلقوا عليه اسم (النقايا) يصنع بماء الكزبرة الرطبة المحلاة بالسنبوسق والكباب ، وابتكر نوعا من (التقلية) نسبت إليه فأصبحت تعرف بتقلية زرياب ، ويطبخ فيها الدجاج والأرانب فى ماء كثير الأفاوية والطيب .

ولعل الحلوى التى تعرف (بالزلابيا) حتى عصرنا تنسب إليه أيضا بعد التحريف عن زريابيا(٦) .

كما أنه نظم طريقة إعداد المائدة ، وتقديم الطعام عليها ، حيث بدأ بالحساء ثم اللحوم والطيور ، ثم الفاكهة والحلوى من الفطائر المصنوعة بالجوز واللوز والعسل ، والعجائن المحشوة بالبندق والفستق ، والمعقودة بالفواكه . كما أنه فضل تقديم الماء والشراب فى أكواب زجاجية شفافة على آنية الذهب والفضة والأكواب المعدنية ، وجعل غطاء المائدة من الأديم أو الجلد الرقيق لسهولة تنظيفه بدلا من الغطاء المصنوع من القطن أو الكتان .

وقد شاعت تقاليد زرياب ومبتكراته فى مجال الطعام والشراب ، وآداب المائدة وبخاصة فى أوساط الطبقة العليا وعلى رأسها الأمراء والخلفاء(٧) .

أما عن الشراب : فقد كان هناك من يشرب الخمر ، وقد كانت زراعة الكروم منتشرة فى الأندلس قبل الفتح ، وبعده أيضا ، وكان يزرعها بدون شك كثير من الأسبان غير المسلمين لصناعة الخمور ، لدرجة

---

(٦) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٤٢٧ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٣٣ .

(٧) انظر : لين بول : قصة العرب فى أسبانيا ص ٧٩ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ٧١ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٤٢٧ ، د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ١١٤ ، ص ١١٥ ، محمد دياب : تاريخ العرب فى اسبانيا جـ ١ ص ١٦٦ — ١٦٧ .

أن الخليفة المستنصر عـزم على قطع أشجارها فى جميع أنحاء الأندلس ، حتى يقضى على صناعة الخمر ، وشاور فى ذلك فقيل له : إنهم يعملونها من التين وغيره من الفاكهة فتوقف عن ذلك ، ولكنه أمر بإراقة الموجود من الخمور وتشدد فى ذلك(٨) .

ويذكر ابن سـعيد المغربى أن الأمير عبد الرحمن الأوسـط استفتح دولتـه بهدم فنـدق الخمر ، ويبدو أنه فنـدق اشتهر بتقديم الخمر فسمى بهذا الاسم(٩) . ويذكر ابن عـذارى : أن الأمير عبـد الله بن محـمد ابن عبد الرحمن « كانت اللذات فى أيامه مهجورة ، ولم يشرب قـط نبيذا ولا مسكرا(١٠) . كما كان هناك أيضا من يشرب النبيذ على مذهب أهـل العراق مثل : أحمد بن ابراهيم بن عزرة اللخمى ، وكان من أهـل قرطبة ، وقد وصـفه ابن الفرضى بأنه « كان مغفلا ، وكان يذهب فى شرب النبيذ المصلب مذهب أهـل العـراق » وقـد توفى سـنة ٢٩٠هـ زمن الأمير عبد الله(١١) ، ومثل : صهيب بن منيع القرطبى (ت ٣٠٨هـ) ، الذى تولى القضاء بقرطبة ، ويذكر الحميدى : أنه شرب مرة مع موسى بن حدير الحاجب وكان من عظماء الدولة ، فلما غفل أمر موسى باختلاس خاتمه ، وكان نقشه (يا عليهـا كل عيب كن رءوفا بصهيب) ، وأحضر نقاشـا فزاد عليه (واستر العيب عليه إن فيه كل عيب) ثم رده ، فظل يختـم به زمنا حتى فطن لذلك فغيره(١٢) .

---

(٨) ابن الآبار : الحـلة السيراء ج ١ ص ٢٠٣ ، الحميدى : جـذوة المقتبس ص ١٣ ، الضبى : بغيـة الملتمس ص ١٨ ، المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٤ — ١٨٥ .

(٩) المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٤٦ .

(١٠) البيان المغرب ج ١ ص ١٥٤ .

(١١) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٢٣ ترجمة (٥٧) . انظر ما ذكرناه عن مسألة شرب النبيذ فى الفصل الثالث .

(١٢) جـذوة المقتبس ص ٢٤٥ ترجمة ٥١٣ .

الملابس والأزياء والزينة

تميز الأندلسيون بعدة خصائص وصفات مميزة . وصفهم بها ابن سعيد المغربي : من أهمها حبهم الشديد للنظافة ، وميلهم الواضح للتأنق في ملبسهم ، وانفرادهم بتقاليد في الزى تختلف عن أهل الأمصار الأخرى ، وحسن تدبيرهم في شؤون حياتهم ، وحبهم للعمل وكراهيتهم للبطالة والتسول ، ورغبتهم الشديدة في العلم والتعلم ، وتدينهم ومحافظتهم على قواعد ديانتهم والمحافظة على إقامة حدودها ، وإنكار التهاون في تعطيلها وقيامهم بذلك إذا ما أحسوا تهاونا من السلطان في إقامتها .

وحبهم الشديد للغناء وشغفهم بسماعه حتى إنهم ليفضلون الضرورى من العيش مع سماعه على العيش المترف دونه . وهذا يدل على صفة بارزة فيهم وهى رقة عواطفهم ورهافة أحاسيسهم ، هذا بالإضافة إلى ظاهرة القلق والتناقض في حياتهم أو التطرف في الأمور ، وتدبير المعاش والاحتياط فيه حتى ينسبون إلى البخل .

يقول ابن سعيد « وهم أشد خلق الله اعتناء بنظافة ملابسهم وفرشهم وغير ذلك ، وفيهم من لا يكون عنده إلا قوت يومه فيصوم ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها »(١٣) .

وقد أشار ابن سعيد أيضا إلى زى أهل الأندلس في عصره — ونعتقد أنه لا يختلف كثيرا عما كان عليه الحال في العصر الأموى فقال : « وأما زى أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم لاسيما في شرق الأندلس ، وأما أهل غربها فلا تكاد ترى فيهم قاضيا أو فقيها مشارا إليه إلا وهو بعمامة ، وأما الأجناد والعامة فقليل من تراه بعمامة في الشرق

---

(١٣) انظر : نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٤ .

او الغرب ، وكثيرا ما تزيا السلاطين والأجناد بزى النصارى المجاورين ، واكثر عوامهم من يمشى دون طيلسان ، إلا أنه لا يضعه على رأسه منهم إلا الأشياخ والمعظمون ، وغفائر الصوف كثيرا ما يلبسونها حمرا أو خضرا ، واما الصفر فمخصوصة باليهود ، ولا سبيل ليهودى أن يتعمم البتة والذؤابة لا يرخيها إلا العالم ، ولا يصرفونها بين الأكتاف ، وإنما يسدلونها من تحت الأذن اليسرى . وإذا رأوا فى رأس مشرقى داخل إلى بلادهم شكلا منها اظهروا التعجب والاستظراف ، ولا يأخذون أنفسهم بتعليمها لانهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم ، وكذلك فى تفصيل الثياب »(١٤) .

ومن هذا النص يتضح أن الأندلسيين وخاصة فى شرق الأندلس كانوا يتميزون بكشف رءوسهم ، وعدم لبس العمائم ونحوها كما كان يفعل المشارقة . واما الذين يلبسون العمائم وخاصة فى غرب الأندلس فبحكم مناصبهم مثل القضاة والفقهاء ، ويتخذون عمائم مغايرة عن عمائم أهل المشرق . ولذلك كانت ملابسهم تتميز بتفصيلات وهيئات وأشكال خاصة بهم لا تكاد تعرف فى المشرق . وربما كان من أهم مظاهر تلك المغايرة اتخاذهم البياض بدلا من السواد فى الحداد . ومما يشير إلى تلك العادة قول الشاعر أبى الحسن الحصرى :

إذا كان البياض لباس حزنى
باندلس فذاك من الصواب
الم ترنى لبست بياض شيبى
لأنى قد حزنت على شبابى(١٥)

---

(١٤) نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣ — ١٠٤ .

(١٥) نفح الطيب جـ ١ ص ١١١ — ١١٢ ، د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٤٥ — ٤٦ ، احمد امين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٨ .

وقد كانت الملابس ذات الألوان الزاهية أو (المصبغات) محبوبة في الأندلس ، وأحبها الكثيرون حتى أولئك الذين كانت تقتضي مناصبهم شيئا من الحشمة والوقار والاقتصاد في الزينة واللباس . فالقاضي محمد ابن بشير قاضي قرطبة في عهد الحكم الربضي — والذي اتصف بالعلم والورع — كان يعقد جلساته أحيانا في جامع قرطبة في إزار مورد ورداء معصفر وشعر مصبوغ .

حيث يذكر الخشني : أنه أتاه رجل لا يعرفه فلما نظر إلى زيه من الجمة المفرقة والرداء المعصفر ، والكحل والخضاب ، والحناء في يديه ، اعتقد أنه ليس القاضي ، فطلب من بعض الحاضرين أن يدلوه عليه ، فأشاروا إليه فقال لهم : إني أراكم تستهزءون بي أسألكم عن القاضي وتدلونني على زامر ، فزجروه من كل ناحية فناداه ابن بشير وقال : اذكر حاجتك فذكرها ووجد من العدل والانصاف فوق ما كان يظن(١٦) .

وكان الفقيه يحيى بن يحيى الليثي — زعيم الفقهاء في عهد الحكم ابن هشام وعبد الرحمن الأوسط — من أشد الناس تعظيما لهذا القاضي وثناء عليه في حياته وبعد مماته . وقد سأل عن لبس العمائم فقال هي لباس الناس في المشرق ، وعليه كان أمرهم في التدين ، فقيل له لو لبستها لاتبعك الناس في لباسها . فقال : لقد لبس ابن بشير الخز

---

(١٦) قضاة قرطبة ص ٣٢ ، البيان المغرب جـ ١ ص ٧٩ ، ٨١ ، تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٢٢٤ ويقول لسان الدين ابن الخطيب عن أهل غرناطة في زمنه ونعتقد أن فيه شيئا من العصر الأموي : « ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاشي بينهم الملف المصبوغ شتاء ... فتبصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة في البطاح الكريمة » . أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٣ .

فلم يتبعه الناس ، وكان أهــلا لأن يقتدى به فلعلى لو لبســت العمامة لتركنى الناس ، ولم يتبعونى كما تركوا ابن بشير(١٧) .

وكان القاضى سعيد بن سليمان الذى ولى القضـــاء فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط يجلس للحــكم فى المسجد وعليه جبـــة صـــوف بيضـــاء ، وفى رأســـه أقروف أبيــض وغفـــارة بيضـــاء من نفس القمـــاش(١٨) .

وهـــذا مما يدل على عـــدم تقيـــد جميع أفراد كل طائفة أو طبقـــة بلبـــاس أو زى معين ، ومدى حـــرية كل شخص فى اختيار ما يناســـبه من الملابس . بيـــد أن اللبـــاس العـــام الذى كان يلبسه النـــاس هـــو الطيلسان الموصول به غطـــاء الرأس — مثل لبـــاس المغـــاربة الآن — أو الطيلسان مع العمامة بالنسبة للقضـــاة والفقهاء فى غرب الأندلس .

وكان الشـــيوخ والمعظمون يغطون رءوسهم بغطـــاء الطيلسان إذا لبسوه ، أما العـــامة فيتركونه متدليـــا خلف رقبتهم . كما صـــنع البعض القلانس من الخـــز وكان يغطى بهـــا رأسه كمحـــمد بن بشير الذى كان

---

(١٧) الخشنى : قضـــاة قرطبـــة ص ٣٦ .

(١٨) قضـــاة قرطبـــة ص ٦٢ — ٦٣ ، المقتبس : ص ١٨٩ تحقيـــق د. محمود مكى . يبدو أن الأقروف كان غطـــاء للرأس على شـــكل مخروط وأحيانا كانت كلمة الغفارة تطلق على البرنس أو نوع من الطيلسانات (الأدب الأندلسى ص ٣٥) . وكانوا يطلقون على القلنسوة اسم القالص (القالس) وكان يلبسها الفقهاء ، وكان الفقيه المقلص عندهم هـــو الذي يحفظ الموطأ أو عشرة آلاف حديث والمـــدونة . (د. إحســـان عبـــاس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٦٥ — ٦٦) .

يصلى الجمعة بالناس فى جـامع قرطبة وعليه قلنسوة خز(١٩) وكانت القلانس غطاء للرأس عنـد أكثر العـامة .

وكان الكثيرون يستعملون غفـائر الصـوف الحمراء أو الخضراء ، ويضعونها تحت القلانس ، ويتدلى جـزء منها على القفـا ، وكان اليهود لا يلبسون إلا الغفائر الصفراء تمييزا لهم .

وكان كثيرون من العلماء يرخون ذؤابات عمائمهم إذا ما تعمموا ، ولم يكونوا يجعلونها بين الأكتاف ، وإنما يسدلونها تحـت أذنهم اليسرى(٢٠). كما عرف البرنس وخاصـة بين البربر البرانس الذين تعودوا عليـه فى بلادهم ، ويبدو أنهم نقلوه إلى الأندلس وانتشر بها(٢١) .

ويشير المقرى إلى أن المنصور بن أبى عامر حجر على الخليفة هشام المؤيد بحيث لم يكن يراه أحـد فى الغالب حتى لا يلتف النـاس حـوله ، وكان إذا أركبه للنزهة جعل عليـه برنسا ، وعلى جواريه مثل ذلك فـلا يعرف منهن(٢٢) .

كما كان الأندلسيون يطلقون على الثوب اسم الحـلة وتتـكون من قطعتين الرداء والإزار ، وكانت تصنع من الكتان أو القطن أو الديبـاج أو من الحـرير الموشى بخيوط ذهبيـة . وكانت هناك أنواع من الملابس الفاخـرة مثل الوشى اليوسفى والوشى الهشامى يلبسها الخلفاء والأمراء وبعض القضـاة والعلماء . فقد ذكر ابن حيان : أن الأمير عبد الرحـمن الأوسط أراد أن يركب للنزهة مع بعض كرائمه على العـادة ، فطلب من

---

(١٩) الخشنى : قضـاة قرطبـة ص ١٨ ، ٣٠ .
(٢٠) أحمد أمين : ظهر الإسـلام جـ ٣ ص ٨ ، د. الشـكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٤ .
(٢١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٩ .
(٢٢) نفح الطيب جـ ١ ص ٥٩١ .

الراشدة القائمة على رأســه أن تدخل إلى خـزانة الكسوة لتأتى برداء يوسفى من أفخر أنواع الوشى ، وترسل به إلى عريف الخياطين بالقصر ليصنعه ثوبا يلبسه فى النزهة غـدا(٢٣) .

وورد ذكر الوشى الهشامى فى قول الشاعر سعيد بن مؤمن فى وصف منية قنتيش (كنتيش) التى بناها عبد الرحمن الأوسط وما فيها من مبان فاخـــرة :

ولابسة وشيا كأن رقيقــه   رقيق الهشامى العتيق المنضد(٢٤)

وقد كان لتقدم صناعة النسيج فى الأندلس أثر كبير فى اهتمام أهلها بالزى واللباس ، حيث كانت هناك عـدة مدن تشتهر بصناعة المنسوجات المتنوعة ، وخاصة مدينة المرية التى كانت تعتبر مركز صـناعة المنسوجات الفاخـرة من الديباج والسقلاطون والأصبهانى والجرجانى والعتابى وغير ذلـك .

وكانت هـذه المنسوجات — برغم أن بعضها يحمل مسميات مشرقية — تصنع فى الأندلس وتصدر للمشرق وأوربا التى شغف كثير من أمرائها وملوكها بهـا حتى أن بعضهم طلب أن يكفن فى ثيـاب أندلسية من صنع هـذه المدينة مثل الأمير دون فيليب وزوجتــه ، ودون رودريجو خيمنث دى دارا(٢٥) .

وقد كان الأندلسيون يتخذون الخفاف ، ويلبسون الجباب والثيـاب القطنية والسراويل ، وكانوا يطلقون كلمة الغفارة على البرنس ، أو نوع

---

(٢٣) ابن حيان : المقتبس ص ١٦١ — ١٦٢ تحقيق د. مكى .

(٢٤) المقتبس : ص ٣٢٦ — ٣٤٩ . تحقيق د. مكى .

(٢٥) د. السيد سالم : تاريخ مدينــة المرية ص ١٦٠ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٤ .

من الطيلسانات ذات الغطاء . وكلمة الأرجوان على الصوف الأحمر فقط رغم شمولها للأحمر من الصوف وغيره . وكلمة الخمار على ما تغطى به المرأة رأسها من شقاق الحرير فقط رغم شموله لكل ما تغطى به المرأة رأسها من ثياب . كما كانوا يطلقون كلمة الجفافة على ما يجففون به الماء أو غيره من قطع القماش ، وكلمة البيطير على قطعة القماش التى توضع حول عنق الطفل لتصون ثيابه من اللعاب والطعام(٢٦) .

وكان من زينتهم الخضاب بالحناء والكتم والكحل والتطيب بالعنبر والغالية وغيرها .

أما عن ملابس النساء فكان طابعها الأناقة والنفاسة والترف وخاصة نساء الطبقة الراقية . حيث كن يتفنن فى لبس المصبغات والمذهبات والديباجيات من الثياب ، ويبالغن فى زينتهن من التحلى بالذهب والجوهر بالإضافة إلى التطيب بأنواع الطيب المعروفة فى ذلك الوقت(٢٧) .

يقول لسان الدين ابن الخطيب فى وصف أهل غرناطة — وهو وصف يمكن أن نعممه على أهل الأندلس إلى حد ما حيث لا تتغير العادات والتقاليد بين يوم وليلة — « صورهم حسنة ، وأنوفهم معتدلة غير حادة ، وشعورهم مرسلة ، وقدودهم متوسطة معتدلة الى القصر ، وألوانهم زهر مشربة بحمرة ، وألسنتهم فصيحة يتخللها إعراب كثير وتغلب عليهم الإمالة ،

---

(٢٦) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ١١٦ ، د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٣٥ .

(٢٧) انظر المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٧٠ حيث يذكر من أنواع الطيب العنبر الجيد المقدم على أجناسه فى الطيب ، ومن أنواع البخور عود الألنجوج الذى يضارع العود الهندى ذكاء وعطر رائحة . ويذكر الزعفران أيضا ، وانظر البيان المغرب جـ ٢ ص ٨١ ، ٩٢ ، ص ١١٣ ، ١٢٠ ، والحلة السيراء جـ ١ ص ٤٥ — ٤٦ .

ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاشى بينهم الملف المصبوغ شتاء ، فتبصرهم فى المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة فى البطـاح الكريمة ، وزى جندهم فى القـديم زى أقيالهم وأضدادهم من جيرانهم الإفرنج . وحريمهم حريم جميل موصوف بالحسن ونعومة الجسم ، واسترسال الشعر ، ونقـاء الثغر ، وطيب النشر ، وخفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن المحـاورة ، يندر فيهن الطول ، ويبالغن فى التفنن فى الزينة والمظاهرة بين المصبغات ، والتنافس بالذهبيات والديباجيات ، والتماجن فى أشـكال الحلى إلى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها عين الدهر »(٢٨) .

هـذا وقد كان لقدوم زرياب أثر كبير فى تطـور الزى فى الأندلس حيث ادخل كثيرا من التقاليد فى هـذه الناحية ، ومنها انه جعل لكل فصل من فصول السنة ملابس مناسبة ، وجعل هنـاك مواعيد للبسها فملابس الربيـع خفيفة ملونة من الخـز والدراريع التى لا بطـانة لها ، وملابس الخريف قريبة منها إلا انهـا مبطنة ، أما ملابس الصيف فجعلها خفيفـة بيضـاء ، وملابس الشتاء ثقيـلة داكنة ، وإذا اشتد البرد لبسوا الفراء ، وقـد عـدل فى هيئات الثياب وتفصيلها فقصرها ، وضـيق أكمامها بعد ان كانت واسـعة ، واعطاها هيئة جميلة(٢٩) .

كما ابتكر زرياب انماطا جديدة لترتيب الشعر وتصفيفه فقـد كان

---

(٢٨) الإحاطة فى اخبار غرناطة جـ ١ ص ٣٥ القاهرة سنة ١٣١٩هـ .
احمد امين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٣ — ٤ ومن المعروف أن سكان غرناطة كانوا خليطا من سكان الأندلس الذين التجأوا إليها بعـد سقوط الأندلس شيئا فشيئا ومن هنا يمكن التعميم .

(٢٩) انظر د. الشـكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٥ — ٨٦ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٤١٩ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٩٠ .

اهل الأندلس رجالا ونساء يرسلون الجمة مفروقة من وسط الجبين فينسدل شعرهم عاما على الصدغين والحاجبين ، فلما رأوا زرياب وأولاده ونساءه مقصرين شعورهم دون جباههم ، وقد سووها مع حواجبهم ، وأداروها (٣٠) وراء آذانهم ، وأسدلوها على أصداغهم هوت نفوسهم إلى ذلك واستحسنوه فأخذوا فى تقصير شعورهم من الجانبين وإرسالها وراء آذانهم ، كما ابتكر للنساء تصفيفات عرفت باسمه ومنها (تصفيفة الجبهة) وهى إنزال الشعر على الجبين مع قصه فى موازاة الحواجب كما يفعل بعض النساء اليوم .

كما ابتكر أنواعا من العطور فابتعد عن العطور الثقيلة كالعنبر والدهن ومال إلى الى العطور المستخرجة من الزهور (٣١) .

وهكذا تحكم زرياب فى كثير من العادات الاجتماعية فى الأندلس من ناحية الملبس والأزياء والزينة ، كما تحكم فى كثير من العادات فى الطعام والشراب ، وآداب المجالس ، والموسيقى والغناء .

يقول لين بول « وتحكم زرياب فى الأزياء والعادات كما كان يتحكم بترونيس وبروميل الوسيم » (٣٢) .

---

(٣٠) محمد دياب : تاريخ العرب فى أسبانيا ج ١ ص ١٦٦ .

(٣١) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٩٠ .

(٣٢) العرب فى أسبانيا ص ٧٩ ، بروفنسال : الحضارة العربية فى أسبانيا ص ٧٠ — ٧٢ ، وبترونيس او بترون كان قصاصا يونانيا اشتهر بكتاباته الساخرة وأعجب به نيرون وضمه إلى حاشيته . وبروميل انجلزى ولد فى لندن سنة ١٧٧٨م وكان مشهورا بالأناقة ابتكر كثيرا من الأزياء حتى لقب بملك الأناقة فى عصره وتوفى سنة ١٨٠٤م (انظر تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٩ ، الحضارة العربية فى أسبانيا ص ٧٠ هامش) .

ويقول المستشرق الإسبانى بالنسيا : « لم يستهو زرياب أفئدة أهل قرطبة بصوته وجمال أغانيه فحسب ، بل بآدابه الاجتماعية وملابسه وطريقته فى إرسال شعره ، وولائمه البديعة التى كان يتفنن فى ترتيبها فأخذ الناس عنه كل ذلك ، وأصبح ذوقه مقياسا لأهل قرطبة ، وأصبحت ملابسه النموذج الذى يحتذبه القرطبيون فى إعداد ملابسهم »(٣٣) .

ونستطيع أن نقول : إنه لم يستهو أفئدة أهل قرطبة فقط بل الأندلسيين بصفة عامة ، وأن ذوقه لم يكن مقياسا لأهل قرطبة فقط بل للأندلسيين على وجه العموم .

* * *

---

(٣٣) تاريخ الفكر الأندلسى ص ٤٠ ترجمة د. حسين مؤنس .

الأعياد والمواسم والحفلات

لم تمدنا المصادر بالكثير من الأخبار فى هذا الصدد ، وإن كنا نستطيع من خلال الإشارات والروايات القليلة التى وردت أن نقول : أنه كانت هناك أعياد دينية إسلامية شارك الأندلسيون إخوانهم المسلمين فى بقية العالم الإسلامى الاحتفال بها وعلى رأسها عيدي الفطر والأضحى .

وقد كان الأمراء والخلفاء يخرجون فيهما لحضور الصلاة فى موكب حافل إلى المصلى(١) ، ثم يعودون إلى قصورهم حيث يتوافد عليهم كبار رجال الدولة للتهنئة ، وما يتبع ذلك من ولائم تقدم لهم ، وأعطيات وهبات تمنح لهم .

ويبدو أنهم أخذوا يحتفلون أيضا بالمولد النبوى بعد أن عرف الاحتفال به فى المشرق وخاصة فى مصر زمن الفاطميين(٢) ، ولعل ذلك

---

(١) كان من أشهر المصليات فى قرطبة مصلى المصارة ومصلى الربض .
وكان مصلى المصارة يقع على الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير ، ولفظ (مصارة) انتقل إلى المغرب من الأندلس ، ويعنى الفضاء الفسيح الواقع خارج المدينة ، ويعد من متنزهاتها ، ولم تكن المدن الأندلسية تخلو من مصارة يخرج إليها الناس للنزهة فى أيام الأعياد ، وما زالت هناك مواضع فى أسبانيا تحمل نفس الإسم AL Muzara وكذلك فى المدن المغربية أيضا .
أما مصلى الربض : فكان يقع على الضفة اليسرى من النهر جنوب قرطبة ، على مقربة من مصلى الربض ، وكان مصلى المصارة أقرب من الربض ، ولذلك كان الأمويين يصلون به غالبا صلوات الأعياد والاستسقاء (انظر المقتبس ص ٢٩٣ — ٢٨٤) تحقيق د. محمود مكى .

(٢) السندوبى : تاريخ الاحتفال بالمولد النبوى ص ٦٢ مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٩٤٨م .

يرجع إلى تعظيمهم للنبي ﷺ بالاحتفال بمولده ودراسة سيرته الشريفة ، وإلى الشعور الديني القوي لديهم الذي أدى بهم إلى التحدي لإثبات وجودهم في هـذه البلاد البعيدة التي تقع في أوربا المسيحية ، وهـذا يفسر لنـا تلك الظاهرة الواضحة التي تميزت بهـا الأندلس كدولة إسلامية في أوربا ، وهي ما يطلق عليه البعض ظاهرة (المشاركة والتحدي) .

وقد حرص الأندلسيون والمغـاربة على الاحتفال به في العصـور المتأخرة احتفـالا كبيرا لإيقـاظ الشعور الديني وخاصـة بعـد تساقط القواعد الإسلامية في الأندلس واحـدة إثر الأخرى وذلك على المستويين الرسمي والشعبي بمواكب الشموع التي لازالت موجودة حتى اليوم ببعض مدن المغرب وخاصة مدينة سـلا(٣) .

كما يظهر أنهم كانوا يحتفلون كذلك بيوم عاشوراء بالصيام والتوسعة على أنفسهم وأولادهم في هـذا اليوم . فقد ذكر ابن حيان وابن عذارى والمقري : أن الفقيـه عبد الملك بن حبيب كتب إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط في يوم عاشوراء :

لا تنس لا ينسك الرحمن عاشوراء
واذكره لا زلت في الأحيـاء مذكورا
قال الرسول صلاة الله تشمله
قولا وجدنا عليه الحق والنورا
فارغب فديتك فيما فيـه رغبنـا
خيـر الورى كلهم حيـا ومقبورا(٤)

---

(٤) د. أحمد العبادي : المسلمون في أرض الأندلس : مجلة المختار من عالم الفكر عـدد (١) ص ١٤١ . الكويت سنة ١٩٨٤م .

(٤) المقتبس ص ١٨٤ — ١٨٥ ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٦ ، البيـان المغرب ج ٢ ص ٢١١ . وقد ذكر المقري البيت الثالث بصيغة مختلفة ، وارجع ذلك إلى أنه قد نسي لفظـه لطـول العهد به فكتبه بالوزن والمعنى هكذا :

فيمن يوسع في إنفاق موسمه ... أن لا يزال بذاك العام ميسورا

ومن هـــذا نستشف أن الخلفاء والأمراء كانت لهم عطايا وهبات فى هـــذا اليوم يوزعونها على بعض الناس .

وإلى جانب الأعياد الإسلامية فقد كانت هناك أعياد مسيحية شارك الأندلسيون الأسبان فى الاحتفال بهـــا مثل عيـــد الميلاد ، وعيـــد العنصره وخميس العهد أو خميس إبريل الذى يسبق عيـــد الفصح بثلاثة أيام(٥) .

وقد أشار الطرطوشى إلى أن الأندلسيين كانوا فى هـــذه الأعيـــاد يبتاعون الفـــواكه والحلوى من المجبنات والأسفنج كالعجم تماما واعتبر هـــذا من البـــدع(٦) .

وكانت مشاركة المسلمين لأهل الذمة فى هـــذه الاحتفالات على أساس من نظرة الاحترام والتسامح الدينى ، والحياة المشتركة التى عاشها المسلمون والمسيحيون هناك جنبـــا إلى جنب فى المجتمع الأندلسى سنين طويلة .

وهناك أعياد قومية أو شعبية ، مثل عيـــد العصير AL acir الذى كان يحتفل به عنـــد جنى محصول العنب ، وكان محصولا رئيسيا ، فكانوا يقيمون فى الحقول فى جـــو يسوده المرح والغناء والرقص ، وهى عـــادة لازالت موجودة فى إسبانيا إلى اليوم(٧) .

وقد كان هناك من النساء من يشـــارك الرجال فى الاحتفال بهـــذه الأعياد ، حيث يشير كثير من المؤرخين إلى خروج المرأة للفرجة فى أيـــام الأعياد ، وكن يذهبن إلى ســـاحة المصلى ، حيث يقمن الخيام للتفـــرج لا للصلاة كما يقول الطرطوشى(٨) : وقد ازدادت هـــذه الظاهرة وضوحا فى أواخر العصر الإسلامى بالأندلس .

---

(٥) مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٤٠ .
(٦) الحوادث والبدع ص ١٤٠ — ١٤١ .
(٧) المختار من عالم الفكر ص ١٤١ .
(٨) الحوادث والبدع ص ١٤١ .

فيقول لسان الدين بن الخطيب فى وصف استقبال سلطان غرناطة أبى الحجاج يوسف : « واختلط النساء بالرجـال ، والتقى أرباب الحجـا بربات الحجال ، فلم نفرق بين السلاح والعيون الملاح ، ولا بين حمر البنود وحمر الخـدود » .

ويقول فى وصف نساء مدينة رندة « يلبس نساؤها الموق (الخف) ، على الأملـد المرموق ، ويسـفرن عن الخـد المعشوق ، وينعشن قلـب المشوق ، بالطيب المنشوق »(٩) .

ويتضح من خـلال هـذه النصوص وأمثالها أن تحـرر المرأة فى الأندلس وخاصة فى العصـور المتـأخرة ، كان أكثر من بقيـة العـالم الإسلامى ، وذلك بحكم تأثير الجوار مع المسيحيين بعـد سقوط قواعـد المسلمين فى أيديهم . وبحكم إرغام الأسبان لهم على التنصر ، وممارسـة العادات والتقاليد المسيحية ، فتنصر منهم من تنصر .

وبالإضـافة إلى ذلك فقـد احتفـل فى الأندلس بعيـدى النيروز والمهرجـان(١٠) .

---

(٩) د. أحمد العبادى : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى المغرب والأندلس ص ٩٦ ، ١٠٠ .

(١٠) النيروز : من أعياد الفرس القـديمة ، وهو بداية السنة عنـدهم فى فصل الربيـع ، ويذكر البيرونى أن أول من احتفل به المـلك جمشيد الفارسى ، حيث يقال : إنه لمـا فقـد خاتمه ذهب عنـه ملكه ، ثم لمـا رد إليه بعـد أربعين يوما عـاد إليه المـلك ، فقال الفرس مهنئين (نوروز آمذ) أى اليوم الجديد ، فسمى بذلك (الآثار =

الباقية عن القرون الخالية ص ٢١٧) . وقد أبطل المسلمون الاحتفال بهذين العيدين بعد فتح بلاد فارس ، ثم عاد الاحتفال بهما شيئا فشيئا ، حتى أصبحا من الأعياد الرسمية فى العصر العباسى .

وفى صدر الإسلام لم يكن للأعياد الفارسية شأن عند المسلمين . فيروى أن بعض الدهاقين من الفرس احتفلوا فى خلافة علي رضى الله عنه بهذا العيد ، وبعثوا إليه بهدية من الحلوى على عادتهم ، فسألهم عن سبب ذلك فقالوا : إنه يوم نوروز قال : نوروزنا كل يوم . (تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٤٣٦) .

أما عيد المهرجان : فقد كان الفرس يحتفلون به فى آخر العام ويسمونه (ر،ز ءبر) أى محبة الروح ، وكان من أكبر أعيادهم ، وكانوا يتخذونه دليلا على نهاية العام فى فصل الشتاء ، كما يتخذون النيروز دليلا على بدايته فى فصل الربيع .

وقد نسبوا إلى سلمان الفارسى أنه قال : كنا على عهد الفرس نقول : إن الله أخرج لعباده زينة من الياقوت فى النوروز ، ومن الزبرجد فى المهرجان ، ففضلهما على غيرهما كفضل الياقوت والزبرجد على سائر الجواهر . وهم بذلك يحاولون أن يجعلوا له أصلا ، وهو قول يظهر فيه الوضع جليا .

وقد زعموا أن تعظيمهم لهذا اليوم يرجع إلى انتصار ملكهم أفريدون على أزدهاك (الضحاك) بفضل نزول الملائكة لمساعدته ، وكانوا يتهادون فيه مثل النيروز ويقدم فيه الملوك إلى الجند كسوة الخريف والشتاء . (انظر : الآثار الباقية ص ٢٢٢ — ٢٢٤ ، التاج فى أخلاق الملوك ص ١٥٥ ، د. طه ندا : فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١١٦) .

ومما يدل على ذلك ما ذكره المقرى : من أن عبد الرحمن الأوسط لما قدم زرياب إلى الأندلس بالغ في إكرامه ، وقرر له راتبا شهريا الفا لكل من عيدى الفطر والأضحى ، وخمسمائة لكل من عيدى النيروز الف لكل من عيدى الفطر والأضحى ، وخمسمائة لكل من عيدى النيروز والمهرجان . عدا الشعير والقمح والضياع والبساتين التى وهبها له وقدرت بأربعين الف دينار(١١) .

ويصف عبد الرحمن بن عثمان الأصم وهو من شعراء عصر الناصر يوم المهرجان بقوله :

ارى المهرجان قد استبشرا
غداة بكى المزن واستعبرا
وسربلت الأرض افوافها
وجللت السندس الأخضرا
وهز الرياح صنابيرها
فضوعت المسك والعنبرا
تهادى به الناس الطافهم
وسامى المقل به المكثرا(١٢)

وهذا يدل على أن الناس كانوا يتهادون فيه ، ويتنافسون فى ذلك . ومن قول ابى جعفر احمد بن عبد الملك بن سعيد فى وصف يوم المهرجان :

---

(١١) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦١ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٤١٧ .

(١٢) جذوة المقتبس ص ٢٧٦ .

يا حسن يوم المهرجـان وطيبه
يوم كما تهـوى أغـر محجـل
سرح لحاظك حيث شئت فإنه
فى كل موقع لحظة فتأمل(١٣)

وإلى جانب الأعياد فقـد كان هنـاك فى الأندلس ما يمكن أن نطلق عليـه اسم أجازة رسمية ، فقـد كان يوم الأحـد من كل أسبوع بمثابة عطـلة للموظفين . فقد ذكر ابن حيـان (٤٦٩هـ) فى ترجمته لقومس ابن أنتنيان كاتب الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وكان نصرانيا فأسـلم فى آخـر حياته « أنه كان أول من سن لكتاب السلطان وأهل الخـدمة تعطيل الخـدمة فى يوم واحـد من الأسبوع والتخلف عن حضور قصره ، وكان أول من دعـا لى ذلك لتنسكه فيـه ، فتبعه جميع الكتاب طلبـا للراحة والنظر فى أمورهم ، فانتخبوا ذلك ومضوا إلى اليوم عليه »(١٤) .

ويشير ابن سماك العاملى الذى عاش فى النصف الثانى من القـرن الثامن الهجرى إلى ذلك فى كتابه (الزهرات المنثورة فى نكت الأخبـار المـأثورة) حيث يقول عن المنصور بن أبى عامر « أصبح المنصور صبيحة أحـد وكان يوم راحة أهل الخدمة الذين أعفوا فيـه من الخدمة فى مطر وابـل »(١٥) .

ويبدو أن هـذا اليـوم كان عـادة مسيحية انتقلت بعـد ذلك إلى

---

(١٣) المغرب فى حلى المغرب جـ ٢ ص ١٦٧ — ١٦٨ .
(١٤) المقتبس ص ١٣٨ وحاشية رقم ٢٦٨ تحقيق د. محمود مكى بيروت سـنة ١٩٧٣م .
(١٥) انظر نفح الطيب جـ ١ ص ٤١٧ ، المختار من عالم الفكر ص ١٤٠ .

الأندلسيين كما نراه اليـوم حيث يتخذ الكثيرون وخاصة فى مصر من يوم الأحـد يوم عطلة لهم .

وهـذا يدل على أن التقليد الذى سنة (قومس بن أنتنيان) فى اتخـاذ يوم الأحـد عطلة رسمية للكتاب وأهل الخـدمة قـد ظل معمولا به فى عصر المنصور وحتى أيام ابن حيان الذى توفى سنة ٤٦٩هـ ، ويبدو أنه ظل معمولا به بعـد ذلك .

ولقـد جـرت عادة الأندلسيين على الاحتفـال بأعيادهم ومواسمهم وحفلاتهم بوسائل شتى مثل الغناء والموسيقى والرقص ، وألعاب الفروسية وسباق الخيل ، فضـلا عن الاحتفالات الدينية التى تقام فى المسـاجد والأربطة والزوايا ، وكذلك القصور والبيوت حيث يتـلى القرآن الكريم ، وتلقى القصائد الشعرية المناسـبة ، إلى جـانب الأناشـيد والموشحات الدينية ، وحلقـات الذكر التى قـد يصاحبها العـزف على بعض الآلات مثل الشبابة اليراعة ، والضرب على الدفـوف ، وتوزع فيها الأطعمة . وهـذه الاحتفالات فى مجموعها تتشابه فى مظهرها العام مع الاحتفالات فى المشرق إلا أنهـا تختلف فى بعـض التفاصـيل التى تتفـق مـع البيئـة المحليـة(١٦) .

* * *

---

(١٦) انظر المختار من عالم الفكر ص ١٤٢ — ١٤٣ .

الحفـــلات

وإلى جانب الاحتفال بالأعياد والمواسم فقد وجـدت هناك الحفـلات المتنوعة مثل حفـلات الزواج والميـلاد والختـان وغيرها . ولم تمـدنا المصـادر إلا باشارات بسيطة لا نستطيع من خـلالها أن نجـلى هـذا الموضوع أو نوفيه حقه . وكل ما ورد مجرد جمل أو سطور معدودة لا تشبع نهمـا .

ففى حفلات الزواج مثـلا : لم تشر المصـادر التى رجعنـا إليها — بالرغم من كثرتها — إلا إلى زواج المنصور بن أبى عامر من أسماء بنت غالب الناصرى صـاحب مدينة سالم فى عهد المستنصر حيث يقول المقرى « وكان أعظم عرس بالأندلس »(١) . ومن هـذه العبارة يتضح لنا مبلغ الترف والبذخ الذى كان فى هـذا العرس بالرغم من عـدم ورود تفاصيل عنه .

وفى حفلات الختان ، عثرنا على إشـارتين بسيطتين . حيث ذكر ابن عذارى انه فى سنة ٣٢٠هـ صـنع الناصر صنيعا كبيرا بمناسبة فتح طليطلة ، ووافق ذلك تطهيره لبعض أولاده(٢) .

وذكر المقرى : أن المنصور بن أبى عامر قـد احتفـل بختان ولـده عبد الرحمن شنجول(٣) . ولا شك أنه كان يقوم بذلك (المزين) أو المطهر، وقد يجلب فى الاحتفال بعض المغنين واصـحاب اللعب والفكاهة . وتقدم

---

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٧ ، بنيت هذه المدينة فى الثغر الأوسط سنة ٢٣٥هـ فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، وكان يشرف على بنائها غالب الناصرى ،ونزلها الكثير من المسلمين (البيان المغرب جـ ٢ ص ٢١٤).

(٢) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٠٨ .

(٣) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٨ .

فيـه الهدايا لوالد الطفل ، وتقـام فيـه الولائم ، وتوزع الأطعمة ابتهاجا بهـذه المناسبة .

وفى حفلات الميلاد : روى أن الحـكم المستنصر لم يرزق بأولاد ذكور قبل تقـلده الخـلافة ، وكاد أن ييأس من ذلك حتى رزق سنة ٣٥٤هـ بولد من جاريته صبح البشكنسية فسر بذلـك سرورا عظيما ، وأقام احتفـالا كبيرا حضره كبار رجـال الدولة يهنئون ويلقون القصـائد الشعرية . ومن ذلك قول جعفر المصحفى الحاجب :

اطـلع البـدر من حجـابه
واطـرد السيف من قـرابه
وجـاءنا وارث المعـالى
ليثبت الملك فى نصـابه
بشرنا سـيد البـرايا
بنعمـة الله فى كتـابه
لو كنت أعطى البشير نفسى
لم أقض حقا لمـا أتى به(٤)

وسـائل اللهـو والتسـلية

لا شك فى أن الحياة المترفة التى عاشـها الكثيرون فى الأندلس ، وخاصـة فى الطبقات العليـا ، قـد اقترن بهـا فراغ كبير كان لابـد من شـغله . فمنهم من شـغله بالعمل الجـاد والعلم النافع والعبادة ، ومنهم من شـغله بألوان مختلفة من ضروب اللهو والتسلية واللعب .

وقد كان الغنـاء والموسيقى على رأس هـذه الوسائل حيث شغف به معظم الأندلسيين كما قدمنا ، وكانت له مجالسه التى تعقد فى القصور والمنى والمتنزهات ، ويتجمع فيها الكثيرون لسماع المغنين والمغنيات .

---

(٤) د. خالد الصوفى : تاريخ العرب فى أسبانيا ص ١٧ .

كما كان الصيد والقنص من هـذه الوسائل أيضـا ، وقد كان كثير من الأمويين يخرجون فى رحـلات للصيد ، ومنهم عبد الرحمن الداخـل الذى كان كلفـا به فى أوقات فـراغه . فقـد ذكر ابن الأبار نقـلا عن ابى الفرج الجيانى صاحب كتاب (الحدائق) : أنه أتاه فى بعض غزواته آت ممن كان يعرف كلفه بالصيد فأخبره أن هناك مجموعة من الغرانيق(٥) واقفة فى جانب من معسكره وحثـه على الخروج لصيدها فرفض قائلا :

دعنى وصـيد وقـع الغـرانق
فإن همتى فى اصطياد المـارق
فى نفق إن كان او فى حالق
إذا التظـت اوامح الضـوائق
كان لفاعى ظـل بنـد خـانق
غنيت عن روض وقصر شاهق(٦)

ومنهم ايضا الحكم بن هشام الملقب بالربضى الذى كان شغوفا بالصيد واللهو والقنص ايضـا . وكان هـذا من الأسباب التى اتخذها الفقهـاء لإثارة الناس ضـده وإشعالهم ثورة الربض(٧) .

وكذلك ابنه عبد الرحمن الأوسط الذى يقول عنه ابن حيان : « وكان

---

(٥) الغرانيق : جمع غرنوق وهـو طائر مائى اسود أو ابيض ، وقيـل الكركى ، وقيل يشبهه .

(٦) الحلة السيراء جـ ١ ص ٤١ والقناع والمقنعـة ما يتقنع به من رداء او قناع أو غيره .

(٧) ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٢٩٨ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧٣ .

يخرج للصيد ، ويقعد للأنس مع جواريه ، ويستمع للأغاني »(٨) .

وقد ذكر الرازي أن عبد الرحمن الأوسط خرج مرة لصيد الغرانيق ، التي كان مولعا بهـا فأبعد ، وكان ذلك في فصل الشتاء ، ومعه ابن الشمر الشاعر فقال :

ليت شعري أم حديد خلقنا
أم نحتنا من صخرة صماء
كل عام في الصيف نحن غزاة
والغرانيق غزونا في الشتاء
إذ نرى الأرض والجليد عليها
واقع مثل شقة بيضاء(٩)

ويذكر ليفي بروفنسال : أنه كان يخرج في رحلات مع حاشيته للصيد بالصقور ، وخاصة في سهل الوادي الكبير الذي تطل عليه قرطبة ، وأنه كان يحب صيد الغرانيق ، ويحب ملاحقة طائر الكركي بصفة خاصة لأنه كان أكثر الطرائد طلبا(١٠) .

كما كانت هناك رحلات صيد للأمير عبد الله بن محمد في جهة عدوة النهر الأعظم بقرطبة(١١) .

وهذا يدل على مبلغ حب الأمراء للصيد ، وخروجهم إليه في رحلات منتظمة .

وإلى جانب رحلات الصيد فقد كانت هناك رحلات للنزهة

---

(٨) المقتبس ص ٢٢٤ تحقيق د. مكي .
(٩) ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب جـ ١ ص ١٢٥ .
(١٠) الحضارة العربية في أسبانيا ص ٦٣ .
(١١) البيان المغرب جـ ٢ ص ١٤٦ .

يخرج فيها الأمراء ومعهم بعض أهليهم مع الحاشية . ومن أمثلة ذلك ما يذكره ابن حيان : من أن الأمير عبد الرحمن الأوسط طلبت منه بعض كرائمه النزهة على مقتضى العادة ، فأمر حاجبه عيسى بن شهيد بالنظر فيما تحتاج إليه هذه النزهة على أتم رسومها ، والتعجيل بذلك للتحرك فى صبيحة اليوم التالى ، وطلب من الراشدة أن تأتيه من خزانة الكسوة برداء يوسفى من الوشى ليصنع منه عريف الخياطين بالقصر ثوبا يلبسه فى هذه النزهة ، ولكنه لم يقدر له ذلك حيث توفى بعد صلاة المغرب ، فصار كفنا له(١٢) .

ويذكر أن الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط خرج إلى الرصافة يوما للنزهة ومعه هاشم بن عبد العزيز الوزير ، فكان بها صدر نهاره على لذته ، فلما حل الظلام انصرف إلى القصر وبه اختلاط ، فقال له هاشم : يا ابن الخلائف ما أطيب الدنيا لولا الموت فقال له : يا ابن اللخناء لحنت فى كلامك ، وهل ملكنا هذا الملك الذى نحن فيه إلا بالموت ، فلولا الموت ما ملكناه أبدا(١٣) .

كما كانت هناك ألعاب للرياضة والفروسية مثل اللعب بالصولجان وسباق الخيل فقد ذكر ابن عذارى : أن الحكم الربضى كان يلعب بالصولجان فى القصر ، فجاءه الخبر بأن جابر بن لبيد محاصر لمدينة جيان ، وكان أحد الخارجين عليه(١٤) .

ويذكر ابن عذارى أيضا : أنه فى سنة ٣٤٧هـ فى عهد الناصر خرج القائد أحمد بن يعلى صاحب الشرطة غازيا بالأسطول إلى المغرب لقتال

---

(١٢) المقتبس ص ١٦١ — ١٦٣ .
(١٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ١١١ .
(١٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٨١ .

الفاطميين ، وكان خروجا فخما ، فخرج الكثيرون من أهل قرطبة رجالا ونساء وأطفالا لمشاهدة العسكر وهم يمرون من الربض ، وأخذ العوام والغوغاء يتقاذفون بالحجارة محاكين صفى القتال ، فدخل بينهم قوم من الطنجيين من جند السلطان وحرشوهم ، فحمى الوطيس والناس يشاهدون ذلك ، فتغلب فريق على الآخر ، فمال الطنجيون على المنهزمين ، فنهبوهم ومن حولهم من المتفرجين ، وسلبوا النساء ثيابهم ، فأخذن يتوارين فى الحقول حياء وخجلا حتى يحين وقت التفرق(١٥) .

وهذا شبيه بما يحدث فى عصرنا من تجمع الكثيرين لمشاهدة مرور موكب من المواكب الرسمية ، أو عرض عسكرى أو رياضى ، وما قد يحدث نتيجة للتزاحم والاختلاط من مثالب وأحداث .

كما يبدو أنه وجدت فى الأندلس لعبة الشطرنج وإن كنا لم نعثر على أمثلة لها فى العصر الأموى إلا أنه قد وجدت مخطوطة لألفونسو الحكيم(١٦) . فيها رسم للعبة شطرنج معقدة .

ومن المعروف أن العرب قد اقتبسوا النرد والشطرنج عن الفرس ،

---

(١٥) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٢ .

(١٦) هو ألفونسو العاشر ابن فرناندو الثالث ملك قشتالة تولى الحكم فى مايو سنة ١٢٥٢م ولقب بالحكيم أو العالم لشغفه بالعلوم والآداب ، له المدونة الكبرى فى تاريخ اسبانيا أو تاريخ اسبانيا العام وقد اعتمد فيه على مصادر عربية كثيرة . وكانت له صلات بكثير من علماء الأندلس وتلقى منهم الكثير . (انظر عنان : نهاية الأندلس ص ١٠٤ ، ص ١٦٩) ، (د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى اسبانيا ص ١٦٩) .

وادخلوا عليهما إضافات وتحسينات ، ثم انتقلت هاتان اللعبتان إلى أوربا واحتفظت ببعض الأسماء العربية(١٧) . وإذا كان الشطرنج قد عرف في المشرق فلا شك وأن يكون قد انتقل إلى الأندلس أيضا ، كما عرف في أوربا .

أما عن مصارعة الثيران : فالواقع أن العصر الأموى لم يشهد هذه الرياضة العنيفة حيث لم ترد إلينا نصوص تفيد ذلك ، وأول إشارة وردت إليها تعود إلى عصر الموحدين ، حيث ذكر ان الخليفة أبو يعقوب يوسف كان يروض الأبقار ، وأن حياته انتهت بطعنة من قرن بقرة فى صدره فقتل سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م ، ثم وردت إشارات كثيرة بعد ذلك من لسان الدين ابن الخطيب مؤرخ غرناطة وابن زمرك شاعر الحمراء فى القرن الثامن تعطينا معلومات مفيدة عن هذه الرياضة(١٨) .

كما كان هناك ما يشبه حدائق الحيوان فى عصرنا . حيث يروى أن الخليفة الناصر عندما بنى مدينة الزهراء اتخذ فيها محلات للوحوش فسيحة الفناء متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظللة بالشباك(١٩) . وإلى جانب ذلك فقد كانت هناك أماكن يقصدها أرباب اللهو والفسوق .

حيث يذكر ابن عذارى أن الحكم الربضى أمر بهدم فندق كان بالربض، وكان متقبله من أهل الإضرار والفسق ، ونستطيع أن نستشف منه أن هذا الفندق كان مكانا يجتمع فيه أهل اللهو والفساد لممارسة متعهم الدنيوية .

وبصف ابن عذارى هشام بن عبد الجبار فيقول إنه اظهر من الخلاعة

---

(١٧) احمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٣٠٩ — ٣١٠ .

(١٨) انظر المختار من عالم الفكر ص ١٤٢ — ١٤٣ .

(١٩) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٠ .

والمجون ما لم يظهره احـد قبله ، واستعمل له من الخمر مائة خابيـة ، ومائة بوق للزمر ، ومائة عود للضرب ، وكان له غـلام صقلبى يتعشـقه عند ابن الزيات العطار ، وبعث إلى نساء كان يصاحبهن منهن جارية تسمى بستان كانت لأبى القاسم المصرى الخيـالى ، وامرأة أبى الشرح وتسمى واجـد ، فظهر من فسقه واختلال دينه وعقـله أمر لا يظهر إلا من أهـل الدعارة المنتهكين فيها . ولم يزل طول مدته مشتهرا بالفسق مظهرا للخلاعة، لا يفيق من سكر ، ولا يرعوى عن منكر بالنساء والصقالبة والملاهى حتى قال بعضهم فيـه :

أمير الناس سخنة كل عين
يبيـت الليـل بـين مخنثين
يجشم ذا ويلثم خـد هـذا
ويسـكر كل يوم سـكرتين
لقـد ولوا خـلافتهم سـفيها
ضعيف العقل شيئا غير زين

وقد هجاه كثير من الشعراء . يقول ابن عذارى « وقيل فيـه كثير من هـذا يطول الكتاب به »(٢٠) .

ومن الواضح أن مجالس اللهو والشراب كانت من الظواهر الموجودة فى المجتمع الاندلسى وخاصة فى وادى إشبيلية ، فيشير الشـقندى فى رسالته فى تفضيل الاندلس على المغرب إلى ان هـذا الوادى لا يخـلو من مسرة ، وأن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيـه غير منكرة ، لا ناه عن ذلك ولا منتقد ، ما لم يؤد السكر إلى شر وعربدة(٢١) .

---

(٢٠) البيان المغرب ج ٢ ص ٧٧ ، ج ٢ ص ٧٩ – ٨٠ .
(٢١) المقرى : نفح الطيب ج ٤ ص ١٩٩ .

ويذكر المقرى : أن أهل الأندلس كان لهم فى الترف والنعيم والمجون ومداراة الشعراء خوف الهجاء محل وثير المهاد(٢٢) .

والحقيقة أن المجتمع الأندلسى قــد اتسم بالحدة والتطرف فى نظرته للأشياء . فقد وجدت بيئات كلها علم وزهد وتقى ، كما وجدت إلى جانبها بيئات أخرى مالت إلى التحرر والترف والمجون ، وعاشت حيــاة صاخبة لاهية . وانساق الكثيرون مع هــذا التيار الصاخب الذى تتنهم .

ونحن إذا قرأنا ما نظمه الشعراء الأندلسيون من شعر الخمر والغزل لخيل إلينا أن المجتمع الأندلسى لم يعرف غير ذلك ، وفى المقابل إذا قرأنا ما نظموه فى شعر الزهــد والتصوف وما ألفه العلماء من مؤلفات لقلنــا إن هــذا المجتمع كان كله مجتمع زهــد وتقوى وصلاح وعلم .

ولكن هــذا المجتمع جمع بين هذين الجانبين شأن أى مجتمع آخــر مع الاختلاف النسبى بين مجتمع وآخــر فى ناحية من النواحى .

* * *

---

(٢٢) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٠

المـرأة ودورها

لعبت المـرأة فى المجتمع الأندلسى دورا لا بأس به ، وبرزت بعض النساء فى مجالات شتى سياسية واجتماعية وثقافيـة ودينية .

وتدل الكثير من الشواهد على أن المرأة فى الأندلس كانت تتمتع بقدر من حـرية الحركة ، والمشاركة فى الحيـاة العامة أكثر من قرينتها فى المشرق(١) .

وقد كانت نساء الأندلس على وجه العموم أشبه شىء بنساء المشرق من ناحية التعليم والحجاب ، فمن ناحية التعليم كان أكثرهن أميات ، ومن ناحيـة الحجاب فقـد غلب على الحرائر منهن ، أما الإماء والسرارى فكن يسفرن عن وجوههن غالبا ، ولذلك يذكر أن ولادة بنت المستكفى لمـا جالست الرجال ، وشاركتهم فى الشعر والأدب قوبل ذلك منها بشىء من الاستهجان والاستغراب(٢) .

ولم تمدنا المصـادر بالكثير عن المرأة فى المجتمع الأندلسى وخاصة الحرائر ، وسنحاول من خـلال الأخبار القليـلة التى عثرنا عليها أن نتبين كيف كان وضع المرأة فى هـذا المجتمع .

لقـد كثرت الجوارى فى المجتمع الأندلسى نتيجـة لكثرة الحـروب والمعـارك التى خاضها المسلمون ضـد الممالك المسيحية فى اسـبانيا وبلاد الفرنجة ، وكذلك عن طريق تجـار الرقيق الذين كانوا يأتون بهم من أماكن شتى فى أوربا وغيرها . يقول المراكشى عن المنصور بن أبى عامر : « ومـلأ الأندلس غنـائم وسـبيا من بنـات الروم وأولادهم ونسـائهم

---

(١) د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٤٦ .

(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٣٠ .

... الخ »(٣) . ويذكر ابن الأبار أنه فى إحدى غزواته لمملكة جليقية سنة ٣٧١هـ عاد بأربعة آلاف سبية(٤) .

وامتلأت بيوت المسلمين فى الأندلس بالأسبانيات وغيرهن ، حيث تزوجهن الكثير من العرب والبربر ، وكان لبعضهم تأثير كبير على أزواجهن وأولادهن من النسل المولد من ناحية العادات والتقاليد واللغة وغير ذلك .

كما كان لبعض الجوارى وأمهات الأولاد تأثير ونفوذ على بعض الأمراء والخلفاء والكبراء . ويشير ابن حزم فى بداية الفصل الأول من كتابه (طوق الحمامة) إلى جانب من الحياة العاطفية لأمراء الأندلس وخلفائها فيقول « وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير منهم بأندلسنا ، عبد الرحمن بن معاوية لدعجاء ، وعبد الرحمن بن الحكم وشغفه بطروب أم عبد الله ابنه أشهر من الشمس ، ومحمد بن عبد الرحمن وأمره مع غزلان أم بنيه عثمان والقاسم والمطرف معلوم ، والحكم المستنصر وافتتانه بصبح أم هاشم (هشام) المؤيد بالله وامتناعه عن التعرض للولد من غيرها ... وأما كبار رجالهم ، ودعائم دولتهم فأكثر من أن يحصوا . وأحدث ذلك ما شاهدناه بالأمس من كلف المظفر عبد الملك بن أبى عامر بواجد بنت رجل من الجنانين (البستانيين) حتى حمله حبها أن يتزوجها ... الخ »(٥) .

ومن الأمثلة التى وردت ما ذكر من أن الحكم الربضى كان شغوفا بخمس جوار عنده قد اختصهن لنفسه ، وملكهن أمره ، فذهب يوما

---

(٣) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٤ .
(٤) الحلة السيراء ج ١ ص ٢١٦ .
(٥) طوق الحمامة ص ١٩ — ٢٠ .

للدخول عليهن فأعرض عنــه وكان لا يصبر عنهن فقال :

قصب من البان ماست فوق كثبان
اعرضن عنى وقد أزمعن هجرانى
ناشــدتهن بحــقى فاعتزمن علــى
الهجــران حتى خــلا منهن هيمانى
ملكننى مــلك من ذلــت عزيمتــه
للحــب ذل اسير موثــق عـــانى
من لى بمغتصبات الروح من بدنى
غصبننى فى الهوى عزى وسلطانى

ولـمـا عدن عليــه بالوصال قال :

نلت كل الوصال بعــد البعــاد
فــكأنى ملكت كل العبــــــاد
وتنــــاهى السرور إذ نلت ما لم
يفــن فيهن تكاثف الأجنــــاد(٦)

ويذكر أن من شعره فيهن قوله :

ظل من فــرط حبــه ممــلوكا
ولقــد كان قبل ذاك يدعى مليكا
إن بكى او شكى الهوى زيد ظلما
وبعــادا يدنى حمــاما وشــيكا
تركته جــآذر القصر صــــبا
مســتهاما عــلى الصــعيد تريكا
يجــعل الخــد مــاثلا فوق ترب
وهــو لا يرتضى الحــرير اريكا

---

(٦) الحــلة السيراء جـ ١ ص ٥٧ .

هــكذا يحسن التـــذلل للحـــر
إذا كان فى الهــوى ممــلوكا(٧)

ومن أمثلة ذلك ايضـــا (طروب) جارية الأمير عبد الرحمن الأوسط وأم ولده عبد الله التى وصلت إلى درجة كبيرة من النفوذ والسلطان ، نظرا لشغفه بها . بحيث ذكر انهـــا كانت تبرم الأمور مع نصر الخصى ، ولم يكن الأمير يرفض لها طلبـــا . ويقال إنها دبرت مؤامرة مع هـــذا الخصى لقتل عبد الرحمن حتى تصير الإمارة من بعـــده إلى ولدها عبد الله بدلا من محمد الذى كان من جارية أخرى تدعى بهير(٨) . وبالرغم من انكشاف هـــذه المؤامرة ، ومعرفة الأمير بما كانت تضـــمره له إلا انه لم يعـــاقبها وظل على حبـــه لها(٩) .

ويذكر أنه بلغ من حـــبه لها انها هجرته يوما ولزمت حجرتها فأراد

---

(٧) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٧٩ — ٨٠ ، ويذكر ابن الأبار هـــذه الأبيات بشىء من الاختلاف فى بعض الألفـــاظ ويقول : وله فى النسيب ثم يذكرها ولا مانع من أن يكون النسيب فيهن . (انظر الحـــلة السيراء جـ ١ ص ٤٩) .

(٨) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٣ ، ابن عذارى : البيان المغـــرب جـ ٢ ص ٩٣ .

(٩) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧٦ — ٧٧ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٣٠ . ويشك د. حسين مؤنس فى هـــذه المؤامرة مستدلا على ذلك بأن الأمير لم يغضب على طـــروب ولم يعاقبها . ونقول إنه لا غرابة فى وقوع هـــذه المؤامرة فأمثالها كثير فى عصور التاريخ المختلفة . والسبب فى عفوه عنها هـــو حبـــه الشـــــديد لها كما ذكرنا ، وعين الرضى عن كل عيب كليلة كما قال الشاعر . (انظر الحلة السيراء جـ ١ ص ١١٤ هامش ١) .

ان يترضاها بعد أن تمنعت عليه فأمر بسد باب حجرتها ببدر الدراهم من الخارج . ولما رضيت فتحت الباب فتساقطت البدر داخل الحجرة فأخذت فى جمعها ثم أقبلت عليه وأكبت على رجله تقبلها(١٠) .

كما يروى أنه أعطاها عقدا قيمته عشرة آلاف دينار ، ولما استعظم بعض وزرائه ذلك قال : ويحك إن لابس العقد أنفس خطرا ، وأرفع قدرا ، وأكرم جوهرا ... الخ »(١١) .

ويذكر أن له فيها شعر يقول فيه :

فقدت الهوى مذ فقدت الحبيبا
فما أقطع الليل إلا نحيبا
وإما بدت لى شمس النهار طالعة ذكرتنى طروبا
فيا طول شوقى إلى وجهها
ويا كبدا أورثتها ندوبا
ويا أحسن الخلق فى مقلتى
وأوفرهم من فؤادى نصيبا
لئن حال دونك بعد المزار من بعد أن كنت منى قريبا
لقد أورث الشوق جسمى الضنى
وأضرم فى القلب منى لهيبا

---

(١٠) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٦٨ ، البيان المغرب جـ ٢ ص ٩٢ .
ويذكر ابن عذارى أن مقدار هذه الدراهم كان عشرين الف درهم .

(١١) ابن الأبار : الحلة السيراء جـ ١ ص ١١٦ وقد ذكر المقرى أنه أعطاها حليا قيمته مائة الف دينار (نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٣) .

عدانى عنـك مزارا لعـــــدا

وقودى إليهم اهــا ما اهيبــا(١٢)

وذكر ابن سعيد المغــربى أنه فى إحـــدى غزواته جــاءه طيفها فى المنـــام فاشتاق إليها ، فاستخلف على الجيش قائدا ، ورجع إلى قرطبـــة للقـــائها(١٣) .

ولكننا نعتقـــد ان أمثال هـــذه الروايات فيها شىء من المبـــالغة فلا يمــكن أن تصل الأمور به إلى هـــذه الدرجة ـــ مهما بلغ حبـــه لها ـــ بحيث يترك جيشه ويعود إليها لمجرد أنه راى طيفها فى المنام .

صحيح ان عبد الرحمن كان كثير الأولاد ، حيـــث بلغ عـــدد أولاده مائة كمـــا يقـــال ـــ خمســـون من الذكور وخمسون من الإناث ـــ(١٤) ، ووصـــفه الكثيرون بأنـــه كان مولعـــا بالنســـاء شـــديد الميل لهن ، ولكن بالغ البعض فى ذلك مبالغة شديدة لا تتفق ومقامه كحاكم أو أمير مسلم .

---

(١٢) ابن الأبار : الحـــلة الســـيراء ج ١ ص ١١٤ ـــ ١١٥ وقد أورد ابن عذارى هـــذه الأبيات ابتداء من البيت الأخير وبعـــده الثمانية أبيات الأخرى التى ذكرها ابن الأبار ولم نذكرها خشية الإطـــالة وقال ابن عذارى : إن عبد الرحمن قالها عندما خـــرج لغزو مملكة جليقية سنة ٢٣٥هـ ، ولكنه أخطـــأ فقـــال عبد الرحمن بن الشمر وصحتها ابن الحكم وربما كان هذا خطئا مطبعيا (البيان المغـــرب ج ٢ ص ٨٥ ـــ ٨٦) .

(١٣) المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٤٧ .

(١٤) انظـــر : ابن حيـــان : المقتبس ص ١٤٩ تحقيـــق د. مكى ، ابن عذارى : البيان المغـــرب ج ٢ ص ٥١ ـــ ٥٢ ، نفح الطيب : ج ١ ص ٢٢٤ . ابن سعيد : المغـــرب ج ١ ص ٤٧ . وقـــد ذكر ابن سعيد انه كان لا يتخذ منهن ثيبا البتة .

ومثال ذلك ما ذكره المقرى من انه بلغ من حبـه للنساء أن وقع على جارية فى شهر رمضان كان يحبها ، فجمع الفقهاء وسألهم عن كفارة ذلك فقـال له يحيى الليثى كبير الفقهاء : تكفر بصيام شهرين متتابعين ، فسكت بقية الفقهاء ولم يقولوا شيئا حتى انصرفوا ، فسأل بعضهم يحيى لماذا لم تفته بمذهب مالك فى التخيير ؟ قال : لو فتحنا هـذا الباب له سـهل عليه أن يطأ كل يوم ويعتـق رقبـة ، ولكن حملتـه على أصـعب الأمور لئـلا يعـود(١٥) .

فـلا يمـكن لحاكم مسلم أن يفطر عمدا فى نهار رمضان من أجـل جارية هى ملك يمين له فى أى وقت من الأوقات فى غير نهار رمضان .

ومن المبالغات أيضـا قول بعض المستشرقين « إن عبد الرحمن ملك عليه امره طوال حياته أربعة : فقيه ومغن وجارية وعبد »(١٦) .

ويذكر انه كان لعبـد الرحمن جوار أخريات منهن : (الشفاء) التى اعتقها وتزوجها ، وكانت جميلة تقيـة عاقلة خرجت معـه فى إحـدى غزواته فمرضت فأعادها إلى قرطبـة ، فماتت فى الطريق ودفنت فى قرية مجـاورة لطليطلة . وجـارية أخـرى تدعى (مدثرة) أعتقها وتزوجها كذلك(١٧) .

وجارية ثالثة تسمى (فخـر) وهى التى ابلغته بخبر المؤامرة التى دبرت ضـده بعـد أن اخبرها الحرانى الطبيب الذى كلفه نصر بوضـع

---

(١٥) نفح الطيب جـ ١ ص ٣٥٨ .

(١٦) لين بول : قصة العرب فى اسبانيا ص ٧٦ ، يقصد بالفقيه يحيى الليثى كبير الفقهاء ، وبالمغنى زرياب ، وبالجارية طروب ، وبالعبد نصر الخصى .

(١٧) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٣ .

السم فى شرابه . بالإضافة إلى جواريه المغنيات (فضل وعلم وقلم)(١٨) .

ويروى انه كان للخليفة عبد الرحمن الناصر جارية تسمى الزهراء كان شغوفا بها ، وبلغ من شدة حبه لها أن بنى لها مدينة سماها باسمها عندما طلبت منه ذلك . فقد ذكر الكثير من المؤرخين أن الناصر ماتت له سرية وتركت مالا كثيرا فأمر بأن يفتدى به أسرى المسلمين لدى الإفرنج ، فلم يوجد أسرى فشكر الله ، وقالت له جاريته الزهراء : اشتهيت لو بنيت لى به مدينة تسميها باسمى وتكون خاصة بى فبناها تحت جبل العروس شمال قرطبة(١٩) .

وهذه أيضا من مبالغات المؤرخين الشبيهة بالقصص الخيالية ، والواقع أن الناصر كان شغوفا بالبناء فرأى أن يؤسس مدينة جديدة تليق به وبدولته بعد أن تلقب بألقاب الخلافة . يقول ابن خلدون : « ولما استفحل ملك الناصر صرف همه إلى تشييد القصور والمبانى »(٢٠) . ومما يدل على حبه للبناء لتخليد ذكراه تلك الأبيات التى تنسب إليه :

همم الملوك إذا ارادوا ذكرها
من بعدهم فبألسن البنيان
او ما ترى الهرمين كم بقيا وكم
ملك محته حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم قدره
اضحى يدل على عظيم الشان

---

(١٨) الحلة السيراء ج ١ ص ١١٤ هامش ١ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٩٣ ، د. الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٤٤ .
(١٩) انظر المقرى ج ١ ص ٢٤٥ ، ابن عذارى ج ٢ ص ٢٣١ .
(٢٠) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٨ .

كما كانت للناصر جارية تدعى مهرجان أو مرجانة استولدها ابنـــه الحكم ، وأطلق عليها لقــب (السيدة الكبرى) . ذكر أنهــا أرادت أن تبهج الناصر يوما ، فاشترت زرزورا وعلمته أبيــاتا من الشعر حتى إذا جلس الناصر للفصد ذات يوم فى بهــو المجلس الكبير المشرف على مدينة الزهراء ، وبدأ الطبيب فى العمل أطل الزرزور وصعد على إناء من ذهــب واخذ يردد : **ايهــا الفاصد رفقــا بأميــر المؤمنينــا**

إنمــا تفصــد عرقا فيه محيا العالمينا

فسر الناصر بذلك واستظرفه ، وسأل عنه فذكر ان ام ولده هى التى فعلت ذلك ، فوهب لها ما يزيد على ثلاثين الف دينار(٢١) .

كما كان لصبح البشكنسية(٢٢) حظيــة الخليفــة المستنصر ، وأم ولده هشام نفوذ كبير فى حيــاة زوجها وبعــد مماته عندما ولى ابنهــا الخــلافة وهو غلام صــغير فى العاشرة من عمره سنة ٣٦٦هـ ، وكان الحــكم قد تقدمت به السن دون أن يرزق بولد قبل الخــلافة ـــ يذكر أنه وصل إلى السابعة والأربعين أو الثامنة والأربعين ـــ وبعــد تقلده الخلافة بأربع سنوات رزق بهشام من حظيته صبح فسر بذلك سرورا عظيما وجعلها أم ولده وسبت مكانتها عنــده(٢٣) .

---

(٢١) العبر جـ ٤ ص ١٣٧ ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٣ .

(٢٢) كان اسمها بالأسبانية أورورا ، ويعنى صبح بالعربية ، وكان الحكم يناديها بجعفر تدليلا لها (البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٥٣ ، د. خالد الصوفى : تاريخ العرب فى اسبانيا (عصر المنصور الأندلسى) ص ٣٥) .

(٢٣) يذكر البعض أن الحكم كان قــد رزق بولد سماه عبد الرحمن ســنة ٣٥١هـ ولكنه توفى طفلا صغيرا . (انظر ابن الأبار : الحــلة السيراء جـ ١ ص ٢٠٠ ، ٢٠٣ هامش ١) .

وقد اتخذت من محمد بن أبى عامر الذى لقب بالمنصور كاتبا لها ووكيلا النظر فى أموالها وضياعها ، واستطاع بما لديه من المؤهلات أن ينال إعجابها بسحر حديثه وهداياه ، حتى أن الحكم كان يقول لخواصه « إن هذا الفتى قد خلب عقول حرمنا بما يتحفهم به »(٢٤) . وخاصة بعد أن ولى دار السكة فكان ينفق ببذخ على حساب خزانة الدولة للوصول لأهدافه . فيروى انه صاغ لها تمثالا من الفضة على هيئة قصر أنفق فيه مالا كثيرا ، حتى اخذ الناس يتحدثون بشأنه زمنا طويلا . وقد أعجبت به صبح ايما إعجاب ولما تحدث السعاة إلى الحكم بذلك ، لم يجد ابن أبى عامر سبيلا إلا رد قيمته ، فاقترضها من صديقه الوزير ابن حدير حتى ترتفع عنه الشبهة(٢٥) .

وبالرغم من ذلك فإن الشبهات أخذت تثور ، واتسع المجال للأقاويل من العلاقة بين المنصور وبين صبح ، حتى قيل إنه كانت تربطها به صلة عاطفية ، وأن ذلك كان وراء ما بلغه من نفوذ ومكانة(٢٦) .

وأيا ما كانت صحة ذلك ، فقد استطاع المنصور أن يصل إلى مرتبة الحجابة — بمثابة رئاسة الوزارة — بعد أن تخلص من منافسيه بوسائل عديدة ، وسيطر على الخليفة الصغير وحجر عليه ، واستبد بالأمور فى الدولة حتى استطاع أن يؤسس ما اصطلح عليه البعض باسم الدولة العامرية التى كانت بمثابة دولة داخل الدولة الأموية(٢٧) .

ويذكر أن الحكم كان شديد الكلف بصبح ، فعندما خرج فى غزوته

---

(٢٤) ابن بسام : الذخيرة القسم الرابع جـ ١ ص ٤٢ — ٤٣ .
(٢٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٥٣ .
(٢٦) د. خالد الصوفى : عصر المنصور الأندلسى ص ١٩ وبعدها .
(٢٧) د. خالد الصوفى : المرجع السابق ص ٢٤ وبعدها .

المعروفة (بشنت اشتبين) سنة ٣٥٢هـ أكثرت من التعلق به والحـــزن لفراقه فقال مستعبرا :

عجبت وقد ودعتها كيف لم امت
وكيف انثنت عند الفراق يدى معى
فيا مقلتى العبرى عليها اسكبى دما
ويا كبدى الحرى عليها تقطعى(٢٨)

وكما تمتعت زوجات الخلفـــاء بشىء من النفـــوذ فقـــد كان لبعض زوجات الطبقات الأخـــرى نفوذ أيضـــا مثل (تكفات البربرية) زوجـــة محـــمد بن زياد اللخمى قاضى الجمـــاعة بقرطبـــة فى عهـــد عبد الرحمن الأوسط ، وكانت كما يقول ابن حيان « ذات دالة عليـــه على ما تنعـ له الزوجات الحظيات »(٢٩) .

وقد كان الكثيرون يتنافسون فى إقتنـــاء الجوارى منافسة شـــديدة وصلت إلى حـــد الغيرة والقتل . فقد ذكر ابن الابار : ان مروان بن محمد ابن مروان بن عبد الرحمن الناصر كان يهوى جارية رباها أبوه معه وذكرها له ، ثم استأثر بها دونه ، فاشتدت غيرته لذلك ، وانتهز فرصة خلو أبيه معها فقتله ، فاعتقل وسجن فى عهد المنصور بن ابى عامر ســـت عشرة سنة ، ثم اطلق سراحه فسمى (بالطليق) ، وكان أديبا شـــاعرا مكثرا شبهه ابن حزم بابن المعتز من بنى العبـــاس فى ملاحة شـــعره وحسن تشبيهه(٣٠) .

---

(٢٨) ابن الأبار : الحـــلة السيراء ج ١ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .
(٢٩) المقتبس ص ٢١٠ تحقيق د. محمود مكى ، وقد ذكرها الخشنى : كفات بدون تاء فى البداية انظر (قضاة قرطبة ص ١٠٦) .
(٣٠) الحـــلة السيراء ج ١ ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

وإلى جانب الدور الذى لعبته المرأة فى الحياة السياسية فقد لعبت دورا مهما كذلك فى الحياة الاجتماعية وخاصة الجوارى المغنيات اللائى كان لهن أثر كبير فى مجال الغناء والموسيقى ، والملابس والأزياء والزينة ، وغير ذلك . كما كان للأسبانيات دور كبير فى إدخال الكثير من العادات والتقاليد إلى بيوت المسلمين الذين تزوجوهن . كما شاركت بعض النساء مشاركة ايجابية عن طريق إنشاء بعض المؤسسات الدينية كالمساجد وغيرها مثل عجب جارية الخليفة الحكم الربضى التى أقامت مسجدا نسب لها فى غربى قرطبة ، وأقامت مقبرة عرفت باسمها أيضا ، ومثل جاريته متعة التى اقامت مسجدا أيضا على نفقتها نسب إليها(٣١) . ومثل طروب جارية عبد الرحمن التى ينسب إليها إقامة مسجد بالربض الغربى فى قرطبة(٣٢) .

كما شاركت بعض النساء أيضا فى مجال الحركة العلمية . فيذكر المراكشى أنه كان فى الربض الشرقى من قرطبة مائة وسبعون امرأة لنسخ المصاحف بالخط الكوفى(٣٣) . وكان هناك بعض النساء اللاتى تعلمن وتفقهن فى الدين ودرس الأدب .

وكان كثير من الخاصة يعينون مؤدبات لبناتهم . فيذكر خوليان ريبرا : المستشرق الأسبانى انه كان لبنى حزم — وهم غير أسرة ابن حزم الفقيه المشهور — مدرسة من أشهر مدارس قرطبة — يقصد مكتبا — يدرس

---

(٣١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين فى الأندلس ص ٢٢٧ .

(٣٢) طوق الحمامة ص ١٩ هامش ١ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ٧٣ .

(٣٣) المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ص ٢٤٨ ، التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٦١ .

فيها الأب للصبيان والابن للفتيان والبنت للفتيات وذلك فى القرن الثـــالث تقريبــا(٣٤) .

كما كانت بعض النساء ترحل للتعلم خارج الأندلس مثل راضية مولاة عبد الرحمن الناصر التى أعتقها ابنه الحكم ، وتزوجها لبيب الفتى الصقلبى وحجا معها ولقيا جماعة من العلماء أخذا عنهم ، ونسخا مجموعة من الكتب وقد توفيت فى حـــدود سنة ٤٨٣هـ(٣٥) .

ومن النساء اللائى برزن فى مجال الأدب الشاعرة حسانة التميمية بنت أبى الحسن الشاعر وكانت من أهل البيرة ، وقد تأدبت على أبيهـــا ولمـــا توفى ذهبت إلى الحكم الربضى ومدحته بأبيات منها :

إنى إليك أبا العـــاصى موجعـــة
أبا الحسين سقته المواكف الديم
قـــد كنت ارتع فى نعماه عاكفة
فاليوم آوى إلى نعماك يا حكم
انت الإمام الذى انقاد الأنام له
وملكتـــه مقـــاليد النهى الأمم

فلما وقف الحكم على شعرها استحسنه ـــ وكان يقرض الشـــعر ـــ وأمر بإجراء راتب عليها ، وكتب إلى عامله على إلبيرة ، فجهزها بجهـــاز حسن(٣٦) .

---

(٣٤) التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٦٢ .

(٣٥) ابن بشكوال : الصلة ترجمة ١٣٥٤ طبعة الدار المصرية للتـــاليف والترجمـــة ، التربية الإسلامية ص ١٦٢ .

(٣٦) انظر نفح الطيب ج ٢ ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ص ٤٨٨ ، د. أحمـــد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٢٠٦ ـــ ٢٠٧ . وانظر عن شـــاعرات الأندلس د. الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٢١٩ وبعدها .

ومن اللائى برزن فى مجال الأدب كذلك الشاعرة حفصة بنت حمدون الحجارية وكان من شواعر الأندلس فى المائة الرابعة ، من وادى الحجارة ومن شعرها فى الغزل :

لى حبيب لا ينثنى بعتاب
وإذا ما تركته زاد تيها

قال لى هل رأيت لى من شبيه
قلت أيضا وهى ترى لى شبيها(٣٧)

ومن النساء اللائى اشتهرن بالعلم والزهد أيضا : البهاء بنت الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وكانت من خيرات نساء بنى أمية ، وقد اشتهرت بالزهد والتبتل والعبادة ، ويذكر أنها كانت تكتب المصاحف وتحبسها على المساجد ، وينسب إليها مسجد باسمها من مساجد الرصافة وقد توفيت سنة ٣٠٥هـ(٣٨) .

وكذلك عابدة المدينة جارية ابن دحون الوليد بن حبيب المروانى ، وكانت جارية سوداء أهديت إليه عندما حج ، وقد اشتهرت برواية الحديث عن الإمام مالك وغيره حتى قيل : إنها كانت تسند عشرة آلاف حديث . أى تحفظها بسندها — وقد أعجب بها الوليد ، وقدم بها إلى الأندلس ، فتزوجها واستولدها ابنه بشر(٣٩) . الذى عرف بالحبيبى وأصبح من المشهورين بقرطبة ، وكانت له ابنة تسمى عبدة اشتهرت بالرواية عنه أيضا(٤٠) .

وليس من شك فى أن إتاحة الفرصة للمرأة الأندلسية فى مجال العلم والثقافة قد صقل من شخصيتها ، ووسع من مداركها وآفاق تفكرها ، وجعلها تحتل مكانة مرموقة فى مجتمعها .

---

(٣٧) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب جـ ٢ ترجمة ٣٥٧ .
(٣٨) ابن حيان : المقتبس ص ٢٦٣ تحقيق د. محمود مكى ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٧٦ .
(٣٩) المقتبس ص ٢٢٨ .
(٤٠) خوليان ريبرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٦٠ .

الفصل الخامس

الحـــالة الاقتصـــادية

الحـــالة الاقتصـــادية

موقـــع الأندلس ومناخها :

وصـــف كثير من المؤرخـــين والجغرافيين والرحـــالة بلاد الأندلس بأوصاف كثيرة من نواحي شتى . فقـــد ذكر الرازي — وهو أحـــد مؤرخي الأندلس المتقـــدمين (ت ٣٤٤هـ) — « أن الأندلس تقـــع في الإقلـــيم الرابع من الأقاليم السبعة التي هي ربع معمور الدنيـــا . فهي موســـطة البلدان ، كريمة البقعة بطبع الخلقة ، طيبة التـــربة ، مخصبة القـــاعة ، منبسجة العيون الثراء ، متفجرة الأنهار الغزار ، قليـــلة الهـــوام ذوات السموم ، معتدلة الهـــواء أكثر الأزمان ، لا تزيد قيظها زيادة منكرة تضر بالأبـــدان ، وكذا ســـائر فصـــولها في أعم سنيها تأتي على قـــدر من الاعتدال ، وتوسط الحال »(١) .

وأنها على شكل مثلث يعتمد على ثلاثة أركان الأول عنـــد قادس ، والثاني ما بين اربونة وبرديل شرقا ، والثالث ما بين الشمال والغـــرب من إقليم جليقية(٢) .

وقال عنها ابن حوقل الرحـــالة الشيعي الذي زارها في القـــرن الرابع الهجري : « وأما جزيرة الأندلس فجزيرة كبيرة طولها دون الشهر في عرض نيف وعشرين مرحـــلة ، تغلب عليها الميـــاه الجارية ، والشجر والثمر ، والرخص والســـعة في الأحوال ، من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر ، إلى أسباب التملك الفاشية فيها ، ولمـــا هي به من اسباب رغد العيش وسعته وكثرته ، يملك ذلك منهم مهنيهم وارباب صنائعهم لقـــلة

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٧٠ .

(٢) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٣ .

مئونتهم وصلاح معاشهم وبلادهم »(٣) .

وقال ابو عبيد البكرى (ت ٤٨٧هـ) ـ الذى يعتبر من اوائل الجغرافيين الذين انجبتهم بلاد الأندلس ـ : « الاندلس شامية فى طيبها وهوائها ، يمانية فى اعتدالها واستوائها ، هندية فى عطرها وذكائها ، اهوازية فى عظيم جباياتها ، صينية فى جواهر معادنها ، عدنية فى منافع سواحلها »(٤) .

وقال لسان الدين بن الخطيب : « خص الله بلاد الأندلس من الريع وغدق السقيا ، ولذاذة الأقوات ، وفراهة الحيوان ، ودرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحر العمران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنية ؛ وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وابيضاض الوان الإنسان ، ونبل الأذهان وفنون الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفوذ الإدراك ، واحكام التمدن والاعتمار بما حرمه الكثير من الأقطار »(٥) .

وذكر أبو بكر بن عبد الحكم المعروف بابن النظام : أن الأندلس عند علماء أهله اندلسان : فالأندلس الشرقى ما صبت اوديته إلى البحر الرومى (البحر المتوسط) ما بين مرسيه إلى سرقسطة ، والأندلس الغربى ما صبتأوديته إلى البحر الكبير المعروف بالبحر المحيط (المحيط الأطلسى) .

ويضيف البعض إلى هذا التقسيم قسما ثالثا هو وسط الأندلس الذى يضم من المدن قرطبة وطليطلة وجبان والمرية ومالقة وغرناطة .

---

(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٩٨ .

(٤) نفسه جـ ١ ص ٦٣ .

(٥) المرجع نفسه جـ ١ ص ٦٤ .

أما شرق الأندلس فتقع فيه من المدن الكبرى مرسية وبلنسية ودانية وسرقسطة ، وأما غرب الأندلس فتقع فيه اشبيلية وماردة واشبونة (لشبونة)(٦) .

البيئة الطبيعية :

الأندلس عبارة عن شبه جزيرة تقع فى الجنوب الغربى من اوربا ، تحيط بها المياه من كل جوانبها ما عدا الجانب الشمالى الشرقى حيث تفصلها جبال البرتات — أى المنافذ — (البرينية — البرانس) عن فرنسا .

ويبلغ طولها نحو الف ومائة ميل ، وعرضها نحو ستمائة ميل . وتتألف من هضبة كبرى تسمى (مسيتا) تشغل جزءا كبيرا من مساحتها ، ومجموعة من السلاسل الجبلية التى تطوقها ، ومن اشهرها فى الجنوب جبال (سيرامورينا) اى سلسلة الجبال الحمراء ، ومن اهم جبال هذه السلسلة جبل قرطبة المعروف عند المؤرخين العرب باسم (جبل العروس)(٧) . وتنفصل هذه الجبال بين الهضبة الكبرى والسهل الجنوبى الكبير المنبسط حتى اقصى الجنوب . وترتفع فى السهل الجنوبى سلسلة جبال اخرى تسمى (سيرانيفادا) اى سلسلة الجبال الثلجية ، وتمتد فى شرق الهضبة الكبرى سلسلة جبال اخرى هى الجبال الأيبيرية ، وتفصل هذه السلسلة بين الهضبة وبين السهل الشرقى المنبسط حتى

---

(٦) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٣ .

(٧) الإدريسى : وصف المغرب والأندلس من كتاب نزهة المشتاق ص ٢٠٨ ، الحميرى : صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار ص ٥٣ ، المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الطيب ج ٢ ص ٦٥ .

ساحل البحر المتوسط . وفى شمال الهضبة تمتد جبال أخرى هى جبال (كانتا برســـيا) أو القنطرية كما تعرف فى المصـــادر العربية . وتلى هـــذه الجبال من الشمال بعض الأقاليم السهلية الضيقة ، ثم تنحدر الهضبة ناحية المغرب حتى تنتهى إلى السهل الغربى الكبير .

وتجرى فى الأندلس عـــدة أنهار أهمها نهـــر الوادى الكبير ـــ الذى لا يزال معروفا بهذا الاسم فى أسبانيا حتى اليوم مع شىء من التحـــريف حيث يسميه الأسبان : (جواد الكبير Guad al Quivir) ويروى أراضى السهل الجنوبى ويمر بقرطبة وإشبيلية ويصب غربا فى المحيط الأطلسى ، ونهر التاجة ويسميه الأسبان التاخة ، ويمر بوسط الهضبة الكبرى ، وعليه تقـــع مدينة طليطلة ، ونهر دويرة فى الشمال منها ويطلق عليه الأســـبان اسم دور ، وينحدر نحو الغرب ويصب فى المحيط الأطلسى .

وهناك أنهار أخرى تصب فى البحر المتوسط ، ومنها نهر إبرة الذى تقـــع عليه مدينة سرقسطة ، ونهر شقر الذى يسميه الأسبان ـــ خوكر ـــ وعليه تقع جزيرة شقر التى كانت مصدر إلهام لكثير من الشعراء .

ونهر سجورا أو شقورة الذى يخترق مدينة مرســـية ، ويروى قسما كبيرا من أراضى شرق الأندلس . وهناك أنهار أخرى صـــغيرة ، وعيون وآبار كثيرة اعتمدت عليها الزراعة إلى جانب ميـــاه الأمطار والثلوج التى تعتمد عليها الزراعة أساسا فى منطقة الهضبة الوسطى(٨) .

---

(٨) انظر : د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٣٥ وبعدها ،
د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٦ ـــ ١٠ .
د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ١٥ ـــ ١٦ .
دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٣ ـــ ٤ .

وهكذا نرى أن طبيعة الأندلس ليست واحـدة ، وإنما هى مكونة من سهول وهضـاب وجبال وأودية ، ففيها المنـاطق الخصبة ، والمنـاطق الجليلة القاحلة ، وليس كما صورها الكثير من الشعراء على أنها جنـة ليس فيها لا السهول الخضراء ، والحقول الخصبة ، والحدائق الغناء . ونظرا لأن المسلمين قـد نزلوا بالمنـاطق الخصبة وأقاموا فيهـا وتركوا المناطق الشمالية الجبلية التى تقـع ضمن الهضبة الكبرى ، وأصبحت هى مركز المقـاومة الإسبانية المسيحية ضـد المسلمين لاسترداد البـلاد شيئا فشيئا . فقد تصور الكثيرون أن الأندلس عبارة عن جنان وارفة ومياه غزيرة وبساتين مثمرة كما يقول الشاعر الأندلسى ابن خفـاجة الهـوارى (٤٥٠ ــ ٥٣٣هـ) الذى عاش فى عهـد المرابطين : ولقب بالجنان لكثرة وصفه للرياض والبساتين :

إن للجنـة بالأندلس
مجتلى حسن وريـا نفس
فسنا صبحتها من شـنب
ودجـى ليلتهـا من لعس
وإذا ما هبت الريح صبا
صحت واشوقى إلى اندلس(٩)

وقـوله :

يا اهل اندلس للـه دركم
ماء زرع واشـجار وانهار

---

(٩) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٨ .

ما جنـة الخلد إلا فى دياركم

ولو خيرت هذه كنت أختار

لا تحسبوا بعد ذا أن تدخلوا سعرا

فليس تدخل بعد الجنة النار(١٠)

ومثل الشاعر الذى يقول :

حبـــذا أندلس من بلـــد

لم تزل تنتج لى كل سرور

طائر شــاد وظــل وارف

وميــاه سائحات وقصــور(١١)

ومن هنا نتبين أن شـــبه الجزيرة الأندلسية مختلفة الطبيعة والمنـــاخ من إقليم لآخــر نظرا لاتساعها الكبير ، وقد أدى هـــذا الاختلاف إلى التنوع فى حاصلاتها الزراعية .

الزراعـــــة :

كان المسلمون عنــد فتحهم لبــلد من البلاد صـــلحا يتركون الأرض بأيدى أهلهــا فى مقــابل أداء الخراج عنها ، وذلك حتى يتفرغوا لمواصلة فتوحاتهم لنشر الإسلام ، أما إذا فتحوها عنوة وعدل القائد أو الخليفة عن تقسيمها على المحاربين ، ووقفها على مصـــالح المسلمين ، فيؤخذ عنهـــا الخــراج أيضـــا .

أما إذا قسمت الأرض بين المحاربين المسلمين ، فإنها تعتبر أرضـــا

---

(١٠) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٨ .

(١١) د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٢٤ .

دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٧٨ .

عشرية ، ولا يوضع عليها الخـراج(١٢) . وعندما فتح المسلمون الأندلس قضوا على النظام الذى كان سـائدا فى عصر القوط حيث كانت الأراضى فى يد عـدد قليل من الأشراف والنبلاء ورجـال الكنيسة ، بينما كان سائر السكان من المزارعين بمثابة الأقنـان الذين يعملون فى هـذه الأراضى لصالح تلك الفئات القليـلة .

فأخذ الفاتحون فى تجزئة الملكيات الكبيرة إلى ملكيات صغيرة ، وزعت على الفاتحين إلى جانب سـكان البلاد الآخرين الذين أصبح لهم حـرية التصرف فى هـذه الأرض . وكان ذلك عاملا مهما فى تحقيق فكرة التضامن الاجتماعى بين السـكان .

وأصبحت هـذه الملكيات الصغيرة ركنا أساسيا فى دعم النهضـة الزراعية بالأندلس . وكان ملاك الأراضى من المسلمين والمسيحيين واليهود وغيرهم يؤدون بالتساوى ضريبة الخراج . وكان هـذا أيضا من العوامل التى ساعدت على تقدم النشاط الزراعى . ومنذ ولاية السمح بن مالك الخولانى ١٠١هـ أصبح مالك الأرض والمزارع شـبه شريكين فيها ، وكذلك أصبح العرب شركاء للكثير من الاسبان بعـد توزيع الأراضى بين عـرب الشام والبلديين فى ولاية أبى الخطار اليمنى سنة ١٢٥هـ على أثر توزيع الشاميين على كور الأندلس إلى جانب البلديين(١٣) .

وقد استطاع المسلمون فى الأندلس أن يوفقوا بين بيئتهم القـديمة وبين البيئة الجديدة التى استقروا فيها ، ولم يكن تقدمهم فى مجـــال

---

(١٢) انظـر : المـاوردى : الأحـكام السلطانية ص ١٣١ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٤٧٣ — ٤٧٤ .

(١٣) انظـر : ابن الابار : الحلة السيراء جـ ١ ص ٦١ — ٦٢ ، د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠٧ .

الزراعة باقل من تقدمهم فى مجـــال الحرب والجهاد ، ونجحوا فى تحويل اجزاء كبيرة من الأراضى المقفرة بالأندلس إلى أراض صـالحة للزراعة(١٤).

كما ادخلوا محاصيل جـديدة من المشرق مثل النخيـــل والرمان الذى ادخلت زراعته من الشـام ــ وخاصة من رمان الرصافة المنسوبة إلى هشام ابن عبد المـــلك ــ فى عهد عبد الرحمن الداخل واستطاع سفر بن عبيد الكلاعى وكان من جند الأردن ، تهجين نوع منه ينسب إليه فسمى بالرمان السفرى . ويصف ابن حيان هذا النوع بأنه (الموصوف بالفضيلة المقدم على اجناس الرمان بعـــذوبة الطعم وغزارة المـــاء وحسن الصورة ، وكذلك النارنج الذى لازال يعرف فى الأسبانية بنفس الاسم Nakangi (١٥) .

والقطن الذى انتقلت زراعته إلى الأندلس فى القرن الثالث الهجرى ، واشتهرت عدة بلاد بزراعته وعلى راسها إشبيلية ، وكذلك التفاح الذى تكثر زراعته فى جبال سيرانيفادا ، والبطيخ السندى الذى لازال يعرف فى الاسبانية باسم ساندیا Sandia (١٦) .

كما ادخلت زراعة قصب السكر حيث يفهم من كتابات بعض المؤرخين الأندلسيين مثل الرازى وعريب بن سعد القرطبى انه كان ينتج بكميـــات كبيرة بالأندلس فى القرن الرابع الهجرى ، وكان من أهم مراكز زراعتـــه البيرة ، ومالقة ، واشبيلية(١٧) .

---

(١٤) د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠٨ .

(١٥) عبد الحميد الشرقاوى : الحياة الاقتصادية فى الأندلس فى القـــرن الرابع الهجرى ص ٦٠ .

(١٦) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢١٧ ، د. السيد سالم : قرطبـــة حاضرة الخلافة ص ٥٠ ، محمد دياب : تاريخ العرب فى اسبانيا ج ١ ص ٦٨ ــ ٦٩ .

(١٧) تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٣٣ ، ٣٨٤ .

وكذلك الأرز الذى ادخلت زراعته فى شرق الأندلس وخاصة فى منطقة بلنسية التى تعتبر اليوم هى المستودع الرئيسى للأرز فى أسبانيا ، وتشتهر بنوع من الطعام يقوم عليه ويسمى (بائليا Paella) .

ويلاحظ أن كلمة أرز قد انتقلت إلى اللغة الأسبانية بنفس اللفظ Arroz وكذلك ادخلت بعض الخضروات التى لازالت تحتفظ بأسمائها العربية أيضا كالباذنجان والخرشوف والزيتون والزعفران ، والسلق وغير ذلك(١٨) .

وقد كانت اكثر حاصلات البلاد مما تجود زراعته فى حوض البحر المتوسط مثل القمح والشعير والقطن والكتان والأرز والبقول والموالح والكروم والزيتون والموز والتين والخوخ وغيرها . يقول الرازى مؤرخ الأندلس : « وفواكهها تتصل طول الزمان فلا تكاد تعدم »(١٩) . هذا إلى جانب الغابات الكثيرة المنتشرة فى أنحاء البلاد مثل أشجار البلوط والسنديان والصنوبر وغيرها(٢٠) .

وكان مما ساعد على تقدم الزراعة بالأندلس فى العصر الأموى الاهتمام بشؤون الرى مثل إنشاء الترع والجسور ، وشق القنوات ، وإقامة القناطر إلى غير ذلك .

---

(١٨) الحميرى : الروض المعطار ص ٢١ — ٢٤ ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٣ ص ١٣٠ ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٤٥ .

(١٩) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٨٣ .

(٢١) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٠٨ ، د. مني حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠٩ .

وهناك ظاهـــرة طبيعية أحسن المسلمون استغلالها فى الأندلس فى الاندلس فى مجال الزراعة ، وهى كثرة تساقط المياه من المرتفعات الجبلية فكانوا يوسعون القيعان حتى تصبح أحواضا فسيحة تمتلىء بالمياه ، وترفع منها بالنواعير (السواقى) لتستخدم فى الرى . ولا تزال إحـدى هـذه القيعان (الأحواض) قائمة حتى اليوم فى جنوب بلنسية بأسبانيا(٢٢) .

ومما يدل على إبداع المسلمين فى مجال الرى (محـكمة الميـاه) التى كانت تعقد ن الاهالى لتنظيم توزيع الميـاه على الفـلاحين ، وهى محكمة أهلية لا دخـل للحكومة بهـا ، وكان حكمها نافـذا على الجميع ، وما زال هـذا التقليـد معمولا به فى بلنسية حتى اليوم حيث تعقد المحكمة كل يوم خميس عنـد الظهر فى نفس المكان القـديم الذى كانت تعقد فيـه بجوار مسجد المدينة الذى تحول بعـد الاسـتيلاء عليها من الإسبان إلى كنيسة . ويلاحظ فى هـذا الصدد أن أسماء كثير من أدوات الرى والزراعة قـد دخلت فى اللغة الأسبانية ولازالت إلى اليوم مثل الناعورة Noria والساقية Acequia (٢٣) . كما كانوا يستخدمون الدواليب ومنها نوع كانوا يسمونه (الخطارة)(٢٤) .

وقد وضع الأمويون تقويما للزراعة عرف (بالتقويم القرطبى) أصبح

---

(٢٠) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٧٠ .

(٢٢) د. حسين مؤنس : رحلة الأندلس ص ٢٧٥ ط ١ مطـابع كوستا توماس القاهرة سنة ١٩٦٤م .

(٢٣) د. سعيد عاشور وآخران : دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٧٧ .

(٢٤) انظر : الخشنى : قضـاة قرطبة ص ٧٦ .

دليــلا تحــدد على أساسه مواعيد زراعة المحاصيل المختلفة ، واخذه عنهم غيرهم من الامم(٢٥) .

كما عرف الاندلسيون (نظــام القلب والتــذييل) لإعــداد الأرض للزراعة ، واستخدموا الثيران فى حــرث الأرض ، وكانوا يسمون المحصول باسم (الرفــع) ، ويسمون المرعى باسم (المجشر)(٢٦) .

وقــد وجــد هناك نظام إقطاع عسكرى حيث يعطى جنــد الجيش اراضى تقطع لهم ليزرعوها بأنفسهم أو عن طــريق غيرهم ، ويتعيشون منها . وظل هــذا النظام ــ كما يبدو ــ معمولا به حتى جــاء المنصــور ابن ابى عامر فاستبدله بنظام الأرزاق والرواتب فى الجيش ، وقــد أفــاد هــذا النظام الجديد فى القضــاء على العصبية القبلية والجنسية بين فرق الجيش المختلفة من عرب وبربر وصقالبة ، وظل الحال على ذلك حتى جاء المرابطون فأعادوا نظام الإقطاع العسكرى من جديد فى القرن الخامس .

ويفصل ذلك الطرطوشى فيقول : « وسمعت بعض شيوخ الأندلس من الأجناد وغيرهم يقولون : ما زال أهل الإسلام ظاهرين على عدوهم ، وأمر العدو فى ضعف وانتقاص لمــا كانت الأرض مقطعة فى أيدى الأجناد ، فكانوا يستغلونها ويرفقون بالفلاحين ، ويربونهم كما يربى التاجر تجارته . وكانت الأرض عامرة ، والأموال وافــرة ، والأجنــاد متوافرين ، والكراع والسلاح فوق ما يحتاج إليه ، إلى أن كان الأمر فى آخر أيام ابن أبى عامر ، فرد عطايا الجند مشاهرة بقبض الأموال ، وقدم على الأرض جباة يجبونها فأكلوا الرعايا ، واجتاحوا أموالهم واستضعفوهم ، فتهاربت الرعــايا ، وضعفوا عن العمارة ، فقلت الجبايات المرتفعة إلى السلطان ، وضــعفت

---

(٢٥) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٣٠٨ .
(٢٦) انظر : الخشنى : قضــاة قرطبة ص ٩٣ ، المراكشى : المعجب ص ٢١ .

الأجناد وقوى العــدو على بلاد المسلمين حتى أخذ الكثير منها ، ولم يزل أمر المسلمين فى نقص وأمر العــدو فى ظهــور إلى أن دخلهــا الملثمون (المرابطون) فردوا الإقطاعات كما كان فى الزمان القديم »(٢٧) .

وقد اشتهرت الأندلس بكثرة رياضيها وبساتينها وجنانها العامة التى كانت متاحة للجميع يتمتعون بهــا ، ولذلك فقد تميز الأندلسيون بنــزعة جمالية ، وميل كبير لحب النبات والورود والأزهار وزراعة الأشــــجار . ونلمس ذلك بوضوح فى البيوت والدور ، فضــلاً عن العمائر والقصور ، بل حتى فى افنيــة المســاجد . ودليــل ذلك أن مذهــب الأوزاعى الذى اعتنقوه قبل مذهب مالك كان يبيح غرس الأشجار فى صحن المســجد ، ورغم تحولهم إلى مذهب مالك فى الأعم الأغلب الذى لا يجيز ذلك ، إلا أنهم ظلوا فى هــذه المسألة على مذهبهم السابق . ويتضح ذلك من قــــول ابى الحسن النباهى « ومن المســائل التى خالف فيها أهل الأندلس قديما مذهب مالك بن انس ، هى أنهم اجازوا كراء الأرض بالجزء مما يخرج منها وهو مذهب الليث بن سعد ، واجازوا غرس الأشجار فى المساجد وهـــو مذهب الأوزاعى »(٢٨) .

ولازالت هــذه العــادة موجودة فى اسبانيا إلى اليوم حيث توجــد اشجار الليمون والبرتقال فى صحن جامع قرطبــة ، وفى بعض الكنائس ايضــا(٢٩) .

---

(٢٧) سراج الملوك ص ٢٩٩ .

(٢٨) المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ص ١٤٩ . نشر ليفى بروفنسال القاهرة سنة ١٩٤٨م .

(٢٩) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٩٩ .

الصـــــناعة :

اما عن الصناعة بالأندلس فقد كان للمسلمين ايضـــا أثــر كبير فى نهضتها وترقيتها وقـــد ساعدت على ذلك عـــدة عوامل منها :

١ — استغلال المسلمين لثروات البـــلاد الطبيعيـــة ، وبذلهم جهودا كبيرة فى هـــذا المجال(٣٠) .

٢ — روح التســـامح التى ابداها المسلمون تجـــاه أهـــل الحـــرف والصـــنائع .

٣ — تشجيع المسلمين للصناعة والابتكار فيها لصناعة ما تحتـــاج إليـــه البـــلاد .

ويرى ابن خلدون : أن رسوخ الصناعات فى الأمصار إنما هو برسوخ الحضـــارة ، وطول أمدها ، ويتخذ من الأندلس مثالا فيقول « كالحـــال فى الاندلس لهذا العهد . فإنا نجد فيها الصنائع قائمة ، وأحوالها مستحكمة راســـخة فى جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها ، كالمبانى ، والطبـــخ ، وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار ، وتنضيد الفرش فى القصور ، وحسن الترتيب والأوضـــاع فى البنـــاء ، وصـــوغ الآنيـــة من المعـــادن والخزف ... وســـائر الصـــنائع التى يدعو إليها التـــرف وعوائده ... وما ذلك إلا لمـــا قدمناه من رسوخ الحضارة فيها برسوخ الدولة الأموية ، وما قبلها من دولة القوط ، وما بعدها من دولة الطوائف إلى هلم جـــــرا فبلغت الحضارة فيها مبلغا لم تبلغه فى قطر إلا ما ينقل عن العراق والشام ومصر ايضـــا لطول آماد الدول فيها فاستحكمت فيها الصنائع ، وكملت

---

(٣٠) أشار المقـــرى إلى كثير من هـــذه الثروات فى نفح الطيب جـ ١ ص ٧٠ — ٧١) .

جميع أصنافها على الاستجادة والتنميق »(٣١) .

وهكذا احتضن المسلمون حضارة الأسبان وشملوا أهل الصناعة والفنون المختلفة برعايتهم وعنايتهم ، وظل الصناع وأرباب الحرف المختلفة يسيرون فى نفس الطريق الذى كانوا يسيرون فيه من قبل مع بعض التغيرات الطفيفة فى تكييف منتجاتهم وفقا لما يقتضيه الوضع الجديد ، ثم ما لبث أكثر هؤلاء أن وجدوا أنفسهم يخالطون المسلمون ، ويشاركونهم ويتعاملون معهم ، فأقبلوا على الثقافة العربية ، ودخل الكثير منهم فى الإسلام ، وتحققت بذلك النقلة الحضارية الهائلة فى العصر الأموى وخاصة فى عصر الخلافة ، وصيغ فى ذلك العصر فن اسلامى أندلسى أخذ يتدرج فى النمو والتطور(٣٢) .

وإذا أردنا أن نتحدث عن بعض الصناعات فى الأندلس فإننا نجد منها :

صناعة المنسوجات : التى انتشرت فى أنحاء كثيرة من البلاد نظرا لتوافر المواد الخام اللازمة لها من القطن والكتان والحرير والصوف ، وكذلك الأصباغ اللازمة . فقد كان القماش المعروف باسم (بوقلمون) يصنع فى مدينة شنترين غربى الأندلس بألوانه المتغيرة(٣٣) . كما كان

---

(٣١) المقدمة ص ٢٨٢ فصل فى أن رسوخ الصنائع فى الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها .

(٣٢) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٧٨ .

(٣٣) قيل : فى تفسير كلمة (بوقلمون) أنها اسم للحرباء باليونانية ، وقيل : إنها اسم دابة بحرية لها وبر كانت تعيش فى المحيط الأطلسى غرب الأندلس ، وكانت تحتك بحجارة الشاطىء ، فيقع منها وبر فى لين الحرير ولون الذهب ، فيجمع وينسج فى مدينة شنترين ثيابا تتلون بعدة ألوان (المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٤٠ ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٣١) .

يصنع فى الاندلس أيضـا النسيج الحريرى المعروف باسم (العتـابى) الذى انتقلت صناعته من العراق إلى الأندلس (٣٤) .

ولقد ازدهرت صناعة المنسوجات الحريرية فى الأندلس نظرا لكثرة اشجار التوت . حيث يشـير المؤرخ الاندلسى عريب بن سـعد القرطبى (ت ٣٦٩هـ) إلى قيام النسـاء بتربية دود القـز ، ورعاية بيضـه ، وانتقاء شرانقه من شهر فبراير حتى يفقس فى شهر مارس من كل سنة(٣٥) .

وكان من اهم مراكز هـذه الصناعة قرطبة والمرية التى يقدر المقرى عـدد الأنوال فيها فى عصره (ت ١٠١٤هـ) بنحو خمسة آلاف وثمانمائة نـول(٣٦) .

كما اشتهرت مرسية بصناعة الحلل من الحـرير والديباج . ويذكر ابن سعيد المغربى عن الحضرمى قوله « وكما يتجهز الفارس من تلمسـان ، تتجهز العروس من مرسية »(٣٧) .

وحينما زار الرحـالة ابن حوقل الأندلس فى القرن الرابع الهجرى اشـاد بانسجة الديباج الأندلسية ، وبالسروج الحريرية ، وذكر انها فاقت فى صنعتها أى مكان فى العالم ، وأنها تزيد فى كمياتها على ما ينتج فى بلاد العـراق(٣٨) .

كما اشتهرت صناعة المنسوجات القطنية وخاصة فى مدينة إشبيلية

---

(٣٤) سمى بذلك نسبة إلى محلة العتابية فى غرب بغـداد وهى موطن صناعته الأصلى .
(٣٥) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٣٦ .
(٣٦) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٢ .
(٣٧) المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ .
(٣٨) صـورة الأرض ج ١ ص ١١٤ .

التى كان يزرع فيها القطن ، وكان يصنع بها نوع من الأقمشة يقى من الأمطار . كما وجدت أيضا صناعة المنسوجات الكتانية البديعة ، وكانت هناك أنواع منها لا يفرق بينها وبين الكاغد الجيد الصقل فى الرقة والبياض ، وكان من اهم مراكز صناعتها سرقسطة ولاردة وباجة(٣٩) .

كما وجدت صناعة الصوف وخاصة فى سرقسطة وجنجالة ، ولاتزال أسبانيا حتى اليوم تشتهر بصناعة الأغطية (البطاطين) والسجاد ، ولعل الصوف الأسبانى المعروف باسم (مارينو) ينسب إلى قبائل بنى مرين الزناتيين الذين حكموا المغرب وجنوب الأندلس فى القرنين السابع والثامن الهجريين ، وكانت لهم مراع كثيرة لتربية الأغنام أشار إليها لسان الدين ابن الخطيب فى كتابه (نفاضة الجراب فى غلالة الاغتراب)..

أما صناعة السجاد والبسط فكان من أهم مراكزها مرسية وبسطة وتنتالة فى شرق الأندلس ، ولعل كلمة (الفوميرا) الإسبانية التى تعنى سجادة قد جاءت من الكلمة العربية (الخمرة) أى الحصيرة أو من الحمرة لأن اللون الأحمر كان هو الغالب عليها(٤٠) .

وقد حظيت المنسوجات الأندلسية بشهرة كبيرة فى أوربا وحرص الكثير من الملوك والأمراء والأغنياء فيها على اقتنائها ، ولاتزال هناك نماذج فى بعض المتاحف الأوربية تشهد بمدى براعة الأندلسيين فى هذه الصناعة مثل متحف غيجو بقطالونيا فى أسبانيا ، ومتحف الأكاديمية الملكية بمدريد ، ومتحف الفن فى بروكسل ، وكاتدرائية أوتون بفرنسا(٤١) .

---

(٣٩) الإدريسى : نزهة المشتاق ص ١٩٢ .
(٤٠) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .
(٤١) المرجع السابق ص ٣٣٧ .

وقد كانت هناك دور خاصة لصناعة الملابس المختلفة للأمراء والخلفاء ورجـال الدولة والجند تسمى دور الكسوة أو دور الطـراز ، ويذكر أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل كان أول من اتخذ من الأمويين دار للطراز بالأندلس . وفى ذلك يقول ابن الخطيب « وفى أيامه اتخـذ الطراز الذى كان حديث الرفاق ، وطرفة أهل الآفاق »(٤٢) .

يقول ابن خلدون عن الطراز « من أبهة الملك والسلطان ، ومذاهب الدول أن ترسم أسماؤهم أو علامات تختص بهم فى طراز أثوابهم المعـدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الإبريسم ، تعتبر كتابة خطها فى نسج الثوب إلحاما وسدى بخيط الذهب ، أو ما يخالف لون الثوب من الخيـوط الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصناع فى تقـدير ذلك ، ووضـعه فى صناعة نسجهم ، فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز ، قصـدا التنويه بلابسها من السلطان فمن دونه ، أو التنويه بمن يختصه السلطان بملبوسه ، إذا قصـد تشريفه بذلك أو ولايتـه لوظيفـة من وظـائف دولتـه ... الخ »(٤٣) .

صـناعة السـفن والأخشـاب :

كما اشتهرت الأندلس بصـناعة السفن وسـاعد على ذلـك كثرة الغابات المنتشرة بهـا . وقد كانت صـناعة السفن والمراكب من الصناعات القديمة الموجودة قبل فتح الأندلس ، وقد اعتمد المسلمون على دور الصناعة التى كانت منتشرة فى عـدة أماكن مثل طرطوشة وطركونة ودانية وبجانة

---

(٤٢) أعمال الأعلام ص ٢٠ ، دائرة معـارف الشـعب (٦٤) ص ١٩٠ هامش ١ .

(٤٣) المقدمة ص ١٨٦ — ١٨٧ .

وإشبيلية والجـزيرة الخضراء ، ولمـا قـدم عبد الرحمن الداخـل اتخـذ سـنة ١٤٤هـ دورا لصناعة السفن فى المرية وقرطاجنة إلى جانب المراكز السابقة وذلك لتوفر المواد اللازمة لهذه الصناعة من الأخشاب بالإضـافة إلى توفر معدن الحـديد الذى تحتاج إليه وخاصة فى شلطيش(٤٤) .

وقد ازدهر فن النحت على الخشب ووجـدت أمثلة رائعـة للتحف المصنوعة منه مثل منبر المسجد الجامع بقرطبة ، ومقصورته ، ومنبر مسجد الزهراء ومنبر جـامع اشبيلية ومقصورته . وقـد مر ذكر شىء من ذلك بالتفصيل عنـد الحديث عن بناء المساجد وتعميرها(٤٥) .

كما تمثل فن النحت الأندلسى أروع تمثيل فى صـناعة العلب الخشبية المطعمة بالعـاج التى كانت تتخـذ لحفظ قنينات العطـر والمسك والعنبر والحلى ، وخاصة لزوجات الخلفـاء والأمراء وجواريهم .

وقد ازدهرت هـذه الصناعة بصفة خاصـة فى عهد الخليفة الحكم المستنصر وكانت هناك دار للصناعة بقرطبة أسست على ما يبدو فى عهد أبيـه الخليفة عبد الرحمن الناصر فى مدينـة الزهراء . ثم ما لبثت دور الصناعة أن أخـذت تنتشر فى أماكن أخرى . ومن أروع الأمثـلة علبـة صنعت بأمر الحكم لزوجته صبح بيـد درى الفتى الصقلبى سنة ٣٥٣هـ ، وصندوقان آخران صنعا فيها أيضـا لها سنة ٣٥٥هـ .

ويبدو أن هـذه الصناعة قـد توقفت أو أصابها الذبول بعـد وفاة الحـكم إلى أن كانت أيام عبد المـلك بن المنصور بن أبى عامر حـاجب الخليفة هشام المؤيد الذى أحياها من جـديد ، ومن أمثـلة ذلك صـندوق له غطـاء على شـكل هرم ناقص صـنع لعبـد الملك سنة ٣٩٥هـ على

---

(٤٤) د. العبادى : دراسات فى تاريخ المغـرب والأندلس ص ٢٤٩ .
د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠٩ .
(٤٥) انظر دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٠ .

يـد نمير بن محمد الفتى العامرى ، وشاركه فى صناعته صانعان آخران من الصقالبة وهما عبيـدة وخير .

وزخارفه تتألف من جامات مفصصة تتضمن منـاظر من حياة البلاط الأموى ، وأخرى تمثل مناظر صـيد ومبارزات . ومن الأمثلة المتبقية صندوق من العاج صنع بمدينة قونكة فى طليطلة — وهو محفوظ فى متحف برغش — عليـه رسوم تمثل مناظر صـيد وحيوانات تتصـارع ، موزعة فى ثلاثة صـفوف أفقيـة وعلى أعلى الصـندوق نقش بالخـط الكوفى نصـه « ... باقيـة لصاحبه أطال الله بقـاءه مما عمل بمدينة قونكة سنة سبع عشرة وأربعمائة ، عمل محمد بن زيان عبده أعزه الله »(٤٦) .

صـناعة الزجـاج :

ومن الصناعات التى ازدهـرت فى الأندلس صـناعة الزجاج التى اشتهرت بهـا مالقة والمرية ، وخاصة صـناعة الأكواب والكئوس التى تعلق فى الثريات التى توضع فى المسـاجد والقصور(٤٧) .

ونعتقد بأن هـذه الصناعة قـد أخذت تتقدم منذ عهد عبد الرحمن الأوسط وخاصة بعـد دخول زرياب إلى الأندلس ، وتفضـيله استخدام الأكواب الزجاجية الصافية فى تقـديم المـاء والشراب ، بدلا من أكواب الذهب والفضـة والمعادن الأخرى(٤٨) .

صـناعة الأسـلحة :

كما تقدمت صناعة الأسلحة فى الأندلس ، وانتجت بكميات كبيرة ، وساعد على ذلك كثرة الحروب التى خاضها المسلمون ضـد أعـدائهم ،

---

(٤٦) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٢ — ١٨٣ .
(٤٧) د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠٩ .
(٤٨) انظر : د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٤٢٧ .

وكذلك التى خاضوها ضد بعضهم البعض ، هذا بالاضافة إلى الأسلحة المستوردة . وقد وجدت أنواع شتى من الأسلحة وعلى رأسها السيوف والرماح والدروع والخوذات وغيرها . وقد ذكر ابن سعيد المغربى أن من آلات الحرب فى الأندلس : « التروس والرماح والسروج والألجم والدروع والمغافر » وقال : إن السيوف البرذليات — نسبة إلى مدينة برديل وهى بوردو الحالية بفرنسا — مشهورة بالجودة ، والفولاذ الذى باشبيلية إليه النهاية »(٤٩) .

وكان الفولاذ الأندلسى مشهورا بجودته ، ومن أهم مراكز صناعته طليطلة وإشبيلية ومرسية والمرية وكانت تصنع منه أنواع كثيرة من الأسلحة .

صناعة السكر :

ومن الصناعات التى وجدت فى الأندلس أيضا صناعة السكر الذى كان يستخرج من القصب ، حيث كان إنتاجه وفيرا ، وخاصة فى القرن الرابع الهجرى ، كما أشار إلى ذلك الرازى وعريب بن سعد . وكان من أهم مراكز إنتاجه وتصنيعه البيرة ومالقة والمنكب وجليانة وإشبيلية .

وقد استمر إنتاج السكر وفيرا فى الأندلس حتى سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م لدرجة أن الإسبان سمحوا لعدد من المدجنين (المسلمين المعاهدين) المشتغلين بزراعته بالبقاء ، ولكن كثيرا منهم رفض ذلك وغادر اسبانيا مما ترتب عليه تضاؤل إنتاجه(٥٠) .

---

(٤٩) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٤ .

(٥٠) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٤٥ .

صـــناعة الورق :

ومن الصناعات التى اشتهرت فى الاندلس ايضـــا صناعة الورق ومن المرجح أن تكون هـــذه الصناعة قـــد وجـــدت فى العصر الأموى ، وخاصة بعـــد تقدم الحركة العملية وانتقلت إليها من المشرق حيث يذكر الإدريسى فى كلامه عن مدينة شـــاطبة : (أنه يعمل بمدينة شـــاطبة بالأندلس من الكاغـــد ما لا يوجـــد له نظـــير بمعمور الأرض ، وأنه يعـــم المشـــارق والمغـــارب)(٥١) .

وكذلك اشتهرت بلنســـية وطرطوشة بصنعه أيضـــا ، ويبـــدو من المخطوطات المحفوظة فى المكتبات الإسبانية أن الورق كان يصنع من الياف القطن والكتان ونبـــات الشهدانج(٥٢) .

ويعزى إلى المسلمين انهم كانوا اول من ادخل الورق إلى أوربا عن طريق الأندلس ، وكانوا يستخدمون الرق قبل ذلك ، ولعل شـــاطبة كانت اول مكان فى قارة أوربا يصنع فيـــه الورق(٥٣) .

وكان الورق الشاطبى مشهورا فى العالم الإسلامى كله ، وبلغ من جودته أن بعض الكتاب كانوا لا يكتبون الوثائق إلا عليـــه ، واشتهر إلى جانب جودته برخص ثمنه . وقد عرف الأندلسيون إلى جانب الكاغد نوعا آخر من الورق المتين السميك الشـــبيه بالقمـــاش وهو الرق المعـــروف بالبارشمان ، وكان مطلوبا فى أوربا وخاصـــة لكتـــابة الأناجيل والوثائق الكنسية . وقد قلده الايطاليون بعد ذلك .

---

(٥١) الإدريسى : نزهة المشتاق ص ١٩٢ .

(٥٢) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٤٨ .

(٥٣) عادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة ص ٢٦٦ هامش ٢ ، ويظهر ان الصين كانت أول من عرف صناعة الورق بنحو قرن قبل الميلاد .

وإلى جانب صناعة الورق فقد تقدمت صناعة أدوات الكتابة وما يتصل بها من حبر وأقلام وشمع للأختام وغير ذلك . وقد برع الأندلسيون فى صناعة الأحبار من البيئة وعرفوا المعدنى والنباتى والمطبوخ وغير المطبوخ ، والبسيط والمركب منها ، وعرفوا أقلام الغاب وكانوا يسمونها (الأنبوب) ، بل عرفوا أقلام الحبر ، وتفننوا فى صناعة المحابر من الزجاج والبلور والرخام .

وكانوا يزخرفونها ويكتبون اسم صاحبها عليها بواسطة الحفر مع بعض أبيات من الشعر ، ومنها محابر على هيئة الخنجر فى قرابه توضع فى حزام الثوب مع الأقلام(٥٤) .

صناعة التماثيل والتحف المعدنية :

كما اشتهرت فى الأندلس صناعة التماثيل المعدنية ، وتشير كتب التاريخ الأندلسى إلى تلك التماثيل التى كانت تزين قصور الزهراء . فيذكر المقرى : أن الخليفة الناصر نصب الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل على صورة إنسان والذى جلب من القسطنطينية فى المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس وجعل عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالى مما عمل بدار الصناعة بقرطبة على صورة أسد وبجانبه غزال وتمساح وفى المقابل صورة ثعبان وعقاب وفيل ، وفى المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحداة ونسر ... كل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ويخرج الماء من أفواهها »(٥٥) .

وقد عثر فى الحفائر التى أجريت بمدينة الزهراء على تمثال لوعل أو غزال من البرنز فقد قرنيه وهو محفوظ فى متحف قرطبة للآثار ، ولعله هو الغزال الذى أشار إليه المقرى عند ذكره لهذه التماثيل الذهبية

---

(٥٤) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٣٤ .

(٥٥) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٦ ، البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣١ .

الحمراء ، وبلغ ارتفاعه نحو اربعين سنتيمترا ويزدان جسمه بزخارف محزوزة من دوائر او حلقات متصلة بداخل كل منها ورقة من أوراق الشجر . وكان الماء يجرى إلى فمه عن طريق انبوبة تمتد من وسط قاعدته وتصعد إلى رقبته(٥٦) .

وكذلك ازدهرت صناعة الثريات البرونزية . وقد ذكر المؤرخون أن جامع قرطبة كان يشتمل على مائتين وثمانين ثريا من اللاطون (النحاس الأصفر) عدد كئوسها سبعة آلاف وأربعمائة وخمس وعشرون كأسا ، وقيل : عشرة آلاف وثمانمائة وخمسة كئوس ، منها أربع ثريات كبار معلقة فى البلاط الأوسط . واكبرها الثريا الضخمة المعلقة فى قبة المحراب وكانت تحمل الفا وعشرين كأسا .

كما كان جامع البيرة يحتوى على عدد كبير من هذه الثريات التى احترقت عندما اشتعلت النيران فى هذا المسجد فى أثناء الفتنة البربرية فى بداية القرن الخامس الهجرى . وقد عثر فى الحفائر التى أجريت بأرض هذا الجامع على ست ثريات أكبرها على شكل طبق مستدير مخرم فى شكل هندسى بديع ، ويتألف محيطها من فراغات مستديرة كانت توضع فيها الكئوس التى تضاء بالزيت . وهذا المحيط مزود بحلقات صغيرة تعلق فيها السلاسل (٥٧) .

وكذلك ازدهرت صناعة التحف المصنوعة من الفضة والبرنز ، وقد وصلت إلينا تحفة فضية من عصر الخلافة ، وهى صندوق كاتدرائية خيرونة ، الذى يبدو أن القطلانيين سلبوه من قرطبة من بين ما سلبوه بعد تخريبها فى القرن الحادى عشر الميلادى . وهذا الصندوق عليه نقش كتابى يدل على أنه صنع بأمر الخليفة الحكم المستنصر لابنه هشام المؤيد ،

---

(٥٦) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٥ — ١٨٦ .
(٥٧) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٦ .

على يدى جؤذر ، ونصه « بسم الله بركة من الله ويمن وسعادة وسرور دائم لعبد الله الحكم أمير المؤمنين المستنصر بالله ... مما أمر بعمله لأبى الوليد هشام ولى عهد المسلمين . تم عمله على يد جؤذر فتاه » .

وهذا الصندوق مصنوع من الخشب ، ومغطى بصفائح من الفضة المزدانة بزخارف مطروقة ومذهبة ، وقاعدته مستطيلة يبلغ طولها ٣٩سم ، وعرضها ٢٣سم ويحتفظ بمفصلتين دائريتين وقفل ومقبض رائع الزخرفة(٥٨) .

كما عثر على مهراس كبير (هاون) من البرنز محفوظ بمتحف فيلانونيا ، وهو مزود بحلقتين ونتوءات مثلثة على شكل مناقير طيور تدور ببدنه ، وتزينه زخارف محفورة من التوريقات والأسود والطواويس ، ونقش كتابى مطموس لا تظهر منه إلا كلمة (لصاحبه) . ويمكن إرجاعه إلى عصر الخلافة .

كما تحتفظ كنيسة سان سلفادور بإشبيلية بضبتى باب من البرنز المذهب موضوعتين على أحد أبوابها ، ولعلهما كانتا معلقتين فى باب المسجد الذى كان قائما فى موضعها ، وتتألف كل منهما من حلقة سداسية الشكل سعتها ١٤سم معلقة فى رأس أسد مركب فوق قرص مثمن الأضلاع جوانبه مقعرة . وتكسو الجميع توريقات جميلة ، وتشبه هاتان الضبتان حلقتين من اللاطون ذكرهما المقرى عند حديثه عن أحد أبواب قصر قرطبة حيث قال : « وعلى هذا الباب باب حديد وفيه حلق لاطون قد أثبتت فى قواعدها ، وقد صورت صورة انسان فتح فمه »(٥٩) .

---

(٥٨) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٨ — ١٨٩ .
(٥٩) نفس المرجع ص ١٨٧ .

التجـــارة :

ازدهر النشاط التجارى فى الأندلس بعـــد الفتح ، حيـث أصبحت البلاد عامرة بالسكان ، وتقدمت الزراعة ونهضت الصناعة ، وغدت الأموال كثيرة فى أيدى الناس . ويذكر بعض الباحثين ان عـــدد السكان فى عصر الرومان كان يتراوح بين ثلاثين أو اربعين مليونا ، ولكن ليس لدينا وثائق تاريخية أو إحصاءات رسمية تؤكد ذلك ، ولم نقف على عددهم بعد الفتح . وإن ذكر أن دار السكة بقرطبة كان يضرب فيها كل عام ثلاثة آلاف ألف درهم واربعمائة الف دينار ، وهـــذا المبلغ الذى كان يسك لا يتناسب مع الثلاثين أو اربعين مليونا ولذلك نعتقد بأن فى هـــذا العـــدد شىء من المبـــالغة فى التقـــدير .

ودليل ذلك ان البعض قد قدر عـــدد ســـكان اسبانيا سنة ١٧٦٨م بنحو تسعة ملايين ومائة وستين الفـــا ، وفى أوائل القـــرن الثامن عشر بنحو عشرة ملايين ، وفى منتصف القرن التاسع عشر بنحو اثنين وعشرين ميلونا وثلاثمائة وثلاثين الفا(٦٠) .

وعلى فرض أن المسلمين الذين غادروا اسبانيا بعـــد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م كانوا نحو خمسة ملايين على أكثر تقدير(٦١) . وأن من بقى منهم وتنصر كان نصف هذا العدد أو حتى مثله — وهذا غير معقول — فإن تقـــدير عـــدد سكان الأندلس بنحـــو ثلاثين أو اربعـــين مليونا فى عصر الرومان يظل تقديرا مبالغا فيـــه إلى حـــد كبير .

---

(٦٠) احمد امين : ظهر الاسلام جـ ٣ ص ١٩ — ٢٠ .

(٦١) انظر : د. احمد شلبى : التاريخ الإسلامى جـ ٤ ص ٨١ ، د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٢ ، عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ص ٤٠٢ ، عادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة ص ١٩٠ .

وقد قدر بعض الباحثين الأسبان (المهندس المعمارى توريس بلباس) عدد سكان قرطبة فى عصر الخلافة بما يقرب من مائة الف(٦٢) وهذا رقم متواضع بالنسبة لسكان العاصمة الأندلسية .

وعى أية حال فقد راجت التجارة الداخلية والخارجية فى الأندلس ، وكان لموقع الأندلس على البحر المتوسط ، وسيطرة المسلمين على حوضه الغربى أثر كبير فى نشاط التجارة عن طريق الموانىء الأندلسية المتعددة التى تصدر منها العديد من المنتجات الزراعية والصناعية ، مثل ميناء إشبيلية الذى كان يعد اعظم موانىء الأندلس النهرية لتصدير الحاصلات الزراعية والمنتجات المعدنية والصناعية إلى اوربا كالقطن والزيتون والأرز والفضة والنحاس والحديد والمنسوجات والسكر وغير ذلك .

وكان هناك طريق برى من طرق التجارة الخارجية يبتدىء من شرق المانيا إلى إيطاليا وفرنسا ومنها إلى الأندلس عن طريق نهر الرون وممر قطلونية ، ثم يستمر من الأندلس إلى طنجة عن طريق جبل طارق إلى بلاد المغرب ، ثم مصر ثم بلاد الشام والعراق وفارس والهند والصين(٦٣) .

وقد ذكر ابن حوقل أن من أهم المنتجات التى كانت تصدر من الأندلس : الملابس المطرزة التى تعمل فى الأندلس وتحمل إلى مصر وخراسان وغيرها ، والأصواف والأصباغ والحرير واللبود الفاخرة ، والأردية الكتانية التى تصنع فى بجانة ، والورق الأبيض السميك من مدينة شاطبة ، والتين الجاف من مالقة ، والخزف المذهب الذى اشتهرت به ايضا ، والكبريت الأحمر من مرسية والأسلحة من طليطلة(٦٤) . كما كان يأتى عن هذا الطريق

---

(٦٢) د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ص ١٧٦ .
(٦٣) د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٣١٠ .
(٦٤) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٣ ص ٥١٢ ، د. سعيد عاشور وآخران : دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٦٥ .

الرقيق الأبيض من أوربا ، وكان للتجار اليهود فى المـانيا وفرنسا والأندلس دور كبير فى تجارته .

وقد كانت التجارة بين الأندلس وبلاد الفرنجة مزدهرة وخاصـة فى أوقات السـلم وكانت هناك ثلاثة طـرق : أولها : الطريق البرى الذى يمر عبر جبال البرانس عن طريق عـدة ممرات من اهمها : ممر باب الشزرى (الرونسفال) وكانت القوافل التجارية تعبر هـذه المرات أو الأبواب إلى موانىء جنوب فرنسا وخاصة بروفانس ، وسبتمانيا ، ومارسيليا ، وناربون التى كانت من أهم المراكز التجارية فى بلاد الفرنجة .

وثانى هـذه الطرق : الطريق البحرى عبر ساحل أسبانيا الغـربى المطل على بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) ، وهـذا الطريق لم يسـلك إلا منذ عهد عبد الرحمن الأوسط بعـد القضاء على خطر النورمان ، وكانت غاراتهم على هـذا الساحل الغربى تشكل خطرا كبيرا .

وأما الطريق الثالث : فيمر عبر الساحل الشرقى للأندلس المطل على البحر الرومى (المتوسط) ثم تنقل البضـائع عن طريق الممرات عبر جبال البرانس ، أو عن طريق الموانى الجنوبية لفرنسا .

كما نشطت التجارة بين الأندلس وإيطاليا ، وكانت الجزائر الشرقية مثل ميورقة ، ومنورقة ، عرضـة لهجمات القراصنة البحريين الذين كانوا يتعرضون للسفن التى تسير محملة بالسـلع والبضائع . وقد حملت هذه الغـارات أهالى هـذه الجزر على طلب الحماية من شارلمـان ملك الفرنجة الذى طلب من أمراء الأندلس عقـد معاهدة بحرية للاشتراك فى تأمين هذه السفن من هجوم هؤلاء واستمرت ثلاث سنوات(٦٥) .

وقد كان لأهل الشام دور كبير فى تجارة البحر المتوسط حيث كانت لهم جاليـات فى كثير من الموانى المطـلة على هـذا البحر ، كما كان

---

(٦٥) د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

لليونان واليهود دور فى هـذه التجارة أيضـا . وكانت هناك جماعات من التجار المغـاربة الذين يعملون فى نقل التجارة من إفريقيا إلى الأندلس وبلاد غالة (فرنسـا) وتسميهم بعـض المصـادر (تجـار من وراء البحـر)(٦٦) .

هـذا بالإضافة إلى التجار الأندلسيين الذين قاموا ولا شـك بدور كبير فى هـذه التجارة أيضـا ، يقول ج. ب ترند « وقد ظلت أسـبانيا المسيحية مدة خمسة قرون محصورة فى دائرة الإسلام الاقتصادية ، فكانت التجارة احتكارا فى أيدى المسلمين واليهود ، وظلت المـالك المسيحية فى اسبانيا لا تستعمل إلا النقود العـربية والفرنسية طـوال أربعة قـرون تقريبـا »(٦٧) .

وقد اخـذت العلاقات التجارية تنمو نموا ملحوظا بين الأندلس وبلدان شتى ، ونشطت حركة التبادل التجارى بينها ، وكانت السفن والمراكب التجارية فى موانىء الأندلس المتعددة كإشبيلية ومالقة ودانية وبلنسـية والمـرية تعمل بـين كثـير من مـدن البحـر المتوسـط ، وتحـمل المنتجـات الأندلسـية المختلفـة من الأقمشـة والسـجاد والخـزف والجلود والأسلحة والورق والتوابل وزيت الزيتون وغيرها .

وكانت هـذه العلاقات متواصلة مع مصر بخاصة ، وبدات تأخـذ منـذ القرن الخامس شـكلا قويا ونشطا ، ونجـد فى النقوش التى عثر عليها ما يؤكد ذلك ، فقـد عثر فى مدينة المرية على شاهد قبـر يحـمل اسم تاجر من مدينة الاسكندرية وافته المنيـة فى هـذه المدينة التى كانت

---

(٦٦) لويس أرشيباند : القوى البحرية فى البحر المتوسط ص ١٢٠ ،
د. حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط ص ٥٠ .

(٦٧) تراث الإسلام حـ ١ ص ٥ ، ٦ لجنـة الجامعيين لنشر العلم سنة ١٩٨٣م القاهرة .

تشتهر بصناعة المنسوجات سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م(٦٨) .

وقد كان من عوامل نشاط التجارة فى الأندلس إنشاء دار لسك العملة أو النقود فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، حيث يذكر أنه ضرب الدراهم باسمه لأول مرة منذ دخول المسلمين الأندلس ، وكان أهل الأندلس يستخدمون قبل ذلك النقود الرومانية والقوطية ، وعلى رأسها الصولدى الرومانى Solida (٦٩) .

---

(٦٨) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى أسبانيا ص ٧٦ — ٧٧ ،
د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٦٩) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٢٩ ، قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٦ . ويذكر أن موسى بن نصير ضرب بعد دخوله طليطلة عملة ذهبية وأخرى برونزية فى دار السكة القوطية بها لصرف رواتب الجند ، وكانت هذه العملات تحمل نقوشا لاتينية على غرار العملات السابقة على الفتح فى أسبانيا والمغرب ، وإلى جانبها كتابات عربية أيضا . وقد سك الدينار على أساس الدينار الرومانى القديم ، وكان وزنه نحو أربع جرامات ، وتدور حول محيط وجهه عبارة (ضرب فى أسبانيا سنة ٩٣هـ) باللاتينية ، وتتوسط ظهره نجمة من ثمانية رءوس ، وتدور حول محيط ظهره عبارة معناها (الله أحد ، والله عالم ، والله ليس له كفوا) ، وهناك دنانير عليها نقوش كتابية تجمع بين العربية واللاتينية ووجه هذه الدنانير تقرأ فى وسطها عبارة (محمد رسول الله) ، وفى محيطها (بسم الله ضرب هذا الدينار بالأندلس سنة) ، أما ظهرها فعليه كتابة لاتينية تدور حول محيطه . كما كانت هناك عملات ذهبية صغيرة هى النصف دينار (١٫٩٨ جرام) ، والثلث دينار (١٫٣٠ جرام) وتتميز بأن

كما كان من عوامل نشـــاط التجـارة فى الأندلس أيضـــا الاهتمام بإنشـــاء المؤسسات ذات الصـــبغة الاقتصادية التى ارتبطـــت بالنشـــاط التجارى . وتتمثل فى الخانات والوكالات والفنادق والقياسر . وكان التجار القادمون إلى الأندلس يجدون فى هـــذه الأماكن مخازن لبضائعهم ، وحظائر لدوابهم ، ومقرا لنزولهم .

ولا شك أن الأندلس قـــد شهدت فى العصر الأموى الكثير من هذه المؤسسات ، وإن كانت المصـــادر التاريخية والأثرية لم تمدنا بالكثير عنها ، وإن أمدتنا بشىء عنها فى عصور تاليـــة . ودليل ذلك ما يذكره الإدريسى من أنه كان بالمرية وحـــدها فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى (الثـــانى عشر الميـــلادى) ما يقرب من تسعمائة وسبعين فندقا(٧٠) ، ويبدو أنها كانت فنـــادق صغيرة تتألف من طابق واحـــد أو طابقين عـــلى الأكثر .

* * *

= أوجهها تحمل فى وسطها صورا تمثل كرة قائمة على عمود فـــوق خطين ثم كتابات لاتينية على الوجهين . (د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٩٩ هامش ٤) .

وفى عهد عبد الرحمن الداخل سكت عملة باسمه لم تكن تختلف عن عملة الأمويين فى الشام من حيث الشـــكل والوزن والنقش ، وقد انتشرت دور سك العملة بعـــد ذلك حتى بلغـــت أربع عشرة (د. منى محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٣٣) .

(٧٠) انظر دائرة معارف الشعب ص ١٤٣ — ١٤٦ . تاريخ الحضـــارة الإسلامية العربية ص ٣٠٠ .

(موارد الدولة ونظامها المـــالى)

لا شك فى ان للحالة الاقتصادية تأثيرها البالغ فى الحياة الاجتماعية فى أى مجتمع من المجتمعات . فمن قواعد الاجتماع والعمران المقررة أنــه إذا كثرت الأموال فى أيدى الناس فإنهم يتوسعون فى الإنفـــاق ، وينعمون بالعيش بصـــفة عامة .

وقـــد كثرت الأمـــوال فى الاندلس فى العصر الأموى نتيجـــة لتنوع مصـــادر الدخل المختلفة من زراعة وصـــناعة وتجـــارة وثروات طبيعية ، بالإضـــافة إلى الموارد الأخرى من خراج وجــزية وعشور وزكاة وغنائم .

وبالرغم من كثرة المعـــارك والحروب التى خاضها الأمويون ضـــد اعدائهم ومناوئيهم فى الداخل والخارج ، وبالرغم من الصراعات التى دارت بين المسلمين وبعضهم واستهلكت جــزءا كبيرا من مصادر الدخل . إلا انه بقى الشىء الكثير الذى ادى إلى تعـــدد مظاهر البذخ والتـــرف فى شتى مناحى الحيـــاة الاجتماعية لدى الكثيرين وخاصة من أفراد الطبقة الخاصة كما أوضحنا ذلك فى الفصل الرابع عنـــد الحديث عن مظاهر الحيـــــاة الاجتماعية .

لقـــد كان الأمويون بعـــد تأسيس دولتهم فى الأندلس يريدون إثبات وجودهم ، ومنافسة خصومهم من العباسيين والفاطميين ، وإظهار قوتهم وعظمتهم امام اعدائهم من المسيحيين . فأضفوا كثيرا من مظاهر الأبهـــة والعظمة على دولتهم وخاصة عاصمتهم قرطبة . وساعدهم على ذلك كثرة الموارد والثروات المختلفة ، وإذا كنا قد تحدثنا عن الزراعة والصـــناعة والتجـــارة فإننا نتحدث الآن بإيجاز عن أهم موارد بيت المـــال :

١ ـــ **الخـــراج** : وهو مقـــدار معين من المـــال او المحصول يفرض على الأرض التى فتحها المسلمون عنوة إذا عدل عن تقسيمها على المحاربين ،

وتركت بأيدى أصحابها بعــد تعويض المحاربين عنها أو استرضائهم ، كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنــه بأرض السواد ، كما يؤخذ على الأرض التى صولح عليها أهلها وتركت لهم لقاء خراج معلوم(١) .

ويبدو انه كانت هناك ثلاث طــرق لجبــاية الخراج وهى : نظــام المحاسبة وتكون نقــدا أو نوعا أو الاثنين معــا ، ونظام المقاسمة : وتؤخذ من المحصول .ونظام المقاطعة (الإقطاع أو الالتزام) ويكون ذلك بمقتضى اتفاقات معينة بين الحكومة والمتقبلين(٢) .

---

(١) المــاوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣١ . وكانت هناك أنواع من الأرض لا يفرض عليها الخراج ، وإنما يفرض عليها العشر وتسمى الأرض العشرية وهى : الأرض التى أسلم عليها أهلها بدون حــرب فيدفعون عنها ضريبة العشر زكاة ولا يوضع عليها الخراج . والأرض التى ملكها المسلمون عنوة ، وقسمت بين الفاتحين غنيمة فيدفعون العشر من غلتها .

(٢) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٢٧٨ .

ويرجع نظام الالتزام أو الإقطاع إلى عهد الرسول ﷺ حيث اقطع أناسا من مزينة أو جهينة أرضــا بقصد تعميرها فلم يعمروها ، فجاء آخرون وعمروها واختصموا إلى عمر بن الخطاب ، فجعلها للفريق الذى عمرها وقال « من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين لا يعمرها فعمرها قــوم آخــرون فهم أحــق بهــا » (تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٤٧٦) .

وقد ذكر المــاوردى الإقطاع فقال إنه ضربان : إقطاع اســتغلال وإقطاع تمليك ، والأول ينقسم إلى موات وعامر ، والثانى : ما يتعين مالكه ولا نظر للسلطان فيه إلا بتلك الأرض فى حــق لبيت المــال إذا كانت فى دار الإسلام ، فإن كانت فى دار الحرب ولم يثبت للمسلمين عليها يد فإنه يجوز أن يقطعها الإمام للمقطع ليتملكها (الأحــكام السلطانية ص ١٨١ — ١٨٢) .

ونظرا لأهمية الخراج كمورد من موارد الدولة فقد اهتم الأمويون بشؤون الرى والزراعة ، من حفر الترع والقنوات وإصلاح القناطر والجسور ، وغير ذلك . ومثال ذلك قنطرة قرطبة التى تهدمت فى عهد عبد الرحمن الداخل بسبب السيول فقام ابنه هشام بتجديدها ، وأنفق فى ذلك أموالا عظيمة وكان يشرف على البناء ، ويعطى الأجرة للعمال بنفسه(٣) .

كما اهتموا باستصلاح كثير من الأراضى المقفرة وتحويلها إلى أراض خصبة صالحة للزراعة(٤) .

ومن هنا فقد كثرت حصيلة الخراج وخاصة فى غير سنوات الجدب وقلة المطر . ولم ترد إلينا قوائم تبين مقدار الخراج فى الأندلس حيث تشير معظم المصادر إلى الدخل بلفظ (الجباية) فى كثير من المواطن(٥) . إلا ما ورد عن الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الأوسط حيث ذكر المقرى : أن الخراج كان قبله ٣٠٠ ألف دينار مائة ألف للجيش ومائة للنفقة فى النوائب ومائة ألف ذخيرة ووفر (احتياطى) فأنفق الوفر حين اضطربت عليه نواحى الأندلس بالثائرين وقل الخراج(٦) . ويبدو أن المراد بالخراج هنا ليس ضريبة الأرض وإنما الجباية أيضا .

٢ - الجزية : وهى مبلغ من المال يدفعه أهل الذمة بنص القرآن الكريم (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) . وهى تسقط بالإسلام

---

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٨ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٩٨ .

(٤) د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠٨ .

(٥) انظر المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٧٧ ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ص ٢٦٨ — ٢٦٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣٧ .

(٦) انظر : نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٤ .

بخلاف الخراج . ولفظها مشتق من الجزاء على اعتبار أن أهل الذمة يدفعونها فى مقابل ما يمنحون من الاستقرار فى المجتمع المسلم والتمتع بما فيه من مرافق وفى مقابل الأمن والحماية لهم ، وتعتبر فى مقابل الزكاة التى تفرض على المسلمين حتى يتكافأ الفريقان وهما رعية لدولة واحدة .

وهى ليست دينا يؤخذ من ورثة الذمى بعد موته ، وليست ضريبة على الرءوس كما يشيع خصوم الإسلام ، لأنها لا تجب إلا على الرجال الأحرار العقلاء القادرين على الكسب فلا تؤخذ من الفقراء والمساكين ، أو العاجزين عن العمل ، أو العميان او المقعدين ، أو المجانين ، أو ذوى العاهات ، أو الرهبان إلا إذا كانوا اغنياء(٧) .

وهى كما يقول الماوردى : فى مقابل استقرارهم فى دار الإسلام ، ويلتزم لهم فى مقابلها بحقين : **اولهما** : الكف عنهم ، **والثانى** : الحماية لهم ، ليكونوا بالكف آمنين ، وبالحماية محروسين(٨) .

---

(٧) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٤٨١ ـ ٤٨٢ . وتسمى احيانا باسم الجوالى وتعنى هذه الكلمة فى الأصل جاليات اهل الذمة الذين اجلاهم عمر بن الخطاب من شبه الجزيرة العربية بلزمهم هذا الاسم . ثم اصبح يطلق على الجزية التى يؤدونها ايضا (دراسات فى تاريخ الحضارة الاسلامية العربية ص ٣١٢ .

وقد فسر الدكتور حسن ابراهيم الجوالى بانها : اختيار الاحسن من كل شىء سواء اكان من الممتلكات او من الشاء ، او انها ربما كانت وظيفة العامل فى الزكاة (تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٢٧٨ هامش ٢) . ولم يذكر مصدر ذلك التفسير ، والتفسير الأول هو الأقرب للصحة والقبول .

(٨) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٧ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٤٨٢ .

وكان مقدار الجـزية كما ذهب أبو حنيفة متفاوتا ، حيث قسمها إلى ثلاثة اقسام : ثمانية واربعين درهما للاغنياء ، واربعة وعشرين لمتوسطى الحـال ، واثنى عشر درهما للفقراء الذين يتكسبون ، أما الإمام مالك فقد تركها لتقـدير الإمام . بينما ذهب الإمام الشافعى إلى أن الحـد الأدنى لها اثنـا عشر درهما وما بعـد ذلك يترك لتقدير الإمام . وقد نهى الشرع عن جبايتها بطرق عنيفة ، واوصى بالرفق والإنصاف فى جبايتها . وتقضى القاعدة الفقهية : بأن لا يضرب احـد من اهـل الذمة فى استردائها ، ولا يقام فى الشمس ، ولا يجعل عليه شىء من المكاره ، وإذا امتنع عنـد دفعها فإنه يحبس حتى يؤديها بدون إيذاء(٩) .

ونص كتاب الصلح الذى اعطاه عبد العـزيز بن موسى بن نصـير لتدمير بن عبدوش سنة ٩٤هـ يوضح لنا شيئا من ذلك فقد جاء فيه « أن عليه وعلى اصحابه دينارا كل سـنة واربعة امداد قمح ، واربعة امداد شعير ، واربعة اقساط خل ، وقسطى عسل ، وقسطى زيت وعلى العبد نصف ذلك »(١٠) .

٣ ــ **الزكاة (الصـدقة)** : وهى ما يؤخذ من اغنياء المسلمين ويرد على فقرائهم كما قال تعالى لرسوله « **خـذ من أموالهم صـدقة تطهرهم وتزكيهم بهـا** » .

وتنقسم إلى عدة انواع : زكاة الأموال (النقدين) ، وزكاة السوائم وزكاة الزروع والثمار ، وزكاة عروض التجارة ، وزكاة المعـدن والركاز وقد تكفلت كتب الفقه بتفصيل ذلك .

---

(٩) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٤٨٣ .

(١٠) الحميرى : وصف جزيرة الأندلس من كتاب الروض المعطار ص ٦٣ ، الضبى : بغية الملتمس ص ٢٢٩ .

٤ — **المواريث الحشرية :** وهى مال من يموت وليس له وارث فيرد إلى بيت المال(١١) .

٥ — **الفىء والغنيمة :** والفىء هو ما وصل إلى المسلمين من أعدائهم بدون قتال ، بخلاف الغنيمة التى تطلق على كل ما يأخذه المسلمون من أعدائهم بالقتال . من الأسرى والسبى والأموال والأرضين .

وكان يعطى منها للمحاربين نصيبهم ، ويرد الباقى إلى بيت المال حسب ما وضحت كتب الفقه ونظرا لكثرة الغزوات والحروب التى خاضها

---

(١١) د. سعيد عاشور وآخران : دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٢ .

(١٢) كان الرسول (ﷺ) يقسم الفىء خمسة اقسام متساوية عملا بقوله تعالى « **وما افاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل** » . وبعد وفاته رد نصيبه إلى بيت المال ، وكانت الأقسام الباقية تقسم بين الجند حتى دون عمر الدواوين وقدر لهم أرزاقهم .

واما الغنائم : فالأسرى يقسمون رجالا ونساء بين الجند حتى يسلموا أو يفتدوا أنفسهم . وأما الأموال المنقولة كالنقود والحيوانات والأسلاب فتقسم حسبما يرى الإمام . وأما الأرض فالشافعى يرى تقسيمها على المحاربين كما فعل ابو بكر ، ومالك يرى وقفها كما فعل عمر ، وأبو حنيفة يرى أن الإمام بالخيار بين قسمتها أو وقفها (انظر : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٢٨٤ — ٢٨٥) . ولما اختلف الصحابة فى تقسيم غنائم بدر بين القرآن الكريم طريقة قسمتها فقال : « **واعلموا انما غنمتم من شىء ... الخ** » الآية .

فكان للإمام مع من ذكر فى الآية الخمس والأربعة اخماس الأخرى للفاتحين ، (الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٥ — ١٢٧) .

المسلمون فى الأندلس فى هـذا العصر ضد الممالك المسيحية فى شمال اسبانيا مثل قشتالة وليون ونافار وجليقية وقطلونية وضد الفاطميين فى فى بلاد المغرب ، وضد بلاد الفرنجة (غالة أو فرنسا) . فقد كثرت الغنائم وخاصة فى عهد الخليفة الناصر وفى عهد المنصور بن أبى عامر الذى قام بنيف وخمسين غزوة موفقة نحو الشمال لم يهزم فى أى منها وعاد منها بغنائم كثيرة(١٣) .

ويدخل فى ذلك ايضا ما كان يفرض على بعض ملوك هـذه البلاد فى بعض الأحيان — عقب هزيمتهم — من تقديم الجزية للمسلمين .

٦ — **العشـور** : وهى الأموال التى كانت تجبى من التجار الأجانب الذين يقدمون بتجارتهم ، فكانوا يدفعون عشر قيمتها مثل الضرائب الجمركية التى تقدر على الواردات فى العصر الحاضر(١٤) .

---

(١٣) انظر عن هـذه الغزوات بالتفصيل . د. خالد الصوفى : تاريخ العرب فى أسبانيا (عصر المنصور الأندلسى ٨ ص ١١٣ وبعدها

(١٤) يرجع نظام العشور إلى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنـه ، فقد كتب إليه أبو موسى الأشعرى اثناء ولايته على البصرة أن تجارا من المسلمين يأتون ارض الحرب ، فيأخذون منهم العشر ، فكتب إليه قائلا : « خـذ منهم كما يأخذون من تجـار المسلمين ، وخـذ من اهل الذمة نصف العشر ، ومن المسلمين درهما من كل أربعين درهما ، ولا تأخذ منهم فيما دون المـائتين شيئا ، فإذا بلغت مائتين ففيها خمسة دراهم » .

وقـد افتى الإمام الشـافعى بأن للإمام أن يزيد على العشر أو ينقص منـه إلى النصف إذا رأى فى ذلك مصلحة ، وأن لا يؤخذ العشر إلا مرة واحدة من كل قادم بالتجارة حتى ولو تكرر قـدومه

ولا شك أن هـذا المورد كان يمثل دخـلا كبيرا للأندلس فى العصر الأموى حيث كثرت التجارات بين الأندلس وغيرها من البلدان فى أوربـا والمشرق . وإن كانت المصادر لم توضح لنا شيئا من ذلك .

٧ – **المكوس** : وهى الضرائب التى نشأت نتيجة لحاجة الدولة إليها لزيادة مواردها ، وخاصـة فى أوقات القحط والأزمات والشـدائد ، وفى أوقات الحروب وقد شملت هـذه المكوس أغلب السـلع التى كانت تباع بالأسواق ، وكذلك البضـائع الواردة من الخارج – وهو شبيه بما تفرضه الكثير من الدول الآن لحماية منتجاتها المحلية – ومن الطريف أن المـآصر وهى السلاسل الحديدية التى كانت تشد فى البحر عنـد مداخل الموانىء لحمايتها من غارات السفن المعـادية صـارت تستخدم بعـد ذلك لفرض جمع المكوس من السفن القـادمة قبل دخولها الميناء ، ثم أصبحت تطلق على الضريبة نفسها(١٥) .

ولا شك أن هـذه المكوس قـد أصبحت تمثل موردا خصبا للدولة ، ولكنها كانت تسبب إرهاقا وعنتا للكثيرين ، ولهذا كثرت الشكايات منهـا خاصة وأن جبايتها أخذت تتسم بشىء من العنف وسوء المعاملة والتقدير . ومثال ذلك ما حـدث فى عهـد الحكم الربضى حين وضع عشر الأطعمة فى كل سنة على أهل الأندلس من غير حرص فكرهوا ذلك كما يقـول ابن الأثير(١٦) . وترك الحـرية لربيع قومس النصارى لفرض الضرائب

(=) فى السنة الواحـدة (د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسـلام ج ٢ ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، د. سعيد عاشور وآخران : دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٣١٢).

(١٥) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٤ .

(١٦) الكامل فى التاريخ ج ٦ ص ٢٩٨ – ٢٩٩ .

والمغارم وجبايتها هو وأتباعه من الصقالبة بطرق عنيفة(١٧) .

وكان ذلك سببا من أسباب قيامهم بالثورة المعروفة بثورة الربض .

ويذكر ابن حيان أن الخليفة الحكم المستنصر قد أسقط عن أهل الأندلس سدس جميع مغرم الحشد الآزف حلول أدائه وأنفذ بذلك كتابا إلى جميع الأقطار(١٨) ...

ويذكر أن الرحالة الأندلسي ابن جبير عندما قدم إلى مصر في العصر الأيوبي شكا من سوء المعاملة للتجار والحجاج القادمين والخارجين ومن قسوة الإجراءات في الموانىء ، غير أن مصر وحدها لم تكن كذلك ، فقد كانت الأندلس أيضا تعاني من هذه المكوس خاصة وأنها أصبحت تعطى التزاما ، وكان ملتزموها من غير المسلمين أحيانا ، فكانوا يشتطون في المعاملة وعرف هذا النظام باسم (القبالة) وعرف الملتزم بالمكوس باسم (المتقبل) . وقد انتقل هذا الاسم إلى اللغة الأسبانية بلفظه ومعناه Cabala (١٩) .

٨ — **الأحباس (الأوقاف)** : وقد مثلت مصدرا غير مباشر من مصادر الدولة أيضا ، حيث كانت تسد جزءا من نفقاتها على المؤسسات العامة ، حيث يحبس أصحاب هذه الأوقاف ريعها على جهات البر والإحسان ،

---

(١٧) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٥ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٢٢٣ ، د. حسين مؤنس : شيوخ العصر في الأندلس ص ٢١ .

(١٨) المقتبس في أخبار بلد الأندلس ص ٢٠٨ تحقيق د. عبد الرحمن الحجي ، خوليان ربيرا : التربية الإسلامية في الأندلس ص ١٩ — ٢٠ . ويبدو أن مغرم الحشد نوع من الضرائب التي كانت تفرض للاستعداد للحملات الحربية .

(١٩) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٣ .

وبناء وصيانة المؤسسات الدينية والعلمية ، كالمساجد والمكاتب والخوانق والبيمارستانات ، ورعاية طلاب العلم والمرضى والمعوزين وغير ذلك(٢٠).

ومثال ذلك وقف الخليفة الحكم المستنصر الذى أشار إليه ابن حيان فقال : « وفى صدر جمادى الأولى (٣٦٤هـ) انفذ الخليفة تحبيس حوانيت السراجين بسوق قرطبة على المعلمين الذين كان قد اتخذهم لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين بقرطبة واشهد القاضى محمد بن اسحاق فى هذا التحبيس يوم الجمعة لسبع خلون منه ، فعظمت به المنفعة ، وجلت المنقبة ، وورث الله به القرآن أمة لم يكن آباؤهم يعرضونهم لوراثته »(٢١) . وقد بلغ من كثرة الأحباس أن كان لها موظف خاص يديرها يسمى صاحب الأحباس . كما يتضح من النص التالى الذى أورده ابن عذارى فى حوادث سنة ٣٥٣هـ حيث يقول عن زيادة المستنصر فى مسجد قرطبة الجامع « فأمر المستنصر بالله بتوسعته والزيادة فيه ، فأتى القاضى منذر بن سعيد (قاضى القضاة) إلى المسجد الجامع ومعه صاحب الأحباس والفقهاء والعدول بما اجتمع قبله من أموال الحبوس فنظروا فى الزيادة فيه »(٢٢) .

وهناك ضريبة أخرى فرضت فى الأندلس بعد العصر الأموى فى عهد المرابطين اطلق عليها اسم التعتيب . على يد على بن يوسف ابن تاشفين سنة ٥٠٩هـ/١١٢٥م وكان الغرض منها ترميم الحصون والقلاع والأسوار حول المدن الرئيسية ، وكانت تفرض على أهل هذه المدن لحمايتهم من غارات الأعداء . ويبدو أن هذه الضريبة

---

(٢٠) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٣١٦ .

(٢١) المقتبس ص ٢٠٧ تحقيق د. عبد الرحمن الحجى . خوليان ربيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٩ ترجمة د. الطاهر مكى .

(٢٢) البيان المغرب : جـ ٢ ص ٣٥٢ .

استمرت حتى اواخر الحكم الإسلامى بالأندلس . وقد اجازها فقهاء الأندلس لأن المصلحة تقتضى ذلك . يقول الحميرى « وكان خراج السور فى بعض مواضع الأندلس فى ذلك الوقت على اهل الموضع ، وقد اجاز ذلك الفقيه ابو إسحاق الشاطى معتمدا على قيام المصلحة التى إن لم يقم بها الناس فيعطون ضاعت عليهم »(٢٣) .

هذه الموارد المتعددة كانت تمثل دخلا كبيرا للدولة ، ومن حصيلتها كانت تقوم بالانفاق فى الأوجه المختلفة مثل : ارزاق الجند والموظفين ، وإنشاء المشروعات العامة ، مثل حفر الترع والقنوات وإنشاء القناطر والجسور ، وبناء المساجد ، ونفقات الحملات العسكرية ، وشراء الأسلحة والمعدات الحربية ، وترتيب العسس والدرابين لحراسة الأسواق والطرقات والدروب وغير ذلك .

ويروى ابن سعيد المغربى (انه كان للأندلس دروب تغلق ليلا ، وتحرس بواسطة رجال الشرطة المسمون (بالدرابين) ، وان كل واحد كان معه سلاح وكلب وسراج) . ولا تزال عادة غلق الأبواب متبعة فى بعض مناطق اسبانيا إلى اليوم منذ الساعة العاشرة ليلا بواسطة رجال الشرطة (درابين) يعرفون باسم (سيرنيوس) . وكان من يريد الخروج أو الدخول إلى منزله ليلا ينادى الحارس بواسطة التصفيق(٢٤) .

ومما يدل على تزايد هذه الموارد من عهد إلى عهد ان الجباية فى عهد الحكم بن هشام الملقب بالربضى كانت مائة وعشرة آلاف وعشرين دينارا ، ومن القمح اربعة آلاف وستمائة مدى ، ومن الشعير سبعة

---

(٢٣) الروض المعطار ص ٢٢٣ ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٣ .

(٢٤) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٥ .

آلاف وستمائة وسبعة واربعون مديا(٢٥) .

وبلغت فى عهد ابنه عبد الرحمن الأوسط الـف الـف دينـار فى السنة(٢٦) . وارتفعت فى عهد عبد الرحمن الناصر إلى خمسة آلاف الف واربعمائة وثمانين الف دينار من الكور والقرى ، ومن الأسواق والمستخلص (الجمـارك) سبعمائة الف وخمسة وستين الف دينـار ، بخلاف أخماس الغنائم العظيمة التى لا يحصيها ديوان(٢٧) . ويذكر المقرى نقـلا عن ابن خلدون : أن الناصر خلف فى بيوت المـال خمسة آلاف الف ولا ندرى هل هـذا الرقم بالدينار أم الدرهم ؟ ويغلب على الظن أنه بالدرهم لأنه إذا كان بالدنانير تجاوز الملايين وفى هـذا كثير من المبالغة(٢٨) ، وانه كان يقسم الجباية ثلاثة اقسام : ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مدخر . وقد ذكر ابن حوقل أن الناصر استطاع ان يدخر حتى سنة ٣٤٠هـ نحو ٢٠ مليـون دينار ، وانه لم يكن فى زمانه سلطان استطاع توفير هـذا المبلغ الضـخم إلا أبا تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة الحسن بن عبد الله الحمدانى (٣٥٨ ـ ٣٦٩هـ)(٢٩) .

وذكر بعض الباحثين المعاصرين ان الدخل السنوى عن طريق الضرائب والمكوس فى عهده بلغ ٢٠ مليون دينار(٣٠) ، ونقل من بروفنسـال انهـا

---

(٢٥) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٤ .
(٢٦) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٢ .
(٢٧) نفح الطيب جـ ١ ص ١٧٧ ، ص ٢٤٥ ، ص ٢٦٦ ، ابن عـذارى البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣١ .
(٢٨) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٢٩٠ .
(٢٩) المسالك والممالك ص ٧٧ ، تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٢٩٠ .
(٣٠) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٦ .

بلغت فيما بعد ٤٠ مليون . ومهما كانت صحة هذه الأرقام ، فإن من الواضح أن موارد الدولة قد زادت زيادة كبيرة فى عصر الخلافة ، وخاصة فى عهد الناصر وولده المستنصر .

وتدل هدية الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد للناصر سنة ٣٢٧هـ على مدى ما وصلت إليه الدولة الأموية فى الأندلس من الضخامة واتساع الأحوال كما ذكر ابن خلدون ، الذى قال : إنه لم يهاد أحد من ملوك الأندلس بمثلها ، وقد أعجب بها الناصر أيما إعجاب وكافأ الوزير بزيادة راتبه إلى ٨٠ ألف دينار أندلسية ، وبلغ معروفه إليه ألف دينار ، وسماه ذا الوزارتين ، وكان أول من تسمى بذلك فى الأندلس(٣١) .

وكذلك هدية جعفر الصقلبى الحاجب للخليفة المستنصر يوم ولايته وكانت عبارة عن « مائة مملوك من الإفرنج على خيول صامتة كاملو الشكة والأسلحة من السيوف والرماح والدرق والتراس ، والقلانس الهندية ، وثلاثمائة ونيف وعشرون درعا مختلفة الأجناس ، وثلاثمائة خوذة كذلك ، ومائة بيضة هندية وخمسون بيضة من بيضات الفرنجة يسمونها الطشطانة ، وثلاثمائة حربة إفرنجية ومائة ترس سلطانية ، وعشرة جواشن فضة مذهبة ، وعشرون قرنا مذهبة من قرون الجاموس »(٣٢) .

وقد ذكر البعض أن النظام المالى فى الأندلس كان يدور حول أمور ثلاثة هى : الخزانة العامة ، وإدارة بيت المال ، وإدارة خاصة الأمير أو الخليفة .

أما الخزانة : فكان يشرف عليها أحد كبار الموظفين ويسمى خازن المال ومقرها القصر ، وفيها تودع الأموال التى تجبى من الكور

---

(٣١) انظر تفصيلها فى نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٦ — ١٦٨ ، محمد دياب : تاريخ العرب فى أسبانيا جـ ١ ص ٣٣٨ — ٣٤٠ .
(٣٢) نفح الطيب جـ ١ ص ١٧٨ .

والقرى(٣٣) . ومن اهمها اموال التركات التى يموت عنها اصحابها بدون وارث (المواريث الحشرية) . والضرائب المفروضة على الأســواق ، والرسوم الجمركية على السفن والخراج والجزية والأعشار(٣٤) .

واما بيت المــال : فكان يقتصر على ما يرد من الأوقاف ، ومقــره بجامع قرطبــة ويقوم بحفظ المنشــآت الدينية ، ودفع رواتــب موظفى المساجد وتوزيع الصدقات فى أماكن خاصة ، ويقوم بالإشراف عليها قاضى القضــاة ومن ينوب عنــه تحت إشراف الخليفة ، وهو يشبه من هــذه الناحية وزارة الأوقاف والشئون الاجتماعية .

واما موارد الخليفة الخاصة فكان يشرف عليها موظف يعرف بصاحب الدية ويكلف بالاشراف على اراضى الأمير أو الخليفة من ناحية زراعتها من قبل المزارعين الذين يأخذون جزءا من محصولها فى مقابل ذلك(٣٥) .

* * *

(٣٣) الكور جمع كورة وتعنى المقاطعة او الولاية ولا يعرف اصل هــذه الكلمة ويرى البعض انها يمكن أن تكون محرفة عن قرية ، أو مشتقة من الكلمة اللاتينية (خورة) بمعنى الأرض أو الريف ، أو من اللفظ اللاتينى كوريا بمعنى الحى (انظر دراسات فى تاريخ الحضــارة الإسلامية ص ١٦٣ هامش ١) .

(٣٤) تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٢٩٠ .

(٣٥) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

الفصل السادس

الحالة العلمية والثقافية

الحالة العلمية والثقافية

يظهر أن نشأة العلوم فى المجتمعات الإسلامية المختلفة كانت متقاربة أو متشابهة حيث بدأت بذرة صغيرة ، ثم ما لبثت بفضل الرعاية والعناية والاهتمام أن نمت وازدهرت وأثمرت . هذا ما حدث فى المشرق ، وهو بعينه أو شبيها به ما حدث للعلم والثقافة فى المغرب والأندلس .

فقد جاء الإسلام فمهد الأرض ، ووضع بذور العلوم الدينية والعربية، ومضى زمن أخذت تتطور فيه هذه العلوم ، ثم كان الاتصال بالأمم الأخرى ذات الحضارة والعلم والثقافة ، فاقتبس المسلمون من علومها ، وترجموا بعض كتبها إلى العربية ، وصححوا فيها ، وأضافوا إليها ، حتى أخرجوا بعد ذلك نتاجا عظيما من العلم والثقافة .

وعندما فتح المسلمون الأندلس كانت هناك فى البداية حروب صرفت العقول عن الاهتمام بالعلم والثقافة إلا قليلا ، وكانت هناك خلافات بين المسلمين الفاتحين بسبب العصبيات القبلية والجنسية ، وبسبب التنافس على الرئاسة والسلطان إلى غير ذلك . حتى إذا بدأت الأمور فى الهدوء والاستقرار وخاصة بعد عصر الولاة — الذى كان عصر فتن ومنازعات وحروب وثورات فى معظمه — وأخذت الدولة الأموية ترسى قواعدها على يد عبد الرحمن الداخل ، بدأت الحركة العلمية المنظمة فى الظهور والنمو(١) .

---

(١) لا ينبغى أن يفهم من هذا أن عصر الولاة كان خلوا من أى اهتمام بالعلم والثقافة ، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين مثل أ. محمد عبد الله عنان (دولة الإسلام فى الأندلس ج ٢ ص ٦٩١) وغيره =

ونستطيع أن نقول : إنه كانت هناك عدة روافد لتغذية هذه الحركة ومنها :

١ — قدوم نفر من الصحابة والتابعين مع الجيوش الفاتحة للأندلس ، وفى عصر الولاة والعصور التالية ، وكان كثير منهم على حظ من العلم والمعرفة ، وخاصة فى أمور الدين . وكان هؤلاء هم أوائل المؤسسين للحركة العلمية بواسطة الحلقات التى كانوا يعقدونها فى المساجد وغيرها(٢) .

= وإنما شهد هذا العصر شيئا من ذلك ، وخاصة فى فترات الاستقرار أثناء حكم بعض الولاة ، ولكنها كانت بمثابة محاولات فردية ، ولم تأخذ شكلا جماعيا منظما مثل الذى حدث بعد ذلك فى العصر الأموى وهذا أمر طبيعى . لأن الحركة العلمية فى كل عصر وحين تحتاج إلى الهدوء والاستقرار ، والدعم والاهتمام .

(٢) تذكر بعض المصادر واحدا من صغار الصحابة ذهب إلى إفريقية ، ثم دخل الأندلس مع موسى بن نصير ويدعى المنذر أو المنيذر الأسلمى ، وأنه حدث بحديث عن رسول الله ذكره ابن الأثير والمقرى وهو (من قال إذا أصبح رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ، فأنا الزعيم لآخذن بيده حتى أدخله الجنة) . (أسد الغابة فى معرفة الصحابة جـ ٢ ص ٤١٧ ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٩ ، جـ ٣ ص ٦) .

وقد اختلف المؤرخون فى جملة من دخل الأندلس من التابعين ، لكن من المؤكد أنهم كثيرون (انظر د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ١٥٥ — ١٥٦) . وقد وضع ابن بشكوال كتابا بعنوان (التنبيه والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين) أشار

٢ – قدوم كثير من العلماء والأدباء من المشرق إلى الأندلس إما بأنفسهم ، أو بدعوة من بعض الأمراء والخلفاء ، مثل أبى على القالى صاحب الأمالى ، وصاعد البغدادى وغيرهما ممن نشروا كثيرا من علوم اللغة والأدب ، وتتلمذ على أيديهم الكثير من أهل الأندلس ، الذين برع منهم بعد ذلك من برع مثل ابن عبد ربه وغيره ولذلك قال الصاحب ابن عباد عن كتاب العقد الفريد « هذه بضاعتنا ردت إلينا » لأنه رأى فيه كثيرا من علوم المشرق التى عرفها(٣) .

٣ – رحيل كثير من الأندلسيين إلى المشرق للتتلمذ على علمائه ، ثم العودة إلى الأندلس لنشر العلم مثل زياد بن عبد الرحمن الملقب (بشبطون) الذى ينسب إليه أنه كان أول من أدخل موطأ الإمام مالك إلى الأندلس بعد تتلمذه عليه ، ويحيى بن يحيى الليثى المصمودى الذى رحل إلى المدينة ايضا وتتلمذ على الإمام مالك ، ثم رحل إلى مصر فأخذ عن الليث بن سعد ، وعبد الله بن وهب ، وعبد الرحمن بن القاسم العتقى إمام المالكية فى مصر ، ومثل عبد الملك بن حبيب السلمى ، والغازى بن قيس وغير هؤلاء كثيرون ممن حفلت كتب التراجم الأندلسية بذكرهم .

وقد بلغ من إقبال الأندلسيين على الارتحال فى طلب العلم ، أن الشخص عندهم كان يعاب بأنه لم يرحل إلى المشرق(٤) .

إليه المقرى ولكنه لم يصلنا (انظر : نفح الطيب جـ ٣ ص ١٠ ، ص ٦٠ – ٦١ ، التكملة لكتاب الصلة جـ ١ ص ٢٨٢ ، جـ ٢ ص ٧٠٤) .

(٣) احمد امين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٣ .

(٤) ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٤ ، انظر فى الراحلين من الأندلس إلى المشرق فى طلب العلم نفح الطيب جـ ١ ص ٣٦٦ وبعدها .

٤ — جمع الكتب وإنشاء المكتبات : والكتب ولا شك من أهم روافد الحركة العلمية — إن لم تكن اهمها — فى كل عصر ، ولذا فقد حرص الكثير من الأمراء والخلفاء والكبراء فى الاندلس على جلب الكتب ، وتأسيس المكتبات ، ومن أشهرهم فى ذلك الخليفة الحكم المستنصر ، الذى أسس مكتبة عظيمة حوت نحو ٤٠٠ الف مجلد فى علوم شتى . واخذ الكثيرون فى اقتناء الكتب ، وإنشاء المكتبات فى شتى انحاء الأندلس سواء فى قرطبة أو غيرها ، للعلم ، أو للتباهى بها(٥) .

---

(٥) يقول ابن سعيد عن قرطبة « وهى اكثر بلاد الاندلس كتبا ، وأهلها اشد الناس اعتناء بخزائن الكتب ، صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة ، حتى أن الرئيس منهم الذى لا تكون عنده معرفة يحتفل فى أن تكون فى بيته خزانة كتب وينتخب فيها ليس إلا لأن يقال : فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفلانى ليس عند أحد غيره ، والكتاب الذى هو بخط فلان قد حصله وظفر به » .

ويذكر قصة تدل على ذلك بين الرحالة الحضرمى وبين رجل اندلسى تبدو عليه أمارات الغنى والرياسة ، حيث أقام الحضرمى مرة بقرطبة يريد كتابا حتى عثر عليه ، ففرح به أشد الفرح ، واخذ فى شرائه ، وكلما ذكر ثمنا زاد هذا الرجل عليه حتى بلغ حدا لا يستطيعه . فاعتقد انه فقيه فقال له : أعز الله سيدنا الفقيه ، إن كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت الزيادة بيننا فوق حده ، فقال له : لست بفقيه ولا أدرى ما فيه ، ولكنى أقمت خزانة كتب ، واحتفلت بها لأتجمل بين أعيان البلد وبقى فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط ، جيد التجليد استحسنته ، ولم أبال بما أزيد فيه » (انظر المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٤٦٢ — ٤٦٣) .

=

وذكر البعض ان مكتبات الاندلس العامة بلغت سبعين مكتبة(٦) .

٥ ـــ كثرة مراكز العلم والثقافة : كالمساجد ، والمكاتب ، والقصور ، والدور وغيرها . مما كان له أثر كبير فى نهضة الحركة العلمية(٧) .

٦ ـــ تقدير الأمويين للعلم والعلماء حبا فى العلم من ناحية ورغبة فى منافسة العباسيين والفاطميين من ناحية أخرى(٨) . ولذلك فقد قربوا الكثيرين منهم ـــ وخاصة الفقهاء ـــ وولوهم المناصب الرسمية فى الدولة ، كالفتيا والقضاء وغير ذلك(٩) .

=

وحتى لو بدا فى هذه الرواية طابع المبالغة او التكلف ، أو انها قيلت فى مجال إظهار محاسن المدن على بعضها ، فإن فيها شىء من الدلالة على مدى حب الأندلسيين لجمع الكتب واقتنائها فهى ثروة على أية حال ، وهى مظهر من مظاهر الترف والوجاهة ، ونوع من الهواية ، كما نراه عند الكثيرين من الأغنياء والوجهاء فى عصرنا اليوم . (انظر : المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٥ ، ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٣ ـــ ٢٧ ، خوليان ريبرا ، التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٩٠ وبعدها ، ليفى بروفنسال : حضارة العرب فى أسبانيا ص ٦١) .

(٦) د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٣١٧ .

(٧) انظر : خوليان ريبرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٤٥ وبعدها .

(٨) انظر : د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى (الفصل الرابع عن مكانة العلماء وجلال أقدارهم) ص ٩٧ وبعدها .

(٩) انظر فى ذلك ما ذكره المقرى من أنه كان بخارج قرطبة ثلاثة آلاف

=

ونتيجة لهذه العوامل وغيرها ، فقد بدات الحركة العلمية بالأندلس في النمو والازدهار ، واخذت المؤلفات تتوالى ، والمعرفة تشيع ، والثقافة تنتشر ، حتى ازدهر العلم وعم ، وقد اقتضى ذلك ازدهار صناعة الورق ، وما يتصل بها من أدوات النسخ والكتابة .

لقد كانت الفترة التى أعقبت فتح الأندلس ، والتى تسمى عصر الولاة (٩٢ — ١٣٨هـ) فترة تسودها القلاقل والاضطرابات ، ومع ذلك — ونظرا لحرص المسلمين على العلم والثقافة — فقد شهدت هذه الفترة قدرا من الثقافة كان بمثابة خيوط الفجر الأولى التى تؤذن بعد ذلك بمشرق الشمس ، وذلك على يد من جاء من الصحابة والتابعين . كما شهدت أيضا قدرا متواضعا من الأدب كان بمثابة البذور الأولى للأدب الأندلسى فيما بعد(١٠) .

ثم جاءت فترة تأسيس الإمارة الأموية ، والتى كانت بمثابة فترة علاج للكثير من الأدواء التى سبقتها ، وقد خطت الأندلس فى هذه الفترة أولى خطواتها نحو الحركة العلمية المنظمة ، وساعد على ذلك عدة عوامل منها :

١ — وفود كثير من الأمويين وانصارهم إلى الأندلس ، ولا شك أنه كان منهم كثيرون على حظ وافر من العلم والمعرفة .

=

قرية فى كل واحدة منها مسجد وفقيه مقلص — المقلاص غطاء للراس — تكون له الفتيا ، لا يجعل إلا ممن حفظ الموطأ ، أو عشرة آلاف حديث ، وحفظ المدونة . وكان هؤلاء الفقهاء المقلصون يأتون للصلاة مع الخليفة فى يوم الجمعة بقرطبة ، ويطالعونه بأحوال بلادهم . (نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٣) .

(١٠) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٥٤ — ٥٥ .

٢ — عودة أول فوج من الأندلسيين الذين درسوا بالمشرق ، وكانوا بمثابة أعضاء البعثات الذين يتعلمون خارج البلاد ، ثم يعودون للقيام بدورهم فى نشر العلم والمعرفة . ومنهم : الغازى بن قيس الذى تتلمذ على الإمام مالك ثم عاد فى عهد الأمير عبد الرحمن الداخل ، فأكرمه وعرض عليه القضاء فأبى وأخذ فى نشر علمه(١١) . وغيره ممن مثلوا الجيل الأول للثقافة الأندلسية . مثل عبد الملك بن حبيب ، ويحيى الليثى ، وزياد ابن عبد الرحمن وغيرهم .

٣ — إنشاء المساجد — وعلى رأسها مسجد قرطبة الجامع — والتى كانت بمثابة النواة الحقيقية للحركة العلمية فى الأندلس ، شأنها فى ذلك شأن البلدان الإسلامية الأخرى . وفى هذه الفترة أيضا بدأ ظهور السمات الأولى المميزة للأدب الأندلسى ، والتى أخذت تتضح فيما بعد لتعطيه صورته الواضحة المتميزة(١٢) .

٤ — جلب كثير من الكتب والمؤلفات من المشرق إلى الأندلس ، سواء على يد الأندلسيين أو المشارقة الذين قدموا إلى الأندلس .

ولقد شهدت هذه الفترة ، وخاصة فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ — ٢٣٨هـ) — دفعة كبيرة للحركة العلمية ، ووثبة عظيمة للثقافة والفن ، حيث شهد عصره الكثير من الهدوء والاستقرار ، واليسر والرخاء ، حتى سميت أيامه (بالعروس)(١٣) . فقد كان

---

(١١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٥ ، ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة (١٠١٥) .
(١٢) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٧٤ — ٧٧ .
(١٣) العبر جـ ٤ ص ١٣٠ ، نفح الطيب جـ ١ ص ٣٢٥ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ١٠١ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٢٨ .

هـذا الأمير أديبا مثقفا ، وشاعرا مطبوعا ذا همـة عاليـة ، مغرما بالفنون والعلوم ، حريصا على اقتناء الكتب ، وجلبها من الأمصار . فقد ارسل عباس بن ناصح الشاعر إلى المشرق من أجل شراء الكتب النافعة فجاء بكتاب السند هنـد وغيره . (١٤) ، وكان بذلك يعتبر أول من عنى بجمع الكتب وتأسيس المكتبات من الأمويين ، وكان ذلك نواة لمكتبة قرطبة التى عمرت فى عهد الحكم المستنصر .

كما كان ابنه عبد الله – رغم تقلب الأحوال السياسية فى عهده – محبا للعلم مشاركا فيـه . قال عنه ابن حيان « كان متصرفا فى فنون من العلم ، متحققا منها ، عالمـا بلسان العرب ، بصيرا بلغـاتها وأيامها ، حافظا للغريب والأخبار »(١٥) .

وقد أدت هـذه الوثبة إلى ظهور كثير من العلماء فى علوم شـتى إسلامية وعربية ، وظهور الطلائع الأولى فى العلوم العقلية والطبيعية . ويعـد عباس بن فرناس من مظـاهر هـذه الوثبـة العلمية فى هـذه الفترة ، ويعتبر من مفاخر الفكر الأندلسى بل والعالمى أيضـا ، حيـث نسبت إليـه عدة اكتشافات واختراعات منها القيام بمحاولة الطيران فى الفضـاء ، ومنها استنباط صناعة الزجاج من الحجارة ، ومنها اختراع آلة لمعرفة الوقت(١٦) .

ثم جاء عصر الخلافة فنهضت الحركة العلمية والثقافية فى الأندلس نهضة شاملة ، وازدهرت ازدهارا عظيما ، كان من مظـاهره وضـوح الشخصية العلمية والثقافية للأندلس ، واستقلالها إلى حد كبير .

---

(١٤) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب جـ ١ ص ٤٤ – ٤٥ .
(١٥) المقتبس ص ٣٢ . نشر ملثور أنطونية باريس سنة ١٩٣٧م .
(١٦) انظر د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦١ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٧٣ .

ولا شك أن ظروف التوحد والاستقرار ، والأمن والرخاء ، والتحضر والرقي الذي تحقق في هـذه الفترة على يد عبد الرحمن الناصر ، وابنه الحكم المستنصر كان له دخل كبير في ذلك ، هـذا بالاضافة إلى التشجيع الكبير للعلماء ، وجلب الكثير من الكتب والمؤلفات(١٧) .

وإذا كان المفضل يعود لعبـد الرحمن النـاصر في إعـادة الأمن والاستقرار ، والقضاء على الفتن والقلاقل التي سادت في أواخر عهـد الإمارة ، فإن الفضل يعود لابنه المستنصر في ازدهار الحـركة العلميـة بصورة كبيرة ، حتى ليمكن أن نطلق عليـه اللقب الذي أطلق على الخليفة المـأمون العباسي وهو (الخليفة العـالم) .

فقد كان مولعا بالكتب حتى قبل جلوسـه على عرش الخـلافة في الأندلس ، حريصا على جلبها ، ودفع الأثمان الغـالية فيها ، حتى بلغت كما ذكر نحو ٤٠٠ الف مجلد(١٨) . ومن أروع الأمثلة على ذلـك : أنه أرسل إلى أبي الفرج الأصفهاني الف دينار ذهبـا حتى يرسل إليه نسخة من كتابه الأغاني ، فبعثها إليه قبل أن يظهر في بغداد(١٩) .

وقـد كانت هـذه المكتبة كما ذكر تحتوي على أربعة وأربعين فهرس أو سجل ، كل فهرس يقع في خمسين ورقـة ، وكانت هـذه المدارس تكتفي بذكر أسماء الكتب ومصنفيها فقط ، كما كان في هـذه المكتبة عدد كبير من الباحثين والنساخ والقومة والمندوبين الذين يقومون بشراء الكتب من الأمصار المختلفة ، هـذا بالإضافة إلى من يعمل بالتجليد والزخرفة ،

---

(١٧) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ١٢٧ — ١٢٨ .

(١٨) ابن الابار : الحلة السيراء جـ ١ ص ٢٠١ ، المغرب : نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٤ — ١٨٦ .

(١٩) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٠ .

والتعليق على الكتب وتصحيحها ومقابلة نسخها ، وغير ذلك(٢٠) .

وبالإضافة إلى ذلك فقـد كان الحكم يشجع العلماء على التأليف ، ويجزل لهم العطاء ، بل ويقترح عليهم بعض الميـادين أو الموضوعات التى يؤلفون فيها ، ويشاركهم فى وضـع مناهجها . فيـذكر أنه اقترح على الخشنى تأليف كتابه (قضاة قرطبة) وهو يشير إلى ذلك فى صدر هـذا الكتاب ، كما اقترح على الزبيدى تأليف كتابه (طبقات اللغويين والنحويين) . وقـد أشار إلى ذلك ايضا(٢١) .

كما اقترح على ابن الصفار تأليف كتاب فى أشعار بنى أمية بالمشرق ، وطلب من أبى الفرج الأصفهانى تأليف كتاب فى أنساب بنى أمية فألفـه له ، وأنفذ معه قصيدة يمدحه فيها وقومه ، فجاد عليه بصلة جزيلة(٢٢) .

وقد كان الحكم شغوفا بقراءة الكتب ، والتعليق عليها . ولا عجب فى ذلك فقـد كان كما يقول المقرى : « غزير العلم واسـع الاطـلاع ، ذا معرفة بالأخبار والأنساب ، حتى لقـد اعتبر العلماء تعليقاته من أجل ما يكتب »(٢٣) .

---

(٢٠) الحلة السيراء جـ ١ ص ٢٠٣ وقد ذكرتها بعض المصادر عشرين ورقـة . د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسـلام جـ ٢ ص ٣٨١ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٣١٤ .

(٢١) انظر قضاة قرطبة ص ١٠ ، طبقات اللغويين والنحويين ص ٩ — ١٠ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٠ .

(٢٢) جذوة المقتبس ترجمة ٥٣٣ ، د. إحسـان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٥ ، د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٩١ ، خوليان ربيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٩٧ — ١٩٨ .

(٢٣) نفح الطيب جـ ١ ص ٣١٨ .

ويقول ابن حيان : « وكان له وراقون باقطار البلاد ، ينتخبون له غرائب التواليف . وكان مع هذا كثير التهمم بكتبه ، والتصحيح لها ، والمطالعة لفوائدها . وقلما تجد كتابا فى خزائنه إلا وله فيه قراءة ونظر عن أى فن كان من فنون العلم ، يقرؤه ويكتب فيه بخطه ... وكان موثوقا به مأمونا ، صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم ، ينقلون من خطه ويحاضرون به »(٢٤) .

كما قرب الحكم العلماء وأغدق عليهم ، واهتم بإنشاء المكاتب لطلاب العلم ، ووقف عليها الأوقاف . فيذكر أنه أقام فى ساحة المسجد الجامع بقرطبة وحوله بعد الزيادة التى اضافها إليه ثلاثة مكاتب لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين ، وأقام كذلك اربعة وعشرين مكتبا فى أرباض قرطبة وفى ذلك يقول الشاعر ابن شخيص :

وساحة المسجد الأعلى مكللة

مكاتبا لليتامى فى نواحيها

لو مكنت سور القرآن من كلم

نادتك يا خير تاليها وواعيها(٢٥)

كما حبس حوانيت السراجين بسوق قرطبة على المعلمين بهذه المكاتب ، وأشهد على ذلك القاضى محمد بن اسحاق ، وجعل للعلماء جانب من دار الملك يجلسون فيه للتأليف والنسخ والترجمة والمقارنة(٢٦) .

ومن الغريب بعد هذا كله أن نجد البعض ينتقد الخليفة الحكم

---

(٢٤) ابن الأبار : الحلة السيراء ج ١ ص ٢٠٢ .

(٢٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٦ .

(٢٦) جذوة المقتبس ص ٤٧ ، خوليان ربيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٩ .

على انشغاله بالحركة العلمية معللا ذلك بأنه انصرف عن القيام بمطالب الحكم كما ينبغى . ومنهم د. حسين مؤنس الذى وافق على ذلك قائلا « وهناك وجه للحق فى هذا الحكم ، فلو أن المستنصر اكتفى بتشجيع العلم دون الاشتغال به لما وجد ابن أبى عامر سبيلا إلى السلطان »(٢٧). ولكننا لا نوافق هؤلاء على ذلك فالحاكم العالم المثقف أفضل ألف مرة ومرة من الجاهل المستبد ، فهل كان مطلوبا من الحكم أن يظل جاهلا ، ولا يشتغل بالعلم ، أو يثقف نفسه ؟ ، والعلم والثقافة بلا شك يوسعان من مدارك الحاكم ليستطيع حكم الدولة حكما سديدا ، لقد كان المأمون العباسى رغم اشتغاله بالعلم والثقافة ذا حنكة ومقدرة فى كثير من النواحى السياسية والإدارية . والعجب أن د. مؤنس عاد بعد ذلك ليقول عن سياسة المستنصر « وكل ذلك لم يشغل الحكم عن النظر السديد فى أمور ملكه » . وذكر أيضا : أن ملوك النصارى حاولوا انتهاز فرصة انشغاله بالعلوم ، فأغاروا على أطراف الدولة ، فنهض الحكم لغزوهم ابتداء من سنة ٣٥٢هـ ، وتوغل فى أراضيهم ، واستولى على قلاع كثيرة ، وأرغم الكثير منهم على التسليم بسيادة قرطبة فأخذوا فى إيفاد سفاراتهم لعقد المعاهدات معه(٢٨) . ومن هنا نرى : أن اهتمام الحكم بالحركة العلمية ، واشتغاله بالعلم لم يصرفه عن النظر فى أمور دولته ، بل إن ذلك زاد من خبراته وتجاربه فى حكمها . وأن الظروف هى التى ساعدت ابن أبى عامر على الوصول إلى النفوذ والسلطان لتقربه من السيدة صبح زوجة الحكم ، وتوليه الحجابة على ابنها هشام المؤيد وهو فى سن العاشرة ، وقد كان طموحا منذ البداية للوصول فاستغل فى ذلك كل فرصة ممكنة ، واتخذ

---

(٢٧) معالم تاريخ المغرب فى الأندلس ص ٣٣٣ .

(٢٨) نفس المرجع ص ٣٣٥ .

وسائل عديدة غير مشروعة فى سبيل الوصول إلى هدفه(٢٩) .

وفى فترة الحجابة اهتم المنصور بن أبى عامر أيضا بالحركة العلمية وخاصة العلوم الدينية والأدبية ، بالرغم من تلك الثورة التى أعلنها على العلوم العقلية وخاصة المنطق والفلسفة ، حيث أحرق ما فى خزائن الحكم منها ، وطرح بعضها فى آبار القصر ، وأهال عليه التراب والحجارة . ويقال : إنه ما فعل ذلك إلا تقربا إلى الفقهاء المالكية والعامة لتثبيت سلطانه — حيث كانوا ينظرون إلى المشتغلين بهذه العلوم على أنهم زنادقة — وأنه كان فى قرارة نفسه يميل إليها ، ويطالع عليها(٣٠) .

وقد كان المنصور يميل إلى الكتب الأدبية ، وخاصة كتب الأسمار ، مثل كتاب حسان بن أبى عبدة (ربيعة وعقيل) ، الذى وصفه ابن حزم بأنه من أملح ما ألف فى هذا المعنى(٣١) .

والكتب ذات الطابع القصصى مثل كتاب (الهجفجف بن غدقان ابن يثربى مع الخنوث بن مخرمة بن نوفل) ، وكتاب (الجواس بن قعطل المذحجى مع ابنة عمه عفراء) . وقد ألفهما له صاعد اللغوى بعد هجرته من بغداد سنة ٣٨٠هـ واتصاله به ، كما ألف له أيضا كتاب (الفصوص) على غرار كتاب النوادر لأبى على القالى . وقيل إن المنصور كان شغوفا

---

(٢٩) انظر : د. خالد الصوفى : العرب فى أسبانيا (عصر المنصور الأندلسى) ص ٤٢ وبعدها .

(٣٠) الحميدى : جذوة المقتبس ص ١٨٤ ، د. خالد الصوفى : تاريخ الأمم ص ٦٦ ، ربيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ٣٧ ، د. خالد الصوفى : المرجع السابق ص ٢٥٦ .

(٣٠) الحميدى : جذوة المقتبس ص ١٨٤ ، د. خالد الصوفى : تاريخ العرب فى أسبانيا ص ٢٥٧ .

بكتاب الجواس إلى درجة أنه رتب من يقرؤه له كل ليـلة(٣٢)، .

ويذكر ابن حيان : أن المنصور اثاب صـاعدا على كتاب الفصوص بخمسة آلاف دينار ، وانه أمره أن يسمعه الناس فى مسجد مدينة الزاهرة التى بناها(٣٣) .

وقـد كان للمنصور مجلس فى قصره يجتمع فيـه العـلماء والأدباء والشعراء ، وكان يشاركهم أحيـانا فى مناقشاتهم ، ويدلى فيها بدلوه ، ولا غرو فقـد كان أديبـا شاعرا ومن شعره :

رميت بنفسى هـول كل كريهة
وخاطرت والحر الكريم مخـاطر
وما صاحبى إلا جنـان مشيع
واسـمر خطى وابيـض باتـر
وإنى لزجاء الجيوش إلى الوغى
أسود تلاقيها أسود خوادر(٣٤)

---

(٣٢) جـذوة المقتبس ترجمـة ٥٠٩ ص ٢٤٠ ، معجـم الأدباء ج ١١ ص ٢٨٤ — ٢٨٥ ، بغية الملتمس ترجمة (٨٥٢) ص ٣١٩ — ٣٢٠) .

(٣٣) ابن بشكوال : الصلة ص ٢٢٣ . وهناك روايات أخرى تذكر : أن المنصور اغتاظ مرة من كثرة أكاذيب صاعد — وقد اتهم بالكذب — فأمر بإخراجه من مجلسه ، وقذف هـذا الكتاب فى النهر . وفى ذلك يقول أحـد الشعراء متهكما :

قـد غاص فى النهر كتاب الفصوص
وهـكذا كل ثقيـل يغـوص

وقد بلغ من اهتمامه بالأدب والشعر أن أنشأ ديوانا خاصا سمى (ديوان الندماء) ، مهمته ترتيب الشعراء فى طبقات ، وبذل العطاء لهم على أقدارهم فى الشعر . وكان على رأسه واحد من كبار الأدباء النقاد وهو عبد الله بن محمد بن مسلمة . وكان المنصور يصطحب الشعراء معه فى غزواته ليقولوا الشعر فيها لتحميس الجند ووصف المعارك ، وذكر أنه اصطحب مرة فى إحدى الغزوات أربعين شاعرا من كل طبقة(٣٥) . وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على كثرة الشعراء فى ذلك الوقت .

وإلى جانب اهتمام المنصور بالأدب والشعر ، فإنه لم يغفل العلوم الدينية واللغوية فقد ذكر أنه كلف ابن المكوى الإشبيلى ، وأبا مروان المعيطى الفقيه بجمع أقوال الإمام مالك فى كتاب على نحو كتاب (الباهر) الذى جمع فيه ابن الحداد المصرى أقوال الإمام الشافعى فأخرجا له هذا الكتاب على أكمل صورة(٣٦) .

كما أنه اتخذ محمد بن عبد الرحمن بن معمر اللغوى قيما للتدقيق والضبط فى مكتبته ، وقد استعان بذلك فى تأليف كتاب عن تاريخ بنى عامر قدمه للمنصور(٣٧) .

=

فرد عليه صاعد قائلا :

عاد إلى معدنه إنما   توجد فى قعر البحار الفصوص

وروايات تذكر : أن علماء قرطبة أغرقوا هذا الكتاب ، ورموه فى نهر قرطبة لكثرة ما فيه من أكاذيب . (انظر نفح الطيب جـ ٤ ص ٧٦ — ٧٨) .

(٣٤) ابن بشكوال : الصلة ص ٧٣ ، د. خالد الصوفى : مرجع سابق ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .

(٣٥) د. خالد الصوفى : المرجع نفسه ص ٢٥٦ .

(٣٦) جذوة المقتبس ص ١٣٢ .

(٣٧) التكملة ص ٣٨٤ .

كل هـذا وغيره مما جعل الحميدى يصفه بقوله « كان للمنصور همة رفيعة فى العلوم »(٣٨) .

لقـد نشـطت الحركة العلميـة نشـاطا منقطـع النظـير فى الأندلس ، وازدهرت فى عصر بنى أمية ــ وخاصة فى العاصمة قرطبـة التى نافست حواضر العـالم الإسلامى والأوربى آنذاك ــ ولم تكن وقفا على عنصر دون آخـر ، بل شاركت فيها شتى عناصر المجتمع من عرب وبربر وموالى ومولدين ومستعربين ، كما شاركت فيها المرأة أيضا ، فكان هناك الشاعرات والكاتبات والناسخات للمصاحف ، والمعلمات فى المكاتب للفتيات وغير ذلك(٣٩) .

وقد أشاد الكثير من المؤرخين بذلك حيث قال المقرى : (إن قرطبـة أعظم علما ، وأكثر فضلا بالنظر إلى غيرها من الممالك ، لاتصال الحضارة العظيمة والدولة المتوارثة بها)(٤٠) ، ووصفها بعض الأوربيين بأنهـا جوهرة العـالم(٤١) . وعنها قال الشاعر الأندلسى مفتخرا :

بأربع فاقت الأمصـار قرطبـة
منهن قنطـرة الوادى وجـامعها
هاتان ثنتان والزهـراء ثالثـة
والعلم أعظم شىء وهو رابعها(٤٢)

---

(٣٨) جـذوة المقتبس ص ١٣٣ ترجمة ٢٣١ .
(٣٩) انظر فى ذلك : باب النساء فى بغية الملتمس ص ٤٤٣ وبعدها ، جـذوة المقتبس ص ٤١٢ وبعدها ، ريبرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٦١ ، ٢٠٤ ، المعجب ص ٢٤٨ .
(٤٠) نفح الطيب جـ ١ ص ٤٥٦ .
(٤١) ليفى بروفنسـال : حضـارة العـرب فى اسـبانيا ص ١١٤ ، د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٣١٤ .
(٤٢) نفح الطيب جـ ١ ص ٤٥٦ .

التعليم عنـد الأندلسيين :

وكان من مظاهر الحركة العلمية وازدهارها ، شيوع التعليم فى الأندلس فى ذلك العصر ، فقد أصبح عاما يشمل الجنسين ، وكثرت أماكنه ومؤسساته ، وكثرت رحلات الطلاب إلى خارج الأندلس لطلب العلم ، وغدت اللغة العربية هى لغة العلم والثقافة بصورة رئيسية ، وتعلمها الكثير من الأسبان المسيحيين ، ولذلك سموا (بالمستعربين) .

ويذكر أن هشام بن عبد الرحمن الداخل هو الذى جعل اللغة العربية لغة التدريس فى معاهد أهل الذمة ومؤسساتهم ، وكان لهذا أثره العميق فى انتشارها وفى اعتناق الكثيرين للاسلام(٤٣) .

وقد قامت المساجد بدور هام فى التعليم عند الأندلسيين والأمثلة كثيرة على ذلك فى كتب التراجم والطبقات الأندلسية .

كما قامت المكاتب بدور هام أيضا فى الناحية التعليمية . فكان الطلاب يتلقون فيها مبادىء العلوم إلى جانب حفظ القرآن الكريم ، وقد كثرت هذه المكاتب فى عهد الخليفة المستنصر . ويمكن القول بأنها أصبحت مكاتب رسمية تابعة للدولة بعد أن كان المؤدبون يتخذونها فى بيوتهم . وفى ذلك يقول ابن عذارى : « ومن مستحسنات أفعاله ، وطيبات أعماله ، اتخاذه المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن فى مكاتب حول المسجد الجامع ، وبكل ربض من أرباض قرطبة ، وأجرى عليه الأرزاق ، وعهد إليهم فى الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم ، وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتبا منها حول المسجد الجامع ثلاثة ، وباقيها

---

(٤٣) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ج ١ ص ٢٢٩ ، د. الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٢٧٨ .

فى كل ربض من أرباض المدينة »(٤٤) .

ونستطيع القول بأن هذه المكاتب قد قامت بدور المدارس فى البداية ، حتى قامت المدارس بعد ذلك فى عصر دولة بنى الأحمر فى غرناطة(٤٥) . ويشير ابن سعيد المغربى فى القرن السابع الهجرى إلى أنه لم تكن هناك مدارس فى الأندلس تعين على طلب العلم كما كان الحال فى المشرق ، وإنما كان طلاب العلم يقرأون جميع العلوم فى المساجد بأجرة(٤٦) . وفى هذا رد على كثير من الباحثين الذين يتجوزون فيذكرون أنه كانت هناك مدارس فى الأندلس فى العصر الأموى ويطلقون على الكتاتيب أو المكاتب هذا اللفظ(٤٧) ، ومعلوم أن المدارس لم تظهر فى العالم الإسلامى كمؤسسات تعليمية تسمى بهذا الاسم إلا فى القرن الخامس الهجرى على يد نظام الملك عندما أنشأ المدرسة النظامية ببغداد سنة ٤٥٧هـ . ولم تظهر المدارس بالأندلس بهذا المسمى إلا فى عصر دولة بنى الأحمر فى غرناطة (٦٣٥هـ — ٨٩٧هـ)(٤٨) .

وقد قام المؤدبون بدور كبير فى التعليم حيث أدبوا أبناء العامة والخاصة ، وكان منهم كثير من العلماء مثل الغازى بن قيس ، الذى كان يؤدب فى قرطبة عند دخول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ، وأبو الغمر عبد الواحد بن سلام المعروف بالأحدب (ت ٢٠٩هـ) ، وكان عالما بالنحو

---

(٤٤) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٥٦ .

(٤٥) انظر دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٤ .

(٤٦) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٢ .

(٤٧) انظر خوليان ريبرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٣ — ١٤ ، ص ٢٠ .

(٤٨) انظر : دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٤ ، ابن الأحمر : نثير فرائد الجمان ص ٥٠ .

واللغة ، ولحمد بن نعيم وكان مؤدبا بجيان وطليطلة ، وجابر بن غيث الذى اشتهر بشدته على الطلاب فقل من تأدب عنده(٤٩) .

ومحمد بن حزم — وهو غير ابن حزم الفقيه المشهور — الذى كان يساعده ابنه وابنته فى تعليم الصبيان والبنات فى مكتبة بقرطبة .

وسعيد بن سلمون بن سيد ابيه ، وكان من اهل قرطبة له كتاب يؤدب فيه ، وكان صالحا قرا عليه كثير من الناس القرآن(٥٠) .

ومن مؤدبى ابناء الأمراء والخاصة : هشام بن الوليد الغافقى مؤدب الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وابو محمد عبد الله بن بكر بن سابق الكلاعى ، وكان عالما بالنحو واللغة ، مبرزا فى الشعر ، ادب ابناء الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وابن ارقم مؤدب عبد الرحمن الناصر(٥١) .

وعثمان بن نصر بن عبد الله القرطبى (ت ٣٢٥هـ) مؤدب الحكم المستنصر(٥٢) . ووليد بن عيسى بن حارث ويعرف بالطنيجى (الطنجى) ت ٣٥٢هـ ، وكان بصيرا بالشعر ، حسن الاستنباط لمعانيه ، جيد النظر فيه ، شرح شعر أبى تمام ، ومسلم بن الوليد ، فأخذ الناس عنه ذلك . « كان مؤدبا بعيد الاسم فى التاديب ، يتنافس فيه الملوك » كما قال ابن الفرضى(٥٣) .

---

(٤٩) انظر طبقات الزبيدى ص ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ .

(٥٠) انظر تاريخ علماء الأندلس ترجمة رقم ٥٢٦ ، ربيرا : المرجع السابق ص ٢٠٢ .

(٥١) انظر طبقات الزبيدى ص ٢٩٣ — ٢٩٩ ، المقتبس فى اخبار بلد الأندلس ص ٣٥١ — ٣٥٢ ، ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب جـ ١ ص ١١٣ — ١١٤ .

(٥٢) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٨٩٨ .

وحسين بن وليد بن نصر القرطبى (٣٩٠هـ) وهو من تلاميذ ابن القوطية وكان عالما بالعربية متقدما فيها ، وكان مؤدبا لأبناء المنصور ابن أبى عامر(٥٤) .

ومحمد بن خطاب الأزدى وكان يختلف إليه فى علم العربية كثيرون من أولاد الخاصة والكبراء(٥٥) ، وغير هؤلاء كثيرون ممن ذكرتهم كتب التراجم والطبقات الأندلسية .

وقد اتخذ بعض هؤلاء المؤدبين أو المعلمين من التعليم حرفة يتكسبون بها ، وكان الواحد منهم يتقاضى جعلا أو مكافأة كلما بلغ أحد تلاميذه مرحلة الإتقان والحذق ولذلك عرفت هذه المكافأة باسم (الحذقة)(٥٦) .

أما مؤدبو أولاد الأمراء والخلفاء والخاصة ، فقد ارتقوا إلى مكانة عالية ، حيث كان معظمهم من مشاهير العلماء ، واغدق عليهم الكثير والكثير(٥٧) .

ويذكر الزبيدى طبيعة التحصيل العلمى عند هؤلاء المؤدبين فيقول : « ولم يكن عند مؤدبى العربية ، ولا عند غيرهم ممن عنى بالنحو كبير علم ... وذلك أن المؤدبين إنما كانوا يعانون إقامة الصناعة فى تلقين تلاميذهم العوامل وما شاكلها ، وتقريب المعانى لهم فى ذلك ، ولم يأخذوا انفسهم بعلم دقائق العربية ، وغوامضها ، والاعتلال

---

(٥٣) تاريخ علماء الأندلس ترجمة رقم ١٥١٢ .

(٥٤) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٣٥٦ .

(٥٥) الحميدى : جذوة المقتبس ص ٥٤ .

(٥٦) انظر : طبقات الزبيدى ص ٢٧٨ .

(٥٧) انظر عن مرتبات المعلمين (التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٢١ وبعدها) .

لسائلها ، ثم كانوا لا ينظرون فى إمالة ولا إدغام ، ولا تصريف ولا أبنية ، ولا يجيئون فى شىء منها »(٥٨) .

فهو يتهم مؤدبى العربية والنحو بقلة التحصيل العلمى ، غير أن هذا الحكم العام يأتى جائرا ومجحفا فى حق الكثير من المؤدبين الذين وصلوا إلى مراتب عليا فى العلم ، وكان منهم كثيرون لهم منزلة كبيرة فى نفوس الناس . ومن يتصفح كتب التراجم والطبقات الأندلسية ومنها طبقات الزبيدى نفسه يجد الكثير من الأمثلة على ذلك مثل أبى جرش الذى ضرب به المثل فى الفصاحة ، وأبى بكر الكنانى ، وأبى عبد الله محمد بن عبد الله ، وصالح بن معافى ، والرشاشى وغيرهم(٥٩) .

وقد ذكر ابن خلدون بعض مبادىء التعليم عند الأندلسيين فقال : « إنهم يجعلون القرآن أصلان التعليم ، ولكنهم لا يقفون عند ذلك كما يفعل سائر أهل المغرب ، وإنما يخلطون فى تعليمهم رواية الشعر والترسل، والأخذ بقواعد العربية وحفظها ، وتجويد الخط إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة ، وقد شدا بعض الشىء فى العربية والشعر والبصر بهما ، وبرز فى الخط والكتابة ، وتعلق بأذيال العلم على الجملة » . ويمتدح هذا المنهج التعليمى فيقول : « فأفادهم التفنن فى التعليم ، وكثرة رواية الشعر والترسل ، ومدارسة العربية من أول العمر ، حصول ملكة صاروا بها أعرف فى اللسان العربى »(٦٠) .

---

(٥٨) طبقات اللغويين والنحويين ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

(٥٩) المصدر السابق : ص ٢٨١ — ٢٨٤ ، ص ٢٩٣ — ٢٩٩ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٦٤ .

(٦٠) المقدمة ص ٣٩٧ — ٣٩٨ المطبعة البهية د.ت .

وقد ذكر ابن خلدون أيضا : أن القاضى أبا بكر بن العربى (ت٥٤٣هـ) قد ذهب إلى طريقة غريبة فى التعليم حيث قدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم ، ثم ينتقل إلى الحساب ، ثم إلى درس القرآن ، فإنه يتيسر عليه حتى يستطيع فهم ما يقرأ . وأنه انتقد أهل البلاد الذين يأخذون الصبى بحفظ القرآن فى أول أمره فيقرأ ولا يفهم ، ونهى عن أن يخلط فى التعليم علمان إلا إذا كان المتعلم قابلا لذلك بجودة الفهم والنشاط . وعلق ابن خلدون على ذلك بقوله « وهذا لعمرى مذهب حسن إلا أن العوائد لا تساعد عليه »(٦١) .

ويبدو أن هذا المنهج لم يطبق نظرا لصعوبته من ناحية ولأن حفظ الصبى القرآن فى الصغر أجدى وأنفع ، وجرت العادة بذلك من ناحية أخرى .

ويشير ابن العربى إلى المنهج الذى سار عليه الأندلسيون فى تعليم أولادهم فيقول : « فصار الصبى عندهم إذا عقل فإن سلكوا به أمثل طريقة لهم علموه كتاب الله ، فإذا حذقه نقلوه إلى الأدب ، فإذا نهض منه حفظوه الموطأ فإذا لقنه نقلوه إلى المدونة . ثم ينقلونه إلى وثائق ابن العطار ثم يختمون له بأحكام ابن سهل »(٦٢) .

ويبدو أن الأستاذ أحمد أمين قد فهم من قول ابن خلدون ، وذكره

---

(٦١) المقدمة ص ٣٩٨ .

(٦٢) خوليان ريبرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٧٦ . والمدونة : هى مجموعة رسائل من فقه الإمام مالك جمعها تلميذه أسد ابن الفرات النيسابورى ، وتشتمل على نحو ست وثلاثين ألف مسألة . (د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٣٣٣) .

(٦٣) انظر : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٨ ـ ٩ .

طريقة ابن العربى فى التعليم ان هـذا المنهج الذى رآه ابن العربى قد طبق . ولذا قال : « وقد ذكر ابن خلدون وابن العربى ان للاندلسيين طريقة فى التعليم تختلف عن طريقة أهل المشرق . فهم فى المشرق يحفظون القرآن للصبى قبل أن يستطيع فهمه ، ثم يعلمونه اللغة العربية . وعيب هذه الطريقة أن الحافظ للقرآن من غير معرفة معانيه عرضة للفهم الخاطىء الذى يبقى فى ذهنه على مر الايام ، أما فى الأندلس فيعلمون اللغة العربية اولا ثم يحفظون القرآن بعد القدرة على الفهم ، وعيب هذه الطريقة ان بعض المتعلمين قد يتخلفون عن حفظ القرآن او تعلم العربية ، ثم ينقطعون عن التعليم ، ولذلك نصح بعضهم بأن يحفظ الطفل القرآن أولا ولو من غير فهم ثم يتعلم العربية ، ثم يعود إلى القرآن ثانية وقد استطاع الفهم »(٦٣) .

غير ان قول ابن خلدون (إنهم يجعلون القرآن اصلا فى التعليم)، وقول ابن العربى (فصار الصبى عندهم إذا عقل فإن سلكوا به أمثل طريقة لهم علموه كتاب الله) يفيدان غير ما قال به الأستاذ احمد أمين ، والواقع ان الاندلسيين مثل المشارقة ساروا على تعليم ابنائهم القرآن الكريم اولا لان هذا هو الأصل ، وهو الأجدى فى الحفظ ، وأن المنهج الذى وضعه ابن العربى لم يطبق لصعوبته من ناحية ، ولأن العوائد لا تساعد على تطبيقه من ناحية اخرى كما قال ابن خلدون .

الإجـازات العلميـة :

وكما ان الإجازات العلمية كانت معروفة فى المشرق ، فقد انتقلت إلى الأندلس ايضا بانتقال الكثير من العلماء المشارقة . وأصبح منح الأستاذ الإجازة لطلابه امرا شائعا ، بعد تتلمذهم على يديه .

وكانت تسجل فى وثيقة من الرق أو الكاغد (الورق) ، أو فى

الكتب التى درسها الطالب بخط الأستاذ نفسه(٦٤) . ومن أمثلة هذه الإجازات ما ذكره ابن الفرضى من أن يوسف بن محمد بن سليمان الهمذانى الشذونى الذى رحل إلى المشرق عشر سنوات وسمع من الكثيرين أجاز له جميع ما رواه وتوفى سنة ٣٨٣هـ(٦٥) .

ولم تكن هذه الإجازات مقصورة على الرجال فقط بل نالتها بعض النساء أيضا . فقد ذكر الضبى : أن أبا عمرو الدانى المقرىء (عثمان ابن سعيد) المعروف بابن الصيرفى (ت ٤٤٤هـ) كان يقرىء بالمرية ، وقرأت عليه امرأة تدعى (ريحانة) ، وكانت تقعد خلف ستر فتقرأ ، ويشير إليها بقضيب فى يده إلى الوقف ، وأنها أكملت السبع عليه ، وقرأت عليه خلاف السبع روايات ، وطالبته بالإجازة فكتب لها إجازتها بعد توقف(٦٦) .

وقد وضع أبو العباس العمرى وليد بن بكر بن مخلد (٣٩٢هـ) ـ وكان من أهل سرقسطة ، ورحل إلى المشرق ، ولقى الكثير من العلماء فى بلاد عديدة ـ كتابا فى تجوز الإجازة سماه (كتاب الوجازة) . وهو فى هذا الكتاب يحتج على بعض الإجازات العلمية ، ويرى أنها غير موثوق بها ، وأن الزيف قد شابها(٦٧) . وهذا دليل على قيام البعض بتزييف الإجازات العلمية ، للتصدى للإقراء والتدريس طمعا فى المكانة والمنصب ، والحصول على المكاسب المادية .

---

(٦٤) ريبرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٤٨ .
(٦٥) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٦٣٦ جـ ٢ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .
(٦٦) الضبى : بغية الملتمس ترجمة ١١٨٦ .
(٦٧) الضبى : بغية الملتمس ترجمة ١٤١١ .
وقد ذكره خوليان ريبرا باسم (الوجازة فى صحة القول بالإجازة) . ولم يشر إلى المصدر الذى أتى منه بذلك (التربية الإسلامية ص ١٤٩)

أهم العلوم وأشهر العلماء

أولا : العلوم الدينية والعربية

اهتم الأندلسيون بالعلوم الدينية اهتماما كبيرا ، وقد بدأت بذرة هذه العلوم بانتقال بعض الصحابة والتابعين إلى الأندلس مع الفتح وبعده . وكان هؤلاء إلى جانب كونهم جنودا فاتحين ، حملة علم ومعرفة ومثلوا اللبنة الأولى فى العلوم الدينية والعربية ، ثم جاءت بعدهم طبقة ثانية حملوا معهم علما جديدا وكان معظم هؤلاء من الذين رحلوا إلى المشرق وتتلمذوا على يد علمائه ، ثم جاءت طبقة ثالثة خطت بالعلم خطوات جديدة من حيث التنظيم والتأليف . ومن أشهر هذه العلوم :

١ - **علم التفسير** : كان القرآن ولا يزال المصدر الأساسى ، والمنهل العذب للكثير من العلوم ، وعلى رأسها علم التفسير ، ومن المعلوم أن المفسرين قد اتجهوا فى تفسير القرآن اتجاهين :

(أ) التفسير بالمأثور : وهو ما أثر عن النبى ﷺ وصحابته من أقوال فى تفسير بعض آيات القرآن الكريم .

(ب) التفسير بالرأى : وهو ما يعتمد فيه على العقل إلى جانب النقل ، وربما أكثر(١) .

ومن مشاهير المفسرين فى عصر بنى امية بالأندلس بقى بن مخلد (ت ٢٧٣ ، ٢٧٦هـ) الذى ألف تفسيرا للقرآن الكريم اطلع عليه

---

(١) من أشهر المفسرين بالمأثور فى الأندلس والذين وصلتنا كتبهم ابن عطية أبو محمد بن عبد الحق (ت ٥٤٦ هـ) ، ومن أشهر المفسرين بالرأى أبو عبد الله محمد بن احمد الأنصارى الشهير بالإمام القرطبى (٦٧١هـ) صاحب الجامع لأحكام القرآن المشهور بتفسير القرطبى .

ابن حـــزم وقال عنه « أقطع قطعا لا أستثنى فيـــه أنه لم يؤلف فى مثله ، لا تفسير محمد بن جرير الطبرى ولا غيره »(٢) .

وكذلك ابن محامس عثمان بن محمد (ت ٣٠٦هـ) المكنى بأبى سعيد ، وكان من أهل استجة . قال عنه ابن الفرضى : (كان حافظا للتفسير ، عالمـــا بأخبار الدهور ، وله فى ذلك كتاب نقل أكثره على ظهر قلب)(٣). وقد اشتهر بالزهـــد والعزوف عن الدنيـــا .. يروى أنه كتب على باب داره (يا عثمان لا تطمع)(٤) .

وكذلك سعدان بن سعيد بن خمير المكنى بأبى سعيد وهو من أهـــل قرطبة ، كان إماما للمسجد الجامع بها ، وقـــرأ الناس عليه كتاب التفسير المنسوب إلى ابن عباس من رواية الكلبى(٥) .

٢ — **علم الحـــديث** : ازدهر علم الحديث بالأندلس ، واشتغل به كثيرون . يقول ابن سعيد « ورواية الحديث عندهم رفيعة »(٦) .

ويذكر ابن الفرضى : أن صعصعة بن ســـلام الشامى (ت ١٩٢هـ) تلميذ الإمام الأوزاعى كان أول من ادخل الحديث إلى الأندلس(٧) .

كما يذكر أن الغازى بن قيس (ت ١٩٩هـ) كان أول من أدخل الموطأ

---

(٢) الحميدى : جـــذوة المقتبس ص ١٧٧ ترجمة ٣٣١ ، الضبى : بغية الملتمس ص ٢٤٥ ترجمة ٥٨٤ .

(٣) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٩٠١ .

(٤) انظر جذوة المقتبس ترجمة ٧٠٥ ، بغية الملتمس ترجمة ١١٩٤ وقد ورد اسمه فيهما عثمان بن محامس .

(٥) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٥٤٥ .

(٦) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣ .

(٧) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٦١٠ .

إلى الأندلس قبل زياد بن عبد الرحمن اللخمي (شبطون) ت ٢٠٤هـ ، وقيل إنه كان يحفظه(٨) .

غير أننا نجد فقيها ومحدثا مشهورا دخل الأندلس منذ سنة ١٢٣هـ ، واستقر في مالقة ، ثم انتقل منها إلى إشبيلية وهو معاوية ابن صالح الحضرمي الحمصي ، وعندما قدم عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس عهد إليه بعدة أمور منها : أنه وجهه بكتاب إلى أخته أم الأصبغ ، وكان عبد الرحمن قد تركها في الشام ، ثم ولاه القضاء . ويعتبر هو مدخل علم الحديث إلى الأندلس على حد قول يحيى بن يحيى الليثي ، وقد أفرد له ابن الأبار كتابا خاصا سماه (المدخل الصالح في حديث معاوية بن صالح) وقد توفي سنة ١٥٨هـ(٩) .

وهو يعتبر بذلك من أوائل المحدثين بالأندلس إن لم يكن أولهم ، قبل صعصعة والغازي بن قيس . ويعتبر بقي ابن مخلد أيضا من أشهر علماء الحديث إلى جانب التفسير والفقه . وكان قد أدخل مسند ابن أبي شيبة كاملا ، وأخذ يدرسه في قرطبة ، فأثار ذلك فقهاء المالكية ، وصنف في الحديث كتابا رتبه على أسماء الصحابة ، روى فيه عن ألف وثلاثمائة صحابي ونيف ، كما رتبه على أبواب الفقه المختلفة أيضا . فهو مصنف ومسند معا ، أو كتاب فقه وكتاب حديث ، قال عنه ابن حزم : « وما أعلم هذه الرتبة لأحد مثله ، مع ثقته وضبطه وإتقانه ، واحتفاله فيه

---

(٨) انظر : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٠١٥ ، ٤٥٨ ، جذوة المقتبس ترجمة ٢٤٨ .

(٩) انظر : المقتبس ص ٣١٤ ـــ ٣١٥ ، قضاة قرطبة ص ٣٠ ، ٤٢ ، تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٤٤٥ .

بالحديث وجودة شيوخه . فإنه روى عن مائتى رجل وأربعة وثمانين رجلا ليس فيهم عشرة ضعفاء ، وسائر أعلامهم مشاهير(١٠) .

ثم تلاه تلميذه ابن وضاح ، فصارت الأندلس دار حديث وإسناد ، وكان الغالب عليها قبل ذلك حفظ رأى مالك وأصحابه(١١) .

ومن علماء الحديث أيضا : قاسم بن ثابت (ت ٣٠٢هـ) الذى عنى بجمع الحديث والفقه ، وألف فى غريب الحديث كتابا سماه (الدلائل) أثنى عليه الكثيرون ، ومنهم أبو على القالى الذى قال عنه « لم يؤلف بالأندلس كتاب أكمل من كتاب قاسم فى شرح الحديث »(١٢) .

وكذلك أحمد بن عمرو بن منصور الإلبيرى ويعرف بابن عمريل ت ٣١٢هـ وكان عالما بالحديث حافظا له ، بصيرا بعلله ، إماما فيه ، وكانت الرحلة إليه فى وقته(١٣) .

ومنهم أيضا قاسم بن أصبغ (ت ٣٤٠هـ) الذى رحل إلى القيروان ومصر والعراق ثم عاد إلى الأندلس وقد تبحر فى الحديث والرجال ، وألف كتابا طويلا ، ثم اختصره وسماه (المجتنى) ، وقدمه للحكم المستنصر ، وفيه من الحديث المسند ألفان وأربعمائة وتسعون حديثا فى سبعة أجزاء ، وصنفه على أبواب الفقه ، وكان له الفضل فى نشر العلم بالأندلس على هذه الطريقة ، وله مصنف آخر فى بيان صحيح الحديث وغريبه(١٤) .

---

(١٠) بغية الملتمس ترجمة ٥٨٤ ص ٢٤٥ .
(١١) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٢٨٣ .
(١٢) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٠٦٢ . يذكر أنه مات قبل إكماله فأكمله أبوه بعد وفاته .
(١٣) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٧٦ .
(١٤) انظر ترجمة فى تاريخ علماء الأندلس رقم ١٠٧٠ ، ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٥٠ .

٣ ــ **علم القراءات** : نمــا علم القراءات فى الأندلس شيئا فشيئا ، حتى وصل إلى الذروة على يد الإمام الشاطبى ، صاحب الرسالة المشهورة (حــرز الأمانى) المعروفة باسم الشاطبية نسبة إليــه ، والتى عمت شهرتها الآفاق ، ولا تزال مرجعــا للكثيرين من المشتغلين بالقراءات إلى اليــوم(١٥) .

وكانت قراءة نافع هى القراءة المشهورة بالأندلس يقول المقــدسى (وأما فى الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع)(١٦) ويقول ابن ســعيد (وقراءة القرآن عندهم بالسبع)(١٧) .

ومن الذين اشتغلوا بعلم القراءات فى الأندلس فى العصر الأموى سليمان بن مسرور ، وكان من أهل طليطلة ، غلب علبــه العلم بالقراءات وكان فيهــا إماما ، وكان حسن الصوت بالقرآن ، رحل حاجا قبل التسعين من عمره ، ثم استوطن مصر وتوفى بها(١٨) . ويحيى بن مجاهد بن عوانة الفزارى القرطبى (ت ٣٦١هـ) ، وقد عنى بالقراءات والتفسير ، وكان عابدا زاهدا(١٩) . ومنهم أحمد بن محمد بن عبد الله المقرىء الطلمنكى ، وهو محدث منسوب إلى بلده ، وكان إماما فى القراءات مذكورا ، وثقة فى

---

(١٥) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٥٣ ، د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى جـ ٤ ص ٨٥ .

(١٦) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٣٦ ، احمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ١٣ .

(١٧) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣ .

(١٨) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٥٥٣ .

(١٩) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٥٩٥ .

الروايع مشهورا ، توفى سنة ٤٢٨هـ(٢٠) .

ومن أشهر من عرف بالقراءات فى الأندلس قبل الإمام الشاطبى : أبو عمر الدانى (عثمان بن سعيد المقرىء) وكان قد رحل إلى المشرق قبل الأربعمائة ، وطلب علم القراءات ، وقرأ وسمع الكثير ، ثم عاد إلى الأندلس فتصدر بالقراءات وألف فيها عدة مؤلفات بلغت المائة ، ونظمها فى أرجوزة مشهورة . وكان إمام وقته فى الإقراء ، وقد توفى فى دانية سنة ٤٤٤هـ(٢١) .

علم الفقه :

يقول ابن سعيد عن الفقه فى الأندلس : « والفقة رونق ووجاهة ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك ، وخواصهم يعلمون من سائر المذاهب ما يتباحثون به ، وسمة الفقيه عندهم جليلة ، حتى إنهم كانوا يسمون الأمير العظيم عندهم بالفقيه ، وقد يقولون للكاتب والنحوى واللغوى الفقيه لأنها عندهم من أرفع السمات »(٢٢) . ومن هذا تتضح مكانة الفقه والفقهاء بالأندلس .

وقد كان أهل الأندلس منذ الفتح وحتى عصر هشام بن عبد الرحمن الداخل على مذهب الإمام الأوزاعى(٢٣) ، وقد سار على هذا المذهب

---

(٢٠) بغية الملتمس ترجمة ٣٤٧ ، جذوة المقتبس ترجمة ١٨٧ .

(٢١) بغية الملتمس ترجمة ١١٨٥ ، جذوة المقتبس ترجمة ٧٠٢ .

(٢٢) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣ .

(٢٣) هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعى نسبة إلى الأوزاع وهم بطن من حمير ، أو نسبة لقرية سميت بذلك تقع خارج باب الفراديس من دمشق . ولد فى بعلبك سنة ٨٨ ، ٩٣هـ ، ثم

عـــدد من العلماء ومن اشهرهم تلميذه وناشر مذهبـــه ابو عبد الله صعصعة ابن ســـلام الشامى ت ١٩٢هـ ، الذى كانت الفتيـــا دائرة عليـــه فى عهد عبد الرحمن الداخل ، وصدرا من عهد ابنه هشام . وانتفع بعلمه كثيرون مثل عبد الملك بن حبيب السلمى ت ٢٣٨هـ ، وعثمان بن أيوب (ت ٢٤٦هـ)، وابن زريق الملقب (بزونان) الذى تولى الفتيا فى عهد هشام وكان يذهب مذهب الأوزاعى(٢٤) .

ثم بدأ مذهب مالك فى الانتشـــار فى عهد هشـــام بن عبد الرحمن الداخل . ويذكر ان الفضل فى ذلك يعود إلى زياد بن عبد الرحمن اللخمى (شبطون) ت ٢٠٤هـ ، الذى يقال : إنه أول من أدخل فقـــه الإمام مالك إلى الأندلس(٢٥) .

ومن الفقهاء الذين برعوا فى الفقه أيضـــا عيسى بن دينار الغافقى (ت ٢١٢هـ) قال عنه محمد بن عبد المـــلك (كان عيسى بن دينار عالمـــا متفننا مفتقا ، وهو الذى علم المسائل أهل مصرنا وفتقها ، وكان أفقه من يحيى بن يحيى على جلالة قدر يحيى وعظمه) .

وكان محـــمد بن عمر بن لبـــابة يقول « فتيـــــه الأندلس عيسى ابن دينار ، وعالمها عبد المـــلك بن حبيب ، وعاقلها يحيى بن يحيى » .

=

رحل إلى دمشق واليمن والحجاز والعراق للتعلم ، ثم عاد فاستقر فى بيروت حتى توفى بها سنة ١٥٧هـ ودفن بقرية قريبـــة منهـــا تسمى (جنتوس) ، وكان كثير المناقب ، عرف بالزهـــد والورع وطول الصمت وكان رأسا فى العـــلم والعمل (وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٢٧ ، العبر فى خبر من غبر ج ١ ص ٢٢٧) .

(٢٤) انظر تاريخ علماء الأندلس تراجم رقم ٦١٠ ، ٨١٦ ، ٨٩٩ ، ٨١٥ .

(٢٥) نفح الطيب ج ١ ص ٣٤٤ ، (تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٧٥١).

وقال عنه ابن الفرضى « كان إماما فى الفقه على مذهب مالك بن أنس ، وعلى طريقة عالية بن الزهد والعبادة ، ويقال إنه صلى الصبح أربعين سنة بوضوء العتمة ، وكان يعجبه ترك الراى والأخذ بالحديث »(٢٦) .

ومنهم : محمد بن عمر بن لبابة (ت ٣١٤هـ) وكان إماما فى الفقه مقدما على أهل زمانه فى حفظ الرأى ، والبصر بالفتيا ، يذكر أنه درس كتب الراى ستين سنة ، وانفرد بالفتيا فى عهد الناصر(٢٧) .

ومنهم ايضا لبابة محمد بن يحيى بن عمر (ت ٣٣٠هـ) وكان حافظا للفقه على مذهب الإمام مالك ، عالما بعقد الشروط ، بصيرا بعللها ، ولى قضاء البيرة فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وله فى الفقه كتب مؤلفة . منها كتاب المنتخب الذى قال عنه ابن حزم « وما رايت لمالكى كتابا أنبل منه فى جميع روايات المذهب .. الخ »(٢٨) .

كما كان منهم يحيى بن يحيى الليثى (ت ٢٣٤هـ) — زعيم الفقهاء فى ثورة الربض — والذى لقب بعاقل الأندلس وقد أصبحت له الفتيا بالأندلس بعد عيسى بن دينار ، وغدت له مكانة عظيمة ونفوذ كبير خاصة فى عهد عبد الرحمن الأوسط . وكان أحمد بن خالد يقول : لم يعط احد من اهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام من الحظوة وعظم القدر ، وجلالة الذكر ما أعطيه يحيى بن يحيى ، وسمع منه مشايخ

---

(٢٦) انظر : تاريخ علماء الأندلس ترجمة (١١٤٤) .

(٢٧) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١١٨٩ جـ ٢ ص ٣٤ — ٣٥ .

(٢٨) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٢٣١ جـ ٢ ص ٥١ ، بغية الملتمس ترجمة (٣١١) .

الأندلس فى وقتــه)(٢٩) .

وكذلك يحيى بن معمر الألهانى ، وكان ورعا فاضلا ، اشتهر بالفقه والفرائض ، وولاه عبد الرحمن الأوسط قضــاء الجماعة بقرطبة ، فكان عنــد حسن ظنــه ، وكان إذا اختلف مع فقهاء قرطبــة فى حــكم من الأحكام ، كتب إلى فقهاء مصر من المــالكية يسترشد برأيهم ، فكان فقهاء قرطبة ينفرون منــه لذلك ويذمونه ، وعلى رأسهم يحيى الليثى الذى ظل به حتى عزل من القضــاء(٣٠) .

وكذلك كان عبد المــلك بن حبيب (ت ٢٣٨هـ) من الفقهاء المشهورين وله فى الفقه كتاب (الواضــحة) لم يؤلف مثله كما قيل ، وكان يعد عالم الأندلس كما قال ابن لبابة(٣١) .

وكذلك ابن مرتنيل عبد الله بن محمد بن خــالد (ت ٢٥٦هـ) الذى اعتبره ابن الفرضى رأس المــالكية بالأندلس والقائم بهــا والذاب عنهــا فى عصره(٣٢) .

وفى عهد الحكم بن هشام الملقب بالربضى (١٨٠ — ٢٠٦هـ) غدا

---

(٢٩) نفس المرجع ترجمة ١٥٥٦ جـ ٢ ص ١٧٩ — ١٨٠ ، يقال إنه سمى بعاقل الأندلس لأنه لمــا رحل إلى المدينــة ليتعلم من الإمام مالك جلس إليه ذات يوم فذكر أن هنــاك فيــلا عظيما فخرج الكثيرون لرؤيته فقال له الامام مالك : لمــاذا لا تخرج لترى الفيل ، فقال : إنما جئت لأتعلم منك (نفح الطيب جـ ١ ص ٣٢٨) .

(٣٠) ابن حيان : المقتبس ص ١٩٠ — ١٩١ .

(٣١) المرجع السابق ترجمة ٨١٦ جـ ١ ص ٢٦٩ — ٢٧١ ، المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٢٦ — ٣٢٧ .

(٣٢) نفس المرجع ترجمة ٦٣٧ جـ ١ ص ٢١٣ .

للمذهب المـــالكى المكانة الأولى فى الأندلس ، وأصبح المذهب الرسمى ،. وتقلص مذهب الأوزاعى ، وبدأ فى الاندثار ، ولم يبق منـــه إلا مسألة إباحة زراعة الأشجار فى ساحة المساجد .

ومن أعلام المـــالكية فى فترة الخلافة عبد الله بن أبى دليم الذى صنف كتاب (الطبقات فيمن روى عن مـــالك من الأنصـــار)(٣٣) ، ويحيى ابن عبد الله بن يحيى الليثى(٣٤) . وهناك الكثير من فقهاء المـــالكية ممن ترجمت لهم كتب الطبقات ومن أشهرها كتاب القاضى عياض (ت ٥٤٤هـ) المسمى (ترتيب المدارك ،وتقريب المـــالك ، لمعرفة أعلام مذهب مالك) .

وإلى جانب فقهاء المذهب المـــالكى فقـــد وجـــد فقهاء على المذاهب الأخرى ، ولكنهم كانوا قلة بالنسبة للمالكية ، مثل المذهب الشافعى . ومن علمائه ابن أبى بردة البغدادى « الذى كان من أعلم الناس بمذهب الشافعى، وأحسنهم قيـــاما به ، ولم يصل إلى الأندلس أفهم منـــه بهذا المذهب » كما قال ابن الفرضى(٣٥) .

وقاسم بن محمد بن سـيار البيانى وكان محـــدثا فقيها على هـــذا المذهب ، وله مؤلفـــات فى الرد على مخالفيه ومنها كتاب (الإيضاح فى الرد على المقلدين)(٣٦) .

وكذلك عثمان بن أبى سعيد الكنانى(٣٧) ، وأسلم بن عبد العزيز

---

(٣٣) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة (٧٠٧) .
(٣٤) المصدر السابق ترجمة (١٥٩٧) .
(٣٥) نفس المصـــدر ترجمة (١٤٠٣) .
(٣٦) الحميدى : جذوة المقتبس ترجمة (٧٦٤) .
(٣٧) تاريخ علماء الأندلس ترجمة (٨٩٢) .

ابن هاشم(٣٨) ، واحمد بن عبد الوهاب بن يونس(٣٩) ، وغيرهم ممن ورد ذكرهم فى كتب التراجم .

ومن فقهاء المذهب الحنفى : محمد بن عيسى الملقب بالأعشى القرطبى، الذى كان أول من تأثر من الاندلسيين بفقه اهل العراق كما ذكر ابن الفرضى(٤٠) . وكذلك أحمد بن سليمان القيروانى الذى قدم إلى الأندلس ، وروى عن سحنون بن سعيد ، وكان يذهب مذهب العراقيين كما ذكر ابن الفرضى ، وتوفى ببجانة سنة ٢٩٦هـ(٤١) .

كما وجد فقهاء على المذهب الظاهرى مثل القاضى منذر بن سعيد البلوطى « الذى غلب عليه التفقه بهذا المذهب ، فكان يؤثره ، ويجمع كتبه ، ويحتج لمقالته ، ويأخذ به نفسه وبنيه ، ولكنه كان يقضى بالمذهب المالكى لأنه المذهب المعمول به فى الأندلس »(٤٢) .

ومثل عبد الله بن محمود بن قاسم بن هلال ت ٢٧٢هـ(٤٣) ، والحسن ابن دحية الظاهرى . والفقيه المشهور ابن حزم الذى حمل لواء هذا المذهب ، وعمل على نشره وإحيائه من جديد بعد أن كاد يندثر(٤٤) .

---

(٣٨) المصدر السابق ترجمة (٢٨٠) .

(٣٩) تاريخ علماء الأندلس ترجمة (١٥٤) .

(٤٠) المصدر السابق ترجمة (٢٠٠) .

(٤١) ابن حيان المقتبس ص ٢٠٨ — ٢٠٩ تحقيق مكى .

(٤٢) تاريخ علماء الأندلس ترجمة (١٤٠٤) ، نفح الطيب ج ٦ ص ٣٣٣ .

(٤٣) تاريخ علماء الأندلس ترجمة (٩٥٥) .

(٤٤) تاريخ المسلمين فى الأندلس ص ٣١١ — ٣١٢ .

فإذا خطونا خطوة اخرى رأينـــا أن الاختـــلافات أو الخلافات بـــين
وقد تحدثت بالتفصيل عن هذه المذاهب فى الفصل الثالث .
الفقهاء فى المشرق قـــد اشتدت ، والفت فى ذلك الكتب المتعددة ، حيـــث سرى الاختلاف من السياسة إلى العقائد ثم إلى العلوم وبخاصه الفقـــه . فنجـــد الكثير من الفقهاء يتناظرون طويلا فى كثير من المسائل الفقهية . وقد نشأ عن ذلك علم جديد يسمى بعـــلم الاختلاف . ويؤثر عن أيـــوب السختيانى قوله (لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف)(٤٥) .

وقد أدى هـــذا إلى ظهور فريق من الفقهاء حكموا العقل فى آرائهم ، وفلسفوا أدلتهم ، وسموا بأهل الرأى لغلبـــة القياس على فقههم وكان اكثرهم بالعراق وفى مقابلهم أهل الحديث ، وكان اكثرهم بالحجاز(٤٦) .

وقد اشتد الخـــلاف بين الفريقين وهو خلاف كان منشؤه فى الأعم الاغلب البحث والدراسة ، ومحاولة الوصول إلى الحقيقة ، وليس الهوى والتعصب ، ومحاولة التغلب على الفريق الآخـــر ومثال ذلك تلك المناظرة التى جرت بين أبى حنيفة وهو صاحب الرأى والقياس ، وبين الأوزاعى وهو من أهل الحديث فى دار الخباطين بمـــكة حـــول رفع الأيدى عنـــد الركوع وعند الرفع منـــه(٤٧) .

وقد جمع بعض الفقهاء المذاهب المختلفة فى كل مسألة ، والفوا فى اختلاف الرأى كتبـــا كثيرة مثل الطبرى فى كتابه (اختلاف الفقهاء)(٤٨) .

---

(٤٥) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ٢ ص ٩٨ .
(٤٦) ابن قتيبة : المعـــارف ص ٢٨٤ .
(٤٧) أبو زهرة : تاريخ الجـــدل ص ٣٢١ .
(٤٨) نشر المستشرق يوسف شاخت بعض أجزاء من هـــذا الكتاب تحت
=

وقـد انتقل ذلك إلى الأندلس فرأينـا مثلا ابن رشد الحفيـد يؤلف كتابا فى اختلاف المذاهب وعللها سـماه (بداية المجتهد ونهـاية المقتصد) . وهو يذكر الخلاف فى كل مسألة فقهية حـدث فيها اختلاف ويرجع ذلك إلى سببه ، ويضع قاعـدة عامة فى ذلك يطبقها على كل أنواع الخـلاف فى الفقه تطبيقـا بديعـا فكان هـذا فى الواقع خطوة جديدة .

ولمـا وجدت مذاهب أخرى فى الأندلس إلى جانب المذهب المـالكى ومن قبـله مذهـب الأوزاعى كثر الجـدل بعـد أن كان الأندلسـيون منصرفين عنـه فى البداية ، حتى حكى أن بعضهم كان يتجادل حتى فى مجالس العزاء ، وكان لكثرة الجـدل بين الفرق والمذاهب فى المشرق أثر فى ذلك(٤٩) .

علـوم اللغـة :

بالرغم من قـدوم الكثير من العرب أثناء الفتح وبعده إلى الأندلس ، ومعهم لغتهم وأشعارهم ، وأيامهم وأخبارهم ، وبذرهم البـذرة الأولى ، إلا أن ذلك لم يكن علما منظما ، حتى جاء الأمويون فأرادوا بنـاء دولتهم ومنافسة العباسيين والفاطميين الذين كان من أسباب حضارتهم ازدهـار الحركة العلمية ، ومن هنـا رأيناهم يستدعون كبـار العـلماء من المشرق للمساهمة فى نشر الثقافة العربية ، إلى جانب من قـدم بنفسه . ومنهم أبو على القـالى اسماعيل بن القاسم بن عبدون الـذى كان أبوه مولى

=.

عنوان (كتاب الجهاد والجزية وأحكام المحاربين من كتاب اختلاف الفقهاء لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى) فى ليدن سنة ١٩٣٣م .
(انظر : د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٣ ص ٣٩٤ هامش ٢)

(٤٩) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٥٢ ، ٦٨ .

لعبـد الملك بن مروان واستدعاه الخليفة عبد الرحمن الناصر فقدم إلى الأندلس سنة ٣٣٠هـ « فسمع الناس منه ، وقرأوا عليه كتب اللغة والأخبار والأمالى ، وعظمت استفادتهم منه »(٥٠) .

وقد تتلمذ على يديه الكثيرون بالأندلس ، وأملى على طلابه كتابه الشهير (الأمالى) ، وكذلك كتاب (النوادر) . وكان من أشهر تلاميذه الحكم بن عبد الرحمن الناصر الذى تأدب على يديه ، وكان لذلك أثره الكبير فى حبه للعلم ، وجمعه للكتب . وأسس بذلك أول مدرسة للدراسات اللغوية بالأندلس .

يقول ابن حزم – وهو من هو – « كتاب نوادر أبى على وهو ذيل الأمالى ، مبار لكتاب الكامل الذى جمعه المبرد . ولئن كان كتاب المبرد أكثر نحوا وخبرا ، فإن كتاب أبى على أكثر لغة وشعرا »(٥١) .

ومن مؤلفاته أيضا : كتاب الممدود والمقصور ، وكتاب البارع فى اللغة ، رتبه على حروف المعجم ، وكان نحوا من ثلاثة آلاف ورقة ،

---

(٥٠) لقب بالقالى نسبة إلى قالى قلا (قاليقلا) . وذكر أنه ولد فى مناذجرد (ملاذجرد) بديار بكر التى تقع الآن فى تركيا . انظر معجم البلدان جـ ٧ ص ١٧) . وقد ذكر الأستاذ أحمد أمين أنه رحل إلى الأندلس سنة ٣٣٠هـ (ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٨٣ – ٨٤) . بينما ذكر د. أحمد هيكل أنه رحل إليها سنة ٣٤٠هـ (الأدب الأندلسى ص ١٩٢) . والصحيح أنه رحل إليها سنة ٣٣٠هـ كما ذكر ذلك ابن الفرضى (تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٢٢٣) . والحميدى (جذوة المقتبس ترجمة ٣٠٣) . ولم يذكر لنا د. هيكل المصدر الذى رجع إليه فى ذلك ، ونعتقد أنه ربما يكون خطأ مطبعيا .

(٥١) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٨٣ .

وذكر انه لم يؤلف مثـله ، وقـد ظل فى قرطبة ينشر علمه حتى توفى سنة ٣٥٦هـ(٥٢) .

وقـد برز فى هـذه الفترة ايضـا عدد من الأندلسيين الذين تتلمذوا على يد القالى مثل : ابى بكر الزبيدى الذى اختصر كتاب العين ، والـف كتاب طبقات النحويين واللغويين ، وكتاب لحن العـامة ، وكتاب الأبنيـة فى النحو ، وكتاب الواضح فى العربية . وكان مؤدبا للأمير هشام بن الحكم المستنصر(٥٣) .

ومن الاندلسيين المولدين الذين اشتهروا بالدراسات اللغوية أيضـا ابو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المشهور بابن القوطية (ت ٣٦٧هـ) الذى برع فى الفقه والتاريخ أيضـا . يقول عنه ابن الفرضى « وكان عالما بالنحو ، حافظا للغـة ، متقدما فيها على أهل عصره ، لا يشق غبـاره ، ولا يلحق شأوه ، وله فى هـذا الفن مؤلفات حسان منها كتاب تصـاريف الأفعال ، وكتاب المقصور والممدود ، وغير ذلك ، وكانت كتب اللغـة أكثر ما تقرأ عليـه ، وتؤخذ عنـه »(٥٤) .

ويقول عنـه الحميدى : « كان إماما فى العربية ، وله كتاب الأفعال لم يؤلف مثـله »(٥٥) .

ومن الذين برعوا فى هـذا المجـال ايضـا : صـاعد البغدادى ، الذى وفـد إلى الأندلس أيام المنصور بن أبى عامر سنة ٣٨٠هـ ، فتلقـاه

---

(٥٢) تاريخ علمـاء الأندلس ج ١ ص ٦٩ (٢٢٣) ، جـذوة المقتبس ص ١٦٥ (٣٠٣) .

(٥٣) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٨٩ — ٩٠ ترجمة (١٣٥٧) .

(٥٤) المصدر السابق ج ٢ ص ٧٦ — ٧٧ ترجمة ١٣١٨ .

(٥٥) جذوة المقتبس ص ٧٦ ترجمة (١١١) .

وأكرمه ، متشبها بالناصر فى تلقيــه لأبى على القالى . وكان صاعد عالمـــا باللغة والأدب والأخبار ، سريع البديهــة حسن الشعر ، بارع الارتجال ، محبـــا للتجوز والمزاح حتى اتهم بالكذب . وكان لمحاوراته ومناظراته مــع الكثيرين اثــر كبير فى تنشيط الحركة اللغــوية والأدبيـــة . وله كتـــاب (الفصوص) الذى أملاه فى مسجد مدينة الزهراء التى بناها المنصـــور على غرار الأمالى على القالى ، ويذكر أن المنصور كافأه عليــه بخمسة آلاف دينـــار(٥٦) .

الأدب : ما كاد العرب يضعون أقــدامهم فى الأندلس ، ويستقرون فيها حتى أخــذوا فى نشر لغتهم وأدبهم ، وقــد كان للانشـــغال بالفتح ، وتثبيت أقــدام المسلمين فى البــلاد أثره فى قــلة الأدب شعرا ونثرا فى عصر الولاة(٥٧) . ثم بدأت الأندلس تشهد فى عصر الإمـــارة (١٣٨ — ٣٠٠هـ) أولى الخـــطوات نحـــو أدب أندلسى له ســـماته وخصـــائصه المميـــزة(٥٨) .

فقـــد ظهر أول جيـــل من الأدباء والشـــعراء الذين اهتموا بالبيئة الأندلسية وأحـــداثها . ولم يقتصر الاشتغال بالأدب على طوائف الشـــعب ، بل شـــارك فيـــه بعض الولاة والأمراء ، كما لم يعـــد وقفـــا على الوافدين

---

(٥٦) جذوة المقتبس ص ٢٤٠ ترجمة (٥٠٩) ، بغيـــة الملتمس ص ٣١٩ ترجمة (٨٥٢) ، المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار العرب ص ١٩ وبعدها .

(٥٧) احمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٩٩ — ١٠٠ .

(٥٨) من أهم هـــذه السمات : التجديد فى الموضوعات فالبيئة الأندلسية غير المشرقية ، والتجويد الفنى سواء من ناحية الشكل أو المضمون ، ووضوح العاطفة وصدقها (الأدب الأندلسى ص ٧٨ وبعدها) .

من المشرق فقط ، كما كان الحـال عموما فى عصر الولاة . وبالرغم من أن الشعر الأندلسى فى هـذه الفترة قـد ساعد فى اتجاه المدرسة التقليدية فى المشرق ، إلا أنه وجـدت له سمات أخـذت تشكل أولى ملامحـه منذ نشأته كشعر أندلسى .

ومن أهم شعراء هـذه الفترة : ابو المخشى عاصم بن زيد العبادى الذى يتصل نسبه بالعبـاد نصارى الحيرة ، وكان والده من جنـد الشام الذين قدموا إلى الأندلس ، ونزل كورة إلبيرة ، فنشأ ابنه فى بلدة تسمى (شـوف) ونبـغ فى الشعر حتى صـار ألمـع شعراء هـذه الفترة . وقـد اشتهر بالهجاء المقذع لمخالفيه حتى عير بأصـله النصرانى ، وقـد اختص فى أول أمـره بالأمير سليمان بن عبد الرحمن الداخل ، وأكثر من مدحه ، وامتـد به العمر حتى عهـد عبد الرحمن الأوسط ، وذكر البعض أنه توفى فى عهـد الحكم الربضى .

قال عنـه الرازى مؤرخ الأندلس الأول « كان شـاعر الأندلس فى حينـه ، وهو صاحب المعـانى الحسنة ، والنوادر الكثيرة ، والقـول الغزير » . ولم يصلنا من شعره إلا القليل(٥٩) .

وممن يعدون من شعراء هـذه الفتـرة أيضـا الأمير عبـد الرحمن الداخل ، وكان شاعرا مجيدا وناثرا بليغـا وله أبيـات مشهورة فى وصف نخـلة وهى :

تبدت لنـا وسط الرصافة نخلة

تناءت بأرض الغـرب عن بلد النخل

---

(٥٩) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٥ — ٣٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٢٤ ، د. احمد هيـكل : الأدب الأندلسى ص ٩٠ .

فقلت شبيهى فى التغرب والنوى

وطول التنائى عن بنى وعن اهلى

نشأت بأرض انت فيها غريبـة

فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى

سقتك غوادى المزن فى المنتأى الذى

يسح ويستمرى السماكين بالوبل(٦٠)

ومن مشاهير شعراء هـذه الفترة أيضا : عباس بن ناصح الثقفى ، وكان من أهل الجزيرة الخضراء ورحل مع أبيه إلى مصر والحجاز والعراق ، فنال حظا من العـلم فى الفقه والحديث والأدب ، واتصل بالأمير الحـكم ابن هشام ومدحه ، فاستقضاه على شذونة والجزيرة(٦١) . ويتسم شعره بنزعة بدوية واضـحة ، فيـه الكثير من الخشـونة وقـلة الصـقل ، والسذاجة فى الأفكار والصور والقلق فى الألفـاظ(٦٢) ، ومما يدل على ذلك أنه أنشد بعض الشعراء بقرطبة قصيدة جاء فيها :

تجافى عن الدنيا فما لمعجـز ولا عاجز إلا الذى خط بالقلم

فقال له يحيى الغزال وكان لا يزال شاعرا مبتدئا ولكنـه مطبوع : « أيها الشيخ وما يفعل مفعل مع فاعل . فقال له : كيف تقول أنت قـال اقـول :

تجافى عن الدنيا فليس بعاجز ولا حازم إلا الذى خط بالقلم

فقال : والله يا بنى لقـد طلبها عمك يوما فما وجدها(٦٣) .

---

(٦٠) ابن الابار : الحـلة السيراء جـ ١ ص ٣٧ .

(٦١) انظر ترجمته فى تاريخ علماء الأندلس رقم (٨٨١) .

(٦٢) د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٠٥ .

ومن شعره فى الزهد ايضـــا :

ما خير مدة عيش المـــرء او جعلت
كمدة الدهـــر والأيام تفنيهـــا

فارغب بنفسك ان ترضى بغير رضى
وابتع نجاتك بالدنيـــا وما فيها(٦٤)

ومن شاعرات هـــذه الفترة كذلك (حسانة التميمية) التى تعتبر اولى شواعر الأندلس الحقيقيات ، وكانت من أهل البيرة ، وقـــد ورثت الشعر عن ابيهـــا أبى الحسين . وعندما توفى لجات إلى الحكم الربضى قـــائلة :

إنى إليك أبا العاصى موجعـة
ابا الحسين سقته الواكف الديم

قد كنت ارتع فى نعماه عاكفة
فاليوم آوى إلى نعماك يا حكم

انت الإمام الذى انقاد الأنام له
وملكتـــه مقاليـــد النهـــى الأمـــم

لا شىء أخشى إذا ما كنت لى كنفا
آوى إليه ولا يعرو لى العدم

لا زلت بالعـــزة القعساء مرتديا
حتى تذل إليك العـــرب والعجم

فامر باجراء رزق شهرى عليها ، وكتب إلى عامله على إلبيرة (جابر ابن لبيـــد) أن يجهزها بجهاز حسن ، ولمـــا توفى الحكم لم ينفذ هـــذا

---

(٦٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٤٥ .
(٦٤) بغيـــة الملتمس ص ٢٧٦ .

العامل ما أمره به ، ونالها منــه شيء من الضر فشكت للأمير الجـديد. عبد الرحمن الأوسط بن الحكم بأبيـات شعرية فعزل هـذا العامل وأمر لهـا بصلة فبعثت إليه بأبيـات تشكره فيها ومنها :

قــل للإمام أيا خير الورى نســبا

مقابلا بين آبــاء واجـــداد

جودت طبعى ولم ترض الظلامه لى

فهاك فضل ثناء رائع غــادى

فإن اقمـت ففى نعمـاك عاكفــة

وإن رحلت فقد زودتنى زادى(٦٥)

وقد حدثت تغيرات كبيرة فى المجتمع الأندلسى من الناحية الاجتماعية منذ عهد عبد الرحمن الأوسط ، حيث شــاع البذخ والترف ، وازدهر فن الغنــاء على يد زرياب مما أدى إلى التجديد فى الأدب ، والاهتمام بأغراض وموضوعات لم تكن شائعة من قبل كأشعار اللهو والمجون والخمر والتغزل بالمذكر .

ومن أشهر شعراء التجديد (يحيى الغزال) الذى أكثر من القــول فى الخمريات مثل قوله :

ولمــا رايت الشرب اكدت سماؤهم

تأبطت زقــى واحتسبت غنــائى

فلما أتيــت الحــان ناديت ربــه

فهب خفيف الروح نحو ندائى(٦٦)

---

(٦٥) نفح الطيب ج ٢ ص ٤٢٨ — ٤٢٩ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ١٢٢ — ١٢٣ .

(٦٦) ابن دحية : المطرب فى أشعار أهل المغرب ص ١٤٨ .

والمطرف بن عبد الرحمن الأوسط الذى يقول :

أفنيت عمرى فى الشر ... ب والوجوه الملاح
ولم أضيع أصيلا ... ولا اطلاع الصباح
أحيى الليالى سهدا ... فى نشوة ومراح
ولست أسمع ماذا ... يقول داعى الفلاح(٦٧)

ومثل الشاعر مؤمن الذى يتغزل فى فتى يلقب بابن القط فيقول :

قولا لمنصور أبا نصر ... بحرمة المضراب والنقر
الا حكمت اليوم لابن الذى ... لقب بالقط على البدر
لا والذى طافت قريش له ... بالبيت فى أيامه العشر
كأن هاروت نعى طرقه ... إذا رنا ينفث بالسحر(٦٨)

كما ظهرت أيضا بواكير شعر الطبيعة ، وكثرت أشعار الزهد كرد فعل لهذا التيار الذى بدأ ينتشر فى المجتمع كقول الأمير عبد الله وهى من الأبيات الرائعة :

ولعل المقصود بمنصور (منصور اليهودى) المغنى المشهور فى عهد الحكم بن هشام .

يا من يراوغه الأجل ... حتام يلهيك الأمل
حتام لا تخشى الردى ... وكأنه بك قد نزل
أغفلت عن طلب النجا ... ة ولا نجاة لمن غفل
هيهات تشغلك المنى ... ولما يدوم لك الشغل
فكأن يومك لم يكن ... وكأن نعيك لم يزل(٦٩)

---

(٦٧) نفح الطيب جـ ٢ ص ٣٢٩ .
(٦٨) ابن حيان : المقتبس ص ١٣٨ تحقيق ملشور انطونية .
(٦٩) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣٢ ، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ١٥٣ .

كما ظهر فى أواخر هـذه الفترة (إمارة الأمير عبد الله بن محمد ٢٧٥ — ٣٠٠هـ) شعر الموشحات حيث كان الغناء الموسيقى قد ازدهر ، وكثر الاختلاط بين العرب والإسبان فنشأت الموشحات استجابة لحاجة فنية من ناحية ، ونتيجة لظاهرة اجتماعية من ناحية أخرى . وتعتبر الصورة الأدبية المعبرة عن تبلور الشخصية الأندلسية فى ميدان الأدب . وهى التى منحته تميزا خاصا عن الشعر المشرقى(٧٠) .

أما فى فترة الخلافة فقد نهض الأدب نهضة عظيمة ساعد عليها ما كان من توحد الأندلس سياسيا بالقضاء على الفتن والثورات ، ورقيها اجتماعيا ، ونهوضها ثقافيا . فبدأ ظهور بعض الاتجاهات الجديدة فى الشعر والنثر ، بالإضافة إلى تطور الاتجاهات التقليدية ، ووفرة الانتاج الأدبى وخصوبته ، نظرا لكثرة الادباء والشعراء ، والتشجيع الذى لقيه الكثيرون منهم . ، وشيوع الأدب شيوعا يكاد يكون عاما بين الأندلسيين . حتى أنه كان فى بعض الأحيان يؤدى وظيفة الرسائل أو البطاقات ، واحيانا يحل محل لغة الجدل والمناظرات(٧١) ، ووصل الأمر ببعضهم إلى أن جعلوه على ألسنة الطيور . ولعل فى قصة زوجة الخليفة عبد الرحمن الناصر ما يدل على ذلك . حيث يروى أنها احضرت زرزورا وعلمته أبياتا من

---

(٧٠) عن الموشحات انظر : د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٤٥ — ١٥٤ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٣٧١ وبعدها ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٧٠ — ٧١ ، د. محمد عنانى : الموشحات الأندلسية سلسلة عالم المعرفة رقم ٣١ سنة ١٩٨٠ م الكويت .

(٧١) د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٢٣٠ .

الشعر ، وعندما قعد الناصر فى بهو قصره بمدينة الزهراء للفصد ، وبدأ الطبيب فى ذلك اطل الزرزور ووقف على إناء من الذهب كان بالمجلس وأخذ يردد :

ايها الفاصد رفقا   بامير المؤمنينا

إنما تفصد عرقا   فيه محيا العالمينا

فاعجب الناصر بذلك كثيرا ، ولما سأل عن ذلك اخبر بان إحدى زوجاته وهم أم ولده المستنصر ، قد ربت هذا الطائر ، وحفظته هذه الأبيات ليقولها بهذه المناسبة(٧٢) .

وإذا كان البعض يرى فى هذه الحكاية شيئا من المبالغة أو الاختراع ، فإنها مع ذلك تدل على مدى شيوع الشعر فى هذه الفترة بين الأندلسيين .

وقد صور الشعر الأندلسى فى هذه الفترة شتى جوانب الحياة الأندلسية ، وشاع بين الأندلسيين شيوعا جعله يتغلغل فى حياتهم اليومية حتى أصبح ظاهرة أساسية من ظواهر البيئة(٧٣) .

اما عن شعراء هذه الفترة فهم كثيرون منهم الخلفاء كالناصر والمستنصر ، ومنهم الوزراء كابن جهور وابن شهيد ، ومنهم العلماء كالزبيدى ، ومنهم القضاة كمنذر بن سعيد البلوطى ، ومنهم الأدباء كابن عبد ربه وابن هانىء الأندلسى ، وابن دراج القسطلى (متنبى المغرب)(٧٤) .

---

(٧٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٨ .

(٧٣) د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٢٣٠ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٢٣ .

(٧٤) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ١١٣ وبعدها ، د. احمد هيكل ص ٢٣٢ وبعدها .

وفى هـذه الفترة تطور النثر أيضا فظهر نوع جـديد وهـو النثر التأليفى الذى يختلف عن النثر الأدبى . وقـد تأثر النثر الأدبى فى هـذه الفترة بمذهب الجاحظ فى المنهجيـة ، والعنـاية بالبـداية والموضـوع والخاتمة ، وانعكست عليـه الفخامة والجزالة فى الألفـاظ ، والعبارات الاعتراضية ، والميـل للتكرار والتطويل ، والبحث والتعمق فى الجزئيات والتفاصيل كأثر لفخامة الأندلس ، وعظمة حضارتها فى عصر الخلافة(٧٥) .

كما لقيت الكتابة الرسمية عنـاية كبيرة ، حيث وجدت طائفة من الأدباء المقتدرين الذين وصل بعضهم إلى مرتبة الوزارة والحجابة ، كابن فطيس وابن بدر وابن بسيل وابن جهور وابن أبى عامر وجعفر المصحفى وغيرهم(٧٦) .

ولم يقتصر الأمر على الرجـال بل كانت هنـاك كاتبات من النساء كمزنة كاتبـة الخليفـة الناصر (ت ٣٥٨هـ) ولبنى كاتبـة الخليفـة المستنصر (ت ٣٧٤هـ) (٧٧) .

أما النثر التأليفى خـلال فترة الخلافـة فقـد تمثل فى فرعـين : التاريخ الأدبى وهو مزيج من التراجم والأخبار والمختارات والحـديث عن الشعر والشعراء . ومثال ذلك ما ألفـه عثمان بن ربيعة القرطبى بعنوان (طبقـات الشـعراء بالأندلس) ، وما ألفـه محمد بن هشام المروانى بعنوان (أخبار الشعراء بالأندلس)(٧٨) ، وما ألفه أحمد بن فرج الجيانى

---

(٧٥) د. أحمد هيكل : المرجع السابق ص ٢٥٨ .

(٧٦) انظر ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣٤ وبعدها .

(٧٧) انظر الضبى : بغية الملتمس ص ٥٤٦ ترجمة رقم ١٥٩٢ ، ١٥٩٣ .

(٧٨) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٢٨٥ ، د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٢٦٦ .

بعنوان (الحـــدائق) الذى عارض به كتاب الزهرة لابن داود الأصفهانى ، وقدمه للحكم المستنصر . وضمنه كثيرا من أخبار الشعراء الأندلسيين حتى القرن الرابع الهجرى(٧٩) .

ورغم تأثر الكتابة الأندلسية بأسلوب المشارقة فى هـــذا النوع ، إلا أنه كانت هناك محاولات من الكتاب الأندلسيين للتفوق عليهم بدافع الروح القومية ، التى كانت تدعوهم لتأكيد ذاتهم ، وإبراز جهودهم .

أما النوع الثانى : وهو التأليف الأدبى ويعنى به تأليـــف كتب أدب بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة ، والمتمثل فى كل ما يكون به التأديب والتهذيب ، فمن أشهر كتبه كتاب (العقـــد الفريد) لابن عبد ربه الذى يجمع أطرافا كثيرة من التاريخ والأخبار والشعر والنثر والأخـــلاق والعـــادات وغير ذلك مما حـــواه(٨٠) .

وفى فترة الحجابة ظل الأدب سائرا بقوة الدفع فى الفترة السابقة ، ولم يحدث فيـــه تطور عما كان عليـــه فى فترة الخـــلافة ، بل أخـــذت بعض الأنواع تختفى مثل الشعر العلمى والفلسفى الذى كان قـــد بدأ فى الظهور والنمو فى عهـــد المستنصر ، ثم بدأ فى الاختفاء فى عهد المنصور من أبى عامر بسبب التضييق على الفلسفة ، ومطاردة المشتغلين بهـــا ، ونشطت أغراض أخرى كالخمريات وشعر اللهو والمجون ، نتيجة لاشتداد تيـــار الترف ، والإقبال على المتـــع الحسية ، بالإضافة إلى شعر المدح والوصف والاستعطاف ، كنتيجة للحكم الاستبدادى من المنصور .

---

(٧٩) بغيـــة الملتمس ص ١٥١ ترجمة ٣٣١ ، جـــذوة المقتبس ص ١٠٤ — ١٠٥ ترجمة ١٧٦ .

(٨٠) د. هيـــكل : الأدب الأندلسى ص ٢٦٧ — ٢٦٨ ، د. إحســـان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٦٣ .

ومن مشاهير شعراء هـذه الفترة عبد الملك بن شهيد الذى اشتهر بشعر اللهو . ومن أبياته فيه :

انا شيخ والشيخ يهوى الصبايا
ما بنفسى اقيك كل الرزايا
ورسول الإله اسهم فى الفىء
لمن لم يخب فيه المطايا(٨١)

وقوله :

ولرب حان قد شممت بديره
خمر الصبا مزجت بصرف عصيره
فى فتية جعلوا السرور شعارهم
متصاغرين تخشعا لكبيره
والقس مما شاء طول مقامنا
يدعو بعود حولنا بزبوره
يهدى لنا بالراح كل مصفر
كالخشف جمله التماح خفيره
يتناول الظرفاء فيه وشربهم
لسلافه والاكل من خنزيرة(٨٢)

وكذلك ابن دراج القسطلى الذى اشتهر بمدائحه للمنصور . قال عنه ابن حيان : « القسطلى سباق فى حلبة الشعراء العامريين ، وخاتمة محسنى اهل الأندلس اجمعين » .

وقال عنه الحميدى : « وهو معدود فى جملة العلماء ، والمقدمين من

---

(٨١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٧ ، ٢٧٤ .
(٨٢) نفح الطب جـ ١ ص ٢٤٥ — ٢٤٦ .

السفراء والمذكورين من البلغاء ، وشعره كثير مجموع يدل على علمه وله طريقـــة فى البلاغة والرسائل تدل على اتساعه وقوته »(٨٣) .

وقال عنـــه ابن حزم : لو قلت إنه لم يكن بصقع الأندلس أشـــعر من ابن دراج لم أبعـــد(٨٤) .

وكذلك الرمادى يوسف بن هارون الكندى الذى اشتهر بوقة شعره وكان جريئـــا مستهترا فيـــه ، وله شـعر يدافع فيـــه عن الخمر حين أراد الحـــكم المستنصر أن يقطع أشجار الكروم . وكان فيـــه ميل إلى التشيع . قال عنـــه الفتح خاقان : إنه شاعر مغلق ، انفرج له من الصناعة المغلق ، ومضى له بريقهـــا المؤتلق ، وسال بهـــا طبعه كالمـــاء المتدفق ، فأجمع على تفضيله المختلف والمتفق .

وكان شيوخ الأندلس يقولون (فتح الشعر بكندة ، وختم بكندة) يعنون إمرأ القيس والمتنبى والرمادى(٨٥) . وقد كثر شعراء هذه الفترة لدرجـــة أنه ذكر أن المنصـــور صـــحب معـــه فى إحـــدى غزواته أربعين شـــاعرا من طبقات مختلفة(٨٦) .

أما عن النثر فى هـــذه الفترة : فقد ازدهر النثر الأدبى الخالص حيث وجـــد ديوان للكتاب يحررون فيـــه الرسائل والمنشورات ، ويصـــفون

---

(٨٣) انظر عنه : جذوة المقتبس ترجمة ١٨٦ ، بغيـــة الملتمس ترجمـــة ٣٤٢ .

(٨٤) جمهرة أنساب العرب ص ٤٦٦ ــ ٤٦٧ .

(٨٥) كان يلقب بأبى جنيس وهى كلمة رومانية صـــارت فى الأسبانية Cenisa ومعناها رماد فعرف بالرمادى (انظر : احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٣٠٣ ، دائرة معارف الشعب ٦٤ ص ٢٠٠) .

(٨٦) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٦٦ ، د. خالد الصوفى : عصر المنصور الأندلسى ص ٢٥٦ .

المعــارك والغزوات التى يقوم بهــا المنصور . كما برز النثر الوصــفى أيضا . وقــد تأثر النثر عموما فى هــذه الفترة بطريقة ابن العميد فى الميــل إلى الاطناب ، والاعتماد على المحسنات البديعــة بكثرة . ومن كتاب هــذه الفترة أبو مروان الجزيرى ، وابن دراج القسطلى ، والمنصــور ابن أبى عامر أيضــا .

وفى الفترة التى سبقت سقوط الخــلافة والمسماة بالفتنة البربرية تأثر الأدب تأثرا واضــحا بأحداثها فانتشر أدب التلهى والنفاق والتفاهة ، أو أدب الفتن والحروب بمعنى أشمل . كما ظهر أدب التــأمل والتــذكر والمراجعة . وكان الشعر مجال النوع الأول ، والنثر مجال النوع الثانى بصفة عامة . ومن هنا خطا النثر خطوات واســعة حتى سبق الشــعر الذى ضــاقت أغراضــه ، وقل إنتاجه لهجرة الكثيرين من الشعراء من أتون الفتنــة فهو ما بين مرح كاذب أو لهو ومجون ، أو بكاء لفقد الأهــل والأحباب أو وصف لأشــياء تافهــة مثل وصــف أبى عــامر بن شــهيد للبرغوث(٨٧) .

وأهم ما يلاحظ على الشعر فى هــذه الفترة كثرة مزجه بالنثر فالكثير منــه لم يكن على شــكل قصائد مستقلة ، وإنما كأجزاء من رسائل أو كتب أو رقاع تحرر لغرض ما ، حيث كان الكثير من الأدباء يجمعون بين الشعر والنثر(٨٨) .



---

(٨٧) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٢٩٠ — ٣٩٢ .
(٨٨) د. أحمد هيكل : المرجع السابق ص ٣٩٣ .

ثانيا ــ العلوم العقلية

الترجمة : لم تصل الترجمة فى الأندلس إلى ما وصلت إليه فى بغداد فى عصر المنصور والرشيد والمأمون كما يبدو ، حيث لم تشر المصادر إلى كثير من الكتب التى ترجمت فى الأندلس ، ويبدو أن ذلك راجع إلى أنه كان بالإمكان جلب نسخ من الكتب المترجمة من المشرق إلى الأندلس دون بذل جهد فى ترجمتها من جديد . وعلى ذلك فإننا نعتقد أنه قد جلبت كتب كثيرة مترجمة من المشرق وخاصة فى عهد الخليفة الحكم المستنصر .

وقد ذكرت لنا المصادر كتابين من الكتب التى تمت ترجمتها فى الأندلس وهما : كتاب ديسقوريدس (الأدوية المفردة) والمعروف بكتاب الحشائش ، وكان باليونانية(١) ، وكتاب أورسيوس (هروسيس أو هروشيش فى المصادر العربية) . ويسمى (التواريخ السبعة فى الرد على الوثنيين) وهو باللاتينية(٢) .

---

(١) ديستوريدس : طبيب وعشاب يونانى ، ولد فى بلدة عين زربة قرب طرسوس جنوب آسيا الصغرى ، ولهذا سمى فى المصادر الأوربية Discorides- Ain zarbio اى (ديستقوريدس العين زربى) . وقد عاش فى القرن الأول الميلادى ، واشتهر بكتاباته عن مركبات الأدوية من الأعشاب ، وقد ظل كتابه (الأدوية المفردة) أعظم مرشد لخواص الأعشاب الطبية ، ومازالت له قيمة علمية بالرغم من التقدم الطبى حتى الوقت الحاضر (انظر : عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، العصر الأول ــ القسم الثانى ص ١٠٨ هامش ٢١ مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٣٤) .

(٢) باولوس أورسيوس : راهب ومؤرخ رومانى الأصل ، اسبانى المولد والنشأة ، عاش فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن =

وهــذان الكتابان كان قد أرسل بهما الامبراطور البيزنطى قسطنطين السابع إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر مع السفارة التى بعث بهــا إليــه ســنة ٣٣٨هـ(٣) .

=

الخامس الميــلادى ، ووضع هــذا الكتاب الذى أرخ فيــه للعــالم القــديم منــذ بدء الخليفة حتى عصره (٤١٦م) . وهــذا الكتاب كما يقول د. حسين مؤنس : ذيل على كتاب (مدينة الله) لأستاذه القديس أوغسطين ، وخاصة الجــزء الثالث منــه المتعلق بتــاريخ العــالم القــديم . وقــد لقى كتاب أورسيوس إقبالا شديدا من معاصريه ، واعتمد عليــه الكثيرون من بعــد ، ومنهم بعــض المؤرخين المسلمين كالرازى وابن خلدون وغيرهما فى التاريخ للأمم التى حكمت أسبانيا قبل الفتح الإسلامى . (عنان : المرجــع السابق ص ١٠٨ هامش ٢ ، المختار من عالم الفكر ص ١٠٨) .

(٣) اختلف فى تاريخ هــذه السفارة فذكر البعض أنها كانت فى ســنة ٣٣٤هـ ، وذكر البعض أنها حدثت ســنة ٣٣٦هـ ، وذكر البعض أنها وقعت ســنة ٣٣٧هـ ، بينما ذهب الكثيرون إلى أنها كانت ســنة ٣٣٨هـ . كما اختلف فيمن أرسلها فذكر البعض أنه قسطنطين ، وذكر البعض انه ابنه رومانوس الذى تولى بعــده ، ولعل مرجع هــذا يعود إلى الاختلاف فى تحــديد تاريخها ، وإن كان الراجح انهــا كانت ســنة ٣٣٨هـ فى عهــد قسطنطين . وربما كان الامبراطور هو الذى أرسل الســفارة وبعث ابنــه بالكتابين معها ، وربمــا يكون الامبراطور قــد أرســل السفارة باسمه واسم ابنــه الذى كان بعــده للحكم بدليل أن الخطاب الذى أرســله للخليفة يبــدأ

=

وكان الكتاب الاول قد ترجم فى بغداد فى عهد الخليفة المتوكل العباس (٢٣٢ — ٢٤٧هـ) على يد (آصف أو اسطفن بن باسيل) من اليونانية إلى العربية ، وقام بمراجعة الترجمة (حنين بن إسحاق) . وقد وضع إسطفن اسماء عربية للنباتات فى مقابلة الكلمات اليونانية ، غير ان بعض الأسماء ظلت على صورتها اليونانية لعدم معرفته بها ، وهنا جاء دور الأندلس لتكملة ذلك ، فيذكر المؤرخون ان الناصر لما وصلته نسخة من هذا الكتاب كلف طبيبه الخاص (حسداى بن شروط) ، وحمد النباتى ، وعبد الرحمن ابن الهيثم ، وأبو عبد الله الصقلى وكان له إلمام بالعقاقير والنباتات بالنظر فيه وترجمته ، غير انه لم يكن لديهم إلمام باليونانية فأرسل إلى الإمبراطور يطلب منه إرسال مترجم له ، فأرسل إليه الراهب نيقولا ، الذى كان يجيد اليونانية واللاتينية سنة ٣٤٠هـ ، ففسر اسماء العقاقير

=

بقوله « من قسطنطين ورومانين المؤمنين بالمسيح الملكين العظيمين ملكى الروم » . (انظر : نفح الطيب جـ ١ ص ١٧١ — ١٧٢) ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٤٢ ، ابن جلجل : طبقات الأطباء جـ ٢ ص ٤٤٧ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣٩ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس القسم الثانى ص ١٠٧ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣١٥ — ٣١٦ ، قرطبة حاضرة الخلافة الأموية فى الأندلس ص ٦٧ ، د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٩٩ ، احمد امين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٣٣) .

المجهولة ، وتتلمذ على يديه كثير من المهتمين بدراسة الطب والأعشاب(٤).

وقد كان لذلك أثره فى إقبال الكثير من الأندلسيين على دراسة الطب والعقاقر متخذين من هذا الكتاب مصدرا رئيسيا لهم .

وأما الكتاب الثانى فيذكر أنه قام بترجمته للحكم المستنصر قبل الخلافة ، ويبدو انه أخذه من والده الناصر — قاضى النصارى بقرطبة وليد بن حيزون(٥) الذى قام بدور المترجم للملك أردون الرابع ملك ليون عندما قدم لزيارة المستنصر سنة ٣٥١هـ ، وشاركه فى هذه الترجمة قاسم بن أصبغ البيانى — نسبة إلى بيانة — المتوفى سنة ٣٤٠هـ(٦) .

---

(٤) يذكر أن الامبراطور قال للخليفة : إن كتاب ديسقوريدس لا تجتنى فائدته إلا برجل يحسن اللسان اليونانى ، ويعرف أشخاص تلك الأدوية ، وأما كتاب هروسيس فعندك فى بلدك من اللطينيين (اللاتينيين) من يقرؤه باللسان اللطينى ، وإن كاشفتهم عنه نقلوه من اللطينى إلى اللسان العربى . (أحمد أمين : ظهر الإسلام ص ٢٣٤ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٧ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ١٠٩) .

(٥) انظر : المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٢ — ١٨٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣١٥ . وقد ذكره البعض باسم الوليد بن الخيزران المعروف بابن مغيث ، ولعله خطأ فى الطبع (انظر : د. عبد الواحد ذنون : نشأة تدوين التاريخ العربى ص ٢٤ ، المختار من عالم الفكر ص ١٠٩) .

(٦) الحميدى : جذوة المقتبس ص ٣١٢ . ويستبعد د. إحسان عباس أن يكون قاسم قد شارك فى ترجمة هذا الكتاب حيث توفى سنة

=

وقد استفاد المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون من هـذه الترجمة من أحمد بن محمد الرازى (٣٤٤هـ) إلى ابن خلدون (٨٠٨هـ) . ومنهم من نقل من هـذا الكتاب ونص على ذلك صراحة(٧) .

وليس ببعيد أن تكون هنـاك كتب أخرى قـد ترجمت عن اليونانية واللاتينية وغيرها إلى العربية فى الأندلس ، بالرغم من عـدم إشـارة المصادر إلى ذلك كثيرا ، حيث نهضت الحركة العلمية ، ووجدت التشجيع الكافى ، وتوافرت كافة الإمكانات التى تساعد على الترجمة(٨) .

=

٣٤٠هـ ، ولكنه استدرك فقال : إلا أن تكون ترجمته كتاب هروسيس قـد تمت قبـل مجـىء نقولا الراهب . (انظـر : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٧ هامش ٢) .

ولا يستبعد أن يكون قاسم قـد شارك فى ترجمة هـذا الكتاب حيث كان متصلا بالمستنصر قبل خلافته ، واختصر له كتاب السـنن لأبى داود ، وسماه (المجتنى) سـنة ٣٢٤هـ . وكان يجيد اللغـة اللاتينية (اللطينية) كما يتضح من قـول آلابيراطور لعبد الرحمن الناصر . (انظر : المقرى جـ ٢ ص ٢٥٤ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣١٥ هامش ١) . وتوجد نسخة من الترجمة العربية لهذا الكتاب فى مكتبة جامعة كولومبيا بنيويورك. وقد أضيف إليها تكملة لتاريخ القوط حتى دخـول طارق بن زيـاد أسبانيا . وهـذه الإضافات فى أغلب الظن نقلت عن مؤرخـين لاتينيين ، وتقع هـذه النسخة تحت رقم x 893712 H . (نشأة تدوين التاريخ العربى ص ٢٤) .

(٧) د. عبد الواحـد ذنون : نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس ص ٢٤ ، مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٠٩ .

(٨)

الفلسفة : يظهر ان نشأة الفلسفة فى الاندلس كانت كنشأتها فى المشرق فقد نشأت فى المشرق من الاشتغال بالطب والتنجيم لعناية الكثير من الخلفاء بهما . وكان بعضهم يؤمن بالتنجيم ليس اعتقادا فيه ، وإنما رغبة فى حب الاستطلاع ، واستشراف المستقبل ، والتطلع إلى معرفة ما سيجرى .

وكذلك كان الشأن فى الأندلس حيث احتاج الأمويين إلى الأطباء وكان بعضهم يؤمن بالتنجيم ، والاشتغال بالطب والنجوم يسلم إلى الفلسفة ، ولذلك نرى ان الفلاسفة الأندلسيين الأوائل كانوا من الأطباء مثل الكرمانى ، وابو جعفر بن خميس ، وحمدين بن ابان ، أو من المنجمين مثل ابن السمينة ، ومسلمة بن احمد المجريطى ، وابو القاسم الزهراوى وغيرهم(٩) .

وقد ساعد على ظهور الفلسفة ونموها بالاندلس عدة عوامل منها :

١ – رحيل بعض الأطباء من المشرق إلى الأندلس مثل اسحاق ابن عمران الذى كان طبيبا مشهورا فى بغداد .

٢ – اهتمام بعض الخلفاء الأمويين بالكتب العلمية والفلسفية مثل الحكم المستنصر ، وجلبها إلى الأندلس وترجمتها ، فيذكر ابن أبى أصيبعة ان الكرمانى رحل إلى المشرق وجلب معه عند عودته رسائل اخوان الصفا(١٠) .

٣ – التبادل الثقافى بين الأندلس وبعض البلاد الأجنبية مثل الدولة البيزنطية مما أدى إلى إهداء بعض الكتب للخلفاء الأمويين وترجمتها .

---

(٩) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٣٢ .

(١٠) ابن أبى اصيبعة : طبقات الأطباء جـ ٢ ص ٤٧ .

وقد ادت هــذه العوامل وغيرها إلى وجود مجموعة من المشتغلين بالطب والتنجيم أولا ، وبالفلسفة ثانيــا .

والحقيقة انه رغم ذلك فإن غالبية الاندلسيين لم يتلقوا الفلســفة بالقبول الذى تلقوا به الطب وغيره من العــلوم العملية ، حيث كان جــل إهتمامهم موجها إلى العــلوم الدينية والعربية ، ولذلك لم يكن للفلسفة حظ كبير من الاهتمام فى العصر الأموى ، وكان المشتغلون بهــا موضــع نفور واضطهاد ، ورمى بالكفر والإلحاد والزندقة .

يقول ابن سعيد المغربى « وكل العــلوم لها عندهم حــظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم ، ومن يشتغل بهما يجتهد فى إخفاء ذلك حتى لا يطلق عليه لقب زنديق من العــامة ويقتل ، او يحرق هو وكتبه »(١١) . كمــا فعل المنصور بن أبى عامر تقربا إلى العــامة والفقهاء .

وقد اخــذ الطب والتنجيم يتبلوران إلى فلسفة بعــد سنين ، حتى راينا فلاسفة حقيقيين كان لهم دورهم وأثرهم فى هــذا المجال . كابن باجة وابن رشــد وابن طفيل وغيرهم .

ويصف ابن طفيل (ت ٥٨١هـ) حال الفلسفة فى الأندلس فيقول « إن هــذا العلم أندر من الكبريت الأحمر ، لاسيما فى هــذا الصــقع الذى نحن فيــه ، لأنه من الغرابة فى حــد لا يظفر باليسير منه إلا الفرد بعــد الفرد ، ومن ظفر منــه بشىء لم يكلم الناس إلا رمزا »(١٢) .

ويظهر ان الاشتغال بالفلسفة فى الأندلس كان على نوعين : نوع يميل إلى التصوف منه إلى الفلسفة البحتة . واتباع هــذا النوع قد ساروا على طريقة افلوطين ، وكان من أوائلهم ابن مسرة وابن سعيد ، وهــذه

---

(١١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٢ .

(١٢) احمد أمين : ظهر الإسلام ص ٢٣٥ .

المدرسة تعتمد على الذوق والكشف والمراقبة اكثر مما تعتمد على العقل والمنطق والقياس . والنوع الثانى : يعتمد على الفلسفة الصرفة على النحو الذى سار عليه أرسطو . ومن اتباع هذا النوع : أبو بكر بن الصائغ المشهور بابن باجة (ت ٥٤٤هـ) ، وابن طفيل (ت ٥٨١هـ) ، وابن رشد (ت ٥٩٤هـ)(١٣) .

ومن أوائل من نسبوا إلى الفلسفة فى العصر الأموى ابن مسرة محمد ابن عبد الله (ت ٣١٩هـ) ، وقد اعتنق والده مذهب المعتزلة ، وكان هذا المذهب غير مرغوب فيه بالأندلس ، فاضطر إلى إخفائه ، ولقنه لابنه ، ومعروف أن هذا المذهب يعتمد على العقل كثيرا ، ويتسلح أصحابه بالمنطق والفلسفة .

ولذلك نشأ محمد معتزليا محبا للحكمة والدراسات العقلية ، فنبغ فيها وهو ابن سبعة عشر عاما ، ورحل إلى المشرق سنة ٢٩٨هـ ، ولقى اهل الجدل وأصحاب الكلام ، ثم عاد فاظهر الورع والتنسك ، واصبح له تلاميذ يلقنهم مذهبه الذى يجمع بين التصوف والاعتزال ، واتخذ خلوة له فى جبل قرطبة حتى سمى بالجبلى(١٤) .

وقد أثار ذلك العامة والفقهاء بعد اكتشاف أمره ، فاشاعوا عنه أنه زندبق مما اضطره إلى مغادرة الأندلس فى آخر عهد الأمير عبد الله،ثم عاد فى عهد الناسر،فواصل الدعوة لمذهبه،وانضم إليه الكثيرون لمظهره الورع الزاهد ، والف كتبا منها كتاب التبصرة وكتاب الحروف لم يصلنا أى منهما . ويذكر ان الخليفة الناصر قد أمر بإحراق كتبه خارج

---

(١٣) احمد امين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٣٥ .

(١٤) تاريخ علماء الأندلس جـ ٢ ص ٢٩ ترجمة ١٢٠٤ ، الحميدى : جذوة المقتبس ترجمة ٨٣ .

جامع قرطبة ، لأنها كانت تتضمن إشارات غامضة وعبارات عن منـــازل الملحدين غير داحضة(١٥) . ويبـــدو أنه كان يلقن تلاميـــذه نوعا من الاعتزال والفلسفة تحت ستار الزهـــد والتصوف ، أو يروج لتعاليم مذهبه تحت ستار إسلامى من آراء المعتزلة والباطنية(١٦) .

ثم بدأت الفلسفة تأخذ مكانها مرة أخرى فى عهد الحكم المستنصر فى ظل التسامح الذى أشاعه ، واهتمامه بالعلوم على شتى أنواعها ، فعادت مدرسة ابن مسرة من جديد ، وأخذت آراؤه تظهر مرة أخرى ، وتجـــد طريقها إلى الآخرين .

ومن أشهر من اشتغل بالفلسفة فى عهد المستنصر ملحان « الذى كان ذا نظر فى حـــد المنطق ، كثير المطالعة لكتب الفلسفة »(١٧) .

وإدريس بن متيم « الذى كان بصيرا بحد المنطق ، كثير المطـــالعة لكتب الأوائل حاذقا بعلم الحساب والتنجيم »(١٨) ، ومحمد بن يحـــيى الرباحى « الذى طالع كتب أهل الكلام ، ونظر فى المنطقيـــات فأحكمها ، إلا أنه كان لا يتقـــلد مذهبا من مذاهب المتكلمين ، ولا يقـــود أصـــلا من أصولهم ، وإنمـــا كان يقول على ما يبذل إلـــه فى الوقـــت ، ويؤثره فى الحضرة »(١٩) .

---

(١٥) د. السـيد سـالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ج ١ ص ٣١٢ ، دائرة معارف الشعب ٦٤ ص ١٩٧ .

(١٦) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٢٦ ، وإحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٤ .

(١٧) الزبيدى : طبقات اللغويين والنحويين ص ٣٢٧ .

(١٨) المرجع السابق ص ٣٣٢ .

(١٩) المرجع السابق ص ٣٣٦ .

وممن عرف بدراسة المنطـق والفلسـفة أيضـا فى هـذه الفترة ابن حفصون ، ومحمد بن عبدون الجبلى الذى درس على سليمان المنطقى ببغـداد(٢٠) . ومحمد بن اسماعيل الملقب بالحكيم الذى اهتم بالمنطق والحساب أيضـا(٢١) .

ويبدو أن هؤلاء قـد اكتفوا بمجرد الاطلاع والنظر فى كتب الفلسفة ، حيث لم يؤلفوا كتبا ، على عكس الحـال فى علوم الطب والهندسة والفلك والحساب . غير أن الفلسفة ما لبثت أن انتكست مرة أخرى فى عهـد المنصور بن أبى عامر نتيجة لضـغوط الفقهاء والعـامة حيث اضـطهد الفلاسفة ، وأحرق كتبهم تقربا للعـامة وترضـية للفقهاء ، رغم ميـله إليها فى الباطن كما ذكر(٢٢) .

وقـد لقيت الفلسفة بعـد ذلك — وخاصة فى القرن السـادس الهجرى — اهتماما كبيرا فظهر فلاسفة حقيقيون من أمثـال ابن باجـة وابن طفيل وابن رشـد كانت لهم آراؤهم الفلسفية التى أحدثت دويا فى العـالمين الاسـلامى والمسيحى .

فيذكر ابن حـزم (ت ٤٥٦هـ) أنه رأى من كتب الفلسفة « رسائل مجموعة وعيونا مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطى دالة على تمكنه من هـذه الصناعة ، ورسائل لأبى عبد الله المذحجى أيضا ويعرف بابن الكتانى

---

(٢٠) طبقات الأطباء جـ ٢ ص ٤٦ .

(٢١) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٢ — ٤٣ .

(٢٢) المقرى : نفـح الطيب جـ ١ ص ٢٢١ ، صـاعد : طبقـات الأمم ص ٦٦ .
د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٣ ص ٣٤٠ ، د. خـالد الصوفى : المنصور الأندلسى ص ١٩٩ ، ٢٥٦ .

وكان متقدما فى علوم الطب والمنطق(٢٣) .

يقول الضبى عن السرقسطى « له أدب وعلم وتصرف فى حدود المنطق يعرف بالحمار وهو مشهور ذكره أبو محمد على بن أحمد (ابن حزم) »(٢٤).

وذكر الحميدى أن ابن حزم نقل من شعره فى ذم الناس للمنطق :

ظلموا ذا الكتاب إذ وصفوه
بالذى ليس فيه إذ جهلوه
لو دروا حقه لما أنكروه
أو دروا فضله إذن فضلوه
كذبوا والله لو عرفوه
لنفوا عنه كل ما نحلوه(٢٥)

الطب : كان من مظاهر تقدم الثقافة الأندلسية فى فترة الإمارة ظهور أوائل المشتغلين بالطب فى الأندلس ، مثل أحمد بن إياس القرطبى ، الذى يعد أول من اشتهر بالطب فى الأندلس ، وذلك فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط . ونبغ بعده جماعة منهم يحيى بن اسحاق طبيب الأمير عبد الله بن محمد ، والذى أصبح وزيرا للناصر فيما بعد ، وله مؤلفات فى الطب .

ثم أخذ الطب يزدهر فى فترة الخلافة ، واشتهر به كثيرون وخاصة فى عهد الناصر والمستنصر ، مثل سعيد بن عبد ربه الذى كانت

---

(٢٣) بغية الملتمس ص ٦٧ ترجمة رقم ٨١ .

(٢٤) بغيــة الملتمس ص ٣١١ ترجمة ٨١٣ .

(٢٥) جذوة المقتبس ص ٢٢٣ ترجمة ٤٧٨ .

له طريقة خاصة فى علاج الحميات . وأحمد بن يونس واخوه عمر الذين اشتهرا بالمهارة فى تحضير الأدوية ، وعلاج كثير من الأمراض ، وخاصة علاج العيون(٢٦) .

وابو عبد الله محمد بن عبدون العذرى القرطبى ، الذى رحل إلى مصر سنة ٣٣٧هـ ، واشرف على بيمارستان مصر ، والوزير ابو المطرف عبد الرحمن بن شهيد مصنف كتاب (الأدوية المفردة) الذى يقول عنه المقرى : « إنه كان آية الله تعالى فى الطب وغيره ، حتى انه عانى جميع ما فى كتابه من الأدوية المفردة ، وعرف ترتيب قواها ودرجاتها ، وكان لا يرى التداوى بالأدوية ما أمكن ، بل بالأغذية وما يقرب منها . وإذا اضطر إلى المركب لم يكثر التركيب ، بل يقتصر على أقل ما يمكنه ، وله غرائب مشهورة فى الإبراء من الأمراض الصعبة ، والعلل المخوفة بأيسر علاج وأقربه » .

ويقول عنه صاعد « ألف كتابا جليلا لا نظير له ، جمع فيه ما تضمنه كتاب ديستوربدس وكتاب جالينوس المؤلفين فى الأدوية المفردة ، ورتبه أحسن ترتيب »(٢٧) .

ومن مشاهير الأطباء فى عهد الخليفة الناصر الطبيب اليهودى حسداى ابن شبروط الذى اتخذه الناصر طبيبا خاصا له ، وذاعت شهرته حتى أن شانجة ملك ليون الذى كان يلقب بالسمين نظرا لسمنته الزائدة — وذكر

---

(٢٦) ابن ابى أصيبعة : طبقات الأطباء جـ ٢ ص ٤١ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٩ ، صاعد الأندلسى : طبقات الأمم ص ٧٨ ، ١٢٤ ، دائرة معارف الشعب ٦٤ ص ١٩٤ ، د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٢٧ . د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى جـ ٤ ص ٨٦ .

(٢٧) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٥ .

أن ذلك كان من أسباب خلعه نظرا لعدم قدرته على تصريف أمور المملكة — قد طلب من الناصر أن يرسل له طبيبا لعلاجه من ذلك ، فأرسل إليه طبيبه حسداى الذى نجح فى تخفيف وزنه(٢٨) .

ومن أشهر الأطباء فى عهد المستنصر الطبيب المشهور وعالم الجراحة أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى — نسبة إلى مدينة الزهراء التى الناصر — والذى اتخذه المستنصر طبيبا خاصا ، وألف عدة كتب فى الطب ترجمت إلى اللاتينية مثل كتاب : Libes-Sepiltoris الذى ترجمه جيرارد الكريمونى ، وكتابه فى الجراحة الذى ترجمه جيدودى كاولياك إلى اللاتينية أيضا سنة ١٤٨٩م تحت عنوان Chriur-gtaparua (٢٩) .

ويعتبر الزهراوى من أشهر الجراحيين المسلمين — أطباء الجراحة — وقد ترك مرجعا فى وصف الآلات الجراحية وطرق استخدامها ، وتوضيحها بالرسوم ، وهو كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) الذى ظل مرجعا يعول عليه لدراسة الطب فى أوربا عدة قرون بعد ترجمته إلى اللاتينية ، ويذكر أنه باشر بعض عمليات التوليد والجراحة النسائية ، ونصح باستخدام مساعدات من النساء فى ذلك(٣٠) .

---

(٢٨) انظر : ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣٠ ، لين بول : قصة العرب فى أسبانيا ص ١٠٩ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس جـ ٢ ص ١١٤ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٢١ ، د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ص ٧٠ .

(٢٩) انظر ترجمته فى بغية الملتمس رقم ٧١٥ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣١٢ .

(٣٠) د. سعيد عاشور وآخران : تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ١٢٤ — ١٢٥ .

وكذلك الإسقف القرطبى ابن زيد الذى كان مختصا بالخليفة المستنصر والف كتاب (تفضيل الأزمان ومصالح الأبدان)(٣١) .

كما نبغ فى الطب أيضا فى عهد هشام المؤيد ابن الخليفة المستنصر الطبيب الأندلسى المشهور ابن جلجل (ابو داود سليمان ابن حسان)، ت ٣٩٩هـ ، الذى كان طبيبا لهشام المؤيد ، وضع كتابا فى طبقات الأطباء ، وشرح أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس ، وأوضح ما غمض منها فى كتابه (تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس) . قال عنه الحميدى : « سليمان بن جلجل مذكور بالطب والأدب ، له كتاب فى أخبار الأطباء بالأندلس »(٣٢) .

وكذلك عبد الرحمن بن الهيثم طبيب المنصور بن أبى عامر . وقد الف عدة كتب عن الأدوية المفردة(٣٣) ، وكان عريب بن سعيد القرطبى المؤرخ (ت ٣٦٩هـ) طبيبا أيضا وله مؤلفات فى الطب منها كتاب (خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود) وهو مخطوط بمكتبة الاسكوريال(٣٤) .

الفلك والنجوم : اهتم القدماء بالنجوم والكواكب وحركاتها ، وربطوا بين ذلك وبين معرفة المستقبل ، وأطلقوا على ذلك علم التنجيم . والحقيقة أن التنجيم على هذا الأساس ليس علما ، لأن معرفة المستقبل وعلم الغيب إنما هو لله عز وجل لا يظهر عليه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا .

---

(٣١) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٧ .

(٣٢) جذوة المقتبس ترجمة ٤٥٢ ص ٢٢٥ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٥ . وقد نشر كتابه (طبقات الأطباء) ضمن منشورات المعهد الفرنسى بالقاهرة بتحقيق الأستاذ فؤاد سيد سنة ١٩٥٥م .

(٣٣) المختار من عالم المعرفة ص ١٣٦ .
الأدب الأندلسى ص ١٩٤ .

(٣٤) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٢٠٦ — ٢٠٧ ، د. هيكل :

ورغم ذلــك فإن بعــض حــكام المسلمين كانوا يطلبــون المنجمين لاستشارتهم والأخــذ برايهم قبــل الإقدام على عمل هام كالبناء أو الحرب او غير ذلك(٣٥) .

ومن امــراء الأندلس الذين اهتموا بالتنجيم هشام بن عبد الرحمن الداخل . فيذكر أنه استدعى المنجم الضبى من بلده بالجزيرة الخضراء ، وكان بارعا فى علم النجوم والمعرفة بالحركات العلومية كما قيــل حــتى لقب (ببطليموس) لحذقه وإصابته .

ورغم عدم اعتقاد هشام فى التنجيم ، إلا أنه كان يحب أن يســمع ما يقوله الضبى « حيث ان النفس طلعة كما قال » . وقد اخــبره هــذا المنجم بأنه لن يستمر فى ملكه اكثر من ثمانية اعوام فكان كما قال — وهذا من باب المصادفات فقد كذب المنجمون ولو صدقوا — ويذكر أنه زهد فى الدنيــا ولزم افعال الخير بعد أن أخبره بذلك(٣٦) .

وكذلك كان من المنجمين أحمد بن فارس البصرى ، الذى كان زعيم هــذه الصناعة بالأندلس على عهــد الحــكم بن هشام ، كما ذكر ذلك ابن بسام نقــلا عن ابن حيان(٣٧) . ومنهم ايضا عبد الله بن الشــمر ابن نمير القرطبى ، منجم عبد الرحمن الأوسط ونديمه قبل الإمارة . ذكر انه بشره بأن الأمر سيصير إليــه ، فلما صــار إليــه قــربه ونادمه ، واجرى عليــه رزقا للشعر ورزقا للتنجيم(٣٨) .

وكذلك إدريس ابن متيم الذى كان بصيرا بالمنطق حاذقا بالحســاب والتنجيم(٣٩) .

---

(٣٥) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ١١٠ .
(٣٦) انظر : نفح الطيب ج ١ ص ١٢٧ .
(٣٧) الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة ق ٤ ج ١ ص ٥٩ .
(٣٨) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ١٢٤ .
(٣٩) طبقات الزبيدى : ص ٣٣٢ .

وقد فرق علماء المسلمين بين التنجيم والفلك فنادى معظمهم بعدم تأثير الكواكب والنجوم على مستقبل الإنسان ، ونفوا أن يكون لها دخل فى النحس أو السعد . وعلى ذلك فقد وجد من بين علماء الأندلس من رفض التنجيم ، واهتم بالفلك كعلم له قواعده وأصوله ، ومن هؤلاء عباس ابن فرناس الذى يمكن أن تعده من أوائل علماء الفلك فى الأندلس إلى جانب اهتماماته واختراعاته الأخرى . فقد ذكر أنه صنع فى بيته قبة تشبه السماء ، وزودها بآلات وأدوات تحدث رعود وبروقا ، وجعل فى أعلاها نجوما وغيوما تبدو للناظر وكأنها حقيقية(٤٠) .

وقد كان الأمير عبد الرحمن الأوسط من أوائل الأمويين اهتماما بجلب الكتب القديمة من المشرق ، ولذلك وجه عباس ابن ناجح الشاعر إلى المشرق لجلبها . فجاء بكتاب (السند هند) وغيره منها ، ويعتبر أول من أدخلها إلى الأندلس ، وعرف أهلها بها ، ونظر هو فيها(٤١) .

---

(٤٠) نفح الطيب ج ٣ ص ٢٣٤ ، المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٣٣٣ . أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٣ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى أسبانيا ص ٧٤ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٦ – ١٩٧ ، ومن الغريب أن الفرضى الذى ترجم للكثيرين فى كتابه (تاريخ علماء الأندلس) لم يترجم لعباس بن فرناس رغم شهرته الكبيرة ، وترجم له الضبى فى بغية الملتمس والحميدى فى جذوة المقتبس ولم يذكرا شيئا عن ذلك . (انظر تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٢٩٦ – ٢٩٩ ، جذوة المقتبس ترجمة ٧٣١ ، بغية الملتمس ترجمة ١٢٤٧) .

(٤١) ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٤٥ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٢ . وكتاب السند هند يعتبر من كتب الفلك الهندية ، ويذكر أنه وفد على بلاط الخليفة العباسى المنصور سنة ١٥٦هـ أحد الهنود ومعه نسخة من هذا الكتاب ، فأمر الخليفة محمد بن اسحاق الفزارى بترجمته للعربية ، ويقال : إن الخوارزمى استفاد منه ، واعتمد

ويعتبر مسلم بن احمد بن ابى عبيدة الليثى القرطبى (٢٩٥هـ) من اوائل المشتغلين بالفلك والنجوم فى الأندلس أيضا ، وكان يعرف (بصاحب القبلة) لأنه كان مولعا بالتشريق فى قبلته مفتونا بذلك كما قيل(٤٢) .

وقد قال بكروية الأرض ، واختلاف الفصول حسب المناخ ، وقد تعرض بسبب ذلك لهجوم بعض المقلدين ، ومنهم ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد الذى قال فيه :

أبا عبيدة ما السؤال عن خبر
تحكيه إلا سواء والذى سالا
أبيت إلا شذوذا عن جماعتنا
ولم تصب رأى من أرجى أو اعتزلا
كذلك القبلة الأولى مبدلة
وقد أبيت فما تبغى بها بدلا
زعمت بهرام أو بيذخت ترزقنا
لا بل عطارد أو مريخ أو زحلا
وقلت إن جميع الخلق فى فلك
بهم يحيط وفيهم يقسم الأجلا
والأرض كورية حف السماء بها
فوقا وتحتا وصارت نقطة مثلا

=

عليه فى وضع زيجه المشهور بعد ان ادخل عليه تعديلات وإضافات عدة . (انظر دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ١١١) .

(٤٢) انظر ترجمته فى تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ رقم ١٤٢٠ .

صيف الجنوب شتاء للشمال بها
قد صار بينهما هذا وذا دولا

فما لكانون فى صنعا وقرطبة
فردا وأيلول يذكى فيهما السؤلا

هـذا الدليل ولا قـول عـزرت به
من القوانين يجرى القول والعمـلا

كما استمر ابن موسى فى غوايته
فوعر السهل حتى خلته الجبلا

ابلغ معاوية المصـفى لقـولهما
انى كفرت بما قالا وما فعلا(٤٣)

ويقول ابن عبد ربه ايضا فى مهاجمة المشتغلين بالفلك والنجوم :

فاين الزيـج والقـانون والأركند والكمه
واين السند هند البطل والجدول هل ثمه
سوى الإفك على الله تعالى منشر الرمه
إذا كان اخـو الغيـب
يرى الغيب بما ضـمه
إلى ان يطـاب الرزق
طلاب العاجـز الهمة
وهذى الأرض قد وارت
كنـوزا عـدة جمـة

(٤٣) ابن الفرضى : تاريخ علمـــاء الأندلس ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ وابن موسى هو الأقشبين او الأقشتين ، ومعاوية هو ابن الشبانس القرشى ويظهر أنهما كانا من اصحاب ابن ابى عبيدة والقـائلين باقـواله .

فــــلا واللّه مــا للّه
خلق يحتوى علمه(٤٤)

كما يعتبر أبو القاسم مسلمة المجريطى (٣٩٨هـ) من علماء الفلك أيضــا يقول عنــه صاعد : إنه اعلم من كان قبلــه بعــلم الأفــلاك ، وحركات النجوم ، وكانت له عنــاية بأرصاد الكواكب)،(٤٥) .

الكيميــاء : اشتغل بعض علماء الأندلس بعلم الكيمياء ، ومن أوائل المشتغلين به أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطى (ت ٣٩٨هـ) الذى يعــد شيخ الأندلس فى هــذا العــلم فى العصر الأموى ، وقــد ألــف فيــه كتابا سماه (رتبــة الحــكيم) ، وجعله قرينا لكتاب آخــر ألفه فى السحر والطلسمات وسماه (غــاية الحكيم) . ومن كبار تلاميذه فى هــذا المجال أبو بكر بن بشرون(٤٦) .

ويمكن أن نعــد عباس بن فرناس (ت ٨٨٦م) من الذين نبغــوا فى هــذا العلم أيضا ، حيث له اهتمامات متعددة ، ويذكر انه كان أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الأحجار وهى صناعة تحتاج إلى معالجات بطرق كيميائية(٤٧) .

---

(٤٤) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٩٠ .

(٤٥) احمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٠ ، وإحسان عباس : المرجع السابق ص ٥٢ .

(٤٦) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٩٦ .

(٤٧) انظــر نفح الطيب ج ٣ ص ٣٧٤ ، المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٣٣٣ ، احمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٣ ، د. احمــد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٨٦ ، د. عبد الرحمن الحجى : الحضارة الإسلامية فى الأندلس ص ٥٢ .

الرياضـيات : يلاحظ ان كثيرا من علماء الأندلس كانوا بنيغون فى عـدة علوم ولا يقتصرون على علم واحـد ، حيث لم يكن التخصص الدقيق معروفا فى ذلك الوقت .

ومن هنا فقـد وجدنا كثيرا من الذين اشتغلوا بالنجوم والفلك ينبغون فى الرياضـيات أو العكس . وكان من أوائل من اشـتغل بالرياضـيات فى الأندلس ، ولفت الأنظار إليها أبو القاسم مسلمة المجريطى (ت ٣٩٨هـ) الذى وصـفه صاعد بأنه « كان إمام الرياضيين فى وقته » وتخرج على بديه كثير من الطـلاب مثل ابن السمح وابن الصفار والزهراوى والكرمانى وغيرهم(٥٠) .

كما كان من أوائل من اشتهروا بالرياضيات أيضا أبو عبيده مسـلم ابن أحمد الليثى (ت ٢٩٥هـ) المعروف بصاحب القبـلة ، وكان عالمـا بالحساب والنجوم وتحركات الكواكب وأحكامها(٥١) .

ويحيى بن يحيى القـرطبى المعروف بابن السـمينة وكان بصـيرا بالحساب والنجوم(٥٢) .

كما برع عباس بن فرناس القرن الثانى ـ الثالث الهجرى (ت ٨٨٦م) فى علم العـدد الهندسة الميكانيكية ، حيث ابتكر الآلالة المعروفة بالميقاتة لمعرفة الوقت على غير رسم ومثال . وقام بأول محاولة للطيران فى العالم

---

(٥٠) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٢ ، ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٠ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٧ .

(٥١) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٤٢٠ جـ ٢ ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .

(٥٢) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٥٨٠ جـ ٢ ص ١٨٨ .

الإسلامى ، وكان متعدد المواهب برز فى مجالات شتى(٥٣) .

وكذلك القاسم بن اصبغ بن السمح (ت ٤٢٦ هـ) الذى برع فى علم النجوم والهيئة والحساب والهندسة ، وله عدة مؤلفات منها : كتاب (المدخل إلى الهندسة) شرح فيه كتاب إقليدس ، وكتابان فى الاسطرلاب ، وكتاب آخر فى الهندسة(٥٤) .

وكذلك أبو الحسن الزهراوى (على بن سليمان) — وهو غير ابو القاسم الزهراوى الطبيب المشهور — وكان عالما بالهندسة والعدد ، وله كتاب فى الهندسة بعنوان : (المقابلات عن طريق البرهان)(٥٥) .

كما اشتهر ابو الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرمانى القرطبى (ت ٤٥٨هـ) بالهندسة ايضا وكان قد رحل إلى المشرق فى طلبها وخاصة فى حران ، ثم عاد إلى الأندلس وصار لا يشق له غبار فيها ، وهو ول من أدخل رسائل إخوان الصفا إلى الأندلس(٥٦) .

وكذلك ابن الصفار الذى اشتهر بالحساب والهندسة والفلك ايضا ، وله زيج مختصر على مذهب السند هند . كما اشتهر بالرياضيات أيضا فى عصر الحكم المستنصر عبد الله بن محمد المعروف بالسرى ، وكان الحكم يجله ويقربه ، وكذلك أبو بكر بن عيسى وكان مقدما فى علوم الهندسة والعدد والنجوم ، وكان يجلس للتعليم فيها(٥٧) .

---

(٥٣) انظر : نفح الطيب جـ ٢ ص ٣٢١ وبعدها ، البيان المغرب جـ ٢ جـ ٢ ص ١٩٦ وبعدها .

(٥٤) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٧ .

(٥٥) الضبى : بغية الملتمس ترجمة ١٢٢٠ .

(٥٦) ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٧٠ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٧ .

(٥٧) د. احمد هيكل : تاريخ الادب الأندلسى ص ١٣٨ .

ومن الرياضيين المشهورين بالأندلس أيضا محمد بن الفرج الرشاشى، الذى عرف بالذراع نظرا لأنه ابتكر وحدة قياسية للمسافات هى الذراع الذى نسب إليه فاصبح يعرف بالذراع الرشاشى ، وكان أهل الأندلس يقيسون به . وبلغ طوله ضعف الذراع المأمونى الذى كان معروفا فى المشرق (١ر٧١سم) ويذكر أن الإدريسى والبكرى قد استخدماه فى قياس بعض المعالم الأثرية التى تحدثا عنها كمنارة الإسكندرية ، وجامع قرطبة وغيرهما(٥٨) .

التاريخ : لم يكن ظهور علم التاريخ فى الأندلس منفصلا عن جذوره التى نشأ فيها وتطور عنها فى المشرق ، وقد تأثرت الأندلس بمؤثرات علمية وفنية كثيرة وفدت من المشرق ، ومنها تدوين التاريخ ، الذى تأثر فى بدايته بمدرسة مصر التاريخية بصفة خاصة ، كما تأثر بمؤثرات لاتينية وبخاصة كتاب هروسيس فى التاريخ الذى تمت ترجمته ، واستفاد منه الكثير من المؤرخين الأندلسيين (٩٥) .

وقد اهتم الأندلسيون بتاريخ بلادهم ، وتعصبوا له مما يدل على ظهور الروح القومية الأندلسية ، فنجد ابن حزم يضع رسالة فى فضل علماء الأندلس ، ويعيب على أهلها تقصيرهم فى تخليد أخبار علمائهم مع كثرتهم ، وفى مآثرهم وفضائلهم ، ووفور أدبائهم ، وجلالة ملوكهم .

---

(٥٨) ابن حيان : المقتبس ص ٣٢٥ — ٣٢٦ تحقيق د. محمود مكى .
وقد ذكره ابن الفرضى باسم محمد بن الفرج الذراع المعروف بالدشاشى من أهل قرطبة ، وهو الذى ينسب إليه الذراع .
ونعتقد أنه قد حدث خطأ فى الطبع والأصح ما ذكره ابن حيان (انظر : تاريخ علماء الأندلس جـ ٢ ص ١٤ ترجمة ١٣٣) .
(٥٩) نشأة تدوين التاريخ العربى ص ٧ .

كما وضع الشقندى — نسبة إلى شقندة وهى ربض من أرباض قرطبة — رسالة أخرى تعصب فيها للأندلسيين على طول الخط فقال : إن الاجماع حصل على فضل الأندلس ، وقد نشأ فيهم من الفضلاء والأدباء والشعراء ما اشتهر فى الآفاق إلى أن ذهبوا وذهبت آثارهم ، ودرسوا ودرست آثارهم(٦٠) ، ثم امتد هذا التعصب ليشمل المدن والأقاليم الأندلسية حيث تعصب أهل كل مدينة لها ، وألفوا فى فضائلها .

ويعتبر عبد الملك بن حبيب السلمى (ت ٢٣٨هـ) — الذى لقب بعالم الأندلس — أول مؤرخ أندلسى يتعرض لتاريخ بلاده ، وهو من أوضح الأمثلة على تأثر الأندلس بالتأثيرات المشرقية فى تدوين التاريخ . فقد رحل إلى المشرق ، ودرس الحديث والفقه على مذهب الإمام مالك ، واكسبه ذلك توسعا وفهما فى دراسة التاريخ وقد وصفه ابن الفرضى بأنه (كان نحويا عروضيا شاعرا ، حافظا للأخبار والأنساب والأشعار ، طويل اللسان ، متصرفا فى فنون العلم) . وذكر أن له مؤلفات فى الفقه والتواريخ والآداب كثيرة حسان(٦١) .

وقد ألف ابن حبيب فى التاريخ العام كتابا شبيها بكتاب الطبرى ، بدأه بالحديث عن نشأة الخلق ، وتاريخ الأنبياء والرسل . وهذا القسم ملىء بالأساطير عن فتح الأندلس وسير ولاتها وأمرائها إلى عصره ، ولكنه خلط فى هذا القسم أيضا بين الأحداث التاريخية والأساطير ، مثل حديثه عن رؤيا طارق بن زياد التى رآها فى منامه وكانت سببا فى الفتح كما ذكر ، وحديثه عن طلسم لذريق ، ومائدة سليمان عليه السلام التى عثر

---

(٦٠) احمد امين : ظهر الاسلام ج ٣ ص ٨ — ١٠ .

(٦١) انظر : تاريخ علماء الأندلس ترجمة (٨١٦) ج ١ ص ٢٦٩ — ٢٧٢ .

عليها فى الأندلس ، وكنوز قصر طليطلة التى عثر عليها المسلمون وغير ذلـــك .

ويبدو ان بعض تلاميذه قـد اضاف إلى هـذا الكتاب حيث نجـد فيـه فيـه أخبارا عن عصر الأمير عبد الله بن محمد إلى سنة ٢٧٤هـ ، رغم ان ابن حبيب توفى قبـل إمارته سنة ٢٣٨هـ(٦٢) .

وقد اخـذ ابن حبيب معظم الأخبـار والروايات عن شـيوخه من المصريين مثل الليث بن سعيد ، وعبد الله بن وهب كما ذكر ذلك بنفسه ، ولذلك نجده يتبع منهج المحدثين من حيث سند الخبر أو الرواية ، وإن كان هـذا لم يمنع من تسلل الكثير من الحكايات الخيالية والأساطير إلى كتابه .

ومع ذلك فإن كتاب ابن حبيب هـذا يعد اول محاولة أندلسـية

---

(٦٢) لا يزال هـذا الكتاب مخطوطا فى مكتبـة البودليانا فى اكسفورد تحت رقم ١٢٧ . ويذكر بعض من اطلع عليـه انه ليس بذى قيمة علمية كبيرة ، نظرا لكثرة الأساطير فيـه . وإن كان هذا لا يقلل من قدر ابن حبيب الذى كان أول رائدا فى هـذا المجال ، والريـادة غالبا لا تتسم بالدقة الشديدة ، وتحتاج إلى التصحيح والإضافة . (انظر : نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس ص ٨ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٤٩ ، ٢٣٥ ، د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٢٦ .

وقد قام د. محمود مكى بدراسة وافيـة لهـذا الكتـاب ، ونشر الجـزء الخاص بالأندلس منـه بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٥٧م ، وذكر أن هـذه النسخة هى مختصر لكتاب ابن حبيب الأصلى ، وان الذى قام بوضعها بعض تلاميذه وخاصة ابن أبى الرقاع (انظر نشأة تدوين التاريخ العربى ص ١٠) .

لكتابة تاريخ الاندلس ، برغم ما حفل به من اساطير ، وما شابه من قصور ونقص في بعض النواحي(٦٣) .

ويعتبر (معارك بن مروان) وهو حفيد موسى بن نصير (القرن الثالث الهجرى) من المؤرخين الأندلسيين الأوائل الذين حاولوا التدوين في تاريخ الأندلس . حيث يشير الحميدى إلى انه الف كتابا في فتح الأندلس تناول فيه أخبار جده موسى(٦٤) .

ويرى د. محمود مكى ان القسم الذى يدور حول حياة موسى ابن نصير في كتاب (الإمامة والسياسة) المنسوب لابن قتيبة مأخوذ عن كتاب معارك ، وهذا الكتاب فيه أيضا الكثير من الأساطير والروايات الخيالية(٦٥) .

ثم جاء بعد ذلك (عبد الله بن الحكيم ت ٣٤١هـ) والذى يعتبر بداية لمرحلة جديدة في التدوين التاريخى تخلت عن الاساطير ، وركزت على موضوعات اندلسية . فقد الف كتابا في الأنساب بعنوان (انساب الداخلين إلى الأندلس من العرب وغيرهم) اهداه للخليفة الناصر سنة ٣٣٠هـ . وقد ضاع هذا الكتاب ولم يصلنا منه إلا شذرات نقلها بعض المؤرخين اللاحقين .

وظهر في القرن الرابع الهجرى مؤرخون اهتموا بالتراجم والطبقات ،

---

(٦٣) د. عبد الواحد ذنون : نشأة تدوين التاريخ العربى في الأندلس ص ٩ — ١٠ .

(٦٤) جذوة المقتبس ترجمة (موسى بن نصير) رقم ٧٩٣ ص ٣٣٨ .

(٦٥) قام د. محمود مكى بدراسة هذا الكتاب ونشر الجزء المتعلق بالأندلس في مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد العدد الخامس سنة ١٩٥٧م (نشأة تدوين التاريخ العربى ص ١١) .

ويعد محمد بن حارث الخشنى (ت ٣٦١هـ) من أبرزهم فى هـــذا المجال ، وقد كانت له اهتمامات متعددة كالحديث والفقه واللغـــة والتاريخ . وقد صنف بتشجيع من الخليفة الحكم العـــديد من الكتب فى هـــذا المجـــال مثل كتاب (أخبـــار القضـــاة بالأندلس) وكتـــاب (أخبـــار الفقهـــاء والمحدثين) (٦٦) .

وكذلك ابن الفرضى أبو الوليـــد بن عبد الله بن محمد بن يوســـف الأزدى (ت ٤٠٣هـ) صاحب كتاب (تاريخ علماء الأندلس) الذى يعتبر من أشهر كتب التراجم الأندلسية .

ثم جاءت أسرة برز منها الكثير من المؤرخين الذين حاولوا وضـــع أسس لعـــلم التاريخ فى الأندلس وهى أسرة الرازى ، ومن أبرز أفرادها أحمد بن محمد بن موسى الرازى (ت ٣٤٤هـ) الذى كان مؤرخا وجغرافيا، ولقب (بالتاريخى) لكثرة مؤلفاته فى مجال التاريخ ، وله كتاب (أخبار ملوك الأندلس) وكتاب (الاستيعاب فى أنساب مشاهير الأندلس) ويقع فى خمس مجلدات كبيرة . وكتاب آخـــر فى مسالك الأندلس ومراسيها

---

(٦٦) نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس ص ١٣ — ١٤ . وقـــد نشر الكتاب الأول فى مدريد لأول مرة ســـنة ١٩١٤م بواســـطة المستشرق الأسبانى خوليان ريبرا مع ترجمة اسبانية ، كما نشر فى مصر بعنـــاية عزت العطار ســـنة ١٩٥٤م ، ثم نشر بعنوان (قضـــاة قرطبة) فى القاهرة سنة ١٩٦٦م وهى الطبعـــة التى اعتمد عليها الباحث . أما الكتاب الثانى فيوجد فى مكتبـــة القصر الملكى بالرباط كتاب بعنوان (طبقات المحدثين بالأندلس) تحت رقم (٦٩١٦) يعتقد بأنه هو هذا الكتاب (انظر : نشأة تدوين التاريخ العربى ص ١٣ — ١٤) .

وامهــات اعيــان مدنهــا واخبــــارها ، وكتــاب عن كبــار المــوالى الأندلســيين(٦٧) .

ثم جاء بعــده ابنه عيسى فاكمل ما بداه ، وقــد الف كتابا فى تاريخ الأندلس للخليفة المستنصر ، كما الف كتابين آخرين للمنصور بن أبى عامر احدهما عن الوزارة والوزراء بالأندلس . والثانى عن الحجاب بالأندلس ، كما اخــذ فى إكمال كتاب أبيه عن اخبار ملوك الأندلس(٦٨) .

وقد تركت اسرة الرازى اثرا كبيرا فى مجــال التدوين التاريخى . فقــد كان احمد بن محمد أول من ادخل قاعدة التقديم للتاريخ بالجغرافيا فى الأندلس ، واخذها عنــه معظم من جاء بعده من المؤرخين .

ثم جاء ابن القوطية (ت ٣٦٧هـ) الذى برع فى علوم اللغــة ، كما برع فى التاريخ ايضــا « وكان حافظا لأخبار الأندلس يمليها عن ظهــر قلب » كما ذكر ابن الفرضى(٦٩) .

ويعتبر كتابه الذى وصلنا وهو (تاريخ افتتاح الأندلس) أهم ما بقى من مؤلفاته . ويتناول تاريخ الأندلس من الفتح إلى نهــاية إمارة عبد الله ابن محــمد (٢٩٩هـ) .

ويبدو أنه أملاه على بعض تلاميذه ، وقــد أورد فى هــذا الكتــاب اخبار كثيرة عن القوط الذين ينتسب إليهم ، يظهر من خلالها ميــله إلى اصــله القوطى حيث يخالف فيها الكثير من المؤرخين ، كما انه ياتى بحوادث

---

(٦٧) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس جـ ١ ص ٤٢ ترجمــة ١٣٧ ، الحميدى : جذوة المقتبس ترجمة ١٧٥ ص ١٠٤ ، د. احمد هيكل : الأدب الأندلســى ص ١٩٢ .

(٦٨) نشأة تدوين التاريخ العربى ص ٣٧ .

(٦٩) تاريخ علماء الأندلس جـ ٢ ص ٧٦ ترجمة (١٣١٨) .

اسبانية لم يكن يعرفها العرب وتتضمن قصصا شعبية اسبانية مثل قصة القومس ارطباس الذى اعجب به عبد الرحمن ايما إعجاب وعينه قومسا لأهل ملتـه(٧٠) .

ورغم ذلك فإن هـذا الكتاب يعتبر من المحاولات الرائدة فى مجـال التدوين التاريخى فى الأندلس نظرا لما تميز به من ذكر لخصائص تتعلق بطبيعة وتكوين المجتمع الأندلسى ، وانتساب المؤلف لهذا المجتمع ، ومحاولته رسم صورة للأحداث التى مرت عليه منذ الفتح وحتى نهـاية القرن الثالث الهجـرى(٧١) .

ويعتبر عريب بن سعد القرطبى (٢٦٩ — ٢٧٠هـ) من مشـاهير المؤرخين فى الأندلس ايضـا ، وهو من اصل اسبانى اسلم آباؤه ، وكان والده يعمل كاتبا لدى الخليفة الحـكم المستنصر ، ثم عمل هو ايضـا لديه ، وقـد اختصر عريب تاريخ الطبرى وزاد عليـه اخبـار المغـرب والأندلس ويسمى (صـلة تاريخ الطبرى)(٧٢) . وقد حـاول فيـه تصحيح بعض المفاهيم التى كانت شائعة عن احـداث الفتح مثل قصـة مائدة سليمان فتراه يقول عنها : « واصـاب طارق مائـدة منظومة بالدر والياقوت والزبرجد ، وهى التى يزعم الناس انها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام ، ولم تكن كذلك . غير ان اهل الحسبة من العجم كانوا إذا حضرتهم الوفاة أوصوا للكنائس بمـال تصنع منـه كراسى توضـع عليها مصاحف الإنجيل فى الأعيـاد فكانت تلـك المـائدة ممـا يتفوق فيـه

---

(٧٠) احمد امين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٧٥ ، المختار من عالم الفـكر ص ١٠٧ .

(٧١) نشأة تدوين التاريخ العربى ص ١٦ — ١٨ .

(٧٢) احمد امين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

الملوك »(٧٣) .

وهذا التفسير الفريد يدل على معرفة عريب بعادات الأسبان قبل الفتح ، ولذلك فقد علق المؤرخ المغربى ابن الشباط (٦٨١هـ) على ذلك قائلا « واعلم أن هذا القول من عريب غريب ، لم يذكره فيما علمت غيره ، وإنما ذكروا كلهم أنها مائدة سليمان بن داود »(٧٤) .

ومن المؤرخين الأندلسيين أيضا ابن أبى الفياض (٤٥٩هـ) ، وله كتاب يسمى العبر لم يبق منه إلا قطعة صغيرة وصلتنا ، إلى جانب نصوص منه نقلها بعض المؤرخين المتأخرين فى مؤلفاتهم(٧٥) .

ومنهم أيضا : أحمد بن عمر العذرى (٤٧٨هـ) ، وكان له اهتمام بالجغرافيا إلى جانب التاريخ ، وله كتاب (اقتضاض أبكار أوائل الأخبار) ، وكتاب (أعلام النبوة) ، وكتاب (ترصيع الأخبار ، وتنويع الآثار ، والبستان فى غرائب البلدان ، والمسالك إلى جميع الممالك) وهو كتاب جغرافى تاريخى . لم يبق منه إلا قطعة صغيرة معظم أخبارها عن الأندلس(٧٦) .

---

(٧٣) المختار من عالم الفكر ص ١٠٩ .

(٧٤) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصف لابن الشباط ص ١٤٩ نصان جديدان تحقيق د. أحمد العبادى : مجلة معهد الدراسات الإسلامية مدريد سنة ١٩٧١م .

(٧٥) نشر د. عبد الواحد ذنون هذه القطعة المتبقية من كتاب ابن أبى الفياض بعنوان (نص أندلسى جديد من تاريخ ابن أبى الفياض) بمجلة المجمع العلمى العراقى الجزء الأول — المجلد الرابع والثلاثين سنة ١٩٨٣م .

(٧٦) نشر د. عبد العزيز الأهوانى القطعة المتبقية من الكتاب الأخير

وكان العـــذرى من أوائل المؤرخـــين الاندلسيين الذين ذكروا نص المعاهدة التى عقدها عبد العزيز بن موسى بن نصير مع تدمير حاكم شرق الأندلس(٧٧) .

ثم يأتى عمدة مؤرخى الاندلس ابن حيان (٤٦٩هـ) وكان من كتـــاب المنصور بن أبى عامر ، وقـــد ضاعت معظم كتبه ولم يتبق منها إلا اجزاء من كتابيه الكبيرين المقتبس ، والمتـــين . أما المقتبس فيقع فى عشرة أجزاء ، وتتضمن تاريخ الأندلس منذ الفتح حتى زمن المؤلف(٧٨) .

واما كتابه المتـــين فقيل إنه يقع فى ستين جزءا ، ولكنه للأســـف

=

فى مدريد سنة ١٩٦٥ م بعنوان (نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار) .

(٧٧) نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس ص ٥٥ .

(٧٨) وصلت إلينا قطع متفرقة من كتاب المقتبس نشر بعضـــها ، منهـــا قطعة تتضمن بعض أخبار الأمير عبد الله نشرها ملشور أنطونيه فى باريس سنة ١٩٣٧م . وقطعة تتضمن بعض أخبار الأمير عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد نشرها د. محمود مكى فى القاهرة سنة ١٩٧١م، وبيروت سنة ١٩٧٣م . وقطعة تتضمن بعض أخبار الحكم المستنصر نشرها د. عبد الرحمن الحجى فى بيروت سنة ١٩٦٥م ، كما نشر ليفى بروفنسال قطعة من الجـــزء الثانى فى مجلة (الأندلس) الأسبانية المجلد الخامس عشر ، العدد الأول سنة ١٩٠٥م .
ويوجد الجـــزء الخامس مخطوطا فى المكتبـــة الملكيـــة بالربـــاط برقم ٨٧ .

لم يصلنا منـــه شيء إلا فقرات نقلها منـــه بعض المؤرخين اللاحقين كابن بسام فى الذخيرة .

وقد اشتهر ابن حيان بالصراحة البالغة ، والنقد الشـــديد ، وذكر المحاسن والمساوىء دون تحرج حتى بالنسبة للأمراء والكبراء . فرغم أنه كان من كتاب المنصور إلا أنه لم يتحرج من نقـــد بعض أفراد أسرته ولو من بعيـــد . ونراه يظهر أسفه على زوال الدولة الأموية .

وقد ذكر عن نفسه أنه أولع بالتاريخ من صغره ، وشغف به حبا ، فأعد له عدته . ويقال إنه كان يؤلف كتبه لنفسه وولده إلا أنه غير رأيـــه فنشره فى الناس . وإن كنا نرى فى هـــذا مبالغة شديدة(٧٩) .

وقد لخص كتاب المقتبس ابو عبد الله محمد بن ابى نصر الحميـــدى (٤٨٨هـ) فى كتابه المسمى (جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس) وهو الوحيد الذى وصلنا من كتب الحميدى التى وصـــل عددها إلى تســـعة عشر(٨٠) .

ثم تتابع المؤرخون الأندلسيون بعـــد ذلك كابن بشكوال وابن الأبار وابن بسام وغيرهم . ويلاحظ على التاريخ فى الأندلس سواء كان تاريخا عاما ، أو تراجم رجـــال أنه قـــد تأثر بعلم الحديث ومنهجه فى المشرق . ويرجع ذلك إلى أن اكثر المؤرخين فى الأندلس محدثين وفقهاء أشـــــبه ما يكونون بالطبرى ، وكان منهجهم منهجا يسوده فى الغالب فقـــه الإمام

---

(٧٩) احمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٧٥ وبعدها .

(٨٠) طبع هـــذا الكتاب بالقاهرة سنة ١٩٥٣م بتحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، ثم أعيد طبعه فى الدار المصرية للتاليف والنشر ســـنة ١٩٦٦ (انظر مقدمة هـــذه الطبعة) .

مالك وما ينبنى عليه من حديث وتفسير ، فكان ذلك يسلمهم من ترجمة رجال الفقه والتفسير والحديث إلى ترجمة رجال العلم والأدب ، كما أن التاريخ فى الأندلس اتصل بالأدب أكثر من المشرق أيضا . حيث كان اكثر المؤرخين أدباء كذلك ، وكانت عواطفهم نحو بلدهم أقوى وخاصة بعد تساقط البلاد الأندلسية فى يد الأسبان واحدة بعد الأخرى ، فكلما سقطت بلدة رثاها الأدباء ، وتحدث عنها المؤرخون . ولذلك كانت هذه الناحية فى الأندلس أشد وأقوى(٨١) .

الجغرافية : أما عن الجغرافية فإنها لم تفترق عن التاريخ فى الأندلس بوجه خاص ، حيث لا نكاد نجد مؤرخا أندلسيا إلا وكان جغرافيا فى نفس الوقت ، أو بدأ تاريخه بمقدمة جغرافية وكما اشتهر الأندلسيون بولعهم الشديد بعلم التاريخ وخاصة تاريخ بلادهم إلى درجة أنهم كانوا يعتبرونه أنبل علم عندهم على حد قول ابن سعيد المغربى(٨٢) ، فقد اشتهروا أيضا بولعهم الشديد بالرحلة والتنقل والأسفار ، وكان الواحد منهم يعاب بأنه لم يرتحل إلى المشرق لطلب العلم . ولهذا ظهر من بينهم نخبة من الرحالة الذين زاروا بلادا كثيرة ، وسجلوا مشاهداتهم فى وصفها من نواحى شتى ، فحفلت مؤلفاتهم بمادة جغرافية كبيرة .

وبطبيعة الحال فقد احتل وصف وطنهم الأندلس مكانا بارزا فى مؤلفاتهم ، فتحدثوا بالتفصيل عن خططها ومسالكها ومدنها وكورها ، وأنهارها وجبالها ، وتقسيماتها الإدارية وغير ذلك . كما اهتموا بضبط

---

(٨١) انظر : احمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٨٥ .

(٨٢) د. حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ص ٩٥ — ٩٦ ، مجلة المختار من عالم الفكر ص ١١٣ .

الاسماء الاعجمية ، ومحاولة الرجوع إلى أصولها اللاتينية أو الاغريقية ، وابتكروا طريقة لطيفة فى هـــذا المجال لإظهار محاسن كل مدينة عن طريق اقامة مناظرات على ألسنة المدن الأندلسية المختلفة تفخر كل منها بنفسها ، وتظهر أوصافها ومزاياها التى لا توجد فى غيرها(٨٣) .

وقد جـــمع الكثير من المؤرخين الأندلسيين معلومات جغـــرافية فى كتبهم ، وخاصة عن الأندلس ومنهم ابن حيان ، كما ألف بعضهم كتبـــا فى الجغرافيا ايضا إلى جانب التاريخ ، مثل أحمد بن موسى الرازى (٣٤٤هـ) الذى ألف كتابا فى مسالك الأندلس ومراسيها ، وأمهات مدنها ، ويدور معظمه حول صـــفة الأندلس ، ويعتبر مقدمة جغرافية لكتابه الكبير فى التاريخ عن أخبار ملوك الأندلس(٨٤) .

ومحمد بن يوسف الملقـــب بالتاريخى الوراق ، الـــذى الف للحـــكم المستنصر كتابا ضخما فى مسالك إفريقية وممالكها ، كما الف فى أخبـــار ملوكها وحروبهم ، وفى أخبار تيهرت ، ووهران وتنس وسجلماسة ونكور وغيرها(٨٥) .

وأحمد بن عمر العذرى (٤٧٨هـ) الذى جمع فى كتابه (ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، والبستان فى غرائب البلدان ، والمسالك إلى جميع الممـــالك معلومات جغرافية كثيرة(٨٦) .

---

(٨٣) احمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٨٩ .

(٨٤) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٣٧ ، جذوة المقتبس ترجمة ١٧٥ ، نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس ص ٣٢ — ٣٦ .

(٨٥) بغيه الملتمس ترجمة ٣٠٤ ص ١٤١ ، جذوة المقتبس ترجمة ١٦٠ ص ٩٧ .

(٨٦) نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس ص ٥٥ — ٥٧ .

ولا شك أن الجغرافيين الاندلسيين قد استفادوا من الكتب القديمة التى وضعت فى تاريخ الأندلس وجغرافيتها مثل كتاب هروسيس ، وكتاب القديس ايزيدورو الباجى والمسمى (أصول الكلمات) ، ونقلوا منها مثل المؤرخين كالرازى والعذرى والبكرى وغيرهم ، وهذا لا يقلل مطلقا من قيمة العمل الذى قاموا به ، بل يدل على تسامحهم وأمانتهم العلمية واتساع افقهم وحرصهم على الاستفادة من تراث الآخرين(٨٧) .

اما أول الجغرافيين الأندلسيين الحقيقيين وأقدمهم فهو البكرى عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن ايوب (٤٣٢ — ٤٨٧هـ) ، الذى ألف معجما جغرافيا فى أسماء البلاد والأماكن لازال بين أيدينا وهو (معجم ما استعجم) ، وله أيضا كتاب (المسالك والممالك) الذى وصلت إلينا قطع منه ، وضم فيه نتفا من التاريخ إلى جانب الجغرافيا ، وتعرض فيه لجغرافية إفريقية ومصر والأندلس والعراق وبلاد وراء النهر .

وفى الأجزاء الباقية من هذا الكتاب تتجلى بوضوح دقة البكرى فى ذكر الأسماء ونطقها وتفسير بعض أصولها مثل قوله عن طليطلة : « واسم طليطلة باللاتينى تولاطو Tolatom ومعناها فرح ساكنها لحصانتها » ، وقد ثبت أن فى مشتقات هذه الكلمة اللاتينية ما يدل على معنى حافة الجبل وهو ما يتفق مع وضعها الجغرافى ، وقوله عن

---

(٨٧) بالنسيا : تاريخ الفكر الاندلسى ص ٣١١ ، مجلة المختار من عالم الفكر ص ١١٤ .

(٨٨) عبد الله يوسف الغنيم : مصادر البكرى ومنهجه الجغرافى القسم الأول الكويت سنة ١٩٧٤ ، مصطفى الشهابى : الجغرافيون العرب ص ٥٣ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٩٠ .
دراسات فى الحضارة الإسلامية ص ٢٥٢ — ٢٥٣ .

إشبيلية « ورأيت لبعض المؤرخين أن مدينة إشبيلية تسمى (إشبالى (Hispalis) ومعناه المدينة المنبسطة . وقوله فى وصف مدينة ماردة « وقد أحدق بالمدينة سور عرضه اثنا عشر ذراعا ، وارتفاعه ثمانية عشر ذراعا ، وعلى بابها كتابة ترجمتها بالأعجمية براءة لأهل إيلياء »(٨٩) .

وحسب البكرى فخرا ما توصل إليه من حقائق جغرافية سبق بها زمانه مثل قوله « وايقانس البحر المحيط (الأقيانوس أو المحيط الأطلنطى) لا يدرى ما وراءه غربا إلى أقصى عمران الصين شرقا ، والشمس إذا غابت فى اقصى الصين طلعت فى الجزائر (الخالدات) — وهى التى تعرف اليوم بجزر كناريا أو الكناريا — وبالضد » .

وقد علق د. حسين مؤنس على هذه العبارة بقوله « وهذه — لا زيادة — هى الفكرة التى جعلت من كولمبس من هو فى تاريخ البشر ، وكأنما أخذ أبو عبيد البكرى بيده وقاده إلى ما وقع إليه من كشف عظيم ، وليس من قبيل المصادفة البحتة أن يكون البكرى من أبناء ولبة وهى على أميال قليلة من الربطة Larabida وفيها الدير الذى لجأ كولمبس إلى أحباره لييسروا له مقابلة فرديناند وإيزابيلا ، ولا هو من قبيل المصادفة أن يكون ابو عبيد قد كتب هذه السطور فى إشبيليته البلد الذى عاش فيه كولومبوس زمنا ، وتعلم من أهله وعلمائه وبحارته الشىء الكثير ، بل إنه لا تبدو لنا مصادفة أن يكون خروج مراكب كولومبس إلى العالم الجديد من ميناء (سان لوكار) أقرب بلد إلى ولبة والمسافة

---

(٨٩) د. احمد العبادى : تاريخ الأندلس لابن الكرديوس ووصفه لابن الشباط ص ١٣٩ مدريد سنة ١٩٧١م .

بينهما بضعة كيلو مترات »(٩٠) .

وفى هـذا التعليق ما يكفى للدلالة على مدى تاثير البيئة المحلية الأندلسية فى خلق شخصيات جغرافية فذة كالبكرى وغيره من الأندلسيين الذين حاولوا قبـل كولومبس كشف غياهب بحـر الظلمات أو البحـر الأخضر أو الأقيانس (المحيط الأطلسى) الذى تطل عليـه الأندلس .

فيحدثنا البكرى : عن خشخاش بن سعيد بن اسود الذى خاطر مع جماعة من الشبان ، فركبوا البحر وغابوا فيه مدة ، ثم عادوا بغنائم كثيرة وأخبار مشهورة . وقد ظهر اسم خشخاش ووالده ضمن قادة الأسطول الأندلسى الذى تصدى لغارآت النورمان فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ — ٢٣٨هـ) .

وهـذا يذكرنا بمحاولة اخرى قام بهـا فتيـة من اهـل اشبونة (لشبونة) فى القرن الرابع الهجرى اطلـق عليهم الفتيـة المغرورين او المغررين أو المغربين وكانوا ثمانية ، حيث توغلوا فى المحيط الأطلسى حتى وصلوا إلى جزر اخرى غير (جـزر الآزور) القريبة من سـاحل المغرب) . ويذكر انهم ساروا فيـه احـد عشر يوما ، ثم اتجهوا جنوبا حتى وصلوا فى اليوم الثالث والعشرين إلى جزيرة سموها (بجـزيرة الغنم) تتميز بكثرة اغنامها ، وبوجود رجـال فيها شقر الوجوه شعورهم سبطة(٩١) .

---

(٩٠) الجغرافية والجغرافيون فى الأندلس ص ٩٧ ، مجـلة المختار من عالم الفكر ص ١١٤ — ١١٥ .

(٩١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٦١ — ٨١ ، الحميرى : الروض المعطار ص ١٦ ، ٢٨ ، المختار من عالم الفكر ص ١١٥ .

ثم جاء بعـــد ذلك الشريف الإدريسى اشهر الجغرافيين الأندلسيين بل والمسلمين (٤٩٢ — ٥٦٠هـ) الذى تلقى تعليمه فى قرطبة ولذلك عرف بالقرطبى ، واتصل بالملك روجـــر الثانى ملك صقلية — فعرف بالصقلى ايضـــا — والف بتشجيع منـــه كتابه الشهير (نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والاقطار والبـــلدان والجزر والمدائن والآفاق) والذى يعـــرف بنزهة المشتاق فى اختراق الآفاق وملأه بالخـــرائط اللازمة التى تزيد عن اربعين خريطة ، وبلغ من إعجاب الأوربيين به أن ترجموه إلى اللاتينيـــة فى وقت مبـــكر ، وكان من أوائل القائلين بكروية الأرض ، ورسم مصورات تتفق مع ذلك، وقسم العالم إلى سبعين جزءا رسم لكل جزء مصورا (٩٢).

ويذكر انه عندما طلب منـــه روجر الثانى وضـــع خريطة للأرض ، طلب منه أن يصنع له كرة كبيرة من الفضة ليرسم عليها معالم الأرض ، ولذلك فإنه يعـــد باعتراف علماء الغرب أول من وضع أصول الرسم على سطح كروى مما كان لـــه اثر فى تحـــديد معالم الكرة الأرضية تحـــديدا

---

(٩٢) د. السيد سـالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٣١٨ هامش ١ ، د. سعيد عاشور وآخران : دراسات فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ص ٨٠ ، ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

ذكر ابن خلدون فى مقدمته ما يدل على انه كان عـــلى عـــلم بمحـــاولات البرتغاليين السير فى البحر المحيط بمحـــاذاة سواحل إفريقية فيقول : « وفى بحر الظلمات من جهـــة غربية الجـــزائر الخالدات التى منها بدأ بطليموس باخذ اطوال البلاد ... وهى فى البحر المحيط جـــزر متكثرة أكبرها واشهرها ثلاث ويقال إنها معمورة ، وقد بلغنا ان سفائن الإفرنج مرت بهـــا فى أواسط هذه المـــائة (المـــائة الثالثة) وقاتلوهم ففتحوا منهم وسبوا ، وباعوا بعض أسرارهم بسواحل المغرب الاقصى (المقدمة ص ٤٩) .

واقعيا سليما (٩٣) .

الرحلات : ومما يتصل بالجغرافيا أكبر اتصال الرحلات ، وكما كان فى المشرق رحالة كثيرون فكذلك كان فى الأندلس رحالة كثيرون جابوا الكثير من الأقطار والبلدان ووصفوها وصفا دقيقا .

ومن الملاحظ أن فن كتابة الرحلات كتابة علمية قد بدأ فى الأندلس فرأينا نخبة من الرحالة الأندلسيين الذين وصلتنا كتبهم — وإن كان ذلك بعد العصر الأموى — يصفون لنا الكثير من مشاهداتهم فى البلاد التى زاروها من نواحى شتى جغرافية واقتصادية وسياسية واجتماعية وعمرانية ... الخ ، كابن بطوطة وابن جبير وابن العربى وأبو حامد الغرناطى وغيرهم .

ومن أوائل الرحالة الأندلسيين الذين قدموا لنا وصفا لبلاد الروس التاجر اليهودى الأندلسى ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى ، ويبدو أنه أسلم وتسمى باسم ابراهيم بن أحمد ، ودخل فى خدمة الخليفة الحكم المستنصر ، وكان من تجار الرقيق الأبيض الذى كان يجلب من ألمانيا وشرق أوربا من الصقالبة والروس .

وقد قدم ابراهيم وصفا لرحلته إلى الخليفة المستنصر أودعه مكتبته ، وعنه نقل ابن عذارى المراكشى ، كما نقل عنه البكرى فى كتابه المسالك والممالك معلومات جغرافية تعتبر من أقدم وأدق ما لدينا عن وسط أوربا وشرقها خلال القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) .

فقد زار ابراهيم بن يعقوب بلاد الملك أوتو الأكبر امبراطور الدولة التيوتونية ، ووصف بلاده وما فيها وصفا ممتعا ، كما زار شرق أوربا

---

(٩٣) مجموعة من المؤلفين : دراسات فى الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢٥٠ .

وجاء عنها بأنباء ذات قيمة علمية كبيرة اهتم بهـا علماء الالمـان والروس عنـاية كبيرة . وقد أيد الباحثون المحدثون ما ذكره ابراهيم من انه لقى الامبراطور سنة ٩٧٢م (٣٦٢ — ٣٦٣هـ) .

ومع أن النقول التى أخذت من وصفه قـد حرفت إلا ان المحققـين والدارسين استطاعوا أن يقوموها ويخرجوا منها بمعلومات مفيدة وقيمـة ساعدت كثيرا فى دراسة جغرافية هـذه البـلاد (٩٤) .

* * *

(٩٤) د. سعيد عاشور وآخران : دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٧٨ — ٧٩ ، احمد امين : ضحى الإسـلام ج ٣ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر القديمة

١ — ابن الأبار : الحلة السيراء ، تحقيق د. حسين مؤنس ، سلسلة ذخائر العرب رقم (٥٨) ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٥م .

٢ — ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، المكتبة الإسلامية طهران ١٣٠٢هـ .

٣ — ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، دار صادر بيروت سنة ١٩٧٩م .

٤ — ابن الأحمر (الأمير اسماعيل بن يوسف بن محمد ٨٠٧هـ) : نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان ، دراسة وتحقيق د. محمد رضوان الداية ، المكتبة الاندلسية رقم (١٨) ، الطبعة الأولى ، دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٧م .

٥ — ابن الخطيب (لسان الدين) : أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر إلى ذلك من شجول الكلام ، نشر ليفى بروفنسال الرباط سنة ١٩٣٤ ، بيروت سنة ١٩٥٦م .

٦ — ابن الزبير : صلة الصلة ، تراجم لعلماء الأندلس فى القرن الثالث عشر الميلادى نشر ليفى بروفنسال — الرباط ١٩٣٨م .

٧ — ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، سلسلة تراثنا ، المكتبة الأندلسية (٢) الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦م .

٨ — ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، نشر خوليان ربيرا مدريد سنة ١٩٢٦م ، وتحقيق عبد الله انيس الطباع بيروت ١٩٥٨م .

٩ — ابن بسام الشنتريني : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، طبع

لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٩٤٥م ، وطبع دار الثقافة بيروت سنة ١٩٥٩م .

١٠ ـ ابن بشكوال : كتاب الصلة فى أصحاب القاضى أبى عبد الله الصدفى نشر فرنسيسكو كوديرة مدريد سنة ١٨٨٣م ، وطبع القاهرة سنة ١٩٥٥م .

١١ ـ ابن جلجل : طبقات الأطباء ، تحقيق فؤاد سيد مطبوعات المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩٥٥م .

١٢ ـ ابن حزم الأندلسى : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، القاهرة سنة ١٣١٧هـ .

١٣ ـ ابن حزم الأندلسى : جمهرة انساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، سلسلة ذخائر العرب (٢) الطبعة الرابعة ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٧م .

١٤ ـ ابن حزم الأندلسى : رسائل ابن حزم ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت سنة ١٩٥٩م .

١٥ ـ ابن حزم الأندلسى : طوق الحمامة فى الإلفة والآلاف ، تحقيق د. الطاهر مكى ـ الطبعة الخامسة ـ دار المعارف بمصر ١٩٩٣م .

١٦ ـ ابن حوقل النصيبى : صورة الأرض ، طبعة ليدن سنة ١٩٣٨م . وطبعة دار الحياة بيروت د.ت .

١٧ ـ ابن حيان : المقتبس فى أخبار بلد الأندلس ، قطعة من تحقيق ملشور انطونية ، باريس سنة ١٩٣٧م ، وقطعة من تحقيق د. عبد الرحمن الحجى بيروت سنة ١٩٦٥ ، وقطعة من تحقيق د. محمود مكى ، طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (٢١) القاهرة ١٩٧١م ونشر دار الكتاب العربى بيروت ١٩٧٣م .

١٨ - ابن خاقان (الفتح) : مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الأندلس قسطنطينة ، الجزائر ، ١٣٠٢هـ ، ط القاهرة سنة ١٩٥٤م

١٩ - ابن خلدون : المقدمة ، المطبعة البهية بمصر د.ت ، الأميرية ١٣٢٠هـ

★ - ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر طبعة بولاق ١٢٨٤هـ .

٢٠ - ابن دحية الكلبى : المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق ابراهيم الإبيارى وآخران ، الأميرية سنة ١٩٥٤م ، وتحقيق د. مصطفى عبد الكريم ، الخرطوم ١٩٥٤م .

٢١ - ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق د. شوقى ضيف طبا دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٤م .

٢٢ - ابن عبدون : كتاب آداب الحسبة ، نشر ليفى بروفنسال ، باريس سنة ١٩٤٧م .

٢٣ - ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، دوزى ودى غويه ليدن سنة ١٨٦٦م .

٢٤ - ابن غالب الأندلسى : كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس ، نشر د. لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة سنة ١٩٥٩م .

٢٥ - أبو عبيدة الخزرجى : بين الإسلام والمسيحية - تحقيق د. محمد شامة مكتبة وهبة القاهرة سنة ١٩٧٩م .

٢٦ - الإدريسى (الشريف) : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق نشر دوزى ، ودى غويه ليدن سنة ١٨٦٦م .

٢٧ - البكرى (أبو عبيد الله بن عبد العزيز) : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب نشر دى سلان ، الجزائر سنة ١٩٤٩م .

٢٨ — البغدادى (عبد القاهر) : الفرق بين الفرق ، ط ٢ بيروت ١٩٧٩م .

٢٩ — الحميدى : جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس ، سلسلة تراثنا المكتبة الأندلسية (٣) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة سنة ١٩٦٦م .

٣٠ — الحميدى : الروض المعطار فى خبر الأقطار ، ط لجنة التأليف والترجمة القاهرة سنة ١٩٣٧م ، وتحقيق د. إحسان عباس بيروت سنة ١٩٧٥م .

٣١ — الخشنى : قضاة قرطبة — سلسلة تراثنا — المكتبة الأندلسية (١) الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة سنة ١٩٦٦م .

٣٢ — الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين — تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم القاهرة سنة ١٩٥٤م .

٣٣ — الشهرستانى : الملل والنحل ، تحقيق د. محمد بدران القاهرة سنة ١٩٥١م .

٣٤ — الضبى : بغية الملتمس فى تاريخ رجال اهل الأندلس ، سلسلة تراثنا المكتبة الأندلسية (٦) — دار الكاتب العربى القاهرة ١٩٦٧م

٣٥ — الطرطوشى : الحوادث والبدع — تحقيق محمد الطالبى — تونس سنة ١٩٥٩م .

٣٦ — المراكشى (عبد الواحد بن على التميمى) : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٤هـ ، ونشر محمد سعيد العريان ومحمد العلمى القاهرة سنة ١٩٤٩م .

٣٧ — المقدسى البشارى : احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم . ط ٢ مطبعة بريل ، ليدن سنة ١٩٠٦م — مكتبة المثنى ببغداد .

٣٨ ـ المقرى : نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، المطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٣٠٢هـ .

٣٩ ـ النباهى (ابو الحسن بن عبد الله) : تاريخ قضاة الأندلس المسمى (المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا) ، نشر ليفى بروفنسال ، دار الكاتب العربى القاهرة سنة ١٩٤٨م .

٤٠ ـ مؤلف مجهول : اخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها ، مجريط سنة ١٨٦٧م ، مكتبة المثنى ببغداد .

٤١ ـ ياقوت الحموى : معجم الادباء طبعة د. أحمد رفاعى مطبوعات دار المأمون للطباعة القاهرة د.ت .

٤٢ ـ ياقوت الحموى : معجم البلدان بيروت سنة ١٩٦٠م .

ثانيـــا : المراجـــع

١ ــ د. ابراهيم احمد العدوى : الأمويون والبيزنطيون ، ط ٢ الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة د.ت .

٢ ــ د. ابراهيم بيضون : الدولة العربية فى اسبانيا ، ط ٢ دار النهضة العربية بيروت سنة ١٩٨٠م .

٣ ــ د. ابراهيم على طرخان : دولة القوط الغربيين ، القاهرة ١٩٥٨م .

٤ ــ أبو صالح الألفى : الفن الإسلامى (أصوله ــ فلسفته ــ مذاهبه) دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩م .

٥ ــ د. إحسان النص : العصبية القبلية واثرها فى الشعر الأموى ، منشورات دار اليقظة بيروت د.ت .

٦ ــ د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى (عصر سيادة قرطبة) ط ١ دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٠م .

٧ ــ أحمد أمين : ظهر الإسلام ، جـ ٣ ط ٤ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦م

٨ ــ احمد أمين : فجر الإسلام ، ط ١٢ مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٨م .

٩ ــ د. احمد الشعرآوى : الأمويون أمراء الأندلس الأول . دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٩م .

١٠ ــ د. احمد الشعراوى : دراسات فى تاريخ اسبانيا فى العصـــور الوسطى ، ط دار النهضة العربية القاهرة سنة ١٩٧٣م .

١١ ــ د. احمد العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ، سلسلة المكتبـــة التاريخية (١) القاهرة ســـنة ١٩٥٨م .

١٢ ــ د. احمد العبادى وآخر : تاريخ البحرية الإسلامية فى المغـــرب والأندلس ، بيروت سنة ١٩٦٩م .

★ — د. احمد العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس مؤسسة الثقافة الجامعية الاسكندرية سنة ١٩٦٨م .

١٣ — د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، جـ ٣ ط ٤ سنة ١٩٧٠ ، جـ ٤ ط ٦ سنة ١٩٨٢م مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة .

١٤ — د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة ، ط ٣ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٧م .

١٥ — آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة د. محمد عبد الهادى ابو ريدة . ط ٣ مطبعة لجنة التاليف ١٩٥٧م .

١٦ — البير حبيب : الحركة اللغوية فى الأندلس من الفتح العربى حتى نهاية عصر ملوك الطوائف ، المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٧م .

١٧ — د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة ، دار المعارف لبنان سنة ١٩٦٢م .

١٨ — د. السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ، جـ ١ نشر مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر بالإسكندرية سنة ١٩٨٤م .

١٩ — د. الطاهر احمد مكى : دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة ، ط ٢ دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٣م .

٢٠ — د. الطاهر أحمد مكى : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، ط ٢ مكتبة وهبة القاهرة سنة ١٩٧٧م .

٢١ - الفرد جيوم وآخرون : تراث الإسلام ، ج ١ لجنة النشر للجامعيين ، مكتبة الآداب ومطبعتها ، القاهرة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

٢٢ - بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ترجمة حمزة طاهر ، الطبعة الخامسة دار المعارف بمصر د.ت .

٢٣ - بنيامين فارنجتون : مدينة الإغريق والرومان ، ترجمة أمين تكلا ، القاهرة سنة ١٩٤٨م .

٢٤ - توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة د. حسن ابراهيم وآخرين مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٠م .

٢٥ - جلال مظهر : مآثر العرب على الحضارة الأوربية ، ط ١ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠م .

٢٦ - جنثالث بالنسيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة د. حسين مؤنس، القاهرة سنة ١٩٥٥م .

٢٧ - د. جوده هلال وآخر : قرطبة في التاريخ الإسلامي ، المكتبة الثقافية (٧٢) ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة نوفمبر سنة ١٩٦٢م .

٢٨ - د. حامد زيان غانم : تاريخ الحضارة الإسلامية في صقلية وأثرها على أوربا ، دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٧٧م .

٢٩ - د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ج ١ ط ٩ سنة ١٩٧٩م ، ج ٢ ط ١٠ سنة ١٩٨٣م ، ج ٣ ط ١١ سنة ١٩٦٣م مكتبة النهضة المصرية القاهرة .

٣٠ - د. حسن علي حسن : الحياة الدينية في المغرب (القرن الثالث الهجري) ، دار النمر للطباعة القاهرة سنة ١٩٨٥م .

٣١ — د. حسين مؤنس : شيوخ العصر فى الاندلس — المكتبة الثقافية (١٤٦) ، الدار المصرية للتاليف والترجمة القاهرة سنة ١٩٦٥م .

٣٢ — د. حسين مؤنس : فجر الاندلس . القاهرة سنة ١٩٥٩م .

٣٣ — د. حسين مؤنس : معــالم تاريخ المغــرب والاندلس ط ١ ، دار مطابع المستقبل القاهرة سنة ١٩٧٣م .

٣٤ — د. خالد الصوفى : تاريخ العرب فى أسبانيا (عصر المنصــور الاندلسى) دار الكاتب العربى د.ت .

٣٥ — خوليان ربيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ، أصولها المشرقية وتأثيراتها المغربية ، ترجمة د. الطاهر مكى ، دار المعارف بمصر ســنة ١٩٨٤م .

٣٦ — ديلاس أولبرى : الفكر العربى ومكانته فى التاريخ . ترجمة د. تمام حسان المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة القاهرة ١٩٦١م .

٣٧ — رينهارت دوزى : تاريخ مسلمى اسبانيا ج ١ (الحروب الأهلية) ، ترجمة د. حسن حبشى دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٣م .

٣٨ — د. سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا فى العصور الوسطى ج ١ ، الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٨م .

٣٩ — د. سعيد عبد الفتاح عاشور : بحوث فى تاريخ الإسلام وحضارته، نشر عالم الكتب القاهرة سنة ١٩٨٧م .

٤٠ — د. سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة الإسلام ، ط ٢ مطبوعات معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة سنة ١٩٨٨م .

٤١ — د. سعيد عبد الفتاح وآخران : دراســات فى تاريخ الحضــارة

الإسلامية العربية ، ط ٢ دار السلاسل الكويت سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

٤٢ ـ سيد عبد الله حسين : الأجوبة الخفيفة فى مذهب الإمام ابى حنيفة ط ١ نشر المكتبة المحمودية التجارية بمصر د.ت .

٤٣ ـ شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب فى أوربا وجزر البحر المتوسط ، مطبعة الحلبى القاهرة سنة ١٩٣٣م .

٤٤ ـ صلاح الدين رسلان : الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ، نشر مكتبة نهضة الشرق ـ جامعة القاهرة سنة ١٩٨٥م .

٤٥ ـ صموبل ستيرن : الموشح الأندلسى ، ترجمة د. عبد الحميد شيحة ، ط ١ مكتبة الآداب بالقاهرة ١٤١١هـ/١٩٩٠م .

٤٦ ـ د. طه الحاجرى : ابن حزم صور أندلسية ، دار الفكر العربى ، مطبعة الاعتماد بالقاهرة د.ت .

٤٧ ـ طاهر أحمد الزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ـ طرابلس .

٤٨ ـ طاهر أحمد الزاوى : ترتيب القاموس المحيط . دار الفكر بيروت د.ت

٤٩ ـ عادل سعيد بشتاوى : الأندلسيون المواركة ، ط ١ مطابع انترناسيونال برس القاهرة سنة ١٩٨٣م .

٥٠ ـ د. عبد الرحمن على الحجى : التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة ، ط ١ مصورة ، دار الاعتصام بالقاهرة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

٥١ ـ د. عبد الشافى عبد اللطيف : العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ط ١ دار الوفاء للطباعة القاهرة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

٥٢ ـ د. عبد العزيز الأهوانى : الزجل فى الأندلس ، القاهرة سنة ١٩٥٧م .

٥٣ــ د. عبد العزيز عتيق : الأدب العربى فى الأندلس ، النهضة العربية بيروت سنة ١٩٧٦م .

٥٤ ــ د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ، ج ٢ . الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٩م .

٥٥ ــ د. عبد الواحد ذنون طه : نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس ، ط ١ سلسلة الموسوعة التاريخية الميسرة ــ دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد سنة ١٩٨٨م .

٥٦ ــ د. على حسنى الخربوطلى : العرب والحضارة ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة سنة ١٩٦٦م .

٥٧ ــ فرناندو دى لاجرانخا : مقامات ورسائل اندلسية (نصوص ودراسات) ، ترجمة د. عبد الحليم عبد اللطيف ، ط ٢ دار الثقافة العربية بالقاهرة د.ت .

٥٨ ــ د. فوزى عيسى : الهجاء فى الأدب الأندلسى ، دار المعارف بمصر د.ت .

٥٩ ــ فون شاك : الفن العربى فى اسبانيا وصقلية ، ترجمة د. الطاهر مكى دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٥م .

٦٠ ــ د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ، سلسلة المكتبة التاريخية (٢) ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة سنة ١٩٦٩م .

٦١ ــ لويس ارشيبالد : القوى العربية والتجارية فى حوض البحر المتوسط . ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة ١٩٥٩م .

٦٢ ــ لويس معلوف : المنجد فى اللغة والإعلام . دار المشرق بيروت ١٩٨٦م .

٦٣ ــ ليفى بروفنسال : ادب الأندلس وتاريخها ، ترجمة د. محمد عبد الهادى شعيرة ، الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٥١م .

٦٤ — ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة د. السيد سالم ، د. لطفى عبد البديع ، محمد حلمى القاهرة ١٩٥٨م .

٦٥ — ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى أسبانيا ، ترجمة د. الطاهر مكى ط ١ دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٧م .

٦٦ — لين بول وآخرون : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، ترجمة د. احمد السعيد سليمان ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢م .

٦٧ — لين بول : قصة العرب فى أسبانيا ، ترجمة على الجارم ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٩م .

٦٨ — مجموعة مؤلفين : دراسات فى الحضارة الإسلامية ، ثلاثة مجلدات صدرت بمناسبة القرن الخامس عشر الهجرى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٥م .

٦٩ — د. محمد بحر عبد المجيد : اليهود فى الأندلس ، المكتبة الثقافية (٢٣٧) الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٠م .

٧٠ — محمد دباب : تاريخ العرب فى أسبانيا ، جـ ١ القاهرة ١٩١٤م .

٧١ — د. محمد زكريا عنانى : الموشحات الأندلسية ، سلسلة عالم المعرفة (٣١) الكويت يوليو سنة ١٩٨٠م .

٧٢ — محمد عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب ، مؤسسة المطبوعات الحديثة القاهرة د.ت .

٧٣ — محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس من الفتح إلى نهاية مملكة غرناطة ، العصر الأول (القسم الأول) ط ١ مطبعة لجنة التأليف القاهرة ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م ، العصر الأول (القسم الثانى — عصر الفتنة) ط ١ مطبعة مصر ١٣٧١هـ/١٩٥٢م .

٧٤ ــ محمد على الصابونى : روائع البيان فى تفسير آيات الأحكام ، ط ٢ منشورات مكتبة الغزالى بدمشق ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

٧٥ ــ د. محمد كامل حسين : نظرية المثل والمثول ، دار الفكر العربى القاهرة سنة ١٩٤٨م .

٧٦ ــ د. محمد محمد شتا زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس جـ ١ ، الطبعة الأولى دار الوفاء للطباعة بالقاهرة سنة ١٩٨٣م .

٧٧ ــ د. محمد محمد عبد القادر الخطيب : دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية ، ط ١ مطبعة الحسين الإسلامية ، القاهرة ١٩٩٠م .

٧٨ ــ د. محمود على حماية : ابن حزم ومنهجه فى دراسة الأديان ، ط ١ دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٣م .

٧٩ ــ د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى (موضوعاته وفنونه) ط ٤ دار العلم للملايين بيروت سنة ١٩٧٩م .

٨٠ ــ مصطفى الشهابى : الجغرافيون العرب ، سلسلة إقرا (٢٣٠) فبراير سنة ١٩٦٢م دار المعارف بمصر .

٨١ ــ د. منى [illegible] : المسلمون فى الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة (٩٢هـ ــ ٢٠٦هـ) ، دار الفكر العربى القاهرة سنة ١٩٨٦م .

٨٢ ــ أ.د. نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب اواخر العصور الوسطى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٣م .

... ثالثـــا : الدوريات

١ ـــ دائرة معارف الشعب : كتاب الشعب (٦١) ، (٦٤) مطـــابع الشعب القاهرة سنة ١٩٥٩م .

٢ ـــ مجلة البحوث الإسلامية عدد ١٧ . السعودية سنة ١٩٨٤م .

٣ ـــ مجلة المجلة ، عدد ٢ فبراير سنة ١٩٥٧م القاهرة .

٤ ـــ مجلة المختار من عالم الفكر ـــ (١) دراسات إسلامية ، الكويت ســـنة ١٩٨٤م .

٥ ـــ مجلة عالم الفكر ، مجلد (١٠) عدد (٢) سبتمبر ســـنة ١٩٧٩م الكويت .

٦ ـــ مجلة عالم الفكر ، مجـــلد (١٢) عدد (١) (حضارة الأندلس) ســـنة ١٩٨١م الكويت .

٧ ـــ مجلة عالم الفكر ، مجلد (١٥) عدد (٣) (كتابات فى الحضـارة) ســـنة ١٩٨٤م الكويت .

٨ ـــ مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الثانى ١٩٥٤م .

٩ ـــ مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الخامس ١٩٥٧م .

١٠ ـــ مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، سنة ١٩٥٦م .

الفهـــــــــرس

الموضـــوع	الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية
رقم ١٩٩٤/٢٥٤٧/١٩٩٤
تحريرا فى ١٩٩٤/١/٢٥

مطبعة الحسين الإسلامية
٢٥ حارة المدرسة ـ خلف الجامع الأزهـر
تليفون ٥١٠٦٧٢٤